

قيامه الروح

رواية

تأثر الناشف

قيامه الروح
المؤلف : نادر النافف

لوحه الغلاف للفنان : ديلاور عمر
تصميم الغلاف : أحمد بلال

الطبعة الأولى : يناير 2019
رقم الإيداع : 2019/2710
الترقيم الدولي : 2-250-769-977-978

جميع حقوق الطبع محفوظة
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع

awraaq@live.com

القاهرة - 4 شارع محمد مظلوم -

من صبري أبوعلم - عمارة

أنور وجدي - الدور الثاني - مكتب 25

م : 01010490247

ت : 0223963002 (+2)

الإهداء

إلى دموع أُمي
إلى فرات ورفيف
أُملي ومعقد رجائي في الدنيا

«لا وطن من دون حرية ولا حرية من دون وطن»

ثائر زكريا سلمو الناشف

الجزء الأول

(1)

صبيحة يوم السبت الموافق للثاني عشر من شهر فبراير عام ألفين وأحد عشر للميلاد؛ سطعت شمس الربيع في سماء القاهرة، وتسلفت خيوطها الدافئة بين أزقتها وحواريها المكتظة بالازدحام اليومي.

كانت صفحة السماء طوال ذلك اليوم المبهج شديدة الصفاء والنقاء، فبدت كزرقة النيل؛ شريان الحياة الرئيس لملايين البشر الذين تغص بهم الأحياء والشوارع والأزقة.

في ذلك اليوم الباسم، لم تكن القاهرة مبتهجة وحدها، بل قاسمتها الجيزة التي احتضنت صحاريها المندوحة، بريق الشمس المنعكس على رمالها الكثيرة هذا الابتهاج أيضاً.

خرقت خيوط الشمس الساطعة نوافذ البيوت المتجهة شرقاً، وتسلفت من بين شقوق ستائرهما المتهدلة، وانسابت أهدابها الذهبية فوق عينيْن مغمضتين؛ أمضتا ليلة سامرة من ليالي الإنس والابتهاج.

دغدغت خيوط الشمس أسارير وجه مستطيل، وزحفت أهدابها، رويداً رويداً إلى أن أدركت العينين الغافيتين اللتين لم تصمداً طويلاً أمام إصرار الشمس وإلحاحها.

فغر باسل عينيه الواسعتين الممتلئتين بالنعاس والتعب، بعد أن غرقنا في سبات عميق، ثم شرع في فركهما بأنامله النحيلة.

تثاءب باسل تثاؤباً طويلاً، طارداً الكرى من ثنايا روحه المتوثبة للحرية، والحالة بالخلاص من ربة الاستبداد والطغيان.

شدَّ بأسل عضلاته، وفرد أضلاعه؛ وجذب نفسًا عميقًا امتلأت به رثاه المنقبضتان، ثم زفر بارتياح عميق.

رفع بأسل جذعه الممدد على سطح الفراش الوثير، وأسند ظهره إلى مسند السرير، ثم اعتدل في جلوسه، وشرع يُحدِّقُ بعينيه الجاحظتين في ساعة الحائط.

ناجى بأسل روحه، ثم قال بلهجة مليئة بالدهشة والذهول:

- أوه، إنها الثانية عشرة ظهرًا، لقد استغرقتُ وقتًا طويلًا في النوم، يا له من يوم

مجهد.

استل بأسل لفافة تبغ من علبة السجائر الراقدة فوق سطح المنضدة الخشبية الملاصقة للسرير، ثم أولج اللفافة بين شفتيه الرقيقتين، وأوقد رأسها الجاف بلهيب النار المتقدمة من عود الثقاب، ثم جذب نفسًا عميقًا، وغرق شاردًا بأفكاره لبرهة قصيرة.

كان بأسل واحدًا من آلاف الشبان السوريين الذين أمضوا قسطًا كبيرًا من حياتهم خارج البلاد.

أمضى بأسل -حتى تاريخ ذلك اليوم- أكثر من ست سنوات في القاهرة من مجموع سني عمره البالغة ثمانية وعشرين عامًا.

فرَّ بأسل من سوريا في مطلع عام ألفين وستة للميلاد، بعد أن أنهى دراسته للغة العربية في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة دمشق.

لم يكن بمقدوره البقاء والاستمرار في مسقط رأسه بمدينة حمص؛ الكائنة وسط سوريا، ولا حتى في دمشق؛ التي أمضى فيها سنوات شبابه الأولى، بعد أن تفتحت أعين الأمن عليه، واشتبهت في نشاطاته السياسية؛ التي اقتصرَت على النشر الإلكتروني في العديد من المواقع والمنتديات الفكرية.

اضطر بأسل للهروب من سوريا في ليلة ظلماء لا قمر فيها، ولم يكن بوسعه اختيار البلد التي يمكنه اللجوء إليها؛ لأوضاعه الصعبة، وظروفه المعقدة التي دفعته إلى الاستسلام لقدره المحتوم؛ الذي ساقه سَوْقًا إلى مصر، لتكن بلد المنفى،

لِسِنِي صباه الأولى.

استفاق باسل من شروده العميق، ودس اللفافة في مِطْفَأَ السجائر، ثم نهض مغادرًا السرير، واتجه بخطوات ثابتة نحو المغسلة الكائنة في آخر الردهة الضيقة الملاصقة لغرفة النوم.

عاش باسل ما بين أحياء القاهرة والجيزة متنقلًا من شقة إلى أخرى؛ لصعوبة أحواله المادية التي لم تحوله الاستقرار في حَيٍّ بعينه، بل لجأ في العديد من الأحيان للعيش في الأحياء العشوائية المترامية في أطراف القاهرة.

انتصب باسل أمام المغسلة بقامته المشوكة، وقده الرشيق، وفتح صنبور الماء البارد بيده اليمنى، فأخذ الماء يتدفق من ثغر الصنبور.

أولج باسل أنامله الرقيقة بين قطرات الماء الغزيرة، وقبل أن يغرف منها براحتيه المبسوطتين رفع رأسه المستطيل، وحق بعينه المفعمتين بالأمل في أساريه المنبسطة، ووجهه المتهلل؛ للذين انعكسا على صفحة المرأة.

كان باسل دقيق الأنف والذقن، أبيض البشرة، صغير الوجنتين، ضيق الشدقين، أملط اللحية والشاربين؛ رغم كثافة شعر رأسه، وانسياب خصلاته السوداء كانسياب خيوط الحرير، كما كان واسع العينين، بلونيهما البني والأخضر المتعاكسين؛ فإذا واجهتا خيوط الشمس انقلبتا إلى اللون الأخضر الفاتح، وإذا رقدتا في الظل حافظتا على لونهما البني الفاتح.

كان رشيق القوام، قليل الطعام، كثير الشرب والتدخين، فلم يكد يمضي يوم في حياته المريرة دون أن يرشف قليلًا من مشروب الجعة؛ الذي اعتاد على شربه منذ سنوات دراسته الجامعية في دمشق.

غسل باسل وجهه بالماء البارد، وأزال بقطراته المنعشة الإفرازات الرابضة حول عينيه المغفورتين.

أقفل باسل عائداً إلى غرفة الجلوس، وارتمى على الأريكة المواجهة لشاشة التلفاز، ثم استقبل بوجهه جهاز الحاسوب الشخصي الذي أدمن استخدامه خلال

اليوم الواحد لساعات طوال، وشرع في الاستماع إلى نشرات الأخبار التي كانت زاده اليومي.

أصاخ باسل السمع للتلفاز، وانساق عيناها في الوقت ذاته إلى شاشة الحاسوب؛ التي عجت صفحاتها بالأخبار العاجلة الواردة من قلب القاهرة، والتي شكل انتصار ثورتها الشعبية في ميدان التحرير حافزاً قوياً لاستكمال الربيع العربي الذي أشرفت شمسها الدافئة في القاهرة، وبدأت إرهاباته الأولى في ذلك اليوم في ليبيا؛ التي استعد أبناءها لإطلاق ثورتهم العارمة ضد نظام معمر القذافي الذي حكم شعبه - كغيره من الطغاة - بقبضة حديدية؛ لا تعرف الرأفة أو الشفقة طوال أكثر من أربعين عاماً، وبصورة أشد قتامة وسوداً من بقية الطغاة.

حكّ باسل رأسه بأنامله النحيلة، ثم نهض تاركاً الحجرة، وسار بخطوات متمهلة نحو المطبخ.

كان المطبخ عبارة عن حجرة صغيرة، امتلأت جوانبها بالأواني المنزلية البسيطة؛ التي دأب باسل على استخدامها في طهي مأكولاته ووجباته السريعة. استل ركوة القهوة الراقدة على سطح الرف الخشبي، ثم ملأها ببضع قطرات من الماء الساخن المنهمر من صنبور المياه المخزنة.

أوقد إحدى عيون موقد النار الغازي، ثم قام بوضع الركوة على العين الموقدة، واتجه بعد ذلك بعينيه الواسعتين نحو علبة القهوة المطحونة.

تناول العلبة المكونة فوق سطح الطاولة الخشبية المجاورة للموقد، والتقط بإصبعيه الدقيقين المعلقة الصغيرة المغروسة في جوف العلبة، ثم عَرَفَ بواسطتها غرفتين اثنتين من البن البرازيلي المطحون ذي الرائحة الفواحة.

أذاب البن المطحون في الماء الساخن الموضوع في الركوة، وشرع في تحريكه بتؤدة إلى أن بدأت القهوة بالغليان، أنأى الركوة عن الموقد، وسكب القهوة المغلية في فنجان رخامي أنيق.

حمل باسل فنجانه الممتلئ، وأقفل عائداً بخطوات متتدة إلى أريكته، جلس

محاطاً بهمومه الغزيرة وهو اجسه الكثيفة، التي استبدت بوجدانه المضطرب قَلْبًا مما يحيط ببلده الغارق في دياجير الاستبداد.

رشف بشفتيه الرقيقتين رشفة خفيفة من الفنجان، واستلذت روحه السامية مذاق القهوة الشهية؛ التي أنعشت ذاكرته، وأيقظت ذهنه المشوش.

أدار بصره الثاقب نحو شاشة حاسوبه، وأنشأ في قراءة الأخبار الواردة من وكالات الأنباء العالمية؛ حيث ضجت عناوينها الرئيسة بأخبار ثورة الخامس والعشرين من يناير؛ التي أحييت الأمل في قلوب الليبيين، وزرعت بذوره في وجدان السوريين بعد سبات طويل امتد لأكثر من خمسين عامًا؛ منذ أن عرفت البلدان العربية في منتصف خمسينيات القرن العشرين أول حركة انقلاب عسكري ضد أنظمتها الدستورية.

وفي غمرة انشغاله بمتابعة الأخبار، تلقى حاسوبه اتصالاً هاتفياً، دوى رنينه في أرجاء الحجرة كلها.

استقبل باسل المكاملة الواردة إلى حاسوبه من دمشق عبر برنامج سكايب؛ الذي دأب الناشطون السوريون على استخدامه منذ أن عمد نظام الأسد إلى مراقبة معظم شبكات الاتصال.

هتف باسل قائلاً:

- صباح الخير أخي حميد.

جلجل صوت الشاب حميد عبر سماعة الجهاز في كل أطراف الحجرة:

- عمت صباحاً، كيف أمضيت ليلتك البارحة في القاهرة؟

كان حميد شاب سوري في الرابعة والعشرين من عمره، أقام في مدينة دمشق طوال سنوات حياته الشقية.

درس الفنون التشكيلية في جامعته العريقة، وتعرف على باسل في مطلع عام ألفين وعشرة للميلاد، منذ أن تولّد لديه الحماس الكبير، وتفتقت عنده الرغبة الجارحة في متابعة الشأن العام.

انخرط حميد في منتصف عام ألفين وعشرة للميلاد في نشاط سياسي محموم، منذ أن شرع في قراءة المقالات النقدية عبر أثر الفضاء الإلكتروني، وزادت معرفته السياسية بصورة أوسع عندما هبَّ إلى قراءة المقالات الفكرية، التي دأب باسل على تدبيجها بلغة عربية أنيقة، وعمد إلى نشرها في المواقع الإلكترونية، وبعض الصحف الورقية.

جذب باسل نفساً عميقاً من لفافته، وقال بانشرأح:
- آه، لقد كانت ليلة رائعة بأفراحها، ليلة لم أرَ مثلها قط.
رد حميد بسرور:

- مبارك الحرية لمصر، والتي نتمناها أيضاً لبلدنا سوريا.
ضحك باسل ملء شذقيه، وأردف متسائلاً:

- أي حرية يا رجل؟

سأل حميد مستنكراً:

- أليس ما جرى في مصر ثورة؟

- بلى.

- إذن أين المشكلة؟

- المشكلة لدينا في سوريا.

- لماذا؟

تأفف باسل متذمراً، وقال بيأس مفرط:

- لا أعتقد أننا في سوريا قادرين على صنع الثورة.

ابتلع حميد ريقه، وقال بارتباك:

- إذا كانت الجدران لديك لا تسمع، فالجدران عندي تسمع كل شيء.

رشف باسل رشفة عميقة من فنجان قهوته، وقال برجاحة:

- خوفك هذا هو أحد الأسباب التي تحول دون وصولنا إلى الثورة التي وصل

إليها المصريون والتونسيون بكل اقتدار، رغم أنك ناشط مثابر، فما بالنا ببقية شرائح

الشعب الغارقة في الخوف، والفساد، والجهل.

رد عليه حميد قائلاً:

- هذا صحيح، ولكن علينا ألا نفقد الأمل.

هزّ باسل رأسه وقال بمرارة:

- لقد فقدناه في يوم الغضب.

أردف حميد مرة أخرى:

- لا تيأس، الأمل لازال باقياً.

مطّ باسل شفّته، وقال بفتور:

- حسناً.

هتف حميد بتؤدة:

- قد أعود إليك لاحقاً، مساء هذا اليوم.

رد باسل مؤكداً:

- سأبقى في انتظارك.

ودّع حميد قائلاً:

- طاب يومك.

رد باسل الوداع لصديقه:

- إلى اللقاء.

أخفق الناشطون السوريون بإطلاق أولى مظاهراتهم العارمة ضد نظام الأسد يوم الجمعة الموافق للرابع من فبراير؛ والذي اتفقوا على تسميته بجمعة الغضب تيمناً بيوم الغضب الذي شهدته الثورة المصرية، يوم الجمعة الموافق للثامن والعشرين من يناير.

حبس باسل أنفاسه طوال ذلك اليوم العصيب، وترقب بأمل حثيث انطلاق الثورة السورية ضد نظام بشار الأسد، وعندما تجرع مرارة الفشل؛ غدت الثورة

على النظام ضرباً من الخيال والجنون.

اتشح باسل بوشاح اليأس والقنوط، بُعِدَ يوم الخامس من فبراير؛ والذي كان له الدور الأكبر في تنظيمه والدعوة إليه عبر حملاته الإعلامية المكثفة.

ازداد يأسُهُ واضطرابه بالتوازي مع انطلاق الثورة اليمنية ضد نظام علي عبد الله صالح في ذات الشهر العاصف الذي بدأت فيه البلدان العربية تصحو من غيبوبتها الطويلة؛ باستثناء سوريا المسورة بجدران الخوف الصفيقة.

أدرك باسل بحدسه العميق، وإحساسه المرهف أن وحشية النظام لن تواجه المظاهرات السلمية، والحركات الاحتجاجية بالورود والزنابق والرياحين، بل ستواجهها بالرصاص والقنابل.

أيقن باسل إيقاناً عميقاً لا يدانيه شكٌ أن نظام زين العابدين بن علي في تونس، وحسني مبارك في مصر، وعلي صالح في اليمن أقل وحشية من نظام الأسد الذي لا يوازيه في الجنون، والوحشية، وهستيريا السلطة سوى نظام القذافي، لكن الفارق الوحيد بين النظامين أن نظام القذافي اتخذ لنفسه واجهة قبلية؛ أسس عليها نظامه باسم: «الجمهورية الديمقراطية الشعبية الاشتراكية العظمى»، في حين اتخذ نظام الأسد واجهة طائفية مقيتة؛ أسس عليها نظامه البعثي الاشتراكي.

وبعد مرور بضعة أيام، استيقظ باسل، صبيحة يوم الخميس الموافق للسابع عشر من فبراير على وقع انطلاق الثورة في ليبيا ضد نظام القذافي.

اشتملت الدهشة والذهول الشاب النائر؛ لهول الحدث العظيم الذي برق في كيانه المهلهل كالصاعقة التي أيقظته من غفوته العميقة، وأخرجته من يأسهِ المديد، وجعلته يستعيد الأمل في النظر والتفكير مرة أخرى بالثورة ضد نظام الأسد.

ظل باسل متشبهاً بخيوط الأمل رغم استخدام القذافي -ومنذ الدقيقة الأولى- لأعنى صنوف القوة الغاشمة ضد الثوار الليبيين الذين خرجوا في مظاهرات سلمية عارمة، جابت أرجاء ليبيا، وبدت كالمعجزة التاريخية.

زاد إصرار الثوار الليبيين على مواصلة مشوارهم الملحمي الذي بدءوه
وسطّروه بدمائهم القانية من جرعة الأمل لدى باسل؛ والذي استبشر بخلاص
الشعب السوري من ربقة الظلم والاستبداد.

عاش باسل في يقظته حلمًا جميلًا، وتمنى في وجدانه أن يأتي اليوم القريب الذي
يردد فيه الناشطون السوريون في ميدان الأمويين وسط دمشق ذات الشعارات
الثورية التي أنشدها مع رفاقه المصريين في ميدان التحرير؛ والتي كان أقواها،
الشعار الشهير الذي جلبل صدهاء في ميدان التحرير:

«الشعب يريد إسقاط النظام»..

«ثوار أحرار هنكمل المشوار»..

(2)

صبيحة يوم الخميس الموافق للسابع عشر من فبراير؛ نسجت الشمس خيوطها الذهبية على مدينة دمشق، وانعكس بريقها الساطع على قمة جبل قاسيون، وانسابت نسائم الربيع الدافئ في الحواري والأزقة الشامية العتيقة؛ والتي حملت في زوايا جدرانها أقاصيص الماضي المغرق في القدم.

في تمام الساعة العاشرة صباحاً، يمم الشاب حميد وجهه نحو منطقة باب توما، وانطلق من بيته الكائن في منطقة كفر سوسة وسط دمشق متجهاً إلى مقصده في قلب دمشق القديمة.

تسمر حميد بقامته المشوكة أمام ميدان كفر سوسة، واستقبل بوجهه البشوش مقر جريدة الثورة الذي بدا شاهقاً كالصروح الرومانية.

مضت دقيقة واحدة استقل خلالها حميد حافلة النقل، وجلس في مقعدها الخلفي. انطلقت الحافلة إلى وجهتها التالية، فيما أجال حميد بصره الثاقب من شقوق النافذة الزجاجية.

خرق بصره الشاخص هياكل الحافلات المحتشدة في منتصف الطريق، واستقر بإصرار وإلحاح على مبنى المخبرات العامة؛ الذي نشر الرعب والهلع في قلوب السوريين لوقت طويل من الزمن.

أثناء سير الحافلة الصغيرة التي اتسع متنها خمسة عشر راكباً؛ وقع شجار عقيم بين سائقها وسائق حافلة أخرى على خلفية أحقيتهما في نقل الركاب، والتقاط الزبائن من فم الشارع.

تطور الشجار بين السائقين إلى التراشق بالكلمات البذيئة والسوقية، والتعارك

بالأيدي التي امتدت من نوافذ الحافلة.
صرخ سائق الحافلة التي أقلت حميد بأعلى صوته:
- اذهب من هنا أيها الحقير .. يا حيوان.
رد السائق الآخر، بصوت جهور:
- أنا حيوان؟! يابن العاهرة.
ترجل السائق الأول من الحافلة بحركة رشيقة، ومدّ ذراعه الطويلة، ولكم
بقبضته القوية وجه السائق الثاني، ونهره قائلاً:
- يابن الكلب، لعن الله شرفك، إن كان لديك حقاً ذرة من الشرف.
رد السائق الثاني حانقاً:
- أنت لست ابن عاهرة وحسب؛ لأن العاهرة أشرف من أمك بائعة الهوى.
هتف الركاب بملء حناجرهم:
- استهدوا بالرحمن يا أولاد الحلال.
- صلوا على النبي.
أمسك أحد الركاب بالسائق الأول، وهتف به مناشداً:
- هدى من روعك أخي، أرجوك أن تهدئ أعصابك.
أقفل السائق عائداً إلى حجرة القيادة، وأدار محرك الحافلة، وانطلق غاضباً
كالمجنون السائر في رمال التيه.
تفرس حميد وجوه الركاب المحتقنة بالغضب، وأنصت بحسه المرهف
لأنفاسهم المضطربة؛ التي بدت أشبه بغليان البراكين الثائرة الموشكة على الانفجار
في أي لحظة.
هتف حميد بصوت جهور جليجل في أرجاء الحافلة:
- أخي السائق، أرجو أن تهدأ قليلاً؛ إذا كنت على حق، وكانت لديك النية
الصادقة، أرجو الإجابة عن سؤالِي.
أبصر السائق في المرأة الأمامية المعلقة فوق رأسه وجه حميد؛ وحدق في عينيه

اللتين انعكستا في صفحة المرأة، ثم سأله بتودة:

- تفضل، ما هو سؤالك؟

أردف حميد طارحاً سؤاله على السائق في ثبات وقوة:

- لماذا غضبت قبل قليل؟ لأجل لقمة عيشك، وقوت يومك؟ لماذا لم تغضب

لكرامتك حتى الآن؟ أليست كرامتك أهم من لقمة عيشك وعيش أولادك؟

رد السائق بنزق:

- الحمد لله، كرامتي محفوظة.

فهقه حميد، وقال متعجباً بسخرية مريرة:

- كرامتك محفوظة! .. أين؟ .. ولدى مَنْ؟ .. ومن ذا الذي حفظ كرامتك؟

ارتبك السائق أمام سيل الأسئلة، وقال متلعثماً:

- أجل كرامتي محفوظة عند رب العالمين.

أردف حميد بحزم:

- أعتقد أن لديك كرامة في هذا البلد؟

رمق السائق عيني حميد الجاحظتين عبر صفحة المرأة بحذر شديد، دون أن يقول

شيئاً، فيما أنصت الركاب باهتمام شديد لكلمات الشاب الغاضب، دون أن يجروء أحدهم على إبداء رأيه.

هتف حميد بأعلى صوته:

- مَنْ يعتقد منكم أن لديه كرامة فهو مخطئ.

فقال أحد الركاب بصوت خفيض:

- صدقت أخي، لا كرامة لأحد في هذا البلد.

أردف راكب آخر:

- سمعنا بالكرامة، ولم نعرفها حتى الآن.

تأفف السائق مرتعداً؛ لعظم الخوف الذي ملأ قلبه، وختم على قلوب السوريين

بأصفاد متينة.

أكملت الحافلة طريقها، وسارت بأقصى سرعتها عابرة الشوارع الرئيسة والفرعية إلى أن حطت رحالها في موقف الحافلات الكائن أسفل جسر الرئيس المحاذي لجسر فكتوريا، والمتاخم لمنطقتي المرجة والبرامكة؛ الغارتين في لجة التاريخ.

ترجل حميد من الحافلة، وسار بخطوات رشيقة في شارع مُسَلَّم البارودي قاصداً الوصول إلى مَرْسَمِ صديقه الفنان ريمون، الكائن في منطقة باب توما، المتاخمة لسوق الحميدية.

رصدت عينا حميد الجائلتان في أطراف الشارع المكتظ بالمارة وجوه الناس؛ الذين ارتسم الشحوب والإرهاق على وجوههم، وبدا القلق والأرق ظَاهِرَيْنِ بين أجفانهم التي هجرها النوم، بعد أن أبصرت عيونهم المشدوهة الحشود المليونية الغفيرة في ميادين القاهرة، وطرابلس، وتونس.

بعد وصوله إلى مقدمة شارع الحميدية المؤدي إلى باب توما، أكمل حميد سيره بجوار الحوانيت والدكاكين القديمة، ونما إلى مسمعيه المرهفين شذرات من همس التجار المنتصبين أمام محلاتهم التجارية.

هتف أحد التجار بصوت خفيض لأصحاب المحلات الملاصقة لمحله:

- يا إخوان، لقد اندلعت النار في سوق الحريقة.

رد أحد التجار:

- يا لطيف، الله يسترنا.

أردف تاجر آخر:

- على ما يبدو لقد أتانا الدور.

جَمَدَ حميد في مكانه، وسأل التاجر بعفوية:

- عذراً، ما الذي يجري في سوق الحريقة الآن؟

أطرق التجار رءوسهم في صمت، دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة؛ خوفاً من

هوية السائل.

كرر حميد سؤاله بإصرار وإلحاح:

- من فضلكم، هل لي أن أعرف من خلالكم، ما الذي حصل في سوق الحريقة؟
رد أحد التجار باقتضاب:

- يقولون هناك مظاهرة، والله أعلم.

قال حميد مفيداً سماعه لما قال التاجر:

- حسناً.

هرول حميد بأقصى سرعة إلى سوق الحريقة الملاصق لشارع الحميدية، مدفوعاً
بفضوله الجامح، ورغبته المتوثبة؛ لمعرفة الحقيقة.

ولج حميد بأنفاس متقطعة إلى سوق الحريقة، الواقع بين سوقي الحميدية
ومدحت باشا الكائنين في قلب دمشق القديمة.

أحيط سوق الحريقة التاريخي بجادة الدرويشية، وسوق الخياطين من جهة
الشرق.

سُمِّيَ سوق الحريقة بهذا الاسم، إثر قصف الجيش الفرنسي للأزقة الدمشقية
القديمة؛ وذلك حينما سقطت إحدى القذائف الملتهبة، فوق قبة حمام الملكة في زقاق
سيدي عامود.

أُضْهِمَّتْ نيران القذائف الفرنسية التي انطلقت من مرابط المدفعية الفرنسية
الموجودة في قلعة المزة بوسط دمشق في الثامن عشر من شهر أكتوبر عام ألف
وتسعمائة وخمسة وعشرين للميلاد، في مبنى الحمام الأثري، وسرعان ما امتدت
ألسنتها الملتهبة نحو البيوت والمحلات التجارية، واستمرت بالزحف والامتداد إلى
أن وصلت إلى فرن جبران، وزقاق الملبط المحاذي لسوق الحميدية.

كان التمرد المسلح الذي خاضه أبناء دمشق والغوطة ضد سلطة الانتداب
الفرنسي أحد أهم الأسباب التي دفعت الجيش الفرنسي لقصف الأحياء الدمشقية
القديمة؛ والتي يرجع بناؤها إلى العهدين الروماني والإغريقي.

اتخذ أهالي زقاق سيدي عامود -نسبة لضريح الوالي أحمد عامود- لزقاقهم مسمىً جديدًا؛ إذ عُرفَ منذ ذلك التاريخ بسوق الحريقة، والذي اشتهر بكثرة تجاره الدمشقيين، وثرأ محلاته التجارية؛ التي امتلأت مستودعاتها، وواجهاتها الزجاجية بالأقمشة، والخیوط الدمشقية العريقة، فضلًا عن الألبسة الجديدة والتقليدية. امتلأ حميد بالدهشة والذهول عندما أبصرت عيناه حشود المتظاهرين الغاضبين الذين تجاوز عددهم الألفي متظاهر؛ وعجت بهم ساحة السوق. هتف حميد بأعلى صوته الذي اختلط بأصوات المواطنين الغاضبين:

- اليوم بدأت الثورة في سوريا.

أبصر حميد أولى شرارات الثورة ضد نظام الأسد؛ والتي طفرت من زوايا وثنایا سوق الحريقة، وانطلقت من حناجر الجماهير الدمشقية الغاضبة التي هدرت أولى شعارات الانتفاضة السورية:

«الشعب السوري ما بينذل»

كانت كلمات ذلك الشعار الذي صدحت به حناجر الغاضبين بشكل عفوي تعبيرًا عن حالة الاحتقان العميق، والحقن الشديد الذي امتلأت به نفوس السوريين؛ بفعل سياسات القمع والطغيان التي مارسها نظام الأسد على مدار أربعة عقود. ساهم الإعلام الثوري الذي قدمته الثورتان المصرية والليبية من ميادين الكرامة في صحوة الضمير السوري، وإيقاظ بصيرته، وهو الذي اكتشف في سريره حقيقة النظام الذي ظل متدنئًا لعقود طويلة بأوراق التوت؛ لستر عوراته وسوءاته السياسية والأخلاقية.

انضم حميد إلى المظاهرة العارمة، وشرع في الهتاف الحار مع المتظاهرين، وصدح بملء حنجرته لأول مرة في حياته:

«الله.. سورية.. حرية وبس»

نجح النظام في احتواء المظاهرة العفوية التي اندلعت في سوق الحريقة منذ

الدقائق الأولى، رغم أنها كانت أولى بوادر الانتفاضة الشعبية ضد حكمه المثبت بالسلطة منذ عام ألف وتسعمائة وسبعين للميلاد.

بدأت أحداث المظاهرة العفوية في سوق الحريقة إثر مشادة كلامية بين أحد عناصر شرطة المرور وتاجر دمشقي من أبناء السوق.

وقف الشرطي محمود عند ناصية السوق؛ لتنظيم حركة مرور الحافلات العابرة إلى السوق، ولدى اقتراب حافلة التاجر عماد من مدخل السوق اعترضه محمود، وصرخ فيه غاضباً:

- يا حيوان! ألا تعلم أن المرور عبر هذا المدخل مخالف لقانون السير؟
فامتلاً عماد الذي كان جالساً داخل حافلته حنقاً وغيظاً لدى سماعه تلك الكلمات النابية التي مست كرامته، وخذشت وجدانه.

ورد بصوت جهور:

- أنت رجل غير مؤدب، وبلا أخلاق.
ففغر الشرطي عينيه الغائرتين، وانقبضت أساريره، وبدأ وجهه الكالح كالسماء المتجهمة، ثم أردف حانقاً:

- أيها السافل!! تالله لأقطعن لسانك القذر، ولأجعلك عبرة لأهل السوق.
وانقض الشرطي على التاجر، كانهضاض الصقر على فريسته.
سدّد محمود لكلمات وضربات متتالية، بقبضته القوية إلى وجه ورأس عماد؛ الذي بدا محاصرّاً داخل حجرة القيادة.

فغر عماد باب الحافلة على مصراعيه، وترجل منها ككرة اللهب، ثم مسح بظهر يده اليمنى بقع الدماء النازفة من فمه، وشرع في لكم ورفس الشرطي محمود؛ مدفوعاً في الثأر والانتقام لكرامته المطعونة بعد أن فطح كيّله.

رد الشرطي على ضربات التاجر الغاضب بلكمات متفرقة، تحللتها كلمات بذئنة، تناثرت حروفها في الهواء، واستقرت في مسامع الناس؛ الذين وقفوا مشدوهين أمام ضراوة الشجار المحتدم بين الرجلين المتصارعين؛ والذي تطور إلى عراك بالأيدي،

والأرجل، والألسن.

شعر الشرطي محمود في سريرته بمرارة الهزيمة النكراء، وحنَّ برجحان كفة الصراع لصالح التاجر عماد؛ الذي تجرأ ورد عليه، إن باليد أو باللسان، وهي سابقة خطيرة، لم تحصل في سوريا على الإطلاق؛ إذ اعتاد مواطنوها على الامتثال والخضوع صاغرين لرجال الشرطة والمخابرات، دون أن ينسوا بحرف واحد.

استغل محمود هامش السلطة والنفوذ الذي أتاحه النظام لرجالاته العاملين في سلك الأمن، ونادى بأعلى صوته زملاءه الذين كانوا واقفين عند زاوية الناصية الأخرى؛ قائلاً بصوت جهور:

- أخي حسن، أخي مازن، أخي رامز، تعالوا بسرعة.

حدق العناصر الثلاثة إلى زميلهم الغارق في لجة العراك، فما كان منهم إلا أن هرعوا مهرولين بأقصى سرعتهم إلى الجانب الآخر من السوق، وانضموا إلى العراك، وأعلنوا منذ اللحظة الأولى مؤازرتهم لزميلهم محمود. تكللت مؤازرة العناصر الثلاثة بركل التاجر عماد، وضربه ضرباً مبرحاً في كل أنحاء جسده.

اشتدت آلام التاجر، وغارت جروحوه، وشعر بمرارة الإهانة، فما كان منه إلا أن استدعى المؤازرة والدعم من زملائه وجيرانه في السوق صارخاً:

- هلموا يا رجال، هلموا يا إخوان.

أنهى تجار السوق ترددهم، وكسروا خوفهم المريع بعد أن أبصروا بأعينهم الشاخصة انقضاخ عناصر الشرطة على جارهم عماد، وتحلقهم حوله كالضباع المفترسة.

التأم شمل التجار والعاملين في السوق، وانطلقوا بخطوات ثابتة نحو رجال الشرطة؛ الذين رأوا أنفسهم محاصرين داخل دائرة؛ بدأت حلقتها البشرية تضيق عليهم شيئاً فشيئاً، فما كان منهم إلا أن فروا مدبرين كالفران.

وقف تجار السوق صفّاً واحداً، وهتفوا بوجه عناصر وضباط الشرطة الفارين

بملء حناجرهم:

«الشعب السوري ما بينذل»

جلجل هتاف تجار سوق الحريقة في كل أنحائه، وانساب صدهاء المدوي إلى الأسواق المجاورة؛ التي سارع تجارها الدمشقيون إلى موقع المظاهرة، ووقفوا جنباً إلى جنب مع جيرانهم.

تجاوز عدد المحتشدين ثلاثمائة رجل، وانضم إليهم خلال الدقائق الأولى عشرات الشبان من الأسواق المجاورة.

دفع نظام الأسد -الذي كان حاضراً لهذا المشهد التضامني مع التاجر عماد- بعناصر أمنه؛ للاندساس والتغلغل بين صفوف التجار الغاضبين؛ بغرض التشويش على الهتافات العفوية التي انطلقت من حناجرهم الغاضبة.

عندما فشل عناصر الأمن في كبح جماح الغاضبين، وفض الاعتصام الحاشد؛ دفع نظام الأسد بوزير الداخلية اللواء سعيد سمور -الذي غادر مكتبه الكائن في منطقة المرجة- إلى السوق، فهرع إلى هناك بسرعة البرق؛ بغية تهدئة نفوس الغاضبين.

وقف وزير الداخلية في منتصف السوق -المحتشد بأكثر من ألف وخمسمائة متظاهر - محاطاً بعشرات العناصر من قوات الحماية الشخصية، وسأل بأعلى صوته: يا إخوان هل هذه مظاهرة أم ماذا؟

لم يتلقَ الوزير جواباً أو ردّاً على سؤاله من المواطنين الغاضبين إلا من بعض رجاله؛ الذين انتحل جزء منهم صفة التجار والعمال، وهتفوا قائلين: كلا، كلا ليست مظاهرة.

- نحن قلباً وقلباً مع سيادة الرئيس.

هزّ الوزير رأسه، وأردف قائلاً أمام جموع الغاضبين:

- أتعهد لكم بعدم تكرار مثل تلك الإهانات مستقبلاً، وأريدكم الآن أن تتعهدوا أيضاً بعدم التظاهر؛ منعاً للإخلال بالأمن.

(3)

عشية يوم الخميس الموافق للسابع عشر من فبراير؛ تفاجأ جميع الناشطين السوريين باعتصام التجار في سوق الحريقة؛ فلم يكن أحدهم يتوقع حدوث اعتصام حاشد كهذا وسط العاصمة دمشق، ومن جانب أهم شريحة في المجتمع السوري؛ شريحة التجار الدمشقيين؛ التي ظلت على الدوام محل اتهام للعديد من المواطنين السوريين؛ بأنها الشريحة الأكثر تواطؤًا مع النظام، والقاعدة الصلبة التي بنى عليها تحالفاته الاقتصادية مع رجال المال والأعمال.

مثل الاعتصام الحاشد في سوق الحريقة، والتهافتات الحماسية التي أطلقتها حناجر التجار والعمال معجزة تاريخية؛ عجزت عقول السوريين عن فهمها أو فك طلاسمها، فلم يكن بمقدور السوريين تنظيم مظاهرة أو وقفة احتجاجية، منذ أن تربع النظام على عرش السلطة في مطلع عام ألف وتسعمائة وسبعين للميلاد. استفاق السوريون في ذلك اليوم التاريخي على وقع اعتصام حاشد في قلب دمشق؛ مركز الثقل السياسي والاقتصادي لنظام الأسد.

قضّ اعتصام سوق الحريقة مضجع النظام، لاسيما وأنه قد جاء متزامناً مع اللحظات الأولى لانطلاق ثورة السابع عشر من فبراير في ليبيا، وأدرك العالمون بخفيا الأمور، وأسرار النظام العميقة أن هذا الاعتصام هو بداية النهاية لنظام الأسد، وأن الشرارة القادمة ستكون أكبر وأقوى من هذه الشرارة؛ التي عبّرت في طياتها عن مكنونات الغضب والسخط الشديدين اللذين استوطنا نفوس السوريين لردح طويل من الزمن.

كان الناشط باسل على موعد مع هذا الحدث العظيم لحظة وقوعه في قلب

دمشق، وعاش أحداثه وتفصيله الدقيقة لحظة بلحظة، وبدا بأحاسيسه المرفهة، ومشاعره الجياشة، ووعيه الثوري كما لو أنه كان على رأس المعتصمين في ساحة سوق الحريقة.

غرق باسل في خضم الوقائع، وأنشأ في رصد الأخبار، ومتابعة آخر المستجدات المتعلقة باعتصام سوق الحريقة؛ الذي ظهر وكأنه النبأ الأول على شبكات التلفزة العالمية.

فتح باسل نافذة الحجرة، ووقف منتصباً بنقاء سريرته وطهارة قلبه يستنشق الهواء العليل الدالف من النافذة، وحق بعينه المملتين بالأمل في صفحة السماء الجميلة؛ التي بدت صافية كصفحة الماء الرقاق.

أدرك باسل يحدسه العميق أهمية الإعلام؛ الذي ساهم في نقل الصورة الحاسية بأبعادها الثورية كلها؛ انطلاقاً من شارع بورقيبة في تونس، مروراً بميدان التحرير في القاهرة، ووصولاً إلى سوق الحريقة في دمشق، وأيقن أن ما حصل في دمشق - من خلال الهتافات التي صدحت بها أفواه المحتجين - ليس إلا تعبيراً جامعاً عن رغبة السوريين في تحطيم القيود الثقيلة؛ التي أحاط النظام بها قلوبهم وعقولهم منذ نعومة أظافرهم.

أطرق باسل رأسه في صمت، واستمر في شروده المديد الذي قدّه فجأة اتصال هاتفه ملاً رنينه المدوي أرجاء الحجرة.

ذرع باسل الحجرة بخطوات سريعة متجهًا نحو حاسوبه، وجلس على الأريكة الوثيرة ليستقبل المكالمات الواردة من صديقه حميد.

هتف باسل بفرح غامر:

- عمت مساء.

رد حميد الذي ملاً وجهه المتلهل شاشة الحاسوب:

- مساء الحرية.

هتف باسل مشدوهاً:

- دعني أعترف لك بمعجزي عن فهم ما حصل اليوم في سوق الحريقة.
قهقه حميد، وأردف قائلاً:
- الكل لم يصدق حتى الآن ما حصل، وكأننا نعيش في لجة أحلامنا.
غرس باسل لفافة التبغ بين شفثيه الرقيقتين، وقال مذهولاً:
- يا إلهي! في يوم واحد فقط حصلت معجزتان تاريخيتان؛ لا يمكن وصفهما،
ولا يمكن تصديقهما: المعجزة الأولى في طرابلس؛ عاصمة الرعب والصمت،
والمعجزة الثانية في دمشق؛ عاصمة القهر والخوف.
قال حميد مزهواً:
- لقد شعرت بإنسانيتي لأول مرة في حياتي؛ عندما أطلقت العنان لخنجرتي،
وصدحت بأعلى صوتي: «الشعب يريد إسقاط النظام»؛ في الوقت الذي كان
المعتصمون يصرخون فيه: «الشعب السوري ما بينذل».
- أزاح باسل لفافة التبغ من فمه، وفغر عينيه مذهولاً، وسأل باندهاش:
- ماذا قلت؟ من فضلك، أرجو أن تكرر ما قلته الآن؛ فلم أصغ إليك بشكل
جيد.
- أجاب حميد باسمًا:
- لقد كان لي شرف المشاركة في الاعتصام الحاشد في سوق الحريقة اليوم.
سأل باسل متلهفًا:
- يا إلهي! كيف حصل ذلك؟ هل كنت تعلم مسبقاً بميعاد الاعتصام؟
رد حميد برزانة:
- كلا، لم أكن أعلم بالميعاد، لقد حصل ذلك من قبيل الصدفة؛ فأثناء ذهابي إلى
معرض صديقي ريمون مررت بالقرب من سوق الحميدية، فتناهى إلى مسامعي
همزًا ولمزًا من أفواه التجار، وعندما سألتهم عن السر أشاروا بالبنان إلى سوق
الحريقة، فانطلقت مهرولاً باتجاه السوق.
- فقال باسل بفخر:

- حقاً إنه يوم عظيم، أهنتك من أعماق قلبي.
فرد حميد بز هو:
- لا شك في ذلك.
ثم التقط حميد نفساً عميقاً، وقال بهدوء:
- أخي باسل، بعض الأصدقاء الناشطين يحتاجون لمساعدتك، فهل أنت جاهز؟
فرد باسل بحماس:
- طبعاً، بكل تأكيد، تفضل، هأنذا أصغي إليك.
تنحى حميد، وقال بتؤدة:
- الأخ الصديق جمال يود التحدث إليك.
وهنا رد باسل متسائلاً بشغف:
- فليتفضل، ولكن أين هو الآن؟
فأردف حميد مجيباً:
- إنه هنا بجوارى.
أوماً باسل برأسه قائلاً:
- حسناً.
دفع جمال جسده، ومدّ رأسه نحو شاشة الحاسوب إلى أن أصبح وجهه المستدير في مواجهة عدسة الكاميرا؛ التي التقطت وجهه المتهلل، ونقلت صورته النقية إلى شاشة حاسوب باسل، عبر أثير الفضاء الإلكتروني.
هتف جمال قائلاً:
- مساء الخير أخي باسل.
رد باسل باسمًا:
- مساء النور، أهلاً وسهلاً بك.
فأردف جمال مُعرِّفاً بنفسه:

- أنا جمال، أعمل في التجارة منذ وقت طويل، وقد تعرفت اليوم على الأخ حميد في ساحة سوق الحريقة، وعندما أخبرني بمعرفته بك ازدادت فرحًا وسعادة.

سأل باسل باهتمام:

- عذرًا أخي جمال، هل سبق لك أن عرفتنني؟

فأجاب جمال بثقة:

- أجل، لقد قرأت لك العديد من المقالات في بعض المواقع الإلكترونية.

قال باسل بصوت لا يخلو من الفخر:

- عظيم جدًا.

كان جمال البالغ من العمر خمسة وأربعين عامًا تاجرًا دمشقيًا مثابرًا، عمل في تجارة الأقمشة والألبسة لوقت طويل في سوق الحريقة، وعندما أثقل النظام كاهله بالضرائب خسر الكثير من موارد رزقه، وفقد جزءًا يسيرًا من رأس ماله؛ حيث اضطر إلى تقليص مشروعه حتى وصل به الحال إلى فقدان مشروعه بشكل كامل تحت وطأة الظروف القاهرة.

امتلاً قلب جمال بالحقد والغل ضد النظام؛ الذي أخفق في احترام العلاقة بينه وبين طبقة التجار، وحصرها بأقاربه المنتفعين من بطانة السلطة؛ الذين استولوا في البداية على رأس المال، وسيطروا بعد سنوات قليلة من تبوأ بشار الأسد عرش السلطة على كل مفاصل الاقتصاد.

قال جمال بإعجاب:

- أخي باسل، أنت شاب نشيط، وتضج بالحيوية، أتمنى أن تنسق جهودك الإعلامية مع الأخ نوري.

فرد باسل ممتنًا:

- شكرًا لك.

ثم سأل باسل مستفهمًا:

- معذرة. مَنْ هو نوري؟

- جذب جمال نفساً عميقاً، ثم زفر مجيباً:
- الأخ نوري رجل أعمال، وصديق قديم، اضطرته الظروف القاهرة إلى الهروب من سوريا، والالتجاء إلى أوروبا.
- قال باسل مستنجباً ومستفهماً:
- هذا يعني أنه ضد النظام؟
- فأجاب جمال على الفور بحزم:
- بالطبع، بل هو من أشد المعارضين للنظام، ولكنه يؤثر العمل في الخفاء، ولا يود الظهور في وسائل الإعلام.
- عاود باسل التساؤل مرة أخرى بشغف قائلاً:
- حسناً، كيف لي أن أساعده؟.. أقصد ماذا يريد بالتحديد؟
- فأجاب جمال برجاحة:
- أتمنى أن تتفقا على تنسيق كافة الجهود الإعلامية خلال الأيام القليلة القادمة لمجابهة إعلام النظام ومناهضته، لقد أخبرته عنك، وهو سيتولى أمر الاتصال بك قريباً؛ إذا لم تكن لديك أي مشكلة طبعاً.
- فقال باسل بحماس شديد:
- قطعاً ليست هناك أي مشكلة، بل هذا من دواعي سروري
- أردف جمال قائلاً بارتياح:
- أتمنى لكما النجاح في جهودكما المشتركة؛ فنحن الآن بأمس الحاجة إلى توحيد كافة الجهود للنهوض بثورتنا القادمة.
- فرد عليه باسل متودداً ومودعاً:
- سعدت بالحديث إليك، دمت بخير.
- ودعه جمال ملوحاً بيده، وابتسم وقال له في هدوء:
- إلى اللقاء.

كان برنامج الاتصالات الفضائي «سكايب» وسيلة الاتصال الوحيدة التي لجأ إليها الناشطون داخل سوريا وخارجها؛ في ظل معاناتهم الشديدة من خطر الاختراقات الإلكترونية لأجهزتهم الحاسوبية؛ والتي كانت تنفذها عناصر قسم المعلومات التابعة لمخابرات النظام.

أغلق باسل مكاملة الفيديو، واستلقى على سريره مطلقاً العنان لأفكاره الهائلة في سماء الحجرة.

وما إن أغمض عينيه، حتى ومضت فكرة في ذهنه كوميض البرق في لجة السحاب، فقفز باسل مغادراً السرير بسرعة، وارتدى نظارته الطبية في عجلة، ثم جلس على الأريكة مواجهاً لشاشة حاسوبه.

رصف باسل أفكاره على الشاشة، ودبج بأنامله الرقيقة الكلمات التالية؛ التي شرع في تلاوتها بصوته الجهوري قائلاً:

«لقد أيقنت في هذا اليوم الملحمي أن أولى نسائم الربيع الممتزجة برائحة الياسمين قد هبت على دمشق؛ معلنة الثورة على النظام الذي سيسعى جاهداً إلى إجهاضها بالقوة الغاشمة حيناً، وبسياسة المراوغة والمناورة حيناً آخر.

ستمضي الثورة، وستفشل كل المحاولات الحثيثة المقيتة لوأدها؛ فالعطار لن يستطيع أن يصلح ما أفسده الدهر، ونظام الأسد لن يستطيع أن يصلح ما أفسده رجالات أمنه وجيشه على مدار أربعة عقود من الظلم والطغيان».

(4)

ظهرية يوم الجمعة الموافق للثامن عشر من فبراير؛ جلس باسل في مقهى وادي النيل الكائن في ميدان التحرير بوسط القاهرة، وشرع في تدخين الشيشة، ورشف القهوة الدافئة، وقراءة عناوين الصحف المصرية الصادرة صبيحة هذا اليوم المشمس.

اعتاد باسل الجلوس في هذا المقهى الشعبي طوال سنوات المنفى التي أمضاها وحيداً في القاهرة، واتخذ من واجهة المقهى المطلة على ميدان التحرير مكاناً دائماً ومفضلاً له.

تلقي باسل اتصالاً هاتفياً على هاتفه المحمول؛ الذي دوى رنينه في أرجاء المقهى كله.

حدق باسل بعينه المشعطين في شاشة الهاتف؛ للتعرف على هوية المتصل قبل الشروع في الرد على المكالمة.

لم يستطع التعرف على جهة الاتصال، ولكنه أيقن في قرارة نفسه أنها من خارج مصر، وأن المتصل يعرفه حق المعرفة.

استقبل باسل المكالمة الهاتفية؛ مُدخلًا سماعه الهاتف الخارجية في أذنه، وقال بحذر:

— ألو؛ تفضل.

فأتاه صوت المتصل الجمهوري، وهو يقول:

— عمت مساء، هل هذا رقم السيد باسل؟

فأجاب باسل في حرص واستفهام:

— نعم، أنا باسل، عفواً من المتصل؟

- رد صاحب الصوت الجمهوري مُعَرِّفًا بِنَفْسِهِ فِي ثَبَات:
- أنا نوري؛ أَكَلَمْتُكَ الْآنَ مِنْ أَلْمَانِيَا، وَقَدْ حَصَلَتْ عَلَى رَقْمِكَ مِنَ الصَّدِيقِ جَمَالٍ، أَعْتَقِدُ أَنَّكَ تَعْرِفُهُ.
- فَقَالَ بَاسِلٌ مُرَحِّبًا بِالْمُتَّصِلِ؛ وَقَدْ بَدَأَ عَلَى صَوْتِهِ الْارْتِيَا ح:
- أَهْلًا وَسَهْلًا بِكَ، نَعَمْ، بِالطَّبْعِ أَعْرِفُهُ، لَقَدْ كَلَمَنِي الْأَخُ جَمَالُ لَيْلَةِ الْبَارِحَةِ، وَطَلَبَ مِنِّي التَّوَاصُلَ مَعَكَ.
- فَسَأَلَهُ نَوْرِي مُتَوَدِّدًا:
- كَيْفَ حَالُكَ؟ وَكَيْفَ تَسِيرُ أَوْضَاعُكَ فِي مِصْرَ؟
- أَجَابَ بَاسِلٌ:
- الْحَمْدُ لِلَّهِ يَخِيرُ.
- عَاوَدَ نَوْرِي التَّسْأُولَ مَرَّةً أُخْرَى؛ قَائِلًا:
- مَا أَخْبَارُ الثُّورَةِ لَدَيْكُمْ فِي مِصْرَ؟
- وَهُنَا رَدَّ بَاسِلٌ بِصَوْتٍ مَفْعَمٍ بِالْحِمَاسِ وَالْأَمَلِ:
- نَتَمَنَّى أَنْ نَرَاهَا قَرِيبًا فِي دِمَشْقَ.
- فَبَادَلَهُ نَوْرِي الْحِمَاسَ قَائِلًا:
- إِنْ شَاءَ اللَّهُ.
- وَرَدَّ بَاسِلٌ بِثَبَاتٍ جَمٍّ:
- هَذَا أَمَلُنَا الْوَحِيدَ.
- كَانَ نَوْرِي مِنْ سَكَانِ دِمَشْقِ الْأَثْرِيَاءِ، وَقَدْ حَطَّ رَحَالُهُ فِي الْمُنْفَى؛ حَيْثُ أَقَامَ فِي إِحْدَى الدُّوَلِ الْأَوْرُوبِيَّةِ مَعَ رَفَقَةٍ أَفْرَادَ أُسْرَتِهِ؛ الَّذِينَ هَرَبُوا مِنْ بَطْشِ النِّظَامِ، وَتَسَلَّطَهُ عَلَى أَرْزَاقِهِمْ وَشُرَكَاتِهِمِ الصَّنَاعِيَّةِ وَالتِّجَارِيَّةِ؛ الَّتِي كَانُوا يَدِيرُونَهَا فِي دِمَشْقَ.
- أَكْمَلَ نَوْرِي حَدِيثَهُ الْهَاتِفِي، وَأَرْدَفَ قَائِلًا:
- أَخِي بَاسِلُ، أَعْلَمُ أَنَّكَ مِنَ الشَّبَابِ الْمَثَابِرِينَ وَالْمُتَحَمِّسِينَ؛ وَلِهَذَا السَّبَبُ أَوْدَ

أن يكون التعاون بيننا مثمرًا وبَنَاءً.

فرد باسل بحماس:

– آمل ذلك حقًا.

وهنا أوعز نوري إلى باسل قائلاً بحزم:

– أريد منك أن تقدم لي خطة إعلامية متكاملة خلال الأيام القليلة القادمة.

فرد عليه باسل متسائلاً باهتمام:

– عذراً، ما هي أهدافها؟ وحول ماذا تدور هذه الخطة؟

أجاب نوري بيقين:

– علينا أن نكون مستعدين لانطلاق الثورة السورية.

فجاء صوت باسل متردداً:

– ألا ترى أن الحديث عن إعداد خطة كهذه، من السابق لأوانه؟

أجاب نوري بحماس:

– كلا على الإطلاق، إذا لم تتحرك اليوم، ونقطف الفرصة في الوقت المناسب،

فسيقطفها الآخرون حتمًا، ولن يدعوا لنا شيئاً.

ابتلع باسل ريقه بصعوبة بالغة، وأجاب بفتور:

– حسنًا، سأنظر في الأمر خلال اليومين القادمين.

فهتف نوري بثقة:

– لا تقلق، سأتكفل بكل مصاريف وتكاليف الخطة؛ لقد رصدت لتلك الخطة

ميزانية جيدة، سأطلعك عليها في المرة القادمة، لذلك أرجو منك الإسراع في العمل

قدر استطاعتك.

قال باسل محاولاً التظاهر بالتفاؤل:

– أرجو أن تمضي الأمور بخير.

قال نوري بلهجة تشجيعية؛ وكأنه قد أحس بفتور باسل:

– سأظل على اتصال دائم معك، عبر الهاتف والفايس بوك.

وهنا ودعه باسل؛ وهو لا يزال يحاول التظاهر بالتفاؤل قائلاً:

- حسناً، دمت بخير، إلى اللقاء.

أنهى باسل المكالمة الهاتفية، وغرق في لجة من التفكير العميق؛ بعد أن أصابه الاتصال بلوثتي الدهشة والذهول؛ اللتين سيطرتا عليه أثناء المحادثة الهاتفية.

جذب نفساً عميقاً من الشبيشة؛ حاول طرد الهواجس والوساوس التي ملأت ذهنه؛ فلم يكن باسل قد تعرض في حياته لموقف كهذا من قبل.

ولم يكن أمامه خيار آخر سوى القبول بخطة نوري؛ طالما أنها قد داعبت حلمه البعيد المتجسد في الثورة؛ أيّاً كانت أهدافها ومراميها.

(5)

ظهرت يوم الثلاثاء الموافق للثاني والعشرين من فبراير؛ أمضى باسل صباحه الباكر في نقابة الصحفيين الكائنة في شارع عبد الخالق ثروت وسط القاهرة.

اعتاد باسل بين الفينة والأخرى زيارة النقابة ذات البناء الشاهق، والقاعات الرحبة؛ والتي شكلت رئة لمعظم الصحفيين والناشطين السياسيين الذين دأبوا على التوافد إليها بانتظام.

كان باسل واحدًا من أولئك الناشطين، الذين اعتادوا على الجلوس في مقهى النقابة الكائن في الطابق الثامن، وكان مواظبًا على مشاركة زملائه -من الناشطين المصريين- معظم فعالياتهم الثقافية والسياسية.

تلقى باسل اتصالًا على هاتفه المحمول، فحدق في كود الرقم الظاهر على شاشة الهاتف، وهنا أيقن أن المتصل من داخل مصر، فاستقبل المكالمات دون تردد، وردَّ بهدوء:

- ألو.

دوى صوت المتصل عبر سماعة الهاتف:

- مساء الخير.

فرد باسل، متسائلًا بحذر:

- مساء النور، مَنْ المتصل؟

أجابه المتصل، قائلاً بثبات:

- نوري.

فاندش باسل، وكرر الاسم مرة أخرى متسائلًا بذهول وتعجب:

- نوري؟!

أجاب المتصل محاولاً التخفيف من حدة اندهاش باسل واستعجابه:

- نعم، هل فوجئت بالاتصال؟

فرد باسل مرتبكاً:

- كلا على الإطلاق.

سأله نوري:

- أين أنت الآن؟

رد باسل؛ ولا زال الذهول يسيطر عليه:

- في نقابة الصحفيين.

أردف نوري:

- انتظر في فندق «سفير» الكائن في منطقة الدقي.

وهنا رد باسل وقد بلغ الذهول منه مبلغه:

- حسناً، إني قادم إليك.

أنهى باسل المكالمة الهاتفية ممتلئاً بالدهشة والذهول، بعد أن فوجئ بقدوم نوري إلى

القاهرة دون سابق إنذار.

انصرف باسل مغادراً مقهى النقابة، واستقل المصعد الكهربائي؛ للهبوط سريعاً إلى

الطابق الأرضي.

في ذلك اليوم التقيت بالناشط باسل في نقابة الصحفيين لأول مرة؛ خلال إقامتي

المديدة في القاهرة، وتعرفت إليه بواسطة الناشطين المصريين المنضوين تحت راية حركة

السادس من أبريل؛ على هامش لقائنا المفتوح مع منظمة العفو الدولية، ولجنة مراقبة

حقوق الإنسان في الأمم المتحدة.

نزل نوري في فندق «سفير» الكائن في ميدان المساحة، وسط حي الدقي، بمدينة

الجيزة كما أخبر باسل فيما سبق.

كان نوري قد فقد صبره، ولم يشأ الانتظار طويلاً في أوروبا، ولذلك قرر النزول إلى

الميدان، وملاقة باسل في القاهرة؛ إذ تمنى منذ أن حطت الثورة فيها رحالها، واستلهم منها الأمل باندلاع الثورة في سوريا أن يزورها، ويأنس بها، وبأجوائها الثورية. دلف نوري إلى قاعة الطعام الرحيبة الكائنة في الطابق الأول، والمطلّة بواجهاتها الزجاجية الأنيقة على الأبنية السكنية الشاهقة المحيطة بها. جلب نوري طبقين أنيقين ممتلئين بأشهى المأكولات المصرية والعربية، ثم وضعهما فوق طاولة خشبية فاخرة، وجلس أمامها على كرسي وثير. استل نوري الفوطة القطنية البيضاء الراقدة على سطح الطاولة، وفرشها بتؤدة فوق ساقيه الممدودتين، ثم التقط بأنامله الرقيقة الشوكة والسكين، وتهايا استعدادًا لالتهام الطعام الشهوي الذي جلبه.

وقبل أن يشرع نوري في ازدراد الطعام، بسمل بصوت خفيض:

- بسم الله الرحمن الرحيم.

ثم طفق يلتهم طعامه بنهم كبير.

كان نوري في مطلع الخمسينيات من عمره، بدا طويل القامة، عريض المنكبين، عكست عيناه الزرقاوان، وشعره الأشقر، ولون بشرته الأغر، شخصيته الانفعالية؛ التي اعتادت على السمع والطاعة لأهله وذويه؛ مقابل إذعان الآخرين لشخصه. عاشت شخصية نوري في دائرة الهيجان النفسي، والتخبط الفكري، فيما كانت تتوق إليه من الثورة؛ فرغم تضرره من سياسات النظام إلا أن دوافع الثورة لديه اختلفت اختلافًا جذريًا عن دوافع الفئة المسحوقة من الشعب السوري. في هذه الأثناء، ولج باسل إلى ردهة الفندق، واتجه مباشرة إلى قسم الاستعلامات؛ حيث سأل موظف الاستقبال قائلاً:

- مساء الخير، هل لك أن ترشدني إلى غرفة السيد نوري؟

فأجابه الموظف بابتسامة خفيفة مُرَجَّبًا، وقال:

- مرحبًا، أهلاً وسهلاً، أمهلني دقيقة واحدة من فضلك.

رد باسل بلطف:

- تفضل، بكل سرور.
- اتصل الموظف بنوري في غرفته، الكائنة في الطابق الثالث، ولكنه لم يتلق أي رد.
- فقال الموظف معتذراً لباسل:
- مع الأسف، ليس هناك أي رد من طرف السيد نوري.
- فما كان من باسل إلا أن سألته باهتمام:
- إلى أين يمكن أن يكون قد ذهب؟
- رد الموظف قائلاً بهدوء:
- لا أعتقد أنه قد غادر الفندق، يمكن أن تعثر عليه في قاعة الطعام، أو في المقهى.
- أوماً باسل برأسه إيجاباً، وقال ممتناً:
- حسناً، شكرًا جزيلًا.
- رد الموظف مبتسمًا:
- العفو.
- انطلق باسل بخطوات متعجلة إلى حجرة المطعم مستخدمًا السلم البديع ذي الدرجات الأنيقة المكسوة بالسجاد الأحمر.
- دلف باسل إلى المطعم، وأخذ يتفرس في وجوه الجالسين واحدًا تلو الآخر؛ احتفظ الشاب في ذاكرته بصورة نوري التي حصل عليها من خلال صفحته الشخصية الموجودة في الفيس بوك، وأخذ يطابق صورة نوري الموجودة في ذهنه اليقظ بوجوه الحاضرين؛ حتى سقطت عيناه على رجل ممتلئ الجسد، قوي البنية، كان غارقاً في التهام طعامه.
- تسمر باسل أمام نوري، وحياء بصدر منشرج قائلاً:
- مساء الخير.
- فرفع نوري رأسه ببطء شديد صوب مَنْ يتكلم، وما إن رصدت عيناه الحاذقتان عيني باسل حتى رد تحيته قائلاً:
- أهلاً وسهلاً، تفضل أخي باسل.
- كان نوري قد استدلل على شخصية باسل أيضًا من خلال صورته المنشورة على

صفحته الخاصة في الفيس بوك؛ حيث أضاف بعضهما البعض، منذ أن عرّف جمال كُلاًّ منهما بالآخر.

جلس باسل على الكرسي المقابل لكرسي نوري، وقال مبتسماً:
- حمداً لله على سلامتك.

رد نوري بود:

- سلمك الله، كيف تسير الأمور هذه الأيام؟

هزّ باسل رأسه بتؤدة، وأجابه بارتياح:

- كل شيء على ما يرام، حتى الآن.

قال نوري برضا:

- الحمد لله على كل حال.

ثم أشار بيده نحو أطباق الطعام، وأردف قائلاً:

- أستحلفك بالله إن كنت جائعاً أن تشاركني الطعام.

ربت باسل على صدره، وقال بحياء:

- شكراً جزيلاً، صحة وعافية، لقد تناولت وجبة طعام في نقابة الصحفيين.

فأردف نوري متسائلاً:

- حسناً، إلى أين وصلت بالخطة الإعلامية؟

أجابه باسل بهدوء:

- لا زلت أعمل عليها بمعونة بعض الأصدقاء الأكفاء.

فغر نوري فمه مندهشاً، ومطّ شفتيه الرقيقتين، ثم عقب قائلاً:

- ظننتك أوشكت على الانتهاء من الخطة.

رد باسل محاولاً تبرير تأخيره هذا قائلاً:

- ليس من السهل إعداد خطة إعلامية متكاملة في عجلة، دون مراعاة الظروف

المحيطة بها، وفهم المزاج العام.

توقف نوري عن تناول الطعام، وذلك أنامله الغليظة بالفوطة البيضاء، ثم قال في

حدة:

- لا نستطيع إهدار المزيد من الوقت؛ ولهذا السبب أثرت القدوم إلى مصر لنعمل
سوية على إعداد الخطة وإطلاقها في أسرع فرصة.
أجاب باسل موافقاً:
- حسناً.

رشف نوري من كوب الماء رشفتين خفيفتين، ثم قال بانشرح:
- علينا أن نترك العمل في الخطة القديمة، ونستعاض عن ذلك بوضع خطة جديدة
فعالة، وقصيرة المدى.
سأله باسل بشغف:

- عظيم، ولكن ما هو فحوى الخطة الجديدة؟
تنحني نوري، وأجاب قائلاً:
- يمكن تقسيم الخطة إلى ثلاث خطوات: الخطوة الأولى؛ دعوة الشباب إلى التظاهر
السلمي، والخطوة الثانية؛ تشجيعهم على الخروج في مظاهرات، والخطوة الثالثة؛ إقامة
اعتصام حاشد استناداً إلى ما تحقق في اعتصام سوق الحريقة.
فعلق باسل ببرود:

- خطوات بسيطة ومرنة، ولكن تطبيقها يبدو مستحيلاً.
تعجب نوري من رده، وسأله باندهاش:
- لماذا برأيك؟
رد باسل ببساطة قائلاً:

- أنسيت أن النظام في سوريا يختلف كماً وكيفاً عن باقي الأنظمة السلطوية
الأخرى؟! إنه ليس كنظام مبارك، ولا حتى كنظام زين العابدين بن علي.
قال نوري بحزم:

- كلام أنس البتة، ولكن موسم القطاف قد دنى وأزف، ولا بد من التضحية في
سبيل الحرية.

فسأله باسل مستفهماً:

- وهل لديك الاستعداد للتضحية بروحك في سبيل الحرية؟

أجاب نوري مكابراً:

- أجل، إنني على استعداد للسفر إلى سوريا، والمشاركة في أول اعتصام سلمي.

قال باسل باستهزاء مبطن:

- أحبي روحك المتوثبة والمتحمسة للحرية.

فأردف نوري متسائلاً في صبر نافذ:

- دعك من كل هذا، وأخبرني كيف يمكن في رأيك أن نحقق هذه الخطوات

الثلاث؟

أجاب باسل باقتضاب:

- عبر الإعلام.

عاود نوري التساؤل مرة أخرى قائلاً:

- كيف؟

فرد باسل في هدوء:

- عن طريق تكثيف الحملات الإعلامية في أوساط الشباب.

أردف نوري بحماس:

- هذا يعني أننا بحاجة ماسة إلى الترويج والتسويق الإعلامي، تُرى كيف يمكننا

الحصول على ذلك من وجهة نظرك؟

أجاب باسل برجاجة:

- المسألة بسيطة، وليست معقدة؛ يمكننا الاستعانة بخدمات الفيس بوك

واليوتيوب، وتويتر، وجوجل، وهي مجانية كلها.

فتساءل نوري من جديد:

- وهل يمكن أن نجني ثمارها؟

أجاب باسل في بساطة:

- دون أدنى شك؛ مثلما فعل الناشطون في مصر، وتونس، واليمن.
حدّق نوري في عيني باسل، وقال بحزم:
- إذا لم نتحرك في الوقت المناسب سيدركنا المعارضون الآخرون، وسيصلون قبلنا
إلى عقر الدار.
صمت باسل هنيهة؛ ثم سأل مستفهمًا وقد بدا على ملامحه عدم الارتياح لكلام
لنوري:
- ماذا تقصد؟
أجاب نوري في زهو:
- نحن مَنْ يجب أن يقود الثورة؛ لنجني ثمارها أولًا، ولنكون بديلًا عن النظام؛ لأن
قيادة الآخرين لها تعني أن نصبح مجرد أدوات في أيديهم؛ لا رأي لها ولا صوت، وهذا
ينبغي ألا يحدث أبدًا.
سأله باسل مستنكرًا:
- عذرًا؛ مَنْ نحن؟
أجاب نوري بخيلاء:
- نحن المنتورون!
هزّ باسل رأسه في حركة لا إرادية، وتعجب بعد أن غزته الشكوك في نوري ونوابه،
ثم ازدرد ريقه وقال مسيرًا للنوري لينهي هذا الحديث المُستنكر:
- حسنًا.
فقال نوري وقد بدا الارتياح يجتاح ملامح وجهه:
- حسنًا، توكلنا على الله، أرجو أن أراك مساء.
همّ نوري بالنهوض، ثم أولج يده بيد باسل، وقال باسمًا:
- سأذهب الآن إلى حجرتي؛ لنيل قسط من الراحة، دمت بخير.
وهنا ودعه باسل مبتسمًا في لطف، وقال ببرود:
- إلى اللقاء.

انصرف باسل مغادراً الفندق، وسار في الشارع المكتظ وهو ممتلئ بالأحاسيس المضطربة حول نوري؛ الذي بدا له شخصاً غير متزن؛ من خلال خياله الجامح في تحريك الجماهير السورية الصامتة -آنذاك- ودفعهم للتظاهر بأعداد مهولة. كان باسل أشد ميلاً للواقعية، وأرسخ إيماناً بها، فبدا منذ تلك اللحظة متشككاً من شخصية نوري، وكان شكه، جزء أصيل من وباء الشك الذي ابتلي به السوريون في ظل حكم البعث.

لم يكن شك باسل بشخصية نوري مبنياً على علاقته أو ارتباطه بأجهزة النظام الأمنية، بل انحصر حول مآربه ومراميه من الانخراط في الثورة، مثلما ظهر عند العديد من السوريين، فرغم عظم الهم الوطني، والدفاع عنه؛ اللذين أظهرهما العديد من السوريين المنضمين إلى صفوف الثورة -حينها- إلا أن دافع الوصول إلى كرسي السلطة، ظل الهم الأكبر والحلم الأمل للكثير من الانتهازيين المستغلين للثورة قبل أي شيء آخر.

وبعد مضي أربعة أيام؛ أطلق باسل -بالاتفاق مع نوري- موقعاً إلكترونياً على الشبكة العنكبوتية العالمية، كخطوة أولى؛ للوصول إلى هديهما المنشود. اختلف نوري وباسل في البداية على تسمية الموقع الإلكتروني، ثم اتفقا لاحقاً على تسميته «سوريا الجديدة» بفعل إلحاح نوري على ذلك.

هَدَفَ الرجلان من إنشاء الموقع الإلكتروني إلى إثارة المشاعر الوطنية لدى أفراد الجيش السوري؛ مثلما فعل الثوار المصريون في جمعة الغضب؛ عندما طلبوا النجدة من جيشهم، فلبى الأخير نداءهم، حيث أطلق الثوار يومها شعارهم الشهير: «الجيش والشعب يد واحدة»

انصب اعتقاد نوري -المخالف لاعتقاد باسل- على فكرة تدخل الجيش السوري في الأيام الأولى لانطلاق الثورة؛ ليحسم الأمر لصالح الثوار، ويجنب البلاد مخاطر الانزلاق في أتون الهاوية، مثلما فعل الجيشان المصري والتونسي، عندما استجابا لنداء

الثوار.

عشية يوم الأربعاء الموافق للثالث والعشرين من فبراير؛ التقيت بأسلاً الذي اتصل بي ظهيرة اليوم عينه، وطلب لقائي لأمر في غاية الأهمية. جلست في قهوة «الخن» الكائنة في أطراف شارع شامبليون، وسط القاهرة؛ وهي قهوة شعبية مصرية، دأبت على الجلوس فيها طوال سنوات المنفى. في تمام الساعة الثامنة مساءً؛ ولج بأسل القهوة؛ والتي كانت عبارة عن ردهة طويلة ضيقة، أسفل بناء قديم، أُحيطَ بفناء رحيب؛ حيث تم اقتطاع الردهة من الفناء الرحيب الذي كان محطة لحافلات الحى قديماً، وجرى تحويلها حديثاً إلى قهوة شعبية لرواد الصحافة، والفن المسرحي، ولأنصار حركة اليسار الديمقراطي. رشفت من كوب الحلبة الساخن رشفة خفيفة قبل أن أشرع في سؤال بأسل؛ الذي بدت حالته النفسية شديدة القلق والاضطراب:

- كيف تسير الأمور هذه الأيام؟

رد بأسل ببرود:

- بخير، بخير.

عاودت التساؤل مرة أخرى:

- وما أخبار الثورة، أمازلت تعتقد بانطلاقها في الأيام القليلة القادمة؟

هزّ بأسل رأسه، وحرك فكّه بامتعاض، ثم قال بفتور:

- الثورة قادمة لا محالة، ولكنني أخشى عليها؟

أردفتُ مستوضحاً:

- بمن؟

أجاب بأسل في ثبات:

- من المتسلقين والانتهازيين.

ابتلعت ريقِي، ورشفت من الكوب، ثم هتفت قائلاً:

- إذا كان هناك متسلقون بيننا؛ فهؤلاء لن تقوم لهم قائمة إذا انعقدت قيامة الثورة.
سأل باسل بصوت جهور النادل كرم أن يحضر له كوبًا من القهوة، ثم نظر إلي،
وأردف قائلاً:

- على ما يبدو أن أقدارنا ستكون بيد هؤلاء المتسلقين، ولن يكون بمقدورنا فعل
أي شيء سوى الرضا والقبول بالأمر الواقع.
قلت له باستنكار:

- لكنّ هذا استسلام رخيص.

رد باسل في استسلام:

- مع الأسف، ليس في اليد حيلة.

حدقت في عيني باسل المضطربتين، وسألته بفضول عميق:

- باسل! ماذا وراءك؟

رد باسل بصوت مختنق باليأس والإحباط:

- اتصل بي أحد رجال الأعمال المقيمين في أوروبا، وطلب مني أن أعد له خطة
إعلامية للنهوض بالثورة.

قلت في بساطة:

- عظيم، أين المشكلة في ذلك؟

رد باسل متعصّباً:

- المشكلة أنني لست مطمئناً إلى نواياه.

سألته في اهتمام:

- هل عرفت ماذا يريد من وراء ذلك؟

نَفَخَ باسل شدقيه، ثم تأفف متذمراً، وقال باستياء مضمّر:

- لا أعرف بالضبط، ولكن على ما يبدو يريد أن يقود الثورة بنفسه.

أردفت متسائلاً:

- إذن؛ ما هو دورنا؟

أحضر النادل كرم كوب القهوة المحمول على طبق معدني قديم، ثم وضعه فوق سطح الطاولة، وأدبر ذاهباً إلى عمله.

التقط باسل الكوب بيديه المرتعشتين، ثم رشف منه رشفة خفيفة، وأردف قائلاً:
- نحن سنكون وقود الثورة.

أومأت برأسي في حركتين متتاليتين، وسهمت لبرهة قصيرة، ثم أردفت قائلاً ببرود:
- بل سنكون حطبها.

رشفت الرشفة الأخيرة من كوبي، وقلت بتؤدة:

- على كل حال، امضي في عملك، ولا تتوانَ عن متابعتي قيد أنملة، وإذا شعرت أنك أصبحت في شرك الخديعة فانسحب بهدوء ولا تبال.
رد باسل في استسلام تام:
- حسناً.

استأذنت باسلاً في الرحيل، وهممت بمغادرة القهوة مُحَمَّلاً بهمومي وهواجسي التي باتت تطاردني كالأشباح الهائمة في سماوات معتمة، وسرت بخطوات متتلة في شارع شامبليون؛ الذي بدا خالياً من الضوضاء، مقفراً من المارة؛ إلا من بعض رواد المقاهي الذين اتخذوا من أرصفتها المطلة على الشارع، مجلساً محبباً لهم.
أطلقت العنان لأفكاري المتقافزة من أعماق الذهن؛ الذي بدا مشوشاً مضطرباً لكثرة الهموم والهواجس، وأيقنت في قرارة نفسي أن الثورة ستمر بمنحنيات خطيرة، وطرق شديدة الوعورة.

قاسمت باسلاً الحلم عينه، وأدركت أن لا بديل عن الثورة؛ فالثورة ضد القمع والاستبداد كانت ولا زالت حلمي الكبير الذي عقدت عليه كل آمالي في الخلاص من القهر والعبودية قبل خروجي الأخير من سوريا.

وأيقنت أن المعركة بين الشعب والنظام ستكون طويلة جداً، وأن الثورة هي أولى مراحل الصراع الدامي الذي لن ينتهي قبل دمار وخراب سوريا.

(6)

صبيحة يوم السبت الموافق للسادس والعشرين من فبراير؛ ارتأيت مخاطبة الشباب داخل سوريا وخارجها؛ لحثهم على الخروج في مظاهرة سلمية ضد القمع والاستبداد.

حتى تاريخ ذلك اليوم لم يُقدم أحد من الناشطين السوريين -سواء المقيمون في الخارج، أو أولئك الذين هم في الداخل- على القيام بمثل خطوة كهذه؛ تنطوي تداعياتها الجسيمة على الكثير من المخاطر والتهديدات.

لم أجد بُدًّا من مخاطبة الشباب السوري عبر أثير الإعلام، وكان سبيلي الوحيد إلى ذلك قناة اليوتيوب؛ فهي آخر ما تبقى أمامي من وسائل الإعلام بعد أن امتنعت جميع القنوات الفضائية عن فتح نطاقها الإذاعي لبث رسائلنا الإعلامية إلى الشعب السوري.

عند الظهيرة، وبعد أن نضجت الفكرة في ذهني؛ اتصلت بباسل لاستطلاع رأيه.

أجاب باسل بهدوء:

- الفكرة جيدة من حيث المبدأ، ولكن طرحها قد يعرضك لمخاطر جمة.

قلت موافقاً:

- لا بأس.

سألني باسل:

- ألسنتَ خائفاً؟

أجبتّه على الفور دون تفكير:

- كلا على الإطلاق.
- سألني في قلق:
- هل فكرت في ردة فعل المعارضة؟
- أجبتة متسائلاً:
- ماذا تتوقع أن يكون ردها؟
- فرد باسل:
- سيقول البعض منهم أنك تحاول انتهاز الفرصة، لركوب موجة الثورة وقطف ثمارها، فيما سيقول البعض الآخر أنك تسعى للظهور وتحقيق الدعاية لنفسك.
- قلت له في ثبات وتحذُّ:
- ليقولوا ما يشاءون؛ لا يهمني رأيهم.
- أردف باسل متسائلاً:
- حسنًا، متى ستسجل الخطاب؟
- أجبتة بحماس شديد:
- اليوم، في الثامنة مساء.
- سألني باسل بالحاح:
- أين؟
- أجبتة:
- في منزل صديقي إيهاب.
- عاود باسل التساؤل مرة أخرى قائلاً:
- هل يمكنني الحضور؟
- أجبتة مُرَحَّبًا:
- بكل تأكيد.
- ودعني باسل بود قائلاً:
- دمت بخير.

فردت مُودَّعًا إياه:

- إلى اللقاء.

دلفت إلى حجرة المطالعة الكائنة بمنزلي الصغير، بدت الحجرة المحاطة بالسناثر السميكة شديدة الإظلام.

جلست إلى الطاولة الخشبية الملاصقة لفرجة النافذة الموصدة، وأثرت المصباح الكهربائي المنتصب فوق الطاولة القديمة، ثم شرعت في انتقاء المفردات، وتدبيج الكلمات على صفحات ناصعة البياض.

كان بإمكان الكثير من السوريين أن يلجئوا إلى القلم والورقة، وأن يتخذوا منها سلاحًا أمضى من أي سلاح آخر؛ مثلما فعلت.

دفعني تجربتي القاسية في المنفى إلى التعبير عن رأيي بكل حرية، ودون قيود مسبقة؛ من خلال سلسلة المقالات النقدية التي دأبت على نشرها في الصحف، ودعوت فيها إلى انتهاز الفرص السانحة، والخروج على الظلم والطغيان.

انطلقت مساء اليوم عينه إلى منزل إيهاب الكائن في منتصف شارع جول جمال، في منطقة المهندسين، بوسط مدينة الجيزة.

كان إيهاب مخرجًا سينمائيًا مصريًا، في الثانية والعشرين من عمره، وقد سلك المخرج الشاب دربًا شائكًا بتأييده للثورة المصرية؛ إذ كلفه الانضمام إليها الإصابة في منطقتي الرأس والعين بشظايا طلقات الخرطوش التي أطلقها رجال الأمن ضد المتظاهرين في شارع محمد محمود المتاخم لميدان التحرير.

أبدى إيهاب تعاطفه الكبير مع الثورة السورية قبل انطلاقها بأيام قليلة، وقدم نفسه واحدًا من أهم أنصارها؛ فوضع كل إمكانياته الفنية في خدمتها.

استقبلني إيهاب عند باب المنزل؛ والذي كان عبارة عن شقة سكنية، احتلت الطابق الخامس من العمارة الشاهقة، ورحب بي بأشد عبارات الترحيب قائلاً:

- أهلاً وسهلاً، هلت الأنوار بوصولك الكريم، تفضل.

رددت بود:

- شكراً جزيلاً.

دلفت إلى المنزل حاملاً بيدي حقيبة الملابس الرسمية؛ اقتادني إيهاب عبر ردهة ضيقة امتدت لأربعة أمتار تقريباً إلى الحجرة المخصصة للعمل؛ والداخلية ضمن الشقة المؤلفة من أربع حجرات كبيرة، تقاسمها جميعاً مع ذويه وأشقاؤه.

ولجت إلى الحجرة بخطوات ثابتة، ثم تسمرت في منتصفها، وشرعت في التحديق بعينيّ المبهورتين إلى جدرانها؛ والتي احتوت على عشرات الصور الضوئية، واللوحات الفنية.

أشار إيهاب بيده إلى الأريكة الوثيرة، وهتف قائلاً:

- من فضلك، تفضل بالجلوس.

جلست على الأريكة، وسط الأجواء الفنية الساحرة؛ التي أحالت الحجرة إلى معرض فني بديع.

جذب إيهاب قارورة نبيذ من جوف المكتبة الخشبية التي احتوى قسمها العلوي على كتب أدبية وفنية، وضم قسمها السفلي باقة من قوارير الخمر.

سكب المخرج الشاب قليلاً من النبيذ الأحمر في قدحين زجاجيين أنيقين انتصبا فوق سطح الطاولة الزجاجية المواجهة للأريكة، ثم نظر إلي قائلاً:

- تفضل.

قلت له بدوري:

- شكراً.

التقطت القدح الأنيق بأناملي الدقيقة، وهممت بقرعه في قدح إيهاب، وأنا أقول

مبتسماً:

- بصحتك.

رد إيهاب بحبور:

- بصحتك .

رشفتم رشفة خفيفة من النبيذ السائع، وأردفت بإعجاب:

- يا له من نبيذ لذيذ .

رد إيهاب بوجه وضح:

- إنه من أفخر أنواع النبيذ الإيطالي .

قلت متسائلاً في تعجب:

- حقاً! كيف حصلت عليه؟

أجاب إيهاب:

- أهداني إياه صديق عزيز، وصل البارحة من روما .

فقلت:

- عظيم .

رشف إيهاب من قدحه الذي أو شك قعره على الانتهاء، وسألني بتؤدة:

- هل أنت مستعد للتسجيل؟

أجبت على الفور:

- نعم، بكل تأكيد .

أردف إيهاب قائلاً:

- هيا بنا إذن . فلنبدأ عملنا الآن .

خلعت ثيابي الشتوية، وشرعت في ارتداء بزة رسمية فضية اللون، ثم قمت بتسريح شعري الطويل، وأسبلته حول أذني .

جلب إيهاب معدات التصوير، وثبت الكاميرا المرئية فوق قاعدة معدنية مرنة، ثم همّ في نصب معدات الإضاءة في أطراف الحجرة الداكنة .

بدت الحجرة أشبه ما تكون بحجرة تصوير سينمائي .

جذب إيهاب الكرسي الخشبي الأنيق الكائن في مؤخرة الحجرة، ووضع قباله الكاميرا، ثم أوعز إلي بتؤدة قائلاً:

- تفضل بالجلوس.

جلست على الكرسي مواجهًا للكاميرا المنصوبة أمامي، والتقطت أنفاسًا عميقة، ثم أطلقت زفرة طويلة ممدودة؛ استعدادًا لبدء التسجيل.

فغر إيهاب الكاميرا الآلية، وقبل أن يشرع في التصوير قُرِعَ باب المنزل قرعًا قويًا، ودوى رنين الجرس في أرجاء المنزل كله.

استأذن إيهاب في الذهاب قائلاً:

- لحظة واحدة من فضلك.

قلت له دون تفكير:

- تفضل.

مضى إلى الباب لمعرفة هوية الطارق.

حدقت في المرأة المنتصبة فوق سطح الطاولة، ثم التقطت المشط البلاستيكي، وأخذت أسرح شعري وأصففه بعناية.

أقفل إيهاب عائدًا إلى الحجرة برفقة باسل، الذي هتف بصوت خنقه التعب والإرهاق مُخَيِّبًا لي:

- عمت مساء.

أجبتُه بود مُرَجَّبًا:

- أهلاً بك.

أردف باسل:

- أرجو المَعذرة؛ لقد تأخرت لبضع دقائق بسبب الازدحام الشديد في وسائل المواصلات.

رد إيهاب:

- لا بأس، تفضل بالجلوس.

عقب باسل:

- هل تحتاجون إلى المساعدة في أي شيء؟

أجابه إيهاب بإسماً:

- شكراً لك، كل شيء أصبح جاهزاً الآن.

قال باسل في ارتياح:

- حسناً.

جلس باسل على الأريكة، وأخذ يراقب أدائي بدقة.

جلست على الكرسي في ارتياح وابتهاج، وحاولت تسديد عيني نحو عدسة الكاميرا؛ تحركاً إياهما يميناً ويساراً؛ إلى أن أصبحنا في مواجهة الكاميرا مباشرة. التقطت نفساً عميقاً، ثم زفرته بهدوء.

عانقت عيناى المغفورتان عدسة الكاميرا؛ إلى أن تطابقتا كتطابق جسدي العاشقين المكتوين بنيران الحب، فيما أنصتت أذني لسماع إشارة البدء، وإطلاق العد التنازلي.

رفع إيهاب إبهامه الأيسر، وهتف بصوت جهور:

- خمسة، أربعة، ثلاثة، اثنان، واحد.

ثم أشار لي بالبدء في الكلام.

هتفت بحماس منضبط:

آن الألوان ليقول الشعب السوري كلمته الأخيرة. آن الألوان ليعبر الشعب السوري نحو التاريخ، نحو الحرية، نحو المستقبل ..

آن الألوان لهذا الشعب الذي أنجب قوافل الأحرار أن يسير على درب الحرية. حان الوقت للسير في طريق التغيير السلمي ..

أيها الشباب! يا شباب سوريا المستقبل! وحدوا صفوفكم، ركزوا جهودكم نحو التغيير؛ فأنتم الأمل، وأنتم المستقبل، ولن يُصنَعَ التغيير من دونكم ..

كونوا قلباً واحداً، صفاً واحداً، يداً واحدة، ولا تتفرقوا أبداً ..

ولتكن مصلحة الوطن هي القاسم المشترك الأكبر بينكم ..

كونوا خير خلف لخير سلف، كونوا كما كان أجدادكم الذين ساروا من قبلكم

على درب الحرية، على درب الثورة، ولا تتردوا ..
سيروا على هذا الدرب؛ كما سار شباب تونس، وشباب مصر، وشباب ليبيا ..
إنكم تصنعون التاريخ، وتخطون حروفه بأيديكم؛ فاجعلوه تاريخاً مشرفاً،
تاريخاً ناصعاً؛ لأنكم ستسيرون من خلاله نحو المستقبل المنشود ..
فكونوا كما عهدناكم، كونوا كما أنتم، دائماً إلى الأمام، ونحو التغيير.
أوقف إيهاب التسجيل بحركة فنية خاطفة، ثم رفع إصبعيه إلى الأعلى، وزفر
بعمق، وهتف قائلاً:

- عظيم.

تنفست الصعداء بعد أن كتمت أنفاسي في رثيَّ لدقيقتين ثقيلتين، وأرخيت
أطرافي المشدودة، ثم سألت إيهاباً بشغف وتلهف:
- كيف كان الأداء؟

همّ باسل واقفاً، ثم خطا نحوي بضع خطوات، وقال لي غابطاً:
- كان أداءً رائعاً.

قلت متعجباً ومستفهماً؛ وكأنني غير مصدق لما قاله من شدة فرحي:
- حقاً؟!

ربت باسل على كتفي، وقال مؤكداً كلامه، ومطمئناً لي:

- أهنئك من أعماق قلبي.

قلت له في امتنان وحبور:

- شكراً.

عقب إيهاب بارتياح:

- استطعنا اجتياز الخطوة الأولى بنجاح.

أحدث الخطاب المصور أثراً إيجابياً؛ تمثل في تحطيم جدران الخوف، وكسر
حواجز الرعب التي شيدها النظام في قلوب السوريين منذ بدء سنوات حكمه
المريّة.

تلقف الشبان السوريون -سواء الذين كانوا داخل البلاد أو خارجها- الخطاب المصور باهتمام بالغ، ومنذ ذلك الحين شرعوا في إلقاء خطاباتهم الحماسية عبر قنوات اليوتيوب المتعددة التي أطلقوها لاحقاً من أجل ذلك.

تنوعت الخطابات المسجلة التي دأب الشبان المثلثون على إطلاقها من داخل سوريا قبل اندلاع الاحتجاجات بأيام قليلة؛ فرغم أن حاجز الخوف كان قد انهار بشكل كامل في عموم البلاد إلا أن الحذر من غدر مخبرات النظام كان واجباً محتوماً على الشباب المتحمسين.

(7)

انبلجت خيوط الفجر الأولى كانبلاج البدر في عليائه، وسطعت أهداب الشمس فوق قباب البيوت وأسطح المباني؛ معلنة حلول يوم الثلاثاء الموافق للأول من شهر مارس.

ففي هذا اليوم الربيعي ازدادت الآمال العريضة بانطلاق الثورة في سوريا ضد النظام، لا سيما بعد أن اتخذت الثورة الليبية خطأً تصاعدياً ضد نظام القذافي؛ الذي أوغل قتلاً وفتكاً بالشعب الأعزل، في مدن «الزاوية»، و«الزنتان»، و«مصراته»، و«طرابلس»، وكشر عن أنيابه التتنة معلناً الاستعداد والتهيؤ لغزو «بنغازي»، وقتل كل من فيها. لم تنل الوحشية المفرطة الناشطين السوريين عن مواصلة استعداداتهم لإطلاق الثورة ضد النظام؛ مهما بلغت الأثمان.

كانت الأيام العشر الأولى من شهر مارس أشد صخباً وإثارة لنفوس الناشطين السوريين؛ الذين انقسموا إلى فريقين متضادين.

حيث رأى الفريق الأول أن يوم الثامن من مارس هو اليوم الأنسب لإعلان الثورة ضد النظام، فيما رأى الفريق الثاني أن يوم الثاني عشر من مارس هو الأجدر بإعلان الثورة.

عشية ذلك اليوم -وحسباً للجدل الدائر حول يوم إعلان الثورة- دعا الفنان حميد إلى عقد اجتماع طارئ في دارته الكائنة قرب دوار «كفرسوسة»، وسط مدينة «دمشق». توافد أربعة ناشطين؛ إلى منزل حميد الذي كان عبارة عن شقة في مبنى شاهق، احتلت الطابق الثاني منه.

دلف الناشطون الأربعة إلى مدخل البناء السكني المحاط بأشجار كثيفة واحداً تلو

الآخر؛ لئلا يلفتوا الانتباه من حولهم.

استخدم الناشط ماجد درج البناء، وصعد درجاته الإسمنتية بخفة ورشاقة وحذر شديد؛ لئلا يحدث ضجيجًا وجلبة.

تلاه الناشط أيوب، ثم الناشط نائل، إلى أن جاء دور الناشط كريم؛ والذي كان آخر النشاط الأربعة.

فغر حميد باب الشقة على مصراعيه، وأخذ ينتظر وصول رفاقه الأربعة بصبر نافذ. هتف حميد برفاقه الوافدين ما إن رأهم، ورحب بهم بأشد عبارات الترحيب قائلاً: - أهلاً وسهلاً، تفضلوا، تفضلوا.

دلف الناشطون الأربعة إلى فناء المنزل الذي بدا فسيحاً، ثم ولجوا إلى إحدى قاعاته الرحبية؛ والتي كانت مخصصة لحميد؛ حيث كان حميد يقيم في الشقة مع شقيقه الأصغر، ووالديه المسنين.

جلس الناشطون على أريكتين وثيرتين توسطتا الحجرة، فيما جلس حميد على كرسي دمشق عريق؛ بدا ككرسي قيصر روما، حيث شذبت عوارضه وقوائمه بالخيوط الذهبية، وازدانت مساندته الأمامية والخلفية بالنقوش الفنية النفيسة.

كرر حميد ترحيبه بالناشطين الأربعة الذين تعرف إلى بعضهم؛ كأيوب وكريم منذ بضعة أيام بواسطة صديقه الفنان ريمون الذي كان جالساً إلى جواره؛ قائلاً:

- حللتهم أهلاً ووطئتم سهلاً، هلّت الأنوار بوجودكم.

رد الناشطون بأصوات متفرقة:

- شكراً جزيلاً، حياك الله، سلمك الله.

سأل ريمون بصوت جهور:

- هل تحبون أن تشربوا القهوة أم الشاي؟

حدق الناشطون بعضهم في أعين البعض لهنية، ثم هتف أيوب بصوت أجش: - قهوة من فضلك.

أردف الناشطون الثلاثة الآخرون بصوت واحد:

- قهوة.

سأل ريمون مرة أخرى:

- كيف تفضلون مذاقها؛ محلاة أم خالية من السكر؟

أجاب حميد نيابة عن رفاقه، وهتف باسمًا في ثقة:

- القهوة التي تحلى بالسكر لا تسمى قهوة.

رد الناشطون مازحين:

- صحيح، بالفعل، صدقت.

قال حميد بتؤدة:

- أرجو إغلاق هواتفكم المحمولة؛ تحسبًا لأي طارئ.

أغلق الناشطون هواتفهم المحمولة في استجابة سريعة لطلب حميد، ونزعوا منها بطاريات التشغيل.

وهنا هتف ريمون قائلاً:

- من فضلكم أعطوني هواتفكم.

هم ريمون واقفًا، وطفق في جمع الهواتف المحمولة، ثم انطلق إلى المطبخ الملاصق للقاعة الرئيسية، ووضع الهواتف بجوار حوض المغسلة، ثم فغر صنبور الماء -كإجراء احترازي- منعًا لأي عمليات تجسس أو تنصت من قبل مخبرات النظام.

طلب ريمون من الشاب سعيد شقيق حميد صنع القهوة، وجلبها بعد الانتهاء من تحضيرها إلى قاعة الضيافة التي كانوا يجلسون فيها.

أقلل ريمون عائداً إلى قاعة الضيافة؛ التي امتلأت جدرانها باللوحات الفنية البديعة، والمنحوتات الصخرية والحجرية؛ التي رسمها ونحتها الفنانان المبدعان حميد وريمون طوال فترة دراستهما للفنون الجميلة.

قال حميد بحزم:

- أرجو الإنصات بتؤدة واهتمام.

عقب ريمون بإصرار:

- يا شباب! اليوم هو الأول من شهر مارس؛ علينا أن نتحرك بأقصى سرعتنا وإلا فأتنا القطار.

هتف كريم:

- لن يفوتنا إن شاء الله.

أردف حميد:

- فلنعمل إذن ابتداءً من هذه اللحظة الحاسمة.

هتف أيوب:

- كل شيء يسير على ما يرام.

حدق حميد في عيني أيوب، وعقب مُحاجَّجًا:

- ما قلته ليس صحيحًا، أرجو المَعذرة؛ فحتى الآن لم نتفق على اختيار يوم إعلان الثورة.

هزَّ ريمون رأسه، وقال باقتضاب:

- أنت على حق.

قال ماجد بتؤدة:

- دعونا نتفق أولاً على اختيار هذا اليوم المنشود.

قال نائل بصوت جهور:

- أرى أن نختار يوم الثامن من مارس.

سأل حميد:

- لماذا اخترت هذا اليوم بالذات؟! ألا يمكنك اختيار يوم آخر بدلاً منه؟

عقب ريمون مؤيداً كلام حميد:

- أجل، إن تاريخ هذا اليوم المشئوم يذكرنا بالانقلاب الأسود الذي قاده العسكر

على الديمقراطية الوليدة قبل خمسة عقود.

رد نائل بحصافة:

- لقد اخترت هذا اليوم نزولاً على رغبة الكثير من الشباب الذين أطلقوا حملات

دعائية على صفحات الفيس بوك للتظاهر في هذا اليوم.

تتحنج ماجد، ثم قال بصوت خفيض:

- أرى أن يوم الثاني عشر من مارس هو الأحق والأجدر من جميع الأيام الأخرى.
سأل حميد باندهاش:

- لماذا؟

رد ماجد بهدوء:

- أنسىتم أن هذا اليوم يصادف ذكرى الانتفاضة الشعبية الكردية؟
هتف نائل:

- كلام ننس.

أكمل ماجد مُحاججًا:

- إذا اخترنا يوم الثاني عشر من مارس فإننا نحیی ذكری يوم الشهيد الكردي في وجداننا، ونعيد الزخم للانتفاضة الكردية من خلال هذا اليوم الذي يمثل بُعدًا رمزيًا في وجدان الأكراد؛ كذكری مجزرة «حلبجة» التي لا تزال حية في الذاكرة.
في الأثناء دلف سعيد إلى قاعة الضيافة حاملاً صينية القهوة بكلتا يديه، وسار بضع خطوات متمهلة، ثم شرع في تقديم القهوة عبر تمريرها على الضيوف؛ واحدًا تلو الآخر.
رشف حميد رشفة خفيفة من فنجانہ، وقال بإصرار:

- من فضلكم دعونا نحسم هذا الجدل.

سأل ماجد باهتمام:

- حسنًا، هل لديك اقتراح آخر؟

هزّ حميد رأسه، ونبس قائلًا:

- أجل.

جذب حميد نفسًا عميقًا، وزفره قائلًا:

- أجريت لقاءات عديدة مع الإخوة الناشطين طوال الأيام الماضية بغية حسم هذا الجدل العقيم.

سأل كريم بشغف:

- وهل توصلتم إلى نتيجة حاسمة؟

أطبق حميد أجفانه، ونبس قائلاً:

- اتفقنا على إعلان الثورة في يوم الخامس عشر من مارس.

ران صمت مطبق على الجميع؛ اشتغل أرجاء القاعة كلها؛ حبس الناشطون أنفاسهم، وحدث بعضهم بأعين البعض وسط أكناف الدهشة التي سيطرت عليهم للحظات قصيرة.

سأل حميد بصوت جهور:

- ما رأيكم؟

رد ماجد بفتور:

- لا مشكلة لدي.

عقب نائل موافقاً:

- حسناً.

زمّ كريم شفتيه، وقال باقتضاب يوحي بالموافقة:

- ليس لدي كلام آخر.

وكذا أردف أيوب مؤيداً لما قيل:

- توكلنا على الله.

اتفق الناشطون على اختيار يوم الخامس عشر من مارس لإعلان الثورة ضد النظام بعد أن حسموا الجدل الدائر على معظم شبكات التواصل الاجتماعي.

لم يكن يوم الخامس عشر من مارس يحمل بُعْداً وطنياً لدى معظم السوريين، بل كان يوماً عادياً كباقي الأيام التي مضت عليهم دون أن تحمل في طياتها أي مناسبة وطنية أو دينية.

(8)

عشية يوم الخميس الموافق للعاشر من مارس؛ بدأت الحملات الإعلامية تشق طريقها بين صفوف الناشطين السوريين على شبكات التواصل الاجتماعي، واستمرت حتى صبيحة يوم الثلاثاء، الموافق للخامس عشر من الشهر عينه.

بدأت الأيام الخمسة التي سبقت اندلاع المظاهرات الصاخبة كما لو أنها أيام انتخابية حاسمة في تاريخ سوريا، وكان شعار: «يوم الغضب السوري» -الذي صممه الناشطون- من أبرز الأيقونات الثورية التي وضعوها كشعارات لهم في معظم صفحاتهم على موقعي فيس بوك وتويتر.

ظهر شعار الثورة على هيئة خارطة سوريا، ولُوِّت باللون البرتقالي الفاتح الذي عكس اندفاع الحمم الملتهبة من فوهة البركان النائر، وفي منتصف الخارطة انتصبت قبضة باللون الأسود الداكن، كانت القبضة في تعبير عن حالة السخط الثوري، وكتبَ بخط عريض في منتصف الشعار الرقم خمسة عشر؛ إيحاء لتاريخ الإعلان عن يوم الغضب السوري.

التهبت صفحات مواقع التواصل الاجتماعي العامة بالشعار الثوري؛ الذي شق طريقه أيضًا إلى جميع صفحات المواطنين السوريين الخاصة؛ سواء كانوا ناشطين ثوريين أو مجرد مواطنين عاديين، لا يربطهم رابط بالثورة.

حقق شعار الثورة خلال يومي العاشر والحادي عشر من مارس مساهمة كبيرة في حشد الرأي العام المحلي والعالمي، وحتّم فرضية قيام الثورة، ودعّم مطالب جماهيرها العريضة بالحرية والكرامة.

ظاهرة اليوم نفسه؛ تلقيت اتصالاً هاتفياً من أحد الناشطين المصريين الذين تفاعلوا بكل قوة مع فعاليات يوم الغضب السوري؛ والتي ألهمت بدورها مشاعرهم الثورية

عبر صفحات مواقع التواصل الاجتماعي.
 طلب الناشط عبد الرحمن -وهو شاب مصري في مطلع العشرينيات من عمره-
 لقائي بصحبة الناشط باسل، وأخبرني بأنه ينوي دعوة ناشط سوري آخر يعيش في
 مصر منذ بضع سنوات.
 خرجت من منزلي قبل غروب الشمس بقليل، واتجهت بأقصى سرعة إلى شارع
 الأزهر الكائن في منطقة القاهرة القديمة.
 ترجلت من الحافلة العامة عند فرجة نفق المشاة الملاصق لمسجد الأزهر الأثري، ثم
 سلكت الأزقة الضيقة المؤدية إلى بيت العود؛ الكائن خلف أسوار سوق الغورية لأصل
 إلى مكان الاجتماع المنشود.

جلس باسل في مكان رحيب، ظللته أشجار النخيل الباسقة، واحتلت الطاولة التي
 جلس أمامها الركن الأقصى من المقهى الصيفي المكشوف.
 كان باسل يدخن الشيعة، ويحتسي الشاي المصري.
 انتصبت أمام باسل، وهتفت لاهثاً:
 - عمت مساء، عذراً على التأخير.
 هم باسل ناهضاً لمصافحتي، ثم رد عليّ قائلاً:
 - لا بأس، أنسيت أنك في مصر؟
 جلست على الأريكة الوثيرة المواجهة لأريكة باسل، وقلت باسمًا:
 - كلاً لم أنس البتة، أحياناً تبدو مقارعة الازدحام في مصر أشدّ صخباً من مقارعة
 الاستبداد.

جذب باسل نفساً عميقاً من الشيعة، وزفره قائلاً:
 - لا تقل أحياناً، بل قل دائماً.
 هتفت بحسرة وانكسار:
 - على كل حال، لقد اعتدنا على أجوائها المكتظة بالازدحام، والمبتلية بالتلوث.

عقب باسل بفتور:

- وأصبحنا جزءاً لا يتجزأ من مصر.

أومأت برأسي إيجاباً، وهتفت مؤكداً:

- هذا صحيح، كلنا في الهم سواء.

في هذه الأثناء ولج إلى ساحة المقهى شابان يافعان، تسمرا في منتصف المقهى، وشرعا في التحديق يمنة ويسرة.

التقطت عيناى الشاين اللذين بدّوا منشغلين؛ بالبحث والتحري عن مجلسنا.

لفتُ نظر باسل إليهما خلصة، وسألته مستفهماً:

- هل رأيت هذين الشاين من قبل؟

هزّ باسل رأسه، وأردف متردداً:

- أظن أنني قد رأيت أحدهما قبل وقت قصير، ولكنني لست متأكداً من ذلك.

قلت في لهجة لا تخلو من عدم الارتياح:

- حسناً.

أدار الشاب عبد الرحمن جذعه الرشيق، والتفت نحونا، فرفعت يدي اليمنى للأعلى، ولوحت له بكفي المغفورة ليرانا.

استقبل عبد الرحمن إيماءتي بابتسامة عريضة، وهزّ رأسه المستطيل، ثم رفع إصبع إبهامه للأعلى ملوحاً لنا، ومشيراً إلى تعرفه على مكان جلوسنا، وهمس في أذن صاحبه بخفة، ثم سار نحونا بخطوات ثابتة.

كان عبد الرحمن قد تعرف إلى العديد من الناشطين السوريين المقيمين في مصر من خلال متابعة نشاطاتهم على صفحات التواصل الاجتماعي؛ كالفيس بوك، وغيره من المواقع الإلكترونية التفاعلية.

تهلل وجه الشاب عبد الرحمن، وهتف بصوت جهور حينما اقتربت خطواته منا:

- السلام عليكم.

هممت واقفاً لأسلم على عبد الرحمن، ورددت التحية بمثلها، ثم مددت يدي

لأصافحه هو ومن جاء معه؛ فعل باسل الأمر عينه.

حيّا باسل الشاين قائلًا:

- طابت ليلتكما، أرجو أن تتفضلا بالجلوس.

عرّف عبد الرحمن بنفسه، ثم أماط اللثام عن هوية صاحبه الجالس إلى جواره قائلًا:

- أنا عبد الرحمن، صحفي مصري، وعضو في ائتلاف شباب ثورة الخامس والعشرين من يناير، وهذا صديقي الأستاذ محمود، ناشط سوري، مقيم في مصر منذ أربع سنوات تقريبًا.

هتف باسل في حبور:

- أهلاً وسهلاً، نتشرف بكم صديقين عزيزين.

في هذه الأثناء حضر النادل، ورحب بنا، ثم دوّن طلباتنا من المشروبات الباردة والساخنة، وانصرف مغادرًا.

سأل عبد الرحمن بشغف كبير:

- كيف تسير الأمور في سوريا؟

رد باسل بهدوء:

- كل شيء على ما يرام حتى الآن.

عقب عبد الرحمن بلهفة جامحة:

- أتمنى أن أستفيق صبيحة يوم الثلاثاء القادم على وقع انطلاق المظاهرات الحاشدة

في سوريا.

هتفت قائلًا:

- هذا هو حلمنا الوحيد.

رد محمود بصوت خفيض:

- نرجو من أعماقنا أن يكون قد اقترب ميعاده.

حدقت في عيني محمود، ثم سألته بفضول:

- منذ متى وأنت في مصر؟

أجاب محمود بهدوء:

- منذ عام ألفين وسبعة.

شبهت مندهشاً، ثم سألته السؤال نفسه الذي ظل يدور في خلدي منذ أن وطأت قدماي أرض مصر، في العام الكئيب ذاته:

- لماذا اخترت مصر؟

رد محمود بهدوء:

- جئت إلى مصر لاستكمال الدراسة الجامعية، ومنذ ذلك العام آثرت البقاء فيها.

سألت مستفهاً:

- هذا يعني أنك لم تكن معارضاً للنظام منذ البداية؟

أجاب بالهدوء نفسه:

- كنت واحداً من ملايين السوريين الذين ابتلع الصمت أرواحهم، وما إن هبت

نسائم الحرية على مصر وتونس حتى تفجّر صمتي.

فقلت بفخر:

- عظيم.

جلب النادل طلباتنا من المشروبات على صينية معدنية مستديرة، ثم قام بوضعها

فوق سطح الطاولة الخشبية الرحيبة، وانصرف مغادراً.

هتف باسل بصوت جهور:

- تفضلوا يا شباب.

التقطنا الأكواب والكؤوس الزجاجية المملوءة بالمشروبات الباردة والساخنة

بأناملنا وأخذنا نرتشف منها بهدوء.

نظر عبد الرحمن إلينا، وهتف مجاملاً:

- سررت بلقائكم، وازددت شرفاً بمعرفتكم.

رد باسل، ثم رددت من بعده:

- شكراً جزيلاً.

- ونحن كذلك.

هتف عبد الرحمن باسمًا:

- أود أن أخبركما بخطواتنا القادمة.

رد باسل بفضول:

- تفضل، تفضل.

قال عبد الرحمن بهدوء وتؤدة:

- اتفقت مع الأخ محمود على تنظيم وقفة احتجاجية يوم الثلاثاء القادم الموافق للخامس عشر من مارس، أرجو إن كانت لديكما الرغبة في المشاركة أن تدعوا أصدقائكما ورفاقكما من الناشطين السوريين والمصريين لمشاركتنا في التضامن مع سوريا.

علق باسل بحماس:

- فكرة رائعة، وجهد عظيم.

سألت مستفهمًا:

- أين ستعقدان الوقفة الاحتجاجية؟

رد محمود بثبات، ودون تفكير؛ وكأن الأمر بديهياً:

- أمام السفارة السورية.

أردفت متسائلاً:

- وفي أي ساعة ستبدأ؟

أجاب محمود:

- في الثانية عشرة ظهرًا.

رشفت من كوب القهوة رشفة خفيفة، وأردفت قائلاً:

- عظيم، لا نستطيع في هذه الحالة إلا أن نكون معكم قلبًا وقالباً.

قال عبد الرحمن برزاق:

- على كل حال لقد أنشأت ليلة البارحة صفحة على الفيس بوك بعنوان «هنخرج

يوم 15 مارس تضامناً مع الثورة السورية» تستطيعان زيارتها، وإيصاها لكل مَنْ تعرفانه من الإخوة السوريين.

رد باسل:

- لا تقلق، سأفعل ذلك.

كان الاعتصام أمام سفارة النظام السوري في القاهرة، واحداً من أفضل الخيارات المتاحة أمامنا.

اقترحت على عبد الرحمن أن نستهل الصفحة التي أنشأها على الفيس بوك بدعوة الناشطين المصريين، وأفراد الجالية السورية في مصر إلى التظاهر أمام سفارة النظام يوم الخامس عشر من مارس؛ تضامناً مع أحرار سوريا.

تولى عبد الرحمن مهمة إبلاغ أصدقائه المصريين بهذا الحدث العظيم؛ فأرسل لهم رابط الصفحة، ودعاهم للانضمام إليها، والمشاركة فيها بزخم كبير.

فعل الناشطان السوريان باسل ومحمود الأمر عينه؛ حيث قاما بإرسال رابط الصفحة إلى الناشطين السوريين، ووجها دعوة مفتوحة لكل المواطنين السوريين المقيمين في مصر للحضور إلى مقر السفارة، والمشاركة في أول أيام الغضب السوري. احتوى نص الدعوة الذي دبجه الناشطون السوريون والمصريون وقاموا بنشره على صدر صفحاتهم الإلكترونية الصيغة التالية:

«دعوة عامة»

يعتزم الأشقاء السوريون والمصريون إقامة وقفة احتجاجية سلمية أمام السفارة السورية في القاهرة؛ الكاتبة في 18 شارع عبد الرحيم صبري - الدقي، وذلك يوم الثلاثاء الموافق للخامس عشر من مارس في تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً؛ للتنديد بسياسات القمع والاعتقال التي يمارسها النظام الفاشي ضد الشعب السوري.

ولكم جزيل الشكر

(9)

صبيحة يوم الاثنين الموافق للرابع عشر من مارس بدأت أولى استعداداتي لاستقبال يوم الخامس عشر من مارس.

شرعت أولاً في إجراء اتصالاتي الهاتفية المكثفة بوسائل الإعلام، ومراسلي القنوات المحلية والدولية؛ للتأكيد على مشاركتهم في تغطية فعاليات يوم الغضب السوري أمام مقر سفارة النظام بحبي الدقي، وأرسلت لهم عبر البريد الإلكتروني، ورسائل الهاتف النصية نص الدعوة التي صاغها الناشطون.

أبرقت بعد ذلك بالدعوة ذاتها إلى أفراد الجالية السورية في مصر؛ الذين كان يقدر عددهم بالآلاف، وكان الناشط محمود نقطة ارتباطي، ومحوّر اتصالاتي التي أجريتها مع أفراد الجالية السورية؛ وذلك بفضل علاقاته المتشعبة بهم.

عندما فرغت من إجراء الاتصالات الهاتفية بأفراد الجالية السورية، وعناصر المعارضة المقيمين في مصر، وتحققت من مشاركتهم في يوم الغضب السوري؛ بدأت بإعداد ملف كامل عن جميع المعتقلين السياسيين القابعين في زنازين النظام.

قمت بالتنقيب عن صورهم الشخصية، وسيرهم الذاتية، كما قمت بجلب بعض الصور الكاريكاتيرية الساخرة من رأس النظام، وأدرجت جميع الملفات والصور في حاضنة الذاكرة الإلكترونية المحمولة، ثم اتصلت بباسل، وحييته قائلاً:

- عمت مساء.

رد باسل الذي دوى صوته للجمهور عبر أثر الاتصال:

- أهلاً بك.

سألته قائلاً:

- هل فرغت من عملك؟

أجاب باسل بحماس:

- أوشت على الانتهاء.

قلت مقترحاً عليه مرافقتي:

- سأنتقل بعد قليل إلى العتبة، هل تأتي معي؟

أجاب باسل بالحماس ذاته:

- بكل تأكيد، ولكن لماذا؟

أجبت:

- لاستكمال استعداداتنا ليوم الغد.

أردف باسل:

- حسناً.

قلت له:

- سأنتظرك في الثامنة مساءً بجوار وحدة مطافئ العتبة.

أجابني باسل موافقاً ومودعاً:

- اتفقنا، إلى اللقاء.

انطلقت من بيتي الكائن في منطقة أرض اللواء الشعبية مع بداية أفول شمس الربيع، واختفائها وراء الأفق.

استقلت إحدى حافلات النقل العام، واتجهت إلى زقاق «بين السرايات» المتفرع من شارع البحوث الكائن في منطقة مقار؛ قاصداً الوصول إلى مكاتب الطباعة الموجودة هناك.

شقت الحافلة ذات الهيكل المعدني العتيق المفكك طريقها المكتظ بالازدحام، والموبوء بالتلوث الناجم عن الأدخنة المنبعثة من عوادم الحافلات السائرة ببطء؛ إلى أن وصلت أخيراً إلى زقاق بين السرايات المشود، فدلقت إلى أحد المكاتب المتخصصة

في مجالي التصميم والطباعة، ثم طلبت من الوظيفة التي تعمل في المكتب مساعدتي في طباعة صور المعتقلين السوريين المحفوظة داخل الذاكرة الإلكترونية المحمولة الخاصة بي.

فعلت الوظيفة ما طلبته منها، وحصلت بعد بضع دقائق على صور المعتقلين القابعين في سجون النظام، وكان من أهم صور المعتقلين التي أظهرتها الطباعة أولاً صورة المعتقل السياسي نزار رستناوي؛ وهو واحد من أبرز المعتقلين السياسيين الذين انقطعت أخبارهم، واختفت آثارهم نهائياً بعد انقضاء فترة حكمه في سجن صيدنايا الذي مكث فيه لفترة طويلة.

بعد أن فرغت من طباعة جميع صور المعتقلين غادرت المكتبة، وخطوت بضع خطوات متعجلة إلى محطة البحوث، ثم استقلت مترو الأنفاق، وانطلقت باتجاه محطة العتبة الكائنة وسط القاهرة القديمة.

ترجلت من المترو، وسرت بأقصى سرعة بين الأزقة والشوارع الجانبية؛ قاصداً الوصول إلى وحدة مطافئ العتبة.

أدركت قدماي المجهدتان، وحواسي المرهقة الشاب باسل الذي كان منتصباً بجوار حجرة صغيرة حاذت وحدة المطافئ، وأطلت على الشارع العام، وكانت تكتنف بين جنباتها مدفعاً أثرياً قديماً جذب أنظار المارة. هتفت لباسل بأنفاس لاهثة:

- مساء الخير.

جذب باسل نفساً عميقاً من لفافة التبغ، وزفره قائلاً:

- مساء النور.

حدق باسل في الحقيبة البلاستيكية التي حملتها بيدي اليمنى، وأطلت من حوافها الخارجية صور المعتقلين، ثم سأل بفضول:

- ماذا لديك في هذه الحقيبة؟

أجبت:

- بعض الصور.
أردف متسائلًا:
- لمن؟
قلت في حزن:
- للمعتقلين.
فغر باسل فمه مشدوًهاً، وأردف متسائلًا باهتمام:
- ماذا ستفعل بهذه الصور؟
قلت في حزم:
- سأعرضها غداً في الوقفة الاحتجاجية.
قذف باسل عقب اللقافة أرضاً، وهتف بانبهار:
- يا لها من فكرة عظيمة! كيف خطرت لك هذه الفكرة؟
ربت على كتف باسل، وقلت له مبتسماً:
- هيا بنا، دعنا ننطلق إلى السوق.
خطونا بضع خطوات متمهلة، واجتزنا طوابير الحافلات المكتظة أسفل جسر
الأزهر؛ قاصدين الوصول إلى شارع الجيش.
ولجنا شارع الجيش بعد ذلك، ثم دلفنا إلى أحد المحلات التجارية المتخصصة في
بيع المعدات الكهربائية.
ابتعت مضخماً للصوت كالذي يستخدمه الباعة الجائلون في الأزقة، همس باسل في
أذني متسائلاً قبل أن نشرع في مغادرة المحل:
- أراك اشتريت مكبراً للصوت.
أومأت برأسي إيجاباً، وزممت شفتي، وقلت باقتضاب:
- أجل.
سأل باسل بفضول:
- عذراً، ولكن لماذا؟

تنهدت بعمق، وقلت:

- ليصل بصوتنا إلى أبعد مدى، وليدوي صده في آذان عناصر السفارة.
التقط باسل نفساً عميقاً، وزفره ببطء وتؤدة، ثم قال محاطاً بأغلال انبهاره
واندهاشه:

- يا إلهي! عظيم.

بعد حصولنا على المضخم الصوتي انطلقنا إلى شارع الموسكي المتاخم لشارع
الجيش؛ لشراء الأعلام السورية التي ارتأيت رفعها في يوم الغضب السوري.
اجتازنا الشارع جيئةً وذهاباً لمرات متتالية بحثاً عن العلم السوري، ولكننا لم نفلح
في العثور عليه.

لم يكن لدى الباعة الجائلون، وأصحاب المحلات التجارية الذين قصدناهم،
وشرعنا في سؤالهم، سوى الأعلام المصرية.
عندما فقدنا الأمل في العثور على الأعلام السورية؛ التي ندر وجودها في ذلك
الوقت في مخازن الباعة المصريين بادرنى باسل بسيل من الأسئلة.
ارتسمت خطوط التعب والإجهاد على قسما وجه باسل المتجهم، وبدأ يسأل
في حيرة:

- ما العمل الآن؟

سهمت لبرهة قصيرة محاولاً استجاء الأفكار العالقة في ذهني، ثم أردفت مجيئاً:

- سوف نشترى أعلاماً مصرية.

فغر باسل عينيه مذهولاً، وسأل باندهاش:

- ماذا سنفعل بها؟

أجبتة في هدوء:

- سنقوم بتعديلها لتصبح أعلاماً سورية.

سأل باسل في حيرة:

- كيف؟

أجبتة في بساطة:

- بواسطة الألوان المائية، هلم معي.

وهنا قال باسل في استسلام:

- حسنًا.

ابعتنا حزميتين من الأعلام المصرية ذات الأحجام الكبيرة والصغيرة، ثم أقفلنا عائدين إلى بيتينا؛ حيث افترقنا عند ميدان لبنان الكائن في منطقة المهندسين، وتواعدنا على اللقاء صباحًا أمام مبنى السفارة السورية.

قبل أن أدلف إلى بنائي السكني الكائن في شارع الصفطاوي، ولجت إلى مكتبة حدوتة، وابتعت منها بعض أقلام الحبر المائي، وألواح الكرتون الكبيرة.

دلفت إلى الشقة بعد عشاء يوم كامل؛ استغرق جهدًا كبيرًا في السوق، ووقتًا طويلًا في الاتصالات التي أجريتها مع الناشطين المصريين، وبعض أفراد الجالية السورية.

قبل أن التقط أنفاسي الأولى جلست فوق أرض الصالة، وبدأت بإجراء بعض التعديلات على الأعلام المصرية؛ فشرعت أولاً في تغيير ألوانها الأصلية بواسطة قلم الحبر المائي، ومن ثم أضفت إليها النجمتين السوريتين الخضراوين عوضًا عن النسر المصري الأصفر، وعندما نجحت في عملية التعديل تمكنت من الحصول على شكل العلم السوري الأكثر قربًا إلى العلم المصري.

استغرقت عملية التعديل أكثر من ثلاث ساعات من العمل المتواصل، وبعد انتهائي من إعداد الأعلام بدأت بتدبيج الشعارات على صفحات الألواح الكرتونية التي جلبتها من المكتبة.

استوحيت معظم الشعارات التي دبجتها من هتافات الجماهير العربية الثائرة في القاهرة وتونس وطرابلس، وأضفت إليها بعض الشعارات الأخرى التي آمنت بفحواها لردح طويل من الزمن؛ مثل:

«عاشت سوريا حرة أبية»

«عاش الشعب السوري الحر»

«لا وطن من دون حرية، ولا حرية من دون وطن»

«بالروح بالدم نفديك يا سوريا»

«يسقط عرش الخيانة والفساد»

«نظام القمع والاستبداد في سوريا يتهم أحرار سوريا بالعمالة؛ وهو نظام الخيانة

والمزايدات الرخيصة»

في تمام الساعة الرابعة فجرًا أنهيت جميع التحضيرات والاستعدادات ليوم الغضب السوري الموافق للخامس عشر من مارس، ثم خلدت إلى النوم لبضع ساعات قليلة بعد يوم شاق ومضني.

في تمام الساعة الثامنة صباحًا رن جرس المنبه المنتصب جوار سريري. استيقظت استيقاظًا جبريًا من النوم؛ مددت أطرافني وأضلاعي، وتثاءبت لمرتين متتاليتين، ثم هممت ناهضًا من السرير.

استقيمت أمام حوض المغسلة؛ حاولت غسل وجهي المنتفخ ببضع قطرات من الماء البارد، حيث كنت أحفظ به دائمًا في وعاء بلاستيكي كبير؛ لانقطاع المياه دومًا في الحي الشعبي الذي كنت أقطنه لبضع سنوات عجاف؛ مكابدًا مرارة البؤس والشقاء. رشفت قهوة الصباح، ثم شرعت في ارتداء ثيابي، وبعد أن فرغت من ارتداء بزتي الرسمية حملت الحقائب البلاستيكية الثلاث التي وضعت فيها الأعلام، واللافتات، والمضخم الصوتي، والصور الفوتوغرافية؛ اتجهت بخطوات سريعة نحو باب الشقة. أدت المفتاح بالمغلاق، وفتحت باب الشقة، ثم هبطت درجات السلم بخطوات حذرة إلى أن أدركت الطابق الأرضي، ثم أكملت السير داخل ردهة البناء السكني حتى استقبلني شارع الصفطاوي.

انصببت واقفًا بجوار أحد الحوائت الملاصقة للمبنى السكني، والمطلّة على الشارع الموبوء بالفوضى والتلوث، ووقفت منتظرًا مرور إحدى ماكينات التوك توك.

خلال أقل من دقيقة واحدة استقلت التوك توك، وانطلقت نحو سلم المشاة الكائن أسفل جسر شارع السودان.

شق التوك توك الطريق المتعرج والممتلئ بالحفر والمطبات؛ كما يشق القارب الصغير مساره وسط الأمواج المتلاطمة.

قذفت الحفر التوك توك يمنة ويسرة وسط أكوام القمامة المتكدسة على أطراف الطريق، وبدأ تأرجح هيكله الصغير كتأرجح الهودج السائر في جوف الصحارى. وصلت إلى سلم ميدان لبنان خلال أقل من عشر دقائق، فترجلت من التوك توك، ودفعت للسائق تعريفة النقل، ثم ارتقيت درجات السلم بهمة ونشاط كبيرين، وشرعت في الصعود نحو الأعلى.

كان السلم مكوّنًا من حوالي خمسين درجة؛ جلست في منتصفه امرأة مصرية فقيرة، في منتصف الخمسينيات من عمرها.

جلست المرأة البائسة جلسة القرفصاء على أرض السلم، وإلى جوارها جلس طفل صغير في الرابعة من عمره.

كانت المرأة تضع أمامها قفصًا خشبيًا متوسط الحجم، دثرته بقطعة قماش سوداء اللون، وعلى سطح القفص وضعت أكياسًا بلاستيكية صغيرة بحجم الكف ملأت باطنها بحبوب الترمس المسلوق؛ وهي حبوب دأب المصريون على ابتلاعها من الباعة الجائلين في الشوارع والميادين العامة.

تخيلت جلوس هذه المرأة تحت لهيب الشمس الحارقة في ذروة أيام الصيف القائل، وتحت انهمار سيول الأمطار في أوج الشتاء الصحراوي القارص؛ بعثت صورتها المختزنة في ثنایا الذاكرة الحزن والأسى في قلبي، وظل الأمر يتكرر كلما أبصرتها عيني صعودًا ونزولًا.

استقبلني جسر المحور ما إن خطت قدمي آخر درجة من درجات السلم.

ذرعت الجسر بخطى سريعة؛ قاصدًا الوصول إلى الطرف الآخر.

كان الجسر يعج بحافلات النقل المنطلقة في كلا الاتجاهين، واحتوى طرفه الأيمن

على رواق إسمنتى صنع خصيصاً للمشاة الغادين والرائحين.
 بدا الرواق محدباً محدباً بسيطاً في منتصفه كتحدب القوس.
 بلغ طول الجسر الممتد بين سلّمي المحور والسودان مسافة تزيد عن خمسمائة متر؛ كانت تلك المسافة البسيطة كافية لإحداث التفاوت الطبقي بين الأحياء الراقية والأحياء المعدمة.
 كان الجسر الذي ذرعه قدمي أقرب ما يكون إلى الحدود الجغرافية بين دولتين؛ إحداها تعيش في بحبوحة اقتصادية ورفاه اجتماعي، وأخرى تعيش على الكفاف والتقشف، والفهر النفسي والاجتماعي.
 كما أحدثت الأمتار القليلة من الجسر حاجزاً طبيعياً فصل بين مجتمع الفقراء والأغنياء في مصر، وبين الطبقة الراقية والمتقفة، والطبقة المسحوقة والنامية.
 كان هذا الجسر واحداً من عشرات الجسور التي فصلت بين مدينتي القاهرة والجيزة، وعزلت الأحياء بعضها عن البعض الآخر.
 قبل أن أهبط إلى أسفل درجات جسر السودان، لاحظت الفرق الذي بدا كبيراً، والبون الذي بدا شاسعاً بين الأبنية العشوائية التي انتصبت على يمين الجسر، والأبنية الراقية بأبراجها العالية التي بدت شاحخة كشموخ الأهرامات على يسار الجسر.
 بدا ذلك التفاوت جلياً بين المشهدين الصادمين للوجدان الإنساني قبل بلوغي لسكة القطار التي ظهرت أسفل الجسر؛ وسط حقول البرسيم الخضراء.
 كانت سكة القطار حاجزاً آخر من حواجز الفصل التي فصلت بين أفراد الشعب المصري؛ زمنياً ومكانياً من خلال موقعين وحدثين مختلفين.
 هبطت درجات جسر السودان، ثم مشيت باتجاه محطة حافلات ميدان لبنان التي اتصلت مؤخرتها بالسلم.

استقللت حافلة نقل خاصة من أمام المحطة، وانطلقت متوجّهاً من شارع السودان إلى شارع التحرير في حي الدقي.

استغرق الطريق بين الشارعين حوالي نصف ساعة، ورغم قرب المسافة بينها إلا أن الازدحام المروري كان في أوجه مع إشراق الصباح.

ترجلت من الحافلة عند ناصية شارع عبد الرحيم صبري، ونظرت في ساعتي فوجدت عقاربها الزاحفة تشير إلى التاسعة والنصف صباحًا.

أكملت السير في الشارع بخطوات متتدة حتى بلغت منتصفه، وعندما اقتربت قدماي من مبنى السفارة رمقتها بنظرة خاطفة، ثم واصلت السير المتمهل نحو نهاية الشارع.

لم يقف قبالة باب السفارة المطل على الشارع أي مواطن سوري أو حتى مصري، والغريب في الأمر أنه لم يقف رجل أمن مصري واحد من رجال الأمن؛ الذين اعتادوا على الوقوف قبالة أبواب السفارات لتأمينها وحراستها ضمن الأعراف الدولية.

عاشت مصر خلال تلك الأيام فراغًا أمنيًا مرعبًا بفعل التداعيات التي نجمت عن ثورة الخامس والعشرين من يناير.

لم أر أي ناشط من أفراد الجالية السورية الذين أخطرتهم بموعد الوقفة قبل يوم واحد؛ رغم أن الاتفاق بيننا اقتضى الحضور أمام مبنى السفارة في تمام الساعة العاشرة صباحًا.

تابعت السير نحو فندق الكينج الذي تلابناه الراقي مبنى السفارة، وانفصل عنها بزقاق جانبي.

دلفت إلى بهو الفندق في الطابق الأرضي، وجلست في المقهى المجاور للبهو. اتخذت من إحدى الطاولات المحاذية لواجهات الفندق الزجاجية، والمطلّة على شارع عبد الرحيم صبري نقطة ثابتة؛ لأتمكن من خلالها رصد حركة القادمين والمغادرين من أبناء الجالية السورية.

في هذه الأثناء ظهر أمامي الناشط المصري عبد الرحمن؛ الذي انتصب بقامته المشوكة عند الناصية المواجهة للفندق؛ والتي يقع فيها مقر حزب الوفد؛ فأشرت إليه بيدي من خلف زجاج النافذة.

استجاب عبد الرحمن لإشارتي، وفي لمح البصر دلف إلى بهو الفندق، ثم وصل إلي، وألقى تحية الصباح قائلاً:

- عمت صباحاً.

هممت واقفاً لأصافح عبد الرحمن؛ صافحته بحرارة وحفاوة، بعد أن رددت التحية بمثله؛ قائلاً:

- صباح الخير.

جلسنا سوياً بعضنا بمحاذاة الآخر، ثم قال عبد الرحمن باندهاش:

- لم أر أحداً من السوريين حتى الآن، أين هم؟

أجبت بامتعاض مبطن:

- أعتقد أنهم سوف يحضرون بعد قليل، أرجو ألا تقلق كثيراً.

أردف عبد الرحمن معللاً:

- ربما تأخروا بسبب الازدحام الشديد.

قلت معقباً على كلامه وموافقاً له:

- أنت أدري مني بحركة المرور هذه الأيام.

هزّ عبد الرحمن رأسه، وقال:

- بالفعل، لم تعد الطرق، ووسائل المواصلات تطاق على الإطلاق؛ لا سيما بعد أن

خلت الشوارع الرئيسة من عناصر شرطة المرور.

قلت مهدئاً له:

- على كل حال سنترقب وصول الناشطين واحداً تلو الآخر؛ فنحن لا نملك الآن

سوى انتظار قدومهم.

في غمرة الحديث مع عبد الرحمن رمقت بطرف عيني مجموعة من الشباب؛ احتشد

معظمهم عند الناصية التي يقع فيها مقر حزب الوفد، وظهر بينهم الناشط محمود؛

الذي ما إن رأيته حتى هممت واقفاً على الفور، وهتفت لعبد الرحمن:

- ها قد جاءوا.

سأل عبد الرحمن بفضول:

- مَنْ؟

فقلت على الفور:

- الناشطون.

أردف بحماس:

- هيا بنا إذن.

انطلقت برفقة عبد الرحمن صوب الناشطين، كان عددهم حوالي عشرين شابًا وشابة؛ معظمهم من أبناء الجالية السورية في مصر، ومعهم بعض الناشطين المصريين من شباب ثورة الخامس والعشرين من يناير؛ كان من بينهم الصحفي وائل والناشط ديدي.

هتف عبد الرحمن بصوت جهور مفعم بالنشاط:

- صباح الخير يا شباب.

رد الناشط محمود:

- صباح النور، أرجو ألا تؤاخذونا؛ لقد تأخرنا قليلًا بسبب الازدحام الشديد في وسائل النقل والمواصلات.

رد عبد الرحمن بابتسامة:

- لا بأس.

التفت محمود إلى الناشطين المتجمهرين، وخاطبهم بأعلى صوته محفزًا:

- هل أنتم مستعدون؟

رد الناشطون بصوت واحد:

- مستعدون.

حدقت في أعين الناشطين المفعمة بالأمل، والمشعة بالغضب، ثم هتفت إليهم بحبور وارتياح قائلاً:

- أهلاً وسهلاً بكم، سررت برؤيتكم.

رد بعض الناشطين:

- أهلاً بك.

في هذه الأثناء تقدم شاب سوري نحوي، وصافحني بحرارة، ثم عانقني بشوق جارف؛ دون أن أعرفه، وهمس في أذني قائلاً:

- مرحباً أخي.

قلت مرحباً به في اندهاش:

- أهلاً وسهلاً.

يبدو أنه قد لاحظ اندهاشي هذا؛ فقال معرفاً بنفسه:

- أنا طلال، ولدت في القاهرة منذ عشرين عاماً بعد أن فرّت عائلتنا من بطش النظام، وددت لقاءك قبل فترة وجيزة، ولكن لم تسنح الفرصة لي بذلك، الحمد لله الذي جمعنا سوية في هذا اليوم العظيم.

فقلت في فرح:

- سررت بلقائك.

بعدما فرغت من معانقة طلال؛ تقدم شاب مصري نحوي، حاملاً بكلتا يديه، لوحة زجاجية كبيرة، احتوى متنها على صورة ضوئية لرجل مصري في منتصف الأربعينيات من عمره.

بدت ملامح الرجل في الصورة واضحة؛ فكان داكن البشرة، أشهب الشعر، حاد النظرات، ممتلئ الوجه، كثيف شعر الذقن والشارب.

أسند الرجل قبضة يده اليمنى على خده الأيسر، وبدا مرتدياً قميصاً شتوياً مقلماً باللون الأحمر، والأبيض، والأزرق الداكن.

استقرت صورته ضمن إطار أنيق؛ زُخرفت حوافه بالزخارف الكلاسيكية، وكتب في منتصف الصورة عبارة:

«أفرجوا عن خالد»

هتف الشاب بصوت محتق بالآلم:

- السلام عليكم.

رددت التحية قائلاً:

- وعليكم السلام.

أردف الرجل قائلاً:

- كيف حالك؟

أجبت ممتلئاً بالدهشة، ومتسائلاً في الوقت ذاته:

- بخير، عذراً، هل تعرفني؟

هزّ الرجل رأسه قائلاً:

- نعم.

قلت متسائلاً:

- لا أذكر أننا التقينا من قبل.

فقال الرجل:

- لقد رأيتك قبل مدة وجيزة في نقابة الصحفيين.

جذبت نفساً عميقاً، ثم زفرت قائلاً:

- ربما.

عرّف الشاب بنفسه، ثم أشار بإصبعه إلى صورة الرجل التي يحملها؛ قائلاً:

- أنا شريف، وهذا أخي خالد.

سألت بصبر نافذ، بعد أن أثارَت صورة الرجل دهشتي واستغرابي:

- ما دهاه؟

ترقرقت العبرات في عيني شريف، وشهق بعمق، ثم قال بصوت متهدج في ألم:

- منذ خمس سنوات لم أرَ وجهه.

سألته في اهتمام:

- أين هو الآن؟

أجاب شريف بحرقه وحسرة:

- في سوريا.

سألته في اهتمام أكثر:

- ماذا يفعل هناك؟

وهنا طفرت دمعة حارقة من عين شريف؛ سالت مرارتها على وجنته المتغضنة،

وقال بألم مديد:

- إنه في معتقلات النظام السوري.

ربت على كتف شريف، وقلت له مواسياً:

- أتمنى أن تراه قريباً، فهو ليس أول معتقل عربي يزج به في سجون النظام؛ فهناك

مئات المعتقلين العرب الذين أمضوا أيامهم المريرة في معسكرات الاعتقال الخاصة

بالنظام مع أشقائهم السوريين.

هزّ شريف رأسه بأسى، وقال متوجعاً:

- إن شاء الله.

ذرعت الشارع جيئةً وذهاباً؛ وسط جموع الناشطين، وشرعت أنفحص ملاحظهم

واحدًا تلو الآخر.

لم أتعرف على أحد منهم سوى الناشطة مريم؛ وهي شاعرة سورية أقامت في مصر

لبضع سنوات قليلة، بعد انتقالها من دمشق إلى القاهرة.

غمرت السعادة روحي، وملأ الفرح شغاف قلبي، واتسعت دائرة البهجة في عيني

اليتين لم تصدقاً للوهلة الأولى ما رأته من ازدياد عدد الشباب السوريين المتوافدين من

كل مكان.

استمر توافد الناشطين السوريين والمصريين إلى مقر سفارة النظام؛ حتى بلغ

عددهم قرابة الثلاثين ناشطاً.

تنهدت عميقاً، ثم قلت إلى الناشطين بصوت جهور:

- هل أنتم مستعدون للمظاهرة؟
رد الناشط باسل، الذي وصل لتوه:
- نحن مستعدون دائماً، ولكن حبذا لو انتظرنا قليلاً.
فسأله محمود باهتمام:
- لماذا؟
أجاب باسل:
- ثمة ناشطون آخرون قادمون على الطريق.
عقبت قائلاً:
أرى أن نبدأ فعالياتنا على الفور، وإذا أتى ناشطون آخرون فلي انضموا إلينا في وقت لاحق.
- أردف خالد؛ وهو أحد المشاركين في الوقفة:
- عددنا معقول ومقبول.
هتف محمود بأعلى صوته:
- توكلنا على الله.
حدقت في عيون الناشطين، وتفرست وجوههم متسائلاً:
- هل جلبتم معكم أعلاماً أو صوراً أو لافتات؟
صمت الناشطون لبرهة قصيرة، وامتنعت وجوههم من الدهشة والارتباك، وأوماً البعض برأسه نافيةً ذلك، فيما رد البعض الآخر بصوت خفيض:
- كلا، لم نجلب شيئاً من هذا القبيل.
كنت أعلم في قرارة نفسي مسبقاً أنه لن يخطر في بال الناشطين إحضار الأعلام، وطباعة الصور، وكتابة اللافتات والشعارات، وقد صدقت توقعاتي عندما سألتهم عن ذلك.
- كانت عقارب الساعة تشير إلى العاشرة والنصف صباحاً، أخرجت لوازم المظاهرة من الحقائب البلاستيكية الثلاث، ثم قمت بتوزيع الأعلام السورية والمصرية -التي

لم أعد لها- وصور المعتقلين السوريين، واللافتات الكرتونية على الناشطين السوريين والمصريين.

رفع جميع الناشطين السوريين والمصريين الصور والأعلام واللافتات بأيديهم، فيما حملت المضخم الصوتي بيدي، وانطلقنا نحو مبنى السفارة؛ والذي لم يكن يبعد عن مكان وقوفنا سوى بضعة أمتار قليلة.

جذبت مضخم الصوت نحو شفتيّ، وصدحت بصوت جهور بهتافات الغضب التي كان المتظاهرون السوريون يرددونها في ساحة الحريقة بدمشق قبل بضعة أيام قليلة؛ قائلاً:

«الشعب السوري ما بينذل .. الشعب السوري ما بينذل..»

ردد الناشطون لأول مرة في حياتهم، وبملء أفواههم، وبأعلى أصواتهم التي تفتقت بها حناجرهم ما كانوا يخشون ترديده على مدار أربعين عاماً:

«الشعب السوري ما بينذل»

بدت الصور واللافتات والأعلام التي حملناها بأيدينا في مخيلة الطاقم الأمني لسفارة النظام وكأنها أسلحة فتاكة، فَقُضَّ مضجع يوسف أحمد السفير المدلل، والصهر الودود لعائلة الأسد بسببها.

أرعبت لافتاتنا السلمية، وجدان النظام، وزلزلت مخيلته المهووسة بنظريات المؤامرة والغطرسة، وحملت في طياتها الكثير من معاني الحرية وقيم الكرامة؛ التي خرجنا بأرواحنا وأجسادنا لأجلها.

عانقت صور المعتقلين السوريين عنان السماء، وارتقت اللافتات التي أدبجتها بالشعارات السياسية والأدبيات الثورية فوق الرؤوس الحامية، وسط هتافات الناشطين الصاخبة التي دوت في أرجاء المكان، وأيقظت الكثير من سكان الحي الراقي؛ الذين أطلوا برؤوسهم من شرفات بيوتهم، وراحوا يراقبون بعيونهم ذات الأجفان المتفتحة من آثار النوم اعتصامنا الصاخب؛ دون علمهم بأن هذا اليوم هو يوم الغضب السوري.

علت الهتافات، والتهبت الحناجر، وازداد حماس الناشطين السوريين بانضمام المزيد من المواطنين المصريين من سكان حي الدقي إلى الاحتجاج؛ لموازة إخوانهم السوريين في أول أيام ثورتهم في مصر؛ والتي بدأت أمام سفارة النظام مواكبةً للثورة السورية المندلعة في أنحاء سوريا كلها، ودعمًا لها.

هتف الناشطون السوريون بالعديد من الهتافات الصاخبة، وكان أشدها صخبًا:

«الله.. سوريا.. حرية وبس»

«الشعب السوري ما بينذل»

«الشعب يريد إسقاط النظام»

فيما ردد الناشطون المصريون هتافتهم التضامنية دعمًا للشعب السوري في توقيه للحرية؛ قائلين:

«يا مبارك يا طيار خد بيدك هالبشار»

«يا بشار يا جبان يا عميل الأمريكان»

«مصر وسوريا إيد واحدة»

في تمام الساعة الحادية عشرة والنصف صباحًا بلغ عدد المتظاهرين أكثر من سبعين متظاهرًا.

اشتد أرق موظفي سفارة النظام إثر زيادة عدد المتظاهرين، وخافوا من إمكانية قرح المتظاهرين لأبواب السفارة، وتجربتهم عليها، ومداهمتهم لها.

كان معظم العاملين في السفارة وموظفيها من رجال الأمن الذين أرسلهم نظام الأسد في هيئة دبلوماسية لتمثيل الشعب السوري زورًا وبهتانًا في العواصم العالمية، وأمام المحافل الدولية.

كانت المظاهرة حتى ذلك الحين، أول مظاهرة، انطلقت ضد نظام الأسد من خارج سوريا في تاريخ الخامس عشر من مارس، كما كانت أول رسالة أوصلها الشباب الثائر للنظام، الذي كان يتابع باهتمام بالغ، ما يجري أمام سفارته بالقاهرة، لحظة بلحظة.

في تلك الأثناء، ومع اقتراب عقارب الساعة من الثانية عشرة ظهرًا؛ ازداد تشبث قلوبنا وعقولنا وأرواحنا بقلوب الناشطين داخل سوريا؛ لمعرفة ما سيحدث هناك، وبإصرار أشد مما كان عليه الحال في بداية انطلاق المظاهرة، في تمام الساعة العاشرة والنصف صباحًا.

كان جميع الناشطين الذين شاركوا في المظاهرة أمام السفارة في حالة قلق وترقب؛ انتظارًا لما سيحدث في سوريا في هذه اللحظات الحرجة؛ فخر وجنا وتحدينا لسفارة النظام ما كان ليحدث لولا تيقننا من انطلاق المظاهرات، واندلاع الثورة في سوريا. ظللت أثناء المظاهرة أترقب آخر الأخبار الواردة من داخل سوريا لحظة بلحظة؛ من خلال أحاديثي الدائمة مع باسل الذي كان على اتصال مباشر بصديقه الفنان حميد ورفاقه من الناشطين في سوريا.

سألت بأسلاً بصوت جهور ليسمعي وسط ضجيج الأصوات:

- ما الأخبار الآن في سوريا، هل من جديد هناك؟

زَمَّ بأسل شفتيه، وهزَّ رأسه بأسف شديد، ثم أردف قائلاً:

- مع الأسف لا جديد حتى الآن.

سألت باضطراب:

- هل من المعقول أن يتخاذل الشباب، ويحجموا عن الخروج في مظاهرات حاشدة

كما وعدوا؟

قاطعني بأسل، وهتف في لهجة حازمة قائلاً:

- لا تقلق، سيخرجون، أنا متيقن من هذا، ولكن علينا أن نصبر قليلاً.

فقلت ولا زال الشعور بالاضطراب يخامرني:

- حسناً.

بدأ الصحفيون المصريون والأجانب الذين أعلمتهم بميعاد المظاهرة، ودعوتهم

لتغطية أحداثها بالتوافد إلى مقر السفارة.

خلال تلك اللحظات العاصفة والأوقات العصيبة اندفع جميع موظفي السفارة،

ومعهم بعض الطلبة السوريين؛ الذين كانوا ينجزون معاملاتهم إلى خارج مقر السفارة، ووقفوا صفًا واحدًا بمحاذاة بعضهم الآخر، وجوههم في وجوهنا، في تحدٍّ واضح وصريح لنا ولوقفتنا.

أسندوا ظهورهم إلى جدار السفارة، وبدت وجوههم المكفهرة في مواجهتنا، وراحوا يهتفون في وجوهنا الساخطة، وعلى مرمى أسباعنا:

«بالروح بالدم نفديك يا بشار»

«الله.. سوريا.. بشار وبس»

لم يتأخر ردنا على هتافات عناصر السفارة بهتافات مضادة؛ أشد صخبًا وقوة:

«بالروح بالدم نفديك يا سوريا»

«الله.. سوريا.. حرية وبس»

خرجت عناصر السفارة بأوامر رسمية أصدرها سفير النظام وصهره المدلل؛ الذي لم يقبل البتة أن يهان سيده وولي أمره من خلال مظاهرتنا، فأوعز بغضب شديد إلى الموظفين والطلبة السوريين؛ الذين أُخْتُجِرَتْ معاملاتهم في السفارة بأن يخرجوا للرد علينا، وإسكانتنا في مظاهرة مضادة.

كان خروج عناصر سفارة النظام أكبر تحدٍّ واجهنا خلال تلك الدقائق العسيرة؛ فإما أن يعلو صوتنا الحر ليطنى على أصواتهم المنكرة وهتافاتهم الرخيصة، وإما أن نندحر على أعقابنا.

جاء ردنا سريعًا، ولم يتأخر قط، بل ازداد قوة واندفاعًا أمام مشهد تذلل عناصر السفارة لأسيادهم، ومحاولة استرضاءهم بشتى السبل.

ظهر ردنا السريع من خلال التصعيد في لجة الخطابات، والهتافات الحماسية. وقبل أن أنطلق متحدِّين رجال السفارة؛ الذين كانوا يراقبون نشاطاتي في القاهرة منذ الأيام الأولى للمنفي، رأيت أعينهم المغشية بالكره، ونظراتهم الدنيئة؛ التي تقذف حقْدًا وبغضًا تطاردني كالأشباح من مكان لآخر.

ولكنني وبتحدٍّ صارخ لأعين الشر، ورغبة مني في مواجهتها؛ تقدمت صفوف

المتظاهرين السوريين والمصريين متلفحين بالعلم السوري، وحاملاً المضخم الصوتي
بيدي اليسرى، ورحت أهتف بأعلى طبقات صوتي الجمهور:

«يسقط الخائن. يسقط العميل»

«يسقط بشار.. يسقط.. يسقط.. يسقط»

«يسقط السفاح. يسقط المنشار»

«يسقط عدو الشعب.. يسقط.. يسقط.. يسقط»

وسط هذه الجلبة الثورية؛ تقدم أحد عناصر السفارة، ووقف قبالي، ورفع بيده
عالياً لوحة زجاجية؛ احتوى متنها على صورة رأس النظام بشار الأسد.

بدا ووقوف العنصر مستفزاً لي، ولم يكن أمامي من خيار آخر سوى دفعه إلى الوراء
مستعيناً بقوتي البدنية؛ بغية إسقاط اللوحة التي أصبحت في مواجهتي مباشرة أرضاً.
اتخذت قراري الحاسم بإسقاط الصورة أرضاً؛ من خلال القفز إلى الأعلى،
والإمساك بأطراف اللوحة، وانتزاعها بقوة من يدي عنصر السفارة.

رجعت خطوة واحدة إلى الخلف، وأعطيت المضخم الصوتي لأحد الناشطين؛
لأتيح لنفسي فرصة التحرك بشكل أسهل وأسرع أثناء القفز إلى الأعلى.
لم أنتظر المزيد من الوقت، بل اندفعت بكل قوتي، وقفزت إلى الأعلى حتى أصبحت
أطراف اللوحة في متناول قبضتي.

فوجئ العنصر باندفاعي نحوه؛ الأمر الذي دفعه إلى إحكام قبضته على اللوحة
بكل ما أوتي من قوة.

خلال تشبثي في طرف اللوحة العلوي بقوة؛ بدأ الصراع بيني وبين العنصر حول
الظفر باللوحة التي أصبح نصف هيكلها بحوزتي، ونصفه الآخر بحوزة العنصر.
ازدادت قوة العنصر في إحكام قبضته على لوحة رئيسه، من خلال مضاعفته لقوة
شد اللوحة وجذبها إليها؛ والتي أبدأها في صراعه المصيري؛ لأن أي تراخ من جانبه من
الممكن أن يؤدي إلى فقدانه للوحة، وسيعد حينها خائناً للنظام، كما أن استحوادي على
اللوحة كان سيؤدي إلى تحطيمها بشكل تلقائي.

استمر الشد والجذب العنيف بيننا؛ إلى أن سقطت اللوحة أرضاً. هممت بالتقاطها، لكن عنصرًا آخر بادر بالتقاطها على الفور قبل أن أصل إليها. استرعى احتدام الموقف بيني وبين العنصر انتباه الناشطين المصريين؛ فما إن اعتدلت، وشددت قامتي، ووقفت بشكل طبيعي بعد انحنائي نحو الأسفل لالتقاط الصورة؛ حتى شعرت بيدٍ غليظة امتدت من خلفي، وقبضت على ذراعي الأيمن، وجذبتني بقوة نحو صاحبها. كانت تلك اليد يد الناشط المصري علاء، فاستجبت على الفور إلى جذبه لي، وتراجعت إلى الوراء بضع خطوات.

تمتم علاء بعدة كلمات في أذني، وسط صخب المظاهرة، وعلو هتافاتها قائلاً:
- أرجو ألا تحتك بمثل هؤلاء؛ إنهم أناس معدومو الأخلاق والضمير، وقد يتسببون في أذيتك.
رددت بأنفاس متقدة:

- لا تقلق، سأتعامل معهم بطريقة تجعلهم يدفنون رؤوسهم في الرمال.

تعامل الصحفيون الأجانب مع المظاهرة السلمية بطريقة موضوعية، ودون تحيز لأي طرف ضد الآخر، بل اندفع بعضهم لتقصي آراء الطرفين حول ما يجري أمام السفارة، ومعرفة الأسباب التي دفعت الناشطون المصريون للتضامن مع أبناء الجالية السورية.

اقترب مراسل قناة سي إن أيه الأميركية من أحد رجال السفارة الذين كانوا محتشدين خلف جدار السفارة؛ ويدعى زكريا، وسأل المراسل العنصر زكريا عن رأيه في الأسباب التي دفعت المصريين والسوريين إلى التظاهر ضد نظام الأسد، فما كان منه إلا أن احتد على الصحفي، ورد بهياج عصبي وهستيريا جنونية:

- هذه ليست مظاهرة سلمية، هذه مؤامرة أميركية برعاية عملاء السفارة الأميركية في القاهرة.

امتنع الصحفي من جواب العنصر زكريا الملقى على عواهنه، ونتيجة لذلك طلب منه أن يأتي بما يوثق كلامه من أدلة وبراهين؛ فقال له مستفهماً:

- قلت إن المظاهرة مدبرة ومخطط لها من قبل السفارة الأميركية؛ فهل لديك دليل على هذا الاتهام؟

رد العنصر زكريا في ثورة وهياج:

- لا أحتاج إلى دليل؛ لأن الدليل موجود أمامك.

فسأله الصحفي باهتمام:

- أين هو الدليل؟

أجاب زكريا ولا زالت ثورته عارمة:

- عملاء السفارة الأميركية.

سأل الصحفي باندهاش:

- هل لك أن تسميهم؟

أجاب العنصر جواباً عاماً سخيلاً:

- كل هؤلاء الخونة المتجمهرين من حولك.

لم ترق تصريحات العنصر زكريا للمراسل الصحفي، واعتبر أن كلامه غير عقلاني، ويحمل في طياته الكثير من التخبط والعشوائية؛ ولذلك انسحب على الفور بعد انتهاء العنصر من كلامه؛ دون أن يخوض معه في المزيد من التفاصيل.

كان العنصر زكريا يشغل منصب رئيس اتحاد الطلبة البعثيين في سفارة النظام؛ الذين أوفدهم النظام إلى مصر ليكملوا دراستهم في الجامعات المصرية مقابل التجسس على أفراد الجالية، ورصد نشاطاتهم السياسية والاقتصادية.

اقرب المراسل الصحفي بعد ذلك من مكان تجمعهم الكائن خلف مقر حزب الوفد، والمواجه لجدران السفارة بشكل مباشر؛ أصغت السمع إلى تصريحات العنصر زكريا بعناية؛ واستقرت كل كلماته المتوترة بعمق في أذني، ولم أكن مستغرباً حقيقة من صدور مثل هذه التصريحات التي تنم عن البغض، والحقد، والكراهية للحرية

والكرامة، ولكن ما أثار دهشتي حقاً هو كم الأكاذيب التي ساقها العنصر، ونسج من خيوطها المهترئة قصصاً خرافية؛ لا وجود لها على أرض الواقع. في ذلك الوقت استشاط غضبي، وازداد حنقي من سلوك عناصر السفارة، وتصرفهم الأرعن ضدنا.

كانت أعين العناصر تقدح شرراً، وتطفح حقداً أسود ضدي؛ فانعقاد المظاهرة أصبح جريمة كبرى، وخيانة عظمى في قواميس النظام، ولا بد لنا - كناشطين - أن ننال السحق، والزجر الشديد؛ عقاباً على فعلتنا الشنيعة.

أدركت بحسي الأمني أن أعين العناصر تراقبني لغرض دنيء قد يصل إلى حدود الاعتداء المباشر أو غير المباشر علي، كما أدرك علاء، ومحمود، وعبد الرحمن أبعاد تلك النظرة البغيضة؛ فما كان منهم إلا أن التفوا حولي، وشكلوا درعاً بشرياً واقياً.

طفح الحقد المكبوت في قلوب العناصر، وطفى صديده على السطح، وظهر حب الانتقام جلياً لديهم؛ من خلال إيماءات التهديد بالقتل، والذبح، والإشارات المشينة التي أرسلوها لنا أمام الصحفيين، وجموع السيدات اللواتي شاركن في المظاهرة.

لوح أحد عناصر السفارة بيده نحوي، بعد أن سدّد نظراته الممتلئة بالحقد والعداء نحو عينيّ اللتين استقبلتا نظراته بمزيد من الثبات والإصرار، ثم رفع العنصر كف يده اليمنى إلى الأعلى، ووضعها بشكل أفقي مستقيم وكأنها سكين حادة في موازاة عنقه، وطفق يحز عنقه بحواف كفه لبرهة قصيرة إيماء إلى الذبح.

كان ذلك مشهداً تمثلياً يحاكي مشاهد الذبح الحقيقية، وكانت إشارة الذبح رسالة النظام الدامية؛ التي أرسلها إلينا من خلال ذلك العنصر الذي تبوأ منصباً رفيعاً في السفارة، ومفادها بأن علينا أن نستعد للذبح أو القتل في أي لحظة، وفي أي مكان.

أما العنصر الآخر؛ فلوح بقبضة كفه اليسرى إلى الأعلى، ثم أخرج من قبضته إصبعه الوسطى؛ محاولاً أن يحاكي شكل العضو الذكري في تحرش جنسي استفزازي خارج بنا.

واستمر العنصر لوقت قصير في الإشارة بإصبعه نحوي، وبشكل متكرر؛ بغية

استفزازي، واستثارة غضبي.

كانت إيماءة العنصر كافية لإسقاط الأقنعة المزيفة التي تدثر بها نظام الأسد على مدار سنوات حكمه المديد، وإمالة اللثام عن وجهه القبيح، وفضح أخلاقه المنحطة التي سيطر من خلالها على كل أرجاء سوريا، وحكمها بقوة الحديد والنار؛ دون أن يكون لأي إنسان - كائنًا من كان - حق الاعتراض على حكمه.

لم يراع ذلك العنصر السفه بفعلة الشائنة تلك وجود السيدات بيننا، ولم يحترم كيانهن.

حينذاك؛ اضطرت للرد على ذلك الموقف المشين باندفاع لا شعوري صارخ، وغضب شديد نابع من صميم القلب.

فدفعني نيران الثورة التي اضطرت في كياني إلى الإمساك بصورة رأس النظام؛ محاولاً حرقها أمام أعين عناصر السفارة؛ الذين كادت قلوبهم أن تحترق حنقًا وغضبًا مما أقدمت على فعله.

كان الناشط علاء يحمل بيده صورة تعبيرية لجرائم النظام ضد المعتقلين السوريين القابعين في سجونهم؛ حيث أظهرت الصورة بشار الأسد بعينين غائرتين ملونتين باللون الأسود القاتم بدلًا من اللون الأزرق الحقيقي الخاص بعينه، فيما سالت الدماء القانية من أنيابه.

أوعزت إلى علاء بأن يعطيني الصورة؛ قائلاً بصوت جهور:

- اعطني هذه الصورة، من فضلك.

رد علاء دون تفكير؛ قائلاً:

- تفضل.

أمسكت الصورة بكلتا يديّ، ثم التفت التفاتة سريعة إلى الناشطين المتجمهرين حولي، وقلت بصوت عالٍ:

- هل لدى أحدكم قداحة؟ أعطوني قداحة.

اقترب مني أحد الشبان المصريين، وقدم لي قداحته قائلاً:

- تفضل يا باشا.

قبل أن أشرع في إضرار النيران في صورة رئيس النظام لاحظت أن الناشطة مريم ترمقني بطرف عينيها، وهنا باغتتني بصوتها العذب الرقيق قائلة:

- لا تحرق الصورة، أرجوك، فنحن متظاهرون سلميون، لا ندعو إلى العنف أبداً. أو مات برأسي لمريم موافقاً على ما قالت، وأطفأت لهيب القداحة، ثم أعدتها إلى صاحبها.

لم يخفف ذلك الموقف من رغبتني في الرد على عناصر السفارة؛ فيران الغضب التي استعرت في روحي دفعنتي بشكل لا شعوري إلى رفع صورة رأس النظام إلى الأعلى، وتمزيقها أمام أعين العناصر، وكاميرات الصحفيين.

فقد رجال السفارة صوابهم عندما شاهدوني أمزق صورة ولي أمرهم ونعمتهم بكل بأس وقوة، وزاد ذلك المشهد من سعارهم الأمني؛ حتى وصلوا إلى أقصى درجات الجنون.

لم تعر عناصر السفارة سلوكها الأرعن الذي عبرت عنه أمام عدسات الكاميرات، وعلى مرأى ومسمع المواطنين المصريين أي اهتمام أو ضبط، بل ازداد غيها وطيشها أثناء ترديد هتافات بغیضة استفزت مشاعر المواطنين المصريين الذين شاركوا المظاهرة؛ والتي كان منها:

«الشعب يريد إسقاط كامب ديفيد»

«دي مش مظاهرة سلمية دي مؤامرة أميركية»

استدعت تلك الهتافات التي رددتها عناصر السفارة حقن وغضب الناشط علاء، وارتسمت علامات الغضب على وجوه المارة من أبناء الحي؛ عندما تعدت الإهانات التي التقتها آذانهم كل الخطوط الحمراء، وتجاوزت الشئام كل حدود الأدب والأخلاق.

فات عناصر السفارة أن الطعن في وجدان وكبرياء المصريين، وفوق أرض بلادهم، سيستنفر ويستنهض همهم ككتلة بشرية واحدة، تجمعها رابطة العصبية الموروثة

تاريخيًا من العهد الفرعوني، ويوحدها الانتماء لذات العرق.
خطا علاء بضع خطوات نحو جدار السفارة، ثم تسمر بكل عزم وقوة أمام عنصر
السفارة الذي رفع لافتة ورقية كتب عليها:

«دي مش مظاهرة سلمية، دي مؤامرة أميركية»

عبر علاء عن غضبه الشديد بنظراته الثاقبة؛ التي انطلقت من أسفل حاجبيه
المقطين كشهب السماء.

واستمر علاء في تحديقه لعناصر السفارة لبرهة قصيرة دون أن ينبس بأي حرف.

ثم أطلق علاء أولى كلماته لعناصر السفارة قائلاً:

– لماذا تشتمون مصر؟

رد العنصر زكريا بكل صلف وخيلاء:

– اذهب إلى سفارة إسرائيل واحتج أمامها، ماذا تريد من بلدي سوريا؟ إذا كنت
رجلاً، ولديك نخوة تجاه بلدك مصر فاذهب إلى سفارة إسرائيل، وأسقط معاهدة
كامب ديفيد؛ معاهدة الذل والعار.

قطب علاء حاجبيه الكثين، وجلجلت كلماته المدوية كدوي القذائف الصاروخية
على جبهات المعارك:

– أنا رجل، وسوف أحطم رأسك العفن، وأقطع لسانك القذر.

اندفع علاء نحو زكريا كاندفاع السيل الجارف، وأطبق على جذعه بكلتا يديه
القويتين.

حاول علاء في بداية هجومه الساحق إسقاط خصمه أرضاً، وعندما فشل في
مسعاه سدد له لكمة قوية أصابت صدغه الأيمن.

استدعى ذلك الموقف المحتدم هجوم رجال السفارة على علاء، ولكن سرعان ما
قوبل هجومهم المباغت بهجوم مضاد؛ شنه المواطنون المصريون الذين كانوا يقفون
بجوار السفارة عليهم.

شعر عناصر السفارة بأنهم قد وقعوا في ورطة كبيرة بهجومهم المباغت على الناشط

علاء؛ ما اضطرهم إلى الانسحاب والتراجع، مع بدء أولى موجات الهجوم المصري المعاكس.

مني هجوم عناصر السفارة على الناشط علاء بالفشل الذريع بسبب التدخل السريع للمواطنين المصريين، ومؤازرتهم لعلاء، لا سيما بعد أن سمعوا الكم الهائل من الإهانات والشتائم التي أطلقتها عناصر السفارة ضد مصر؛ أرضاً وشعباً.

حاول قنصل النظام أن يضع حداً للورطة الكبيرة التي أوقعتهم فيها عناصره مع المواطنين المصريين؛ فما كان منه إلا أن خطا بضع خطوات نحوي. كنت في ذلك الوقت واقفاً في ركن قصي بجوار المتظاهرين السوريين، وكانت المسافة بيننا قرابة ثلاثة أمتار.

كنت مسهباً حينذاك في حديث صحفي مع مراسل صحيفة الشروق المصرية، وكنت أتكلم عن المظاهرة العفوية، وحثية قيام الثورة في سوريا.

خلال حوارِي الصحفي كانت عيناِي ترصدان كل شيء من حولي، وتعملان كأبراج المراقبة؛ لالتقاط حركة أي جسم غريب.

توزعت نظراتي في جميع الاتجاهات، واتخذت بصورة تلقائية تدابير احتياطية حذرة؛ خوفاً من غدر أحد عناصر السفارة، أو أحد زبانيته؛ إذ عهد عليهم ذلك بكثرة.

كانت عيني اليمنى تراقب عناصر السفارة، فيما كانت عيني اليسرى مع المراسل الصحفي.

فجأة رمقت بطرف عيني رجلاً في مطلع الخمسينيات من عمره، كان يرتدي ثياباً رسمية، ويمشي بخطوات واثقة وسط تجمع العناصر، ثم أخذ يقترب من الركن الذي كنت أقف فيه.

توقفت عن الكلام مع الصحفي لبضع ثوان قصيرة، واستدرت نحو الرجل القادم؛ إلى أن تلاقت نظراته العابسة مع نظراتي الحادة.

افتتح الرجل حديثه معي بصوت هادئ قائلاً:

- أنا القنصل السوري؛ الدكتور أحمد، هلا رافقتني إلى السفارة؟
أجبتّه متسائلاً في حزم:
- لماذا؟

رد القنصل بهدوء:

- أود أن أتحدث معك حول بعض القضايا.
عقبت حانقاً:

- قدماي لا تطئان أوكاركم الأمنية المسماة بالسفارة.
ابتلع القنصل ريقه، وأردف قائلاً بخبث ودهاء:

- حسناً، كما تشاء، ولكن هل لنا أن نعرف ما هي مطالبكم؟ لماذا تظاهرتُم أمام
السفارة؟ هل ثمة مشكلة بيني وبينك؟ هل نحن مقصرون معك في أي خدمة أو
معاملة؟

انطلق لساني عندها حاملاً كل الآلام والأوجاع التي اختزنها صدري طوال
سنوات المنفى المريرة؛ فقلت له في أسى:

- ألا تعلم أن اليوم هو يوم الغضب السوري، وأنه اعتباراً من هذا اليوم العظيم
سنبدأ ثورتنا ضدكم؛ لقد أتينا إلى هنا لنقول كلمتنا ضد نظامك الفاشي الذي زج
إخوتنا السوريين في السجون والمعتقلات.

نحن هنا لأننا ضد الفساد والقمع.

لا نريد شيئاً لأنفسنا، ولا ينقصنا شيء.

نريد حريتنا وكرامتنا.

نريد أن نرجع إلى وطننا سوريا الذي حرمتونا من تقبيل ترابه.

رجع القنصل القهقري دون أن يقول شيئاً، وقبل أن أستكمل حوارِي مع المراسل
الصحفي تقدم نحوي مراسل وكالة برس، وأعاد الأسئلة نفسها التي طرحها زملاؤه
الصحفيون؛ قائلاً:

- لماذا أنتم هنا؟ ما هو سبب احتجاجكم على نظام الأسد؟ وما هي مطالبكم؟

استقبلت عدسة الكاميرا بعينين امتلأتا بالأمل في غد أفضل، وبثقة مفعمة بالحياة والحماس، ثم انطلق لساني كالسهم النافذ:

- نحن هنا للتعبير عن حريتنا التي سلبها النظام منذ ما يزيد عن أربعين عاماً؛ نحن هنا لنقول لنظام الأسد كفى قتلاً، كفى اعتقالاً لأحرار سوريا، كفى تنكيلاً بالشعب السوري، كفى فساداً، كفى هدرًا لمقدرات الشعب.

قبل أن يستدرك المراسل الصحفي كلامه بسؤال آخر اقتحم العنصر زكريا أجواء الحوار التلفزيوني كالشور الهائج، وراح يتحدث مع المراسل بلغة عنصرية جوفاء؛ قائلاً:

- لا تصدقوا ما يقوله هذا الدجال، إنه عميل للأمريكان والصهاينة، لا تصدقوا هذا اليهودي الماجن، إنه كذاب منافق.

رمقني زكريا بنظرة شيطانية طفرت منها نجوم الشر، ثم تابع حديثه المسعور قائلاً:

- أود أن أذكرك إذا كنت قد نسيت، أو مس ذاكرتك الخرف، بعملك المفضوحة لعائلة حسني مبارك؟ اذهب إلى أسيادك الذين باعوك بثمن بخس بدلاً من الوقوف هنا.

استدعى ذلك المبحوم المباحث تدخل الناشطين السوريين الذين كانوا برفقتي طوال فترة المظاهرة بعد أن شاهدوا بأم أعينهم النوايا الشريرة التي أضمرتها عناصر السفارة، وها هم يعبرون عنها الآن بكل وضوح بعد أن فقدوا صوابهم وبصيرتهم.

اندفع الناشط علاء بحماسة الثوري المتوثب بمجرد رؤيته لزكريا وهو يتحدث بغطرسة مفرطة أمام عدسة الكاميرا.

أدى تدخل علاء إلى تفهقر زكريا على عقبه بعد أن دفعه علاء بكل ما أوتي من قوة بدنية.

كانت نظرات علاء الحادة التي سددها نحو زكريا كافية لزرع الرعب في قلبه، ولثني ذراعه الطويلة التي تجرأ على مدها في وجه الناشطين.

في غمرة انفعالي، وشدة غضبي الناجم عن هجوم العنصر الأرعن الذي شوّش

على الحوار؛ مارست أقصى درجات ضبط النفس، وكظم الغيظ. تذكرت في هذه اللحظات أنني لا زلت أمام عدسة الكاميرا، وأن اللقاء الصحفي لم ينته بعد، وأيقنت أن الرد المناسب على هذا العنصر الكذاب لا يكون إلا بالمنطق والبرهان، وأن الفرصة لا زالت متاحة لي أمام عدسة الكاميرا، فقلت في قوة محاجبًا: - هل رأيتم الآن مَنْ هو السلمي، وَمَنْ هو الإرهابي؟ وَمَنْ هو الضحية وَمَنْ هو الجلاد؟ وَمَنْ هم الأحرار وَمَنْ هم العبيد؟ ما جرى الآن من هجوم غاشم أثبت صحة أقوالنا، وبالدليل القاطع، حول الطبيعة العدوانية لهذا النظام القمعي الذي أطلق علينا عناصره الأمنية كالكلاب المسعورة، وهذا فقط لأننا طالبنا بأدنى حقوقنا في الحرية والكرامة؛ لن نهون، ولن نستكين بعد الآن، وسنظل نطالب بحريتنا وكرامتنا حتى ننتزعها بقوة الحق من براثن هذا النظام الفاشي.

صدرت أوامر الاعتداء على المتظاهرين السوريين بشكل مباشر من سفير النظام الذي أوعز إلى عناصره بالتصدي للناشطين، وخطفهم من الشارع، واقتيادهم بالقوة إلى داخل أسوار السفارة.

لم تكن سفارة النظام تشبه سفارات الدول الأخرى في أي شيء، بل كانت وكراً أمنياً ملحقاً بالأوكر الأمنية الكبرى؛ داخل جحيم السجن الكبير المسمى سوريا. كما لم تكن السفارة تحتوي على موظفين إداريين، بل كانت تحتوي على عناصر الأمن التي ابتعثها النظام من فروعه الأمنية إلى الخارج على هيئة موظفين مدنيين.

أما الطاقم الدبلوماسي؛ فكان ثلثة من ضباط الاستخبارات الذين أخفوا تاريخهم الدموي، وموهوا حقيقتهم الفاضحة خلف ثيابهم الرسمية، وربطت أعناقهم الأنيقة. في هذه الأثناء حضرت قوة عسكرية من قوات الجيش المصري؛ مكونة من ناقلة تحوي عددًا من الجنود، وبرفقتها ضابطان مصريان من ضباط الجيش، وضابطان آخران من ضباط الأمن المركزي المصري أيضًا.

خلت المظاهرة منذ بدايتها وحتى نهايتها تقريبًا من أي مظاهر أمنية، خاصة بعناصر الشرطة والأمن المصريين.

أخذت قوات الجيش المصري تنصب العوارض الحديدية، وتثبتها في منتصف الطريق، ونجح الجنود في الفصل بين المتظاهرين -السوريين والمصريين- وعناصر سفارة النظام.

أوعز ضابط في الجيش المصري -برتبة عقيد- إلى جموع المتظاهرين بضرورة إنهاء المظاهرة المنعقدة أمام سفارة النظام في أسرع وقت؛ منعاً لأي صدامات مسلحة بين الطرفين.

استجاب الناشطون السوريون والمصريون لطلب الضابط، وقرروا الانسحاب، والاكتماء بما حققوه من إيصال صوتهم لكل أحرار العالم. طلب الناشط عبد الرحمن من الضابط أن يمهّلنا بعض الوقت لاستكمال التظاهر، وتحقيق الهدف الذي خرجنا من أجله كاملاً؛ وهو إيصال صوتنا لأكبر عدد من الناس في العالم كله؛ فخطبه قائلاً:

- يا باشا، أرجو أن تأذن لنا بالبقاء لمدة نصف ساعة.

رد الضابط بهدوء:

- يا بُني، أرى أن تغادر أنت وأصحابك؛ حنقاً للدماء، ودرءاً للمشاكل.

عقب عبد الرحمن محاججاً:

- يا باشا، نحن لسنا من هواة المشاكل، لقد أتينا إلى هنا للتظاهر السلمي، وليس للاعتداء على الآخرين.

هتف الضابط بصبر نافذ:

- لم يعد لدي كلام آخر أقوله، أتمنى في المرة القادمة أن تحصلوا على إذن بالتظاهر؛ إذا كانت لديكم النية في التظاهر مرة أخرى.

رد عبد الرحمن بفتور:

- حاضر.

غادر الناشطون السوريون والمصريون موقع المظاهرة، واتجهوا بخطوات متتدة

إلى فندق الكينج المجاور لمبنى السفارة، وتسمروا أمامه، وبدعوا يتهامسون فيما بينهم حول خطواتهم القادمة، وكيف لهم أن يستمروا في نشاطاتهم السياسية، وما الذي يتوجب عليهم فعله في الأيام القادمة.

ارتأت مريم أن الحديث في الشارع لا يأتي بنتيجة، وأنه لا بد لنا من الجلوس سوية؛ لتتيح لأنفسنا فرصة لتعارف بعضنا على البعض، ولننسق خطواتنا القادمة بشكل منظم ومدرّوس.

كانت مريم تقطن في نفس الحي المجاور لسفارة النظام؛ ما أتاح لها إمكانية التعرف على كل ثنايا الحي.

اقترحت مريم أن نذهب بشكل جماعي إلى المركز الدولي للتنمية الثقافية؛ الكائن في شارع السد العالي المجاور لشارع عبد الرحيم صبري.

انطلقنا نحو المركز الدولي؛ والذي لم يكن بعيداً عن موقع السفارة.

حدقت مريم في شاشة هاتفها المحمول، ويبدو أن هناك خبراً سعيدياً قد وصل إليها؛ لأنها كادت أن تطير كفراشة الربيع، من شدة الفرح والسرور، اللذين ملأ شغاف قلبها، وارتسما على وجهها.

استمرت مريم في التحديق إلى شاشة هاتفها، وشيئاً فشيئاً ارتسمت ابتسامتها العريضة على وجهها الدمشقي المكتنز؛ الذي بدا في تلك اللحظات التاريخية مشرقاً بالبهجة والسعادة كضيء القمر في أوج سطوعه.

هتفت مريم بكلمات مشوقة، زاد سحرها الفتان من شوقنا وشغفنا لسماعها مرة أخرى؛ فقالت:

- اليوم هو أعظم يوم في حياتي، والأخبار الواردة من دمشق أعذب وأجمل أخبار سمعتها طوال حياتي.

سأل باسل بتلهف:

- ما الخطب؟

ردت مريم في حبور:

- ها قد انطلقت رحلة الحرية، وأصبح الحلم حقيقة.
طلق الناشطون يتساءلون في قرارة أنفسهم: ما الذي حدث لمريم؟ وما السر وراء ابتسامتها، وفرحها الشديد؟
لم تصمد تساؤلات واستفسارات الناشطين طويلاً في أذهانهم المجهدّة، ولم يكن بمقدورهم الاستنتاج والتخمين في خضم الأجواء الثورية العاصفة.
أدركت خطوات محمود المتعجّلة مريم، واعترض طريقها، ثم تسمّر أمامها، ورشقها بحزمة من الأسئلة؛ دارت في خلد كل منا:
- ما دهاك؟ ما الخطب؟ أرجو أن تدعينا نشاركك الفرح، إذا كان هناك ما يستحق الفرح.

ردت مريم بابتسامة عريضة وفرح غامر، ملأ قلبها:
- لقد انطلقت المظاهرات في دمشق.
أنعشت كلمات مريم أرواحنا المتصحرة بأشواق القمع والقهر، ووقع صداها على آذاننا التي استقبلتها بشوق متأجج كاستقبال أوراق الشجر لقطرات الندى في مطلع الفجر؛ فأنعش قلوبنا وأرواحنا المتعطشة للفرح.
قفز الناشطون من شدة الفرح الذي غمر أرواحهم، وتعانقوا بشوق جارف؛ كما لو كانوا تائهين في صحارٍ مقفرة وفجأة عثروا على ذواتهم المفقودة في غياهب القهر والنسيان بعد شتات طويل.

ردد الناشطون هتافاتهم الحماسية وسط شارع السد العالي:

«الله.. سوريا.. حرية وبس»

«الشعب السوري ما بينذل»

«سوريا حرة حرة.. بشار يطلع برا»

(10)

ظهيرة يوم الثلاثاء الموافق للخامس عشر من مارس؛ انطلق الناشطون في مظاهرة حاشدة، جابت سوق الحميدية الدمشقي الذي شهدت أزقته وقبابه انطلاق أولى مظاهرات الغضب ضد نظام الأسد؛ والتي دعا إليها الناشطون على صفحات الفيس بوك، واليوتيوب، وتويتر.

جالت المظاهرة في سوق الحميدية الأثري الكائن في قلب مدينة دمشق، والمجاور لقلعتها التاريخية.

امتد تأثير المظاهرة إلى الأسواق الضيقة المتفرعة من سوق الحميدية، وواصلت زحفها إلى أن وطأت أقدام الثوار بوابة معبد جوبيتر المواجهة لساحة المسجد الأموي.

ردد الشباب المتظاهرون هتافاتهم الثورية التي دوى صداها الهادر في أرجاء السوق التاريخي كافة، والتي كان من أشدها:

«وينك يا سوري وينك»

«الله.. سوريا.. حرية وبس»

«سلمية.. سلمية»

«الشعب السوري ما بينذل»

«بالروح بالدم نفديك يا سوريا»

استفاق نظام الأسد من غفوته العميقة على هتافات الثوار السوريين الذين زلزلت كلماتهم الحماسية عرش طغيانه العتيد، رغم نفي بشار الأسد حدوث

أي مظاهرات في سوريا؛ مثلما حدث في مصر وتونس؛ بذريعة أن سجنه الكبير «سوريا» دولة مستقرة، تقدم للشعب ما يريد، ولا يوجد فيها أي سخط ضد نظامه المهيمن على رقاب البشر، والشجر، والحجر.

بعث وزير الداخلية اللواء سعيد سمور لأزماله من ضباط الأمن والشرطة طالبًا منهم أن يقودوا مظاهرة تأييد لرأس النظام في سوق الحميدية؛ لكبح جماح مظاهرات الغضب التي امتد لحيها إلى أرجاء السوق كلها.

نفذ الضباط ما طلب منهم على الفور، وقاموا بحشد عدد غفير من عناصر الأمن والشرطة، ومجموعة من قطعان البلطجية والشيبة، ومن ثم توجهوا بهم إلى سوق الحميدية.

كان الشيبة عبارة عن مجموعة من الوحوش البشرية الضارية التي تربت وترعرعت في مزرعة النظام.

مارس الشيبة أعمال القتل، والسلب والنهب، والسطو المسلح على البيوت والمحلات التجارية تحت سمع ونظر النظام، وبدعم منه في معظم الأحيان.

فمعظم المهام القذرة التي لم يرغب النظام في تنفيذها عبر أجهزته الأمنية والاستخبارية؛ كان يوكل أمر تنفيذها إلى قطعانه المتوحشة.

خلال وقت قصير ولجت عناصر الأمن بالثياب المدنية إلى سوق الحميدية، وبدأت تهتف هتافات التأييد لنظام الأسد؛ بغية التشويش على عقول المواطنين السوريين الذين أنصتوا لهتافات الغضب، المنددة بجرائم النظام.

استمر زحف عناصر الأمن المدعومة بقطعان الشيبة؛ التي جُلِبَتْ وأُعْتِمِدَ عليها منذ اللحظات الأولى لانطلاق المظاهرات في سوريا؛ لتمارس وحشيتها المفرطة ضد المدنيين السوريين.

اقتحمت عناصر الأمن المدججة بالأسلحة الفردية المخفاة خلف الثياب مظاهرة الغضب؛ التي أوشكت على الوصول إلى تخوم أعمدة معبد جوبيتر الإغريقي، وكررت عناصر الأمن هتافات التأييد لنظام الأسد؛ لإيهام المواطنين

السوريين بأن قلوب الشعب لا زالت تنبض بالحـب لرأس النظام. في أوج تدفق عناصر الأمن إلى سوق الحميدية برفقة بعض المواطنين السوريين من عمال السوق؛ الذين ساروا في ركابها لشدة خوفهم ورعبهم من هذه العناصر التي أشاعت أجواء الخوف في قلوب السوريين لردح طويل من الزمن؛ اعترضت عناصر الأمن شابتين دمشقيتين في أواسط العشرينيات من عمرهن؛ كانتا من المشاركات في المظاهرة.

ارتدت الشابتان جلباباً دمشقياً أسود؛ وهو الزي التقليدي الذي دأبت سيدات المجتمع الدمشقي المحافظ على ارتدائه كجزء لا يتجزأ من الهوية الإسلامية الموروثة من العصرين العثماني والأيوبي.

ساء الشابتين اقتحام عناصر الأمن لمظاهرة الغضب التي شاركتا فيها جنباً إلى جنب مع الشباب السوري المفعم بروح الثورة.

فوجئ عناصر الأمن وجموع المواطنين الصامتين بهتافات الشابتين؛ التي قضت مضجع عناصر الأمن، وأفقدتها صوابها؛ إذ صرخت الفتاتان بكل عزيمة وإصرار وتحذّر:

«بشار برا برا .. سوريا حرة حرة»

«الله.. سورية.. حرية وبس»

هاجمت قطعان الشبيحة إحدى الشابتين الدمشقيتين وسط اندهاش وذهول المواطنين السوريين مما كانوا يسمعون من هتافات تأييد وتنديد لرأس النظام في وقت واحد.

لم يدم صمت الثوار على هذا الاعتداء السافر على سيدة شابة في منتصف السوق طويلاً.

اندفع ثلاثة شبان نحو الشابة المعتدى عليها؛ بغية الذود عنها، وهنا انسحب الشبيح الذي كان ممسكاً بذراعها؛ خشية أن لا ينقلب الموقف رأساً على عقب، ويتطور إلى اعتصام مفتوح للتنديد بنظام الأسد، بدلاً من تأييده.

لم تتوانَ الشابة الثائرة عن مواصلة موقفها المناهض لنظام الأسد، وفاجأ إصرارها عناصر الأمن والمواطنين المحتشدين في السوق. غردت الفتاة القوية في سماء دمشق، كطائر الفينيق الخارج لتوه من جحيم القهر، وهيب القمع، وأحيت كلماتها المستنهضة لشهامة الرجال، والدافقة من صميم قلبها الثائر الروح في وجدان السوريين، وبعثت النخوة في ضمائرهم؛ إذ صرخت قائلة:

«يا حوينكم من رجال يا أهل الشام .. وين رجال الشام؟!»

«وين أهل الشام؟! وين؟!»

«اخسي عليكم يا رجال»

«اللي رجال يلحقني»

حثت استغاثاتها الحزينة الشبان السوريين على التحرك، والإسراع لإغاثتها في التو واللحظة.

شقت الفتاة طريقها نحو سوق الحميدية، ومضت باتجاه أعمدة جوبتير المواجهة لبوابة المسجد الأموي؛ غير آبهة بما قد يواجهها من أخطار بعد أن نفضت عن كاهلها غبار الخوف.

ذرعت الفتاة السوق بخطوات مملوءة بالأمل في الخلاص من نظام القهر والطغيان، وأنأخت هتافاتها المدوية قلوب المئات من الشبان السوريين الذين مضوا وراءها بكل عزم وإصرار.

أثناء سير الفتاة في السوق اعترضها رجل من عامة الناس، وحاول أن يثنيها عن مواصلة سيرها لقرع أبواب الحرية، فلم تعبأ الفتاة بكلماته التي تقيأ بها جوفه المملوء بسموم العبودية والهوان، وأخبرته بأن يدعها وشأنها، وأن يستمر هو في عبوديته وذلك إن كان يرغب في ذلك.

وهنا رد عليها الرجل بفجاجة قائلاً:

- احفظي لسانك أيتها الفتاة، يا له من لسان طويل، ثكلتك أمك.

قضت كلماته البديئة مضجع أحد الشبان العاملين في السوق، وأثارت حميته، فتدخل الشاب على الفور، ورمى الرجل الذي تطاول على الفتاة بنظرات حادة، ورشقه ببضع كلمات جعلته يولي الأدبار؛ حيث سأله باستنكار:

- من أعطاك الحق لتعتدي عليها؟ ماذا تريد منها؟

رد الرجل ببرود:

- إنها فتاة سفيهة.

هيج رد الرجل غضب الشاب واحتداده، فقال له موبخاً:

- ويحك أيها الرجل! صه، وإلا قطعت لسانك! يا لك من كلب أجرب، ورب الكعبة إن هذه الفتاة الكريمة تحمل من الشرف والأخلاق ما هو أكثر مما تحمله أنت وكل أفراد عائلتك.

احتلت المظاهرتان اللتان شهدتهما القاهرة ودمشق عناوين الأخبار العاجلة في القنوات التلفزيونية، ووكالات الأنباء، والمواقع الإلكترونية، وعرف العالم بأسره في تلك اللحظات التاريخية الفارقة حقيقة الغضب الذي انساب من صدور السوريين المحبوسين داخل السجن الكبير المسمى سوريا إلى الميادين والشوارع. أدرك نظام الأسد أن عقارب الساعة قد بدأت تدور دورتها التاريخية في سوريا؛ منذ اللحظات الأولى التي صرخنا فيها بملء حناجرنا، وشرعنا ننادي بالحرية والكرامة، بعد أن تعطلت حركتها عن الدوران منذ أن سطا النظام على سوريا في ليلة حالكة، ظلمتها الدامسة أشد من قطع الليل اسوداداً؛ ليلة لا ضوء فيها، ولا أمل في حياة حرة كريمة.

أحييت مظاهرة الحميدة الروح في أجساد السوريين مرة أخرى، وشعر العديد منهم بعودته إلى الحياة مرة أخرى بعد انقطاع طويل.

بدا ذلك الشعور الوليد جلياً على وجوه الناشطين السوريين الذين تدفقت دماء الغضب في شرايينهم وأوردتهم كما تتدفق المياه العذبة في جوف الأرض البور.

زادت مظاهرة الحميدية من عزيمة الناشطين السوريين في القاهرة، فبعد أن تناهت أخبار أحداث المظاهرة الأولى في دمشق إلى مسامعنا، ورأت أعيننا، وسمعت أذاننا هتافاتهم واستعدادهم لعداء سوريا بالأرواح والدماء؛ قررنا مواصلة الطريق بكل قوة وثبات، والاستمرار في مظاهراتنا أمام سفارة النظام في القاهرة؛ حتى تبرز شمس الحرية، ويطلع فجرها في دمشق.

جلس الناشطون في المركز الدولي للتنمية الثقافية، وراحوا يتهايمسون فيما بينهم حول الخطوات القادمة.

اقترح بعضهم تنفيذ اعتصام دائم ومفتوح أمام السفارة، فيما فضل البعض الآخر عقد المظاهرات الحاشدة أمام السفارة بين الحين والآخر، وعدم تصعيد الموقف؛ لئلا يستدعي ذلك امتعاض السلطة الانتقالية في مصر. غلب الرأي الثاني الرأي الأول بعد طرحهما للتصويت.

اتفق الناشطون على عقد مظاهرة جديدة ظهيرة يوم الخميس الموافق للسابع عشر من مارس؛ لإتاحة الفرصة أمامنا لحشد المزيد من الناشطين المصريين والسوريين، فيما أبدت الناشطة مريم رغبتها في تعجيل موعد عقد المظاهرة، وهتفت قائلة:

— أرى أن نعقد المظاهرة غدًا صباحًا، وبشكل عفوي مثلما فعلنا اليوم.

صمت الناشطون لبرهة قصيرة، ولم يبد أحدهم رأيه، واكتفوا بالتحديق بعضهم في بعض؛ متسائلين في قرارة أنفسهم عن السر وراء رغبة مريم في الخروج في مظاهرة جديدة صباح الغد.

لم تتأخر مريم في الإجابة عما دار في خلدنا، وهتفت برجاحة:

— يا شباب! غدًا صباحًا سأقف وحدي صامته أمام السفارة، وسأرفع وردة، وأشعل شمعة، ولن أنبس ببنت شفة.

سأل باسل باهتمام:

— هل ستكون مظاهرة صامته؟

أجابت مريم بثقة:

- أجل، ومن يريد المشاركة معي، فأهلاً وسهلاً به، وبإمكان مَنْ لن يستطيع
القدوم غداً أن يشارك في مظاهرة يوم الخميس.
أردفت قائلاً:
- فكرة معقولة.

لاقت فكرة مريم استحساناً من بعض الناشطين الذين شاركوها الرأي ذاته،
وبعيد انتهاء الاجتماع، وقبل أفول الشمس بوقت قصير تفرقنا؛ كل في اتجاه.
أثناء خروجي من بوابة المركز اقترب نحوي الناشط المصري علاء، وهمس في
أذني قائلاً:

- أرجو أن تتوخى الحيلة والحذر أثناء سيرك.
سألت باندهاش:
- لماذا؟

فأجاب باستنكار:
- ألم تر كيف كانوا مسعورين؟
سألته مستفهماً:

- أتقصد عناصر السفارة؟
هزّ علاء رأسه، وأجاب محتدّاً:
- بل قل: كلاب السفارة.
فقلت موافقاً:

- حقاً! لقد كانوا كالضباع المتوحشة.
ربت علاء على كتفي قائلاً:
- كن حذراً، أسأل الله أن يحفظك من غدرهم.

قلت في امتنان:

- شكراً جزيلاً لك.

أقفلت عائداً إلى البيت بعد يوم مضمّن، وفي أثناء عودتي انتابني شعور جارف

بالخوف من رجال السفارة الذين لوحوا لنا بأيديهم، وهددونا بالقتل بشكل سافر ومفضوح.

أخذت التفات يمنية ويسرة طوال طريق عودتي الواصل بين حي الدقي وأرض اللواء.

كنت أسترق النظر لمن هم حولي من الناس؛ فربما أرى أحد الوجوه الكالحة التي رأيتها صباحاً عند سفارة النظام.

في تلك اللحظات العصبية عصفت بي المخاوف وأعادتني من جديد إلى ليالي الرعب الأليمة؛ التي أمضيتها في لبنان قبيل خروجي الأخير من سوريا.

(11)

استقبل الناشطون السوريون يوم الأربعاء الموافق للسادس عشر من مارس بمزيد من الأمل والتفاؤل، وراهنوا على اشتعال نيران الثورة، وامتدادها إلى كل ربوع الوطن بعد أن قُدمت أولى شراراتها في دمشق، لمرتين متتاليتين.

في صباح ذلك اليوم الربيعي، وبعد أن استنشق السوريون أولى نسيمات الحرية التي فاح عيرها من سوق الحميدية؛ قرر الناشطون مواصلة السير على درب الحرية مهما كلفهم ذلك من ثمن.

كانت وجهة الناشطين هذه المرة هي وزارة الداخلية؛ والتي تعد واحدة من أهم أوكار النظام التي سامت الشعب ألوان العذاب والهوان كلها على مدار أربعة عقود. وصلت خطوات الناشطين إلى مقر الوزارة الكائن في حي المرجة التاريخي وسط العاصمة دمشق.

انتصب الناشطون أمام الوزارة، ورفعوا لافتات كتبوا عليها أسماء أبنائهم وأصدقائهم المعتقلين والمغييبين قسراً في زنازين النظام، ومعسكرات اعتقاله الوحشية. أطل زبانية النظام برؤوسهم من نوافذ مكاتبهم، وراحوا يحقدون بأعينهم التي امتلأت بالدهشة هول وفظاعة المشهد بالنسبة لهم فيمن احتشدوا في الأسفل.

ظن الزبانية في بادئ الأمر أن ما يشاهدونه مجرد أضغاث أحلام، لكن سرعان ما تبددت أحلامهم باختراق أصوات الناشطين التي جلبل صداها لأذانهم. واصل الناشطون السوريون اعتصامهم أمام مقر وزارة الداخلية، وبلغ عددهم حوالي مائة وخمسين ناشطاً.

خيم الهدوء والسكون، وساد الصمت على لحظات الاعتصام الأولى الذي لم تتخلله سوى بعض الكلمات والعبارات القصيرة التي تهامس بها الناشطون فيما بينهم.

كانت صور المعتقلين التي رفعها الناشطون أمام أعين ضباط النظام الذين امتنعت وجوههم الكالحة من هول الصدمة كافية لأن تعبر عما كان يجول في قلوب الناشطين من غضب شديد.

لم تمض سوى دقائق قليلة حتى هجمت عناصر الأمن كالضباع المتوحشة على الناشطين السلميين.

مزقت عناصر الأمن بروحها المتوحشة، ونواياها العدوانية الشريرة صور المعتقلين التي رفعها الناشطون، وطلبوا بالكشف عن مصيرهم، وإطلاق سراحهم، والإفراج العاجل عنهم بعد انقضاء فترة محكوميتهم في المعتقل.

زج نظام الأسد بآلاف الناشطين السياسيين، والكتاب الصحفيين في معسكرات اعتقاله بتهم ساذجة؛ كتهمة إضعاف الشعور القومي، وإيهان عزيمة ونفسية الأمة، ونشر أخبار كاذبة من شأنها أن تعكر العلاقة بين عناصر الأمة، وتقوض مكانتها.

دلت الأحكام الصورية، والتهم الجاهزة التي لم تختلف في شيء عن أحكام محاكم التفتيش في القرون الوسطى؛ على الغباء الشديد الذي بلغه نظام الأسد بعد اعتلاء بشار الأسد عرش السلطة نيابة عن أبيه، كما دلت على انفصال رأس النظام أيضًا عن الواقع المعاصر الذي وصلت إليه البشرية في القرن الحادي والعشرين.

عندما فشلت عناصر الأمن في ردع الناشطين؛ بغية تفرقيهم، وتشتيت صفوفهم؛ طفقوا يضربونهم بالعصي والهرات الثقيلة، الأمر الذي أدى إلى إصابة أحد الناشطين بإصابة بالغة في منطقة الرأس، واعتقال ما يزيد عن ثلاثين ناشطًا.

استدعى ذلك الموقف المحتدم انقلاب الاعتصام السلمي إلى مظاهرة غاضبة ضد نظام الأسد؛ ردًا على همجية عناصره، واعتدائهم السافر على السيدات المعتصمين.

ردد الناشطون هتافات الحرية التي رددوها بالأمس في سوق الحميدية، ولكن هذه المرة في عقر دار النظام، وأمام أعين ضباطه؛ فصرخوا:

«سلمية.. سلمية»

«بالروح بالدم نفديك يا سوريا»

في هذه الأثناء اندفع أحد الضباط كالثور الهائج وسط جموع الناشطين، ورطن ببضع كلمات قائلاً:

- هذا ليس اعتصامًا سلميًّا، هذا خراء، وأكل هواء، هيا انقلعوا من هنا.

فرد الناشط حميد ببضع كلمات؛ امتلأت حروفها بالعزم، والثبات، والتحدي قائلاً:

- كلا، هذا اعتصام سلمي، ولن نبرح من هنا؛ لأنكم من بادر بالاعتداء علينا.

اشتعلت عينا الضابط بالغضب، وسأل متجهماً:

- ماذا تريدون؟

رد حميد برزانة:

- نريد أن نعرف مصير أهلنا، وإخوتنا، وأولادنا المعتقلين في زنازينكم.

أشار الضابط إلى عناصر الأمن التي انقضت على الناشطين كالكلاب المسعورة، واعتدت عليهم، بالتوقف، وأمرها بالكف عن الهجوم.

فصم هجوم عناصر الأمن عرى الاعتصام الذي بث الروح في أوصال الثورة، وهياً المناخ لانطلاقها.

رغم عنجهية رجال الأمن واعتدائهم المشين على الناشطين إلا أن اعتصامهم أمام أعنى قلاع النظام زرع الحماس لدى أبناء الجالية السورية في مصر.

تكثفت الاتصالات بين الناشطين السوريين في القاهرة خلال الساعات الأولى التي أعقبت فض الاعتصام أمام وزارة الداخلية في دمشق.

اتفق الناشطون في القاهرة عشية اليوم عينه؛ على عقد مظاهرة حاشدة أمام سفارة النظام؛ كانوا قد اتفقوا عليها في وقت سابق.

عَلِمَ نظام الأسد عبر مصادره الخاصة، ومن خلال متابعة عناصره الأمنية التي تغلغلت بكثافة في صفحات التواصل الاجتماعي بأسماء حركية، وأخرى مستعارة بميعاد المظاهرة التي انتوى الناشطون عقدها يوم الخميس الموافق للسابع عشر من مارس.

(12)

استقبلت يوم الخميس بنشاط كبير، وحماس محمود؛ ابتدأته بارتشاف قهوة الصباح في بيتي البسيط الذي جاورته خرائب مهجورة.

هممت أولاً بفتح النافذة الرئيسة لبضع دقائق؛ لإنعاش البيت بهواء الصباح العليل الأقل تلوثاً من هواء الظهيرة والعشاء.

تسللت أشعة شمس الربيع الدافئة إلى ثنايا وزوايا الحجرة الفسيحة التي كنت أجلس فيها بشكل دائم لمشاهدة التلفاز، ومراقبة آخر الأخبار الواردة في وسائل الإعلام؛ استعداداً للانطلاق إلى سفارة النظام، ومشاركة الناشطين السوريين والمصريين في احتجاجهم الثاني.

قطع رنين جرس الهاتف الجوال متابعتي للتلفاز، فحدقت في شاشة الهاتف لمعرفة هوية المتصل، لكن رقم المتصل لم يظهر البتة. ظهر على شاشة الهاتف ما يفيد بأن جهة الاتصال مجهولة.

حاولت تلك الجهة الاتصال بي من رقم غير معروف، وكان من عادتي ألا أجيب على الاتصالات المجهولة الأرقام والتي لا أعرف أصحابها الأصليين؛ وذلك لأسباب أمنية كنت قد وضعتها في إطار الحماية الذاتية بعد معاناتي الشديدة من كثافة الاتصالات المجهولة؛ التي أقلقني لفترة طويلة بما حملته من تهديدات واستفزازات مزعجة.

خننت في تلك اللحظة التي وقعت فيها عيني على جهة الاتصال المجهولة أن المتصل قد يكون من سلطات الأمن المصري؛ لأنهم كانوا يريدون معرفة كل شيء حول نشاطاتنا في القاهرة؛ لأخذ احتياطاتهم الأمنية.

رفعت جهاز الهاتف المحمول بيدي اليسرى، وضممته إلى أذني اليسرى، ثم ضغطت على مفتاح استقبال المكالمات، واستقبلت المكالمة. كان هاتفي المحمول قديمًا جدًّا؛ من فئة الجيل الأول للأجهزة التقليدية، وقد مرّ على استخدامي له أكثر من ثلاث سنوات. بادرت بالحديث قائلاً:

- ألو .. نعم.

بدا صوت المتصل غليظًا أجشّ، ممدودًا بلكنة سورية هجينة من اللهجتين الدمشقية والساحلية.

سقطت كلمات المتصل المجهول في أذني كالقنابل العنقودية التي تنفجر عادة في لحظة سقوطها الأولى؛ لتشظى بعد ذلك إلى قنابل صغيرة لا ينتهي مفعولها إلا بانتهاء الحرب.

كان المتصل يصرخ في أذني قائلاً:

- أيها الكلب الحقير! مَنْ أَنْتِ حتى تتناول على أسيادك؟!

مَنْ أَنْتِ لتنظم المظاهرات أمام السفارة؟!

قسماً بالله لأجعلنك أنت وكل أفراد عائلتك عبرة لمن يعتبر.

استثارت تلك الكلمات البذيئة حنقي الشديد، وقبل أن يواصل كلامه قاطعته محدّثًا، وصرخت فيه بغضب شديد:

- لو لم تكن تافهًا سفيهًا لما نبس لسانك القذر بأقذر الكلمات وأحقرها.

لن تشنينا تهديداتك عن المضي في طريق الحق قدمًا، وسن عقد المظاهرات كل يوم.

أنهى الطرف المتصل اتصاله بمجرد سماعه الكلمات الأولى التي انطلقت من

شفتي كشهب النار.

أغلقت الهاتف بغضب واهتياج، وجلست على الأريكة في ارتباك، ثم سهمت

في لجة من التفكير العميق.

لم أتوقع أن يمتلك زبانية النظام كل هذه الجرأة، وأن يقوموا بتهديدنا عبر

الهاتف.

بدأت الشكوك تغزو فكري بكثافة؛ من خلال فيض التساؤلات والاستفسارات التي أخذت تتقافز في ذهني بلا توقف.

تساءلت في قرارة نفسي بصوت جهور؛ ارتد صدهاء في أركان الحجرة كلها:
«ما الهدف من هذا التهديد؟»

«ما الذي يبتغيه النظام من وراء تهديده؟»

«من هو المتصل؟ وماذا يريد؟»

«هل هو من عناصر السفارة في القاهرة، أم أنه أحد زبانية النظام في دمشق؟»
بعد مضي بضع دقائق على انتهاء المكالمات شعرت بخوف شديد؛ عصفت بروحي، وهزّ كياني.

أصاب الخوف كينونتي باضطراب شديد؛ ظهرت إشارات الأولى، وبدأت تحولاته الجلية من خلال حركتي الدؤوبة في البيت؛ جيئةً وذهاباً.

لم أستطع الجلوس رغم محاولتي الحثيثة تهدئة روعي التي أهاجها ذلك التهديد، وقض مضجعها كما لو كان عاصفة هوجاء اقتلعت الأشجار من جذورها.

ظلت تلك الأسئلة عالقة بذهني دون جواب واضح ونهائي، لكن الجواب الوحيد الذي استطعت استخلاصه واستنتاجه من سياق الأحداث الراهنة أن نظام الأسد يبتغي لي ذراع الناشطين؛ ليحط من عزيمتهم وحماسهم، فيحجموا عن الاستمرار في نشاطاتهم التي سببت له ألماً وصداعاً شديداً.

كانت لغة التهديدات الخيار الأمثل الذي لجأ إليه النظام لكسر إرادة الناشطين؛ عبر إيذاء أفراد عائلاتهم في سوريا، والتوقف عن هذا الإيذاء في مقابل وقف الناشطين لنشاطاتهم ضد النظام.

فشل النظام في خياره الأرعن الذي حاول من خلاله ابتزازي ومساومتي على حياة أفراد أسرتي؛ وهو الخيار البائس الذي عمد لاستخدامه ضد خصومه السياسيين؛ فبدلاً من أن أستجيب لتهديداته الرعناء رحت أصعد موقفَي السياسي،

وأكتف نشاطاتي الإعلامية التي كانت تحتاجها الثورة في أيامها الأولى.

اتصل بي الناشط محمود للاستفسار عن آخر استعداداتي للمظاهرة التي
ستنطلق بعد ساعة من الآن أمام سفارة النظام في القاهرة، فأبلغته بالتهديد الذي
تلقيته قبل قليل، وهنا قال لي في ذهول:

- أرجو أن تعيد ما قلته.

هتفت بفتور:

- لقد هددوني قبل قليل.

سأل محمود محتدًا:

- مَنْ الذي هددك؟

زمت شفتي، وقلت باقتضاب:

- لا أعلم.

سأل محمود في اهتمام لا يخلو من القلق:

- ماذا يريد هؤلاء الأوغاد؟

أجبت دون تفكير:

- يريدونني أن أصمت صمت القبور، وألا أنبس ببنت شفة.

هتف محمود بامتعاض:

- تبًا لهم، ماذا ستفعل الآن؟

أجبت بثقة تامة:

- من المستحيل أن أغير موقفتي، ولا يمكن أن أضعف أمام تهديدات كهذه،

سنكمل الطريق سوية مهما كانت الصعاب.

قال محمود بهدوء:

- أرجو أن تنصت إلي جيدًا، وأن تنحي العواطف جانبًا.

فقلت له:

- تفضل.

أردف محمود قائلاً في حذر:

- من الآن فصاعداً يجب أن تتخذ كل وسائل الحيلة والحذر الممكنة لتحصن نفسك.

لا أريد أن أثبت المخاوف في وجدانك، ولكن أرجو منك أن لا تأتي إلى المظاهرة. فقلت بإصرار:

- ولكن هذا ضعف وهوان، علينا أن نتحداهم بدلاً من أن ننكسر أمامهم. قال محمود محاولاً طمأنتني:

- لا تقلق، نحن سنتولى ذلك بأنفسنا، أتمنى أن تلتزم بالجلوس في البيت، وألا تخرج منه أبداً.

فقلت مستسلماً:

- حسناً، كما ترى.

عززت الثورة في أيامها الأولى روح التعاون والإخاء بين المواطنين السوريين داخل البلاد وخارجها بعد أن كانت مفقودة لردح طويل من الزمن؛ نتيجة لسياسات النظام الجائرة التي قتلت روح الإخاء في نفوس السوريين، واستبدلتها بروح الجشع والأنانية المقيتة.

أثناء انعقاد المظاهرة صبيحة يوم الخميس الموافق للسابع عشر من مارس؛ تعرض الناشطون السوريون والمصريون لهجوم غادر من عناصر السفارة، ما أدى إلى فسخ ذراع المصور الصحفي معن؛ إثر هجوم العناصر الموتورين.

أعدت عناصر السفارة وبتوجيهات مباشرة من السفير كميناً للناشطين السلميين خلف جدران السفارة، وما إن وطأت أقدام الناشطين رصيف السفارة حتى انهالوا عليهم بالضرب المبرح؛ ما تسبب بانفصاض المظاهرة منذ لحظاتها الأولى.

استجمع الاعتداء الآثم هم الناشطين السوريين والمصريين، وأعاد إليهم حماسهم الثوري من جديد.

عاود الناشطون الاعتصام مرة أخرى أمام مبنى السفارة بكل إصرار وثبات، وراحوا يهتفون بملء حناجرهم:

«الشعب يريد إسقاط النظام»

كررت عناصر السفارة هجومها الغادر على الناشطين مرة أخرى، فأسفر الهجوم المباغت عن اعتقال أحد الشبان المصريين المشاركين في الاعتصام.

سحلت عناصر السفارة شاباً مصرياً يدعى محمدًا في مطلع العشرينيات من عمره، واقتادته إلى مقر السفارة عقاباً له على مؤازرته للناشطين السوريين في مظاهراتهم الصاخبة ضد نظام الأسد.

لم تحترم عناصر السفارة أصول الضيافة الدبلوماسية، والإقامة الآمنة التي وفرها لهم الشعب المصري على أرض بلده.

ظل الشاب المختطف يقاوم عناصر السفارة التي تكاثرت من حوله كالضباع المفترسة، ولم تسفر مقاومته البائسة، عن أي شيء، كما لم تشفع له كلماته التي نطقها باللهجة المصرية عند هذه العناصر المسعورة أيضاً.

وجد الشاب محمد نفسه مرمياً على أرض الحديقة الكائنة داخل أسوار السفارة. تمزق قميص محمد إلى رقع، تشابكت خيوطها في أيدي عناصر السفارة؛ كناتج لمقاومته الباسلة التي أبدأها عندما باغته تلك العناصر الغادرة بالهجوم.

صرخ محمد بأعلى صوته:

- لماذا أتيت بي إلى هنا؟..ماذا تريدون مني؟..دعوني وشأني، قسمًا بالله، لن أسكت على جريمتكم.

ما إن جلجلت كلمات محمد في آذان عناصر السفارة؛ حتى انهالت عليه بالضرب المبرح كالكلاب المسعورة.

أتى سفير النظام إلى حديقة السفارة، وسار متبخرًا في مشيته كالطاووس، ثم

وقف أمام جسد الشاب المسجى أرضاً، ورمقه بنظرات طفرت شراراً وحقداً، وأخذ يمتع روحه المريضة بمشهد سحل العناصر للشباب المسكين دون أن يطلب منها أن تكف أذاها عنه، وأن تتوقف عن سحله.

أراد السفير أن يبت الرعب في قلوب الناشطين السوريين والمتضامنين المصريين من وراء حركته الخبيثة تلك، وذلك من خلال أسلوب التهيب، كما أراد أن يجعل من الشاب محمد عبدة، ودرساً قاسياً لكل من تسول له نفسه بالوقوف؛ ضد نظام الأسد والاعتراض عليه في القاهرة.

خلال تلك الدقائق العصبية أعاد الناشطون السوريون والمصريون تنظيم صفوفهم بأقصى سرعة.

أدت حادثة اختطاف الشاب محمد إلى استثارة مشاعر سكان الحي، وشباب الأحياء المجاورة الذين أتوا بكل همة وحماس؛ لتخليص الشاب من قبضة عناصر السفارة التي قامت بخطفه والاعتداء عليه دون أن يكون لديها أي سبب لتبرير فعلتها الشائنة.

احتشد الناشطون الغاضبون بأعداد غفيرة أمام مقر السفارة، وطلبوا من العناصر من خلف جدار السفارة أن تطلق سراح الشاب المختطف، لكن العناصر رفضت الاستجابة لندائهم.

حينذاك اندفعت حشود المواطنين والناشطين كحمم البركان الثائر في اتجاه مبنى السفارة.

تسلق بعض المواطنين جدران السفارة، واشتبكوا بالأيدي والعصي مع العناصر، فيما اندفع البعض الآخر نحو بوابة السفارة، وكاد اندفاعهم القوي أن يتسبب في خلع الباب الحديدي الكبير الذي وقفت خلفه حافلة السفير والقنصل الخاصة بالسفارة.

رغم وجود عناصر الشرطة والأمن المركزي إلا أنها لم تستطع كبح جماح

المواطنين الغاضبين؛ فعندما ثور ثائرة المصريين، وتستثار روابطهم العصبية والأهلية لأسباب تتعلق بالاعتداء على بلدهم أو الطعن في وجدانهم، وخدش كبريائهم؛ لا يمكن لأي قوة أن توقف اندفاعهم وهياجهم.
دوت هتافات الناشطين المصريين والسوريين الغاضبين في أرجاء المكان كلها، وارتفعت أصواتهم مختلطة بالحديث، والتساؤل، والاعتراض:

- خطفوه. خطفوه.

- افتحوا باب السفارة وإلا حطمناه فوق رؤوسكم.

- أين الشرطة؟ أين الجيش؟

- هل من المعقول أن يتعرض مواطن مصري للضرب أمام أعيننا ونقف مكتوفي الأيدي؛ لا نستطيع أن نفعل شيئاً من أجله؟

- هل عدنا إلى عصر مبارك من جديد؟

اضطرت عناصر السفارة إلى الرضوخ أمام موجات غضب الناشطين السوريين والمصريين؛ الذين قرعوا باب السفارة بقوة وهياج بقضائهم الحديدية.
أطلقت عناصر السفارة سراح الشاب المختطف، ولكنها كانت قد اشترطت قبل الإفراج عنه أن يُسَلَّم إلى ضباط الأمن المركزي؛ لتخلي مسؤوليتها الكاملة من جريمتها الشنعاء.

تقدم ضابط مصري من جهاز الأمن المركزي؛ برتبة لواء، ودلف إلى مقر السفارة، وفي دقيقة واحدة خرج اللواء وبرفقته الشاب محمد الذي بدت هيئته في حالة يرثى لها.

ظهرت آثار اللكمات والكدمات التي سددها عناصر السفارة إلى محمد واضحة على منكبيه النحيلين، كما بدت لسعات السياط جليلة على ظهره العاري الذي تلقاها بآلم مرير؛ بعد أن مزقت العناصر قميصه.

أثار مظهر الشاب البريء حنق وغضب الناشطين المصريين والسوريين، وزادت هيئته البائسة وحالته المزرية من دوي هتافاتهم؛ التي قضت مضجع عناصر

السفارة، وألقت الرعب في قلوبها، كما جعلتها تمضي يومها الطويل داخل أسوار السفارة؛ دون أن تتمكن من مفارقتها، والعودة إلى بيوتها؛ خوفاً من ردة فعل الأهالي؛ الذين ترصدوا لها في الشوارع والأزقة.

خاطب أهالي الحي عناصر السفارة المختبئة داخل جحورها، وصرخوا فيها بصوت جهور قائلين:

- إذا كان بينكم رجل فليأتي إلى هنا.
- ورب الكعبة لن نسكت بعد اليوم.
- أيها الأوغاد! سنلقنكم درساً قاسياً في الأدب والأخلاق.
- إذا كنتم رجالاً داخل جحوركم؛ فها نحن ننتظركم في الشارع لتتأكد من صدق رجولتكم.

(13)

عشية يوم الخميس الموافق للسابع عشر من مارس؛ أطلق الناشطون السوريون دعوة عامة على صفحات الفيس بوك وتويتر؛ حثوا فيها الشعب السوري على التظاهر السلمي صبيحة يوم الجمعة الموافق للثامن عشر من مارس؛ ردًا على استبداد النظام، وسياساته القمعية الجائرة، وفساده المستشري في كل مؤسسات الدولة.

حملت دعوة الناشطين السوريين اسم: «جمعة الكرامة»؛ استلهامًا من تجربتي الثورتين؛ المصرية والتونسية؛ اللتين سميت فيهما أيام الجمع بمسميات ثورية حملت في طياتها طابعًا رمزيًا خالداً.

لم يتوان الناشطون السوريون في القاهرة عن اللحاق بركب أقرانهم في دمشق ودرعا وحمص، بل سارعوا لاغتنام الفرصة، وأعلنوا عن رغبتهم في عقد وقفة احتجاجية أمام مبنى جامعة الدول العربية الكائن في ميدان التحرير، وسط القاهرة. وفي مساء يوم الخميس الموافق للسابع عشر من مارس؛ اتخذ الناشطون السوريون من مقهى التكمية الكائن في شارع شامبليون مجلسًا دائيًا لهم، واتفقوا على تنظيم اعتصام سلمي أمام مبنى جامعة الدول العربية ظهيرة يوم الجمعة الموافق للثامن عشر من مارس.

رمى الناشطون من وراء عقدهم للاعتصام أمام جامعة الدول العربية إلى دعم الحراك الثوري المتصاعد في سوريا، وإيصال رسالتهم إلى مسؤولي الجامعة العربية، وإخطارهم بحالة الغضب والغليان التي يعيشها الشعب السوري في الداخل والخارج؛ جراء سياسيات القمع والاستبداد، كما رموا أيضًا إلى حث الناشطين

المصريين المرابطين في ميدان التحرير على دعم القضية السورية في مطالبها المشروعة من الحصول على الحرية والكرامة، وجعل الميدان منبراً داعياً، وناشراً، ومؤازراً للثورة السورية.

صبيحة يوم الجمعة الموافق للثامن عشر من مارس؛ التقيت بلفيف من الناشطين السوريين والمصريين في مقهى المشربية الكائن في شارع إبراهيم عبد الرازق المجاور لميدان التحرير، وكان عددنا حوالي خمسة عشر ناشطاً.

جلسنا إلى الطاولات المطلة على الشارع، وانسابت أشعة شمس الربيع الساحرة على أجسادنا المرتعشة من صقيع القهر، ودثرتها بأثواب الدفء التي كانت أرواحنا المنهكة في حاجة ماسة إليها.

ظللنا نحتسي الشاي والقهوة والحلبة طوال فترة مكوثنا في المقهى؛ والتي امتدت لأكثر من ساعة ونصف، ثم أخذنا نتجاذب أطراف الحديث حول الثورة في سوريا ومصر؛ حتى اكتمل حضور جميع الناشطين السوريين الذين دُعِوا إلى المشاركة في اللقاء.

انطلقنا بعد ذلك بخطوات متئدة من المقهى إلى مقر الجامعة العربية، حاملين الأعلام السورية والمصرية، وصور المعتقلين السوريين في سجون النظام. في أثناء مرورنا بميدان التحرير دوت هتافات الناشطين المصريين في كل أرجاء الميدان؛ الذي كان يحتظ بألاف الناشطين الذين حضروا من كل حذب وصوب للتظاهر ضد القائمين على السلطة الانتقالية الحاكمة في مصر بعد الثورة.

كان من أبرز اللافات والشعارات التي رفعها الناشطون المصريون في الميدان:

«يسقط يسقط حكم العسكر»

«لا لتعديل الدستور»

«الثورة مستمرة»

اقترح باسل على الناشطين السوريين -في لفظة بارعة منه- ترديد هتافات التحية

لمصر ولشبابها الثائر؛ لاستدرار عطف وتضامن الناشطين المصريين مع الثورة السورية الوليدة؛ فما كان من الناشطين السوريين إلا أن أطلقوا العنان لحناجرهم الصلدة، وراحوا يهتفون بملاء أشداقهم:

«مصر وسوريا إيد واحدة»

«بالروح بالدم نفديك يا سوريا»

«الله.. سوريا.. حرية وبس»

تعالَت هتافات الناشطين السوريين، وشقت أصداؤها المدوية أرجاء الميدان الفسيحة؛ وخاصة عندما انضمت حناجر الناشطين المصريين إلى حناجرهم مرددة ذات الهتاف.

أدى التعاطف الكبير الذي أبداه الناشطون المصريون مع ثورة الغضب السورية إلى ازدياد حماس الناشطين السوريين، وعمَّق إيمانهم بعدالة قضيتهم ومطالبتهم بالحرية والكرامة.

ولَدَّ ذلك الشعور المتدفق في نفوسنا المتعطشة للحرية ثقة عظيمة في حتمية الخلاص من براثن الاستبداد؛ دفعتنا للانقضاض على القهر والقمع؛ كما تفعل النسور الجائعة الشاحخة المحلقة عندما ترى فريستها على الأرض. خطونا في الميدان الرحيب بضع خطوات؛ إلى أن وطأت أقدامنا مبنى جامعة الدول العربية، وعندها توقفنا، وعقدنا اعتصامنا السلمي في شارع كوبري قصر النيل المواجه للجامعة، ولميدان التحرير في آن واحد.

تصاعدت هتافاتنا القوية في اللحظات الأولى التي أعقبت وصولنا، ورفعنا اللافتات التي دبجت عليها عبارات الحرية المختلفة؛ مثل:

«الحرية لسوريا وشعبها الأبى»

«سوريا حرة حرة. بشار يطلع برا»

«الحرية للمعتقلين السوريين في سجون الأسد»

«أين ضمير الجامعة العربية؟.. أين صوتها الحر في سوريا؟»

«بالروح بالدم نفديك يا سوريا»

في هذه الأثناء؛ ورغم دعوة الناشطين السوريين في الداخل السوري إلى تنظيم مظاهرات الغضب ضد نظام الأسد أمام وزارة الداخلية؛ ردًا على اعتدائه على الناشطين السوريين واعتقاله لهم؛ انحصرت توقعاتنا الأولية في انطلاق بعض المظاهرات المتفرقة في دمشق كما حدث يوم الخامس عشر من مارس، لكن المفاجأة الكبرى من المظاهرات العارمة التي خرجت في مدينة درعا.

استمر هتافنا الصახب أمام الجامعة العربية؛ في محاولة منا لإيصال صوتنا إلى أصحاب القلوب البيضاء، والضمائر الحية، وإلى كل من أصيبت أذناه بالصمم أيضًا، وكان شاهدًا على معاناة ومأساة الشعب السوري الرازح تحت سياط القمع والقهر.

في هذه الأثناء قرع اتصال هاتفي طارئ جرس هاتف الناشطة مريم التي كانت تقف بجواري.

حدقت مريم بعينيها المشعيتين في شاشة الهاتف، ثم ضغطت على مفتاح استقبال المكالمات قائلة:

- ألو. نعم، أسمعك جيدًا، تفضل.

وبعد لحظة فغرت مريم فهاها في دهشة، وأردفت متسائلة في ذهول:

- ماذا؟.. ماذا قلت؟

ثم أعادت سؤال المتصل مرة أخرى في ارتباك؛ قائلة:

- هل أنت متأكد؟

وبعدها تنهدت مريم، وقالت باندهاش:

- يا إلهي!

ثم التفت التفاتة سريعة نحونا، وأردفت قائلة:

- بشراكم اليوم.

فحبسنا أنفاسنا لبرهة قصيرة؛ تبادلنا خلالها النظر بعضنا في أعين البعض وسط

أكناف الدهشة والذهول التي سلبتنا القدرة على الكلام.

كسر باسل هذا الصمت المطبق، وسأل باهتمام:

– ما الخطب؟

فهمت مريم بأعلى صوتها:

– درعا تلتهب الآن.

اشرأبت أعناقنا، وتوسعت أحداقنا، وفغرنا أفواهنا، وكتمنا أنفاسنا، وبدا
الذهول على وجوهنا من هول ما سمعناه جليًا.

ضج كيان مريم، وقفزت روحها من ثنايا أضلاعها؛ لشدة الفرح الذي غمر
شغاف قلبها، وصدحت بصوتها العذب قائلة:

– المظاهرات العارمة تجوب كل أرجاء درعا. سوريا اليوم كلها درعا.

تنفسنا الصعداء؛ إذ بثت كلمات مريم الفرح والسرور في قلوبنا، وأحيت الأمل
في أرواحنا المتعطشة له.

هتف محمود بحبور:

– مبارك لنا جميعًا.

اغرورقت عينا باسل بالدموع، وقال مدهوشًا:

– ها قد تحقّق الحلم.

رَبَّتْ على كتف باسل، وقلت له مواسيًا:

– منذ أربعين عامًا ونيف، ونحن في انتظار هذا اليوم التاريخي.

رد طلال بابتهاج:

– الحمد لله الذي أكرمنا برؤية هذا اليوم.

هتف الناشط المصري علاء بصوته الجهور:

«الله.. سوريا.. حرية وبس»

رددنا بصوت واحد:

«الله.. سوريا.. حرية وبس»

ثم مضينا سائرين باتجاه المقهى.
أقفلنا عائدين إلى مقهى المشربة، والفرح يملأ قلوبنا، والابتسامة ملازمة
لشفاهنا طوال الطريق.

تلفعت بالعلم السوري أثناء السير إلى المقهى، وشعرت لأول مرة - منذ
خروجي الأخير من سوريا - بانتثائي الأصيل لتراها؛ والذي ظل مفقودًا طوال
سنوات المنفى العسيرة.

فقد فقدت الشعور بالانتماء إلى الوطن منذ أن خرجت من سوريا؛ حيث ظلت
سوريا في ذاكرتي مجرد بقعة جغرافية؛ فلا هي وطن، ولا هي مزرعة، بل كانت
بالنسبة لي سجنًا كبيرًا، عاش خلف جدرانه المصمتة ملايين البشر؛ بلا كرامة وبلا
حرية، وبأدنى حدود الإنسانية.

خرجت من ذلك الجحيم بعد أن انطفأ قلبي، وتوقف نبضه، وتفحمت أطرافه.
خرجت من سوريا بعد أن كفرت بلعنة القمع والقهر والاستبداد، وبأولئك
البشر النيام الذين أصبحوا جثثًا هامدة؛ لا روح فيها ولا حياة.
ظللت طوال الطريق الممتد من الجامعة العربية إلى المقهى أتمتم بكلماتي المحفورة
في ذاكرتي؛ والتي لم تَمُحَّها سنون المنفى:

«لا وطن من دون حرية، ولا حرية من دون وطن»

«اليوم ولد الوطن في سوريا، وغدا سيصبح في سوريا حرية»

عندما وصلنا إلى المقهى جلست إلى إحدى الطاولات، وأخذت أحرق بشغف
في شاشة التلفاز التي توسطت المقهى.

علت أصوات الناشطين في أرجاء المقهى كلها، وضجت أرواحهم فرحًا وطربًا
عندما أبصرت أعينهم المغفورة مشاهد تدفق الجموع الغفيرة التي انطلقت للتظاهر
ضد نظام الأسد في مدينة درعا في يوم ملحمة عظيم.

(14)

ظهرت يوم الجمعة الموافق للثامن عشر من مارس؛ انطلق المتظاهرون في مظاهراتهم الاحتجاجية ضد نظام الأسد في مدينة درعا؛ وخرجوا بتظاهراتهم الحاشدة من ساحة المسجد العمري الكائن في منطقة درعا البلد؛ التي تقع في الجزء القديم من المدينة التاريخية.

تعاقت على المدينة حضارات شرقية وأخرى غربية، بدأت من العصر البيزنطي في عهد الإمبراطور أنستاسيوس الأول؛ الذي اتخذ منها مقاماً له سنة خمسمائة وستة للميلاد.

رفع المتظاهرون في درعا لافتات كتبوا عليها شعارات الحرية، ورددوها بملء حناجرهم التي صدحت لأول مرة في تاريخ سوريا، بأناشيد الحرية، وكان من أشد هذه الهتافات وقعاً:

«الله سوريا حرية وبس»

«بالروح بالدم نفديك يا سوريا»

«ما في خوف، ما في خوف بعد اليوم»

أوعز النظام لعناصر الأمن بإطلاق النار العشوائي على المتظاهرين السلميين عندما ازداد سعاره، واشتد هياجه من قوة المظاهرات العارمة؛ التي شارك فيها آلاف المواطنين في درعا.

توافدت حافلات الأمن إلى محيط المسجد العمري، وبدأت بمحاصرة المكان بغرض تفريق المظاهرة الحاشدة، وعندما فشلت بدأت عناصر الأمن التي تحصنت في مواقعها خلف الحافلات وجدران الأبنية السكنية بإطلاق الرصاص الكثيف من

فوهات بنادقها تجاه المتظاهرين السلميين.

أصيب عشرات المتظاهرين بجروح متفرقة، وسقط الشابين «حسام عياش»، و«محمود الجوابرة» مضرجين بدمائهما الزكية؛ بعد أن استقرت في صدريهما اللذين استنشقا عبر الحرية رصاصات الغدر والخيانة؛ التي أطلقتها عناصر الأمن المجردة من الإنسانية، والمتحولة إلى وحوش كاسرة؛ محترفة للقتل والإجرام.

روت دماء الشابين القتيلين ثرى سوريا، وبدت دماؤهما في تلك اللحظة التاريخية نبراساً؛ اقتدى به أبناء الثورة خلال سيرهم في دروب الحرية، وقنديلاً أضاء دياجير الاستبداد، وشاهدًا على وحشية النظام؛ الذي أطلق العنان لقطعانه المتوحشة منذ اللحظات الأولى التي هتف فيها أبناء الشعب السوري بهتاف الحرية.

أثارت دماء القتيلين حمية المتظاهرين، وزادت من حنقهم الشديد على النظام، وتعالَت هتافاتهم؛ التي شقت أصداؤها المدوية آذان عناصر الأمن، وأرعدت نفوسها بالرعب؛ والتي كان منها:

«يا بشار ويا خسيس دم السوري مش رخيص»

«بالروح بالدم نفديك يا شهيد»

«مكتوب على الروسية (بنديقة الكلاشينكوف) بشار خاين سوريا»

في هذه الأثناء، ومع ارتقاء شمس الربيع إلى مستقرها؛ ضجت شوارع وأزقة مدينة بانياس الواقعة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في الساحل السوري بمظاهرة حاشدة؛ زلزلت هتافاتها الصاخبة الأرض من تحت أقدام النظام.

خلال اللحظات الأولى التي جابت فيها أقدام المتظاهرين أزقة المدينة الساحلية تواری زبانية النظام عن الأنظار، وأصبحت المدينة بقضها وقضيضها خارج سيطرته المطلقة.

تنفست بانياس نسائم الحرية لأول مرة منذ ما يزيد عن أربعين عامًا، ورفع ثوارها الغاضبون قائمة بأبسط مطالبهم؛ والتي تمثلت في حرية التعبير عن الرأي، والسماح للفتيات المنتقبات بارتياح الجامعات.

ومن درعا جنوباً إلى بانياس غرباً وصلت شرارة الثورة إلى مدينة حمص الكائنة في وسط سوريا؛ والتي نبضت قلوب أبنائها بالحرية لأول مرة أمام ساحة مسجد خالد بن الوليد.

ردد المتظاهرون في حمص هتاف الحرية الذي تناقلت حروفه حناجر الثوار من مكان إلى آخر؛ قائلين:

«الله.. سوريا.. حرية وبس»

انقضت عناصر الأمن على المظاهرة الحاشدة التي انطلقت في حمص لتنتقل شرارتها سريعاً إلى مدينة دير الزور الكائنة في أقصى شرق سوريا؛ لتتنفس عروس الفرات هي الأخرى نسيم الحرية؛ الذي فاح عبيره في هذا اليوم الملحمي في أرجاء سوريا كلها، وأزكمت رائحته أنوف الطغاة.

كما لم تغب شمس الثورة عن دمشق التي كان لها قصب السبق في ساحة الحرية قبل بضعة أيام قليلة، ولكن خوف النظام من هذه المدينة التاريخية، والانتشار الكثيف لعناصر أمنه في الساحات والميادين العامة بعد أن زلزلت مظاهرتا سوق الحميدية ووزارة الداخلية عرش طغيانه؛ حال دون تمكن الناشطين من التظاهر فيها، وجعل تظاهريهم المستحيل أشبه بتظاهر الملائكة في عرش الشياطين.

رغم الإجراءات الأمنية المشددة التي اتخذها النظام في محيط المسجد الأموي إلا أن أصوات الحرية وهتافاتها المدوية تعالت في سماء دمشق؛ قبل أن يفرقها أعداء الحرية برصاص غدرهم، وهراوات ذعرهم.

في خضم تلك اللحظات التاريخية التي جرت أحداثها السريعة أمام عيني كوميس البرق؛ استرجعت بآلم مرير شريط الذاكرة الذي أعادني إلى أيام الصبا؛ بآلامها الموحجة، وأحزانها المديدة.

تذكرت أمام مشهد الدم المراق أفسى لحظات القمع والبطش التي مارسها زبانية النظام ضد الناس؛ عندما كنا طلاباً صغاراً في المدارس الإعدادية والثانوية في مدينة

الركة التي عشت فيها أيام طفولتي.

انهمرت الدموع من عيني اللتين كانتا ترمقان ثوار درعا وبانياس وهم يحطمون عروش الطغيان، ويزلزلون الأرض من تحت أقدام المستبدين؛ كأنهار المطر على الأرض اليباب.

كانت عيناى ترقبان الحاضر والمستقبل بقليل من الأمل، فيما كانت ذاكرتي تسترجع الماضي بكثير من الألم.

قادتني آلامي وأحزاني التي لم أستطع إيقافها طوال فترة مرور شريط الذاكرة أمام عيني نحو الماضي الأليم، وجرفتني إلى أهواله وأحداثه الجسام التي لا زالت آثارها الدامية عالقة في ذاكرتي الروح والجسد.

حالما أبصرت عيناى المسهدتان دماء الشاين «حسام عياش»، و«محمود الجوابرة»، ورصدت عناصر الأمن المدججة بالسلح الثقيل؛ تذكرت على الفور زبانية النظام الذين كانوا ينفذون رغباته الدينية في تحطيم نفسية التلاميذ في المدارس، وقتل أحلامهم البريئة قبل نبتتها الأولى بسياط الرعب؛ التي حملها أولئك الزبانية بأيديهم الملوثة بالدماء؛ كما كان جلادو النظام يفعلون مع الناشطين السياسيين في معسكرات اعتقاله وتعذيبه.

انتسب زبانية النظام إلى حزب القمع والطغيان المسمى اصطلاحاً: «حزب البعث العربي الاشتراكي»، وتعددت مواقعهم وأدوارهم الوظيفية في المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية؛ كل بحسب دوره؛ بدءاً من المدرس، ثم الموجه التربوي، ووصولاً إلى المدرب العسكري، أو ما كان يعرف بمدرّب الفتوة.

مارس الزبانية أبشع ألوان القمع والطغيان والفساد ضد التلاميذ الأبرياء؛ من خلال ضرهم، وتعنيفهم، وابتزازهم، وإفراغ ما طفحت به نفوس أولئك الزبانية من عقد وعلل نفسية في ذوات التلاميذ.

لم تكن هناك سلطة أو رقابة تحاسب الزبانية على جرائمهم الدينية، وأفعالهم القميّة ضد الطلاب؛ فسلطة المدرس أمام تلامذته كسلطة الراعي أمام خرافه؛

يضر بها وقتما يشاء، وبتفويض كامل من رب المزرعة المسماة: «سوريا». تذكرت اللحظات القاسية التي أمضيها تحت سياط المدرين العسكريين، والموجهين التربويين ظهيرة يوم الخميس الموافق للسادس من فبراير عام ألف وتسعمائة وسبعة وتسعين.

كنت في ذلك العام طالباً في الصف الثالث الإعدادي في مدرسة ابن خلدون في مدينة الرقة.

اقتضت المناسبة الأسبوعية في ذلك اليوم الشتوي العاصف؛ الذي صعق جليده أجسادنا الغضة الطرية ترديد النشيد الوطني، وأداء تحية العلم بزياتنا العسكرية؛ التي ارتداها جميع الطلاب في سوريا طوال فترة دراستهم للمرحلتين الإعدادية والثانوية كجزء من خطة النظام لعسكرة المجتمع السوري، والدفع به نحو الاستبداد، والحياة العسكرية القاسية.

اصطف جميع طلاب المرحلتين؛ الإعدادية، والثانوية في باحة المدرسة الرحبية؛ التي كانت عبارة عن قطعة أرض زراعية بمساحة تقدر بألف وخمسمائة متر مربع، رصفت ثلاثة أرباع مساحتها على هيئة مربع متساوي الأضلاع، أما الربع الأخير فزرع بأشجار السرو والصنوبر البري.

وكانت أسوارها عبارة عن جدران إسمنتية صفيقة، أحاطت بها من كل الزوايا والاتجاهات.

جاور بناء المدرسة القديم المكون من ثلاثة طوابق الباحة الرئيسة، وبدا ملاصقاً لها بشكل كبير.

خطّ زبانية النظام على جدران الطابق الثاني؛ والذي كان مقابلاً لأنظار الطلاب الذين ما إن كانوا يرفعون أبصارهم للأعلى؛ استعداداً لأداء القسم اليومي حتى تقع أعينهم على الشعارات الزائفة، والعبارات المنمقة؛ مثلما تقع عين السجين في كل وقت وحين على باب السجن؛ ليتذكر في نفسه البائسة أنه لا زال محاطاً بتلك الجدران من كل جانب.

كانت العبارات والشعارات تكتسي بقداسة لدى نظام الأسد، ولم تكن قداستها الزائفة لديهم تقل عن قداسة النصوص الموجودة في الأسفار والكتب السماوية، وكانت حروفها تحمل الكلمات الآتية:

«أهدافنا: وحدة، حرية، اشتراكية»

«شعارنا: أن نتصدى للإمبريالية، والصهيونية، والرجعية، ونسحق أذاتهم المجرمة، وعصابة الإخوان المسلمين العميلة»
«قائدنا للأبد: الأمين حافظ الأسد»

تجرع الشعب السوري مرارة تلك الشعارات الخرافية طيلة سنوات حكم الأسد؛ الأب، والابن؛ رغم السموم الفتاكة التي حملتها في ثناياها، وجعلت من الشعب السوري عدوًّا لدودًا للإنسانية والسامية في نظر العالم الحر والمتمدن. لم يكن الشعب السوري يدرك خطورة تلك الشعارات، وسمها القاتل لإنسانيته وحياته الحرة الكريمة.

تسمّر المدرب العسكري بجانب منصة العلم؛ التي كانت عبارة عن أنبوب معدني انتصبت قاعدته السفلى في أرض الباحة، وارتفع متنه بطول ثلاثة أمتار، وحمل رأسه العلوي علم النظام؛ الذي كان مثبتًا بخيط بلاستيكي سميك، ثم أوعز إلينا بأن نشرع في أداء تحية العلم بصوته الجهور.

هتف المدرب العسكري نايف، بشكل متتابع:

- ترادف، أسبل، استرح، استعد.

قال نايف بصوت جهور:

- تحية العلم العربي السوري.

استجابت جموع الطلبة لما قاله المدرب العسكري، وبدأت حناجرنا في إنشاد تحية العلم.

كان عدد الطلاب من الصف الأول الإعدادي -السابع- إلى الصف الثالث الثانوي -البكالوريا- حوالي خمسمائة طالب وطالبة، وظل نظام التعليم في مدينة

الركة - حتى ذلك الحين - مختلطاً بين الذكور والإناث.

بدأنا نشد النشيد الوطني في صوت واحد:

- حماة الديار، عليكم سلام، أبت أن تذلل النفوس الكرام.

عندما أدركت حناجرنا منتصف النشيد دوى صوت رخيم ارتعدت من شدته فرائصنا، ودوى عميقاً في آذاننا:

- قف! صه يا بني آدم! اخرس يا حمار!

ران صمت مطبق لبرهة قصيرة من الزمن، وتوقفت أفواهنا عن الإنشاد، واشربأت أعناقنا إلى منصة المدرسة، وبدأت أعيننا تراقب شذرات الكلام المتناثرة من شفتي صاحب الصوت.

كان صاحب صوت النشاز المزعج أحد الزبانية؛ وهو عايد؛ أمين سر المدرسة.

أصدر عايد أوامره للمدرّب العسكري قائلاً بغضب جامح:

- أستاذ نايف! أرجو أن تسمح بأجساد طلبة الصف التاسع أرض المدرسة؛ جميع الصفوف كان أداؤها مقبولاً، إلا هؤلاء الأوغاد؛ كانوا نيماً مثل الكلاب، وليس لديهم ذرة احترام واحدة لتحية العلم.

سأل المدرّب نايف عايداً:

- هل تود أن تشمل العقوبة الذكور والإناث في آن واحد؟

حدق عايد في حشود الطلاب المتجمهرين كقطع الماشية، وتحدث إلينا بأنفة وخيلاء؛ كحديث الطاغية إلى الجماهير المحتشدة قائلاً:

- جميع الطلاب سوف يذهبون إلى صفوفهم باستثناء كلاب الصف التاسع؛ هؤلاء التيوس سيقون في الباحة؛ لينالوا عقابهم الشديد، أما البنات فليذهبن إلى الصفوف الدراسية، هيا بسرعة.

كان المجرم عايد طويل القامة، ممتلئ الجسم، داكن البشرة، ذا عينين غائرتين مستقرتين في جمجمة وجهه الممتلئ.

كما كان أفطس الأنف كالزنوج، فيما بدت حواجه كثة كحواجب الهنود الحمر،

وكان حليق الشارين حسبما أتذكر.

كان شعر جسده ورأسه غزيراً؛ كالعشب الكثيف الذي يملأ السهول والوديان.
كما كان عايد عريض المنكبين، رخم الصوت، كلما فغر فمه هدر صوته كهدير
الجرار الزراعي.

هرع الطلاب راكضين للوصول إلى صفوفهم الدراسية؛ تنفيذاً لأوامر المجرم
عايد، وتجنباً لاستثارة غضبه.

دلف الطلاب إلى مبنى المدرسة بخطوات متعجلة، فيما ظللنا وحدنا في الباحة
الفسيحة.

ذرع عايد والمدرّب العسكري نايف بضع خطوات نحونا؛ إلى أن أصبحنا في
مواجهتنا.

حمل عايد بيده اليمنى عصا خشبية غليظة، فيما أولج نايف مسدسه الحربي في
فتحة الحزام الملفوف حول خصرته؛ والمخصصة لذلك.
صاح عايد في حدة:

- يا كلاب! يا أوغاد! قسماً بالله سأجعلكم عبرة للناس.

جفت حلوقنا، وجحظت عيوننا، وانعقدت ألسنتنا من شدة الخوف الذي
عصف بأرواحنا، وساد صمت مطبق لهنيهة؛ خرق جدران السميكة صوت عايد؛
الذي جلبجل في غضب:

- اخلعوا ثيابكم العسكرية.

حدقنا بعضنا في أعين البعض وسط أكناف الدهشة والذهول التي سيطرت
علينا لبرهة قصيرة.

كرر عايد كلامه في غضب أشد من ذي قبل:

- أريد أن أراكم حفاة عراة خلال دقيقة واحدة. هيا بسرعة!

تساءلت في قرارة نفسي، دون أن أجرؤ على طرح السؤال أمام المجرم:

«هل حقاً يريدنا عراة ليشفي غليله، ويروي أحقاد الدفينة برؤية أجسادنا

العارية؟ أم أنه يريد أن يجمع طلاب المدرسة من حولنا لنصبح عبدة لهم؟ هل يعقل أن يفعل هذا؟ كلا، سأغادر المدرسة ولن أنصاع لأوامره؛ حتى لو كان هذا سيؤدي إلى طردي من المدرسة بشكل نهائي» .

استهجن الطلاب الأمر العسكري الذي أصدره المجرم عايد دون أن يبدي أحدهم الاعتراض على كلامه، أو ينبس ببنت شفة؛ فهذه هي المرة الأولى التي يُؤمر فيها الطلاب بتنفيذ أمر كهذا؛ لم يعتادوا عليه من قبل .

في هذه الأثناء تحدثت أعيُننا بدلاً من ألسنتنا التي عقدتها الرعب والخوف، وحقق كل واحد في عين زميله، ورمقه بنظرة تمتلئ بالرهبة والارتباب .

حُبست الأنفاس في صدورنا المرتعدة، واكفهرت وجوهنا، وامتقعت اصفراراً، ولم تمضِ بضعة ثوانٍ على آخر كلمة نطقها المجرم عايد؛ حتى عاود المدرب العسكري رشقنا بحمم من الكلمات؛ بدت كدوي القذائف:

- نفذ الأمر يا بني آدم! هذه أوامر عسكرية! لا نقاش فيها أبداً، الكل سيخلع ثيابه، لا أريد أن أرى حول أجسادكم المتعريّة سوى السروال الداخلي .

عندما تناهى إلى سمعي كلمة السروال الداخلي أطلقت تنهيدة عميقة لم تزل الخوف والرعب اللذين استوطنا جوفي .

خلعت البزة العسكرية، ومن ثم القميص الداخلي، وأكملت خلع باقي ملابسي إلى أن أصبحت عارياً من كل شيء أستر به جسدي البض إلا السروال الداخلي؛ الذي كان يدثر عورتي الأمامية والخلفية .

كان عدد الطلاب الذين خلعوا بزاتهم العسكرية ووقفوا باستعداد تام حوالي مائة طالب .

خلع المجرم عايد حزامه الجلدي السميك الذي لفه حول خصره؛ لتثبيت سرواله الخارجي، ثم طلب منا أن نخطو أمامه فرادى؛ قائلاً في هياج:

- فليات كل واحد منكم إلي حاسر الرأس، مطرق العينين .
إياكم ثم إياكم أن ترفعوا رؤوسكم وأبصاركم .

تقدم الطالب الأول نحو المجرم عايد؛ فجلده خمس جلدات متفرقة في أنحاء جسده، ثم طلب منه أن يجثو أرضاً على كوعيه وركبتيه، وأن يقبض على شحمتي أذنيه بإبهاميه وسبابتيه.

فعل الطالب ما أمر به، فقال له عايد بغطسة:

- أيها الكلب الأجر، هل ترى جدار المدرسة؟

رد الطالب بانكسار:

- نعم.

قال عايد حانقاً:

- ستزحف إليه وأنت جاثٍ على كوعيك وركبتيك.

حذار أن ترفع رأسك أو ظهرك.

رد الطالب بصوت يخنقه الخوف:

- حسناً.

وأخذ الطالب يزحف نحو جدار المدرسة؛ الذي كان يبعد عن نقطة العقاب الجماعي حوالي ثلاثمائة متر.

في تلك الأثناء نظر عايد إلى المدرب العسكري وقال له:

- أستاذ نايف! أرجو أن تتابع سير هؤلاء الحمير.

فقال نايف موافقاً دون تفكير:

- حسناً.

بدأ الطالب الأول بالزحف عارياً نحو جدار المدرسة؛ الذي بدا كجدران السجن، فيما واصل عايد جلد باقي الطلاب؛ واحداً تلو الآخر، وانهاال عليهم ضرباً دون أن تكل يده، أو يصيبها الضعف والارتخاء.

بعد أن فرغ المجرم من جلد نصف الطلاب جاء دوري؛ فخطوت خمس خطوات متناقلة نحو الجلال إلى أن أصبحت أمامه.

أغمضت عيني، وأطلقت نفساً عميقاً قبل أن تنهال سياط المجرم على جسدي

العاري؛ الذي ارتعدت فرائصه من شدة البرد القارص.

تمتم عايد قبل أن أصل إليه ببضع كلمات بذيئة:

- بسرعة يا خرا! يا حقير!

انهالت علي سياط السفاح كصواعق الرعد؛ فلم يقوَ جسدي المرتعش على احتمال الضربات الخمس، وتأوهت منذ الضربة الأولى، التي هرست قوتها طبقات اللحم بالدم.

كانت كل جلدة تلقاها جسدي النحيل أشد وقعاً وإيلاماً في روحي وجسدي من الجلدة التي سبقتها، وجلجل صوت السياط في أذني كصليل السيوف في أوج المعارك.

حالما انتهى المجرم من جلدي جثوث أرضاً، وأخذت أزحف نحو جدار المدرسة كما فعل من سبقوني كلهم.

زحفت مسرعاً نحو الجدار المصمت؛ لثلا أدع حجة للمدرب العسكري لتوبيخي وتقريعي؛ مثلما فعل مع الطلاب الآخرين الذين سبقوني في الزحف عندما قال لهم بصوت مشبع بالغطرسة:

- بسرعة يا بني آدم، اخفض رأسك، أطرق بعينك، هيا بسرعة.

بعد مضي الدقيقة الأولى لم أستطع مواصلة الزحف بنفس السرعة التي بدأت بها بسبب الإرهاق الشديد، والإجهاض المضني للذين أصاباني من وضعية القرفصاء.

هرست طبقة الاسمنت الصلدة ونبوءاتها المحدبة عظام مفاصلي العارية، وارتطمت فيها كارتظام المطرقة بالسنديان.

اشتدت موجة الألم التي عصفت بروحي؛ جراء إصابة أطرافي بقطع الحصى؛ التي هشمت الجلد وهرسته هرساً شديداً.

اضطرت لتخفيف سرعة الزحف تحت وطأة الألم الشديد الذي تسلل إلى ركبتيّ وكوعي؛ لاحتكاكهما المباشر بأرض الباحة المليئة بالحصى.

أدى اختراق قطع الحصى الصغيرة والمتوسطة لطبقة الجلد الرقيقة، وارتظام

المفاصل بالإسمنت إلى سيلان الدماء من ركبنا.
 سال الدم القاني من ركبتي بعد أن تهتك الجلد بشكل كامل، ولم يكن متاحًا لأي
 واحد منا أن يرفع رأسه إلى الأعلى، وأن يتوقف عن الزحف؛ أيًا كان السبب.
 تحملت آلامي وأوجاعي، وتمسكت برباطة جأشي؛ كما لو كنت أمسك بحافة
 الهاوية السحيقة بأناملي.

لم نكتثر لقطرات الدم التي سالت من أجسادنا، وروت أرض الباحة؛ كما لو
 كنا في مسلخ بشري، بل تألمنا بمرارة عميقة لكرامتنا التي انتهكت في وضح النهار؛
 دون أن يكون في مقدورنا فعل أي شيء.

تابعت الزحف العسير مع جموع الطلاب، وعندما وصلنا إلى جدار المدرسة
 تضرجت أجسادنا العارية بدمائنا النازفة من مرافقنا وركبنا بعد أن سلخ الحصى
 والإسمنت جلودنا؛ كما يسلك الجزار جلود الخراف بعد نحرها.
 لم تمض سوى لحظات قصيرة على التقاط أنفاسنا؛ حتى بدأت جولة تعذيب
 جديدة؛ أشد وقعًا، وأقسى إيلامًا من سابقتها.

في غمرة انشغالنا برؤية مشهد الدماء النازفة من أجسادنا، ومشهد جلودنا التي
 انسلخت، وتلوّث قروحها بالبكتيريا والجراثيم؛ جلجل صوت المجرم عايد من
 بعيد:

- يا كلاب! يا حيوانات! قفوا في استعداد! ارفعوا أيديكم إلى الأعلى، وأديروا
 وجوهكم إلى الحائط.

وقفنا جميعًا في استعداد وانتظام، ثم استدرنا بأجسادنا النازفة نحو حائط المدرسة.

ران صمت مطبق لمدة دقيقتين سهمت خلاهما في لجة همومي، وأطلقت العنان
 لأفكاري التي غدت مشوشة بفعل آلام الحروق التي أصابت جلدي المسلوخ،
 وراحت أناجي روعي قائلاً:

«ماذا يريد منا هذا الحقير؟.. لماذا يعذبنا بكل هذه الوحشية؟.. لا بد من اعتراض

أحدنا الآن. مَنْ سيعترض؟.. لا أحد يجروُ على تعريض نفسه للخطر، والتورط مع هذا الوحش البشري المسعور. ماذا لو اعترضت؟.. ما إن دار هذا السؤال في خلدي حتى هدر صوت المجرم عايد كهزيم الرعد من خلفي؛ قبل أن أفتش عن الإجابة؛ إذ صرخ قائلاً:

- استديروا إلى الأمام.

استدرونا جميعاً نحو الأمام، فاستقبلت وجوهنا المنكسرة وجه المجرم الذي أردف قائلاً:

- والآن، بعد هذا العقاب الشديد، هيا أسمعوني صوتكم.

ثم هتف المجرم بشعار حزب البعث قائلاً:

- أمة عربية واحدة...

فرددنا بصوت واحد، ونحن في حالة انكسار تام:

- ذات رسالة خالدة.

أوماً المجرم برأسه، وقطب حاجبيه الكثين، ثم رشقنا بكلام بذيء؛ تطايرت شظاياه في أنحاء المدرسة كلها؛ فقال:

- تبّاً لكم ولهتافكم، من الواضح أنكم لا زلتم نياماً، وأن تأثير العقوبة لم يسرِ مفعوله في أجسادكم بعد، سأجعلكم تفيقون الآن من نومكم.

خيم صمت عميق على المكان؛ فملأه رعباً وخوفاً.

كتمنا أنفاسنا داخل صدورنا، وواصل المجرم تهديده؛ ملوحاً بكلتا يديه؛ فقال:

- يا كلاب! هل ترون حائط المدرسة هناك في الطرف الآخر؟!

سوف ترحفون إليه، ولكن هذه المرة ليس على مرافقكم وركبكم، بل على

بطونكم، ومن يرفع رأسه عن الأرض فسوف أحطمه بالعصا.

انبطحنا أرضاً، واستقبلت أجسادنا العارية أرض الباحة الباردة، ثم أخذنا

نرحف على بطوننا مستعينين بأيدينا وأرجلنا.

لم تكد جروح ركبتنا ومرافقتنا تتوقف عن النزف؛ حتى بدأت تنزف من جديد مع

جروح جديدة أحدثت في صدورنا وبطوننا العارية؛ جراء الاحتكاك بأرض الباحة وما فيها.

ازداد تعبنا وإرهاقنا أضعافاً مضاعفة عما كان عليه في جولة التعذيب الأولى.
وصرخ بعض الطلبة من شدة الألم الناجم عن احتكاك طبقة الجلد الغضة بطبقة الإسمنت الصلبة، وأحدث الاحتكاك القاسي جروحاً عميقة في الجلد.
لم تكسر تأوهاتنا وصرخاتنا قلب المجرم، بل زادته صلابة وخشونة؛ فراح ينعتنا بأقذع الألفاظ، ويكيل لنا سيلاً من الشتائم النابية:
- يا كلاب! يا حشرات! ازحفوا دون أن تثيروا بلبلة أو جلبه؛ فأصواتكم المنكرة تملأ الدنيا ضجيجاً كأصوات النساء.

استمر زحفنا البطيء رغم آلامنا، وأوجاعنا، ودمائنا التي أغرقت أجسادنا، ولم يكن أحد منا يقوى على أن ينبس بينت شفة؛ حالنا في ذلك حال أكثر من عشرين مليون مواطن سوري؛ لم يكن أحدهم يجرؤ على الاعتراض على أبسط الأشياء، وأنفه الأمور.

أخيراً وصلنا إلى جدار المدرسة الكائن في الطرف الأيسر؛ والذي يبعد عن الجدار الآخر الموجود في الطرف الأيمن حوالي أربعمئة متر.
بدا وصولنا أشبه باجتياز حقول ألغام متفجرة؛ مفروشة بالأشواك والموت في أي لحظة بعد أن تقطعت أوصالنا إرباً.

كان الإذلال والمهانة اللذين تجرنا مرارتهما خلال جولتي التعذيب، وتحت سياط المجرم، وصعقات كلماته البذيئة أقسى بكثير من كل حقول الألغام، بل أمر من الموت نفسه.

جذبنا أجسادنا المطلخة بالدماء بصعوبة بالغة فوق سطح أرض الباحة؛ بعد أن التصقت بها طوال فترة الزحف، ثم استدرنا للخلف.
استقبلت وجوهنا البائسة جدران المدرسة كما حدث في المرة الأولى، ولكن دون أمر مباشر من المجرم هذه المرة.

مضت دقيقة واحدة على وقوفنا أمام جدار المدرسة؛ خيمَ خلالها الصمت من جديد، وفجأة هدر صوت المجرم عايد؛ وهو يصرخ قائلاً:
 - أقسم بالله العلي العظيم إذا لم يصل صوتكم هذه المرة إلى بيوت ذويكم، فسأظل أعاقبكم حتى تهرأ أجسادكم.
 هيا اهتمفوا بصوت واحد، أهدافنا...
 أطلقت أفواهنا أهداف حزب البعث العربي الاشتراكي بقوة صاعقة؛ كادت أن تتشقق لها حناجرنا:

- وحدة، حرية، اشتراكية.
 مطّ المجرم فمه، ثم زمّ شفّتيه، وأردف قائلاً:
 - بدأ أذاؤكم يتحسن قليلاً، ولكنكم لا زلتم نياماً، وحتى تستيقظوا من رقادكم سأعاقبكم هذه المرة بالركض السريع حول ساحة المدرسة لعشر دورات متتالية، هيا نفذوا بسرعة!

أخذنا نركض حول ساحة المدرسة كقطعيع الأغنام، وخلال ركضنا السريع تصاعدت شهقاتنا وزفراتنا بشكل مضطرب؛ أولج الدفء إلى أجسادنا المرتعشة من شدة البرد، فبدأت أجسادنا تتفصد عرقاً.

في الدورة الخامسة بدأ الألم يسري إلى باطن قدميّ العاريتين جراء احتكاكهما المباشر بالحصى المتناثر في أرض الباحة، ولم يكن من الممكن لأحد منا أن يتراجع عن الركض أو يتأخر فيه بذريعة الألم الناجم عن الاحتكاك بالأرض.

وما إن أوشكت الدورة الثامنة على الانتهاء حتى بدأت خطواتنا تتثاقل؛ لا بسبب التعب أو الإرهاق اللذين أصابانا من الركض السريع، بل بسبب الحصى، الذي اخترق باطن أقدامنا وأدامها بصورة مريعة.

استدعى تثاقلنا انقضاض المجرمين عايد والمدرّب العسكري علينا ضرباً بالسياط؛ كما ينهال الراعي على دوابه بالسوط؛ لحثها على الحركة السريعة في المشي، ولم تخلُ ضرباتهما من تسديد بعض الكلمات البذيئة إلينا:

- هيا تحرك! اركض يا حيوان! اركض يا كلب! إياك أن تسير على قدميك بتمهل.

انتهت الدورة العاشرة بكثير من الألم والعذاب والقهر الذي مزق أشلاءنا، وخضب أجسادنا بالدماء؛ فبدت أجسادنا من فرط ما حدث لها من آلام وأوجاع ونزيف كجسد المسيح الذي يصور في الأفلام واللوحات والصور. وقفنا باستعداد صفًا واحدًا في منتصف الباحة، وطأطأنا رؤوسنا، وأغمضنا أعيننا.

استقبلت وجوهنا الأرض، فيما استعدت آذاننا للإنصات لما سيقوله المجرم هذه المرة.

شق صوت المجرم صمتنا العميق، وبث الذعر في نفوسنا، ودوى في الباحة كقذائف الهاون:

- لا زلتم نيامًا، تبًّا لكم أيها الكلاب! هيا ارفعوا رؤوسكم، وشدوا صدوركم، وقفوا باعتزاز.

رفعنا رؤوسنا إلى الأعلى، وحاولنا أن نستششق بعض نسائم الهواء العليل، والتقط كل منا نفسًا عميقًا.

امتلاّت صدورنا بالهواء النقي، واستقبلت نظراتنا المنكسرة عيني المجرم عايد الذي أكمل كلامه قائلاً:

- والآن، هيا أسمعوني تحية العلم! أريد أن يصل صوتكم إلى باب بغداد. انطلقت كلمات النشيد السوري من أفواهنا كأزيز الرصاص المتدفع من فوهات البنادق، وتشققت حناجرنا بتمرير الكلمات من أعماق صدورنا إلى أفواهنا؛ كتشقق ماسورة المدفع عند تمرير القذائف الملتهبة من حجرة النار إلى فوهة المدفع:

«حماة الديار عليكم سلام، أبت أن تذلل النفوس الكرام»

بدت كلمات النشيد الوطني بما تحمله من معاني العزة، وقيم المواطنة مناقضة بشكل فاضح لحالنا المزرية المكتسية بالدماء التي رسمت خريطة الألم على أجسادنا

المنهكة.

في العام التالي وبعد أن حصلت على شهادة الإعدادية العامة بتقدير جيد جداً، التحقت بالمرحلة الثانوية العامة.

في هذه المرحلة فرض نظام الأسد ممثلاً بحزب البعث على جميع طلاب الصف الأول الثانوي من الذكور والإناث المشاركة الجبرية في حملة تنظيف المدن السورية في مطلع شهر يوليو من كل عام؛ بعد انتهائهم من أداء امتحانات الفصل الدراسي الثاني.

شاركت في حملة تنظيف مدينة الرقة؛ التي دامت لواحدٍ وعشرين يوماً. اتخذت الحملة من «المعسكر الإنتاجي القطري» مسمى لها تحت إشراف وزارة التربية، ومجلس بلدية المحافظة.

أشرف على المعسكر المدربون العسكريون الذين أُستدْعُوا من جميع المدارس الإعدادية والثانوية.

كانت مهمة هؤلاء المدربين منحصرة في مراقبة الطلاب، وفرض الأحكام العرفية على كل مَنْ تسول له نفسه الغياب، أو التأخر لدقيقة واحدة عن اللحاق بالمعسكر. عقد المدربون العسكريون الاجتماع الصباحي في ثانوية عمار بن ياسر الكائنة في شارع سيف الدولة، وسط مدينة الرقة؛ في تمام الساعة السابعة صباحاً.

في كل موسم سنوي كان أكثر من ألف طالب وطالبة يحضرون الاجتماع، وكانوا يقفون في باحة المدرسة كأسراب النمل؛ استعداداً لترديد شعارات النظام، ومن ثم الانتقال بواسطة حافلات البلدية إلى الشوارع، والميادين، والساحات العامة؛ لتنظيفها من الغبار والتراب والقمامة التي كانت شوارع المدينة تعج بها طوال أيام السنة، ولم يكن ثمة عمال نظافة يكلفون أنفسهم عناء العمل؛ إذ كانوا يكتفون بتقاضى رواتبهم الشهرية من مجلس بلدية المحافظة فقط؛ دون القيام بالعمل الذي كلفوا به.



ظهرت اليوم الثاني عشر للمعسكر، الموافق للثاني عشر من يوليو، وبعد عشاء يوم صيفي قانظ أمضيته في تنظيف الشوارع تحت لهيب الشمس الحارق؛ اجتمعنا في باحة المدرسة لإجراء التفقد اليومي قبيل الانصراف.

كان التفقد يجري مرتين في اليوم الواحد؛ المرة الأولى في الساعة السابعة صباحاً قبل الانطلاق إلى العمل، والمرة الثانية في تمام الساعة الواحدة ظهراً بعد العودة من العمل.

كان المدربون العسكريون هم المسئولون عن إجراء التفقد اليومي بأمر مباشر من قائد المعسكر؛ الملازم خلف؛ والذي كان يحمل أعلى رتبة عسكرية في المعسكر؛ لكون معظم المدرسين من ضباط الصف؛ الذين تراوحت رتبهم ما بين رتبتي الرقيب والرقيب أول.

كان الملازم خلف ذا شخصية عسكرية نرجسية؛ تمتلئ بالزهو والحقد والعقد النفسية، انتدبه المكتب العسكري الموجود في رابطة اتحاد شبيبة الثورة؛ وهي إحدى الأذرع الحزبية التابعة لحزب البعث، والمنتشرة في المدارس الإعدادية والثانوية؛ للعمل مع مديرية التربية والتعليم في خدمة العلم في جيش النظام. رغم أن رتبة الملازم خلف لا يعتد بها بين رتب الضباط المبتدئين في أي جيش في العالم إلا أنه كان يرى في نفسه رب الأرباب؛ الذي يجب أن يطاع ويقبل حذاؤه العسكري دائماً.

بعد انتهاء المدرسين العسكريين من إجراء التفقد همس أحد الطلاب في أذن زميله ببضع كلمات؛ سمعها بالكاد مَنْ هم حوله، ولسوء حظ الطالب رمقه الملازم خلف بعينيه الحادتين اللتين كانتا تتجولان بشكل عشوائي بين صفوف الطلاب، فنادى الملازم على الطالب بأعلى صوته؛ قائلاً:

- أنت!. نعم أنت، تعال إلى هنا!

شق الطالب طريقه بين صفوف زملائه الطلاب، وخرج عن الصف بخطوات

مرتبكة؛ كما يخرج الطير عن سربه.

ثم أكمل خطواته حتى أصبح في مواجهة الملازم، فوقف أمامه باستعداد، وأدى التحية العسكرية، ثم أسبل يديه في صمت.

وما إن أطبق الطالب قبضة يده اليسرى من أعلى جبينه إلى ساقه حتى هوت قبضة الملازم خلف على إحدى وجنتيه، ثم راحت تصفع الوجنتين بعد ذلك بعنف مفرط يمتد ويسر أمام حشودنا الهائلة.

هذى الملازم خلف ببضع كلمات تناثرت من فمه كنتاثر حبات الرمل في الصحاري؛ قائلاً:

- يا بن الحمار! من أعطاك حق الكلام؟

أنت هنا لتنظف الشوارع، ولتطيع أوامري، وليس لتثرثر!

لو لم تكن عاهراً، لما فعلت ذلك يا قليل الشرف.

أشار الملازم خلف بإصبعه نحو حذائه العسكري، وقال محتدّاً:

- انظر إلى حذائي العسكري، هل تراه جيداً؟.. إنه أنظف من وجهك القذر.

عندما أقول صه يجب أن يصمت الجميع، ويكفوا عن الكلام، ومن لديه الجرأة على فتح فمه سأقص لسانه بالمقص، بل سأحشو فمه برصاص هذا المسدس.

أشهر الملازم خلف المسدس الحربي المغروز في خصره، ورفعته إلى الأعلى ملوحاً به في وجه الطلاب المحتشدين، وتابع كلامه الموجه للطلاب المسكين قائلاً:

- أيها الحقير! ليس من عادتي أن أسامح أحداً على حماقة ارتكبتها، ولكنني سأسامحك هذه المرة إذا قبلت حذائي العسكري.

هيا قبل الحذاء لأسامحك، ولتنال درساً بليغاً في الأدب، هيا قبله.

أشرأبت أعناقنا إلى المنصة التي وقف عليها الملازم وإلى جواره الطالب، وانطلقت أعيننا تراقب المشهد بصمت مطبق؛ كما لو كان أمامنا مشهد إعدام ميداني.

ران صمت عميق لبرهة قصيرة من الزمن؛ وقع خلالها الطالب في حيرة من أمره؛ فهو إن رفض تقبيل حذاء الملازم فسيعرض نفسه للضرب والفصل والطرْد

من الدراسة، وإن وافق على ما طلب منه فإنه سيهين نفسه، وسيقلل من شأنه أمام مئات الطلاب المحتشدين من الذكور والإناث.

كسرت كلمات الملازم الصمت المطبق، وأشاعت أجواء الرعب، وهصرت عقولنا وقلوبنا من شدة الخوف:

- أما زلت تفكر أيها الحمار؟ هيا قَبِّلْ حذائي وإلا جعلتك تلعبه كلعق الكلاب لقصعاتها.

طأطأ الطالب رأسه بمزيد من الألم والانكسار، وتمنى في تلك اللحظات العصبية أن يحضره الموت بدلاً من تجرع المهانة أمام مئات الطلبة، ولم يكن أمامه أي خيار آخر سوى تقبيل حذاء الملازم.

أحنى الطالب جذعه، وهبط بجثته أرضاً؛ كالراكم في صلاته، إلى أن أصبح رأسه محاذياً للحذاء الجلدي الأسود، وظل الملازم متسماً في مكانه كالصنم، فيما اقتربت شفتا الطالب من مقدمة الحذاء، وشرعنا في تقبيله بانكسار وإذعان.

نهض الطالب منكسراً كعمود القصب المكسور؛ لا يلوي على أحد، فيما تبلدت مشاعر الضابط الملازم، وبدا في تلك اللحظة كالصنم الحجري الذي انعدمت أحاسيسه، وانقلب إلى وحش كاسر.

حرق الملازم في عيني الطالب، وصرخ في احتداد:

- هيا اذهب إلى الصف!

أقفّل الطالب الذليل عائداً إلى صفوفنا المحتشدة في الباحة في يوم أشبه بيوم الحشر.

بث مشهد انكسار الطالب الذعر والرعب في قلوبنا، واستغل الملازم المشهد المفتعل من قبله ليظهر لنا شخصيته النرجسية التي أخفق في إظهارها طوال الأيام العشر الأولى، وليطبق علينا القمع والاستبداد في أبشع صوره وأشكاله.

أكمل الملازم نعيه، ورشقنا بطائفة من الكلمات المدوية؛ قائلاً:

- أغلبكم يحتاج إلى إعادة تربية على ما يبدو، لقد أخفق ذووكم إخفاقاً ذريعاً في

تربيتكم.

حسنًا، لا بأس، سوف نربيكم الآن تربية تليق بكم كطلبة في اتحاد شبيبة الثورة.
هيا فلينبطح الكل على الأرض!.. هيا بسرعة!

انبطحنا أرضًا على بطوننا، كانت الإناث في مقدمة الصفوف، فيما كنا نحن الذكور، في مؤخرتها.

لم يقدر الملازم المتعجرف مشاعر الطالبات، وخوفهن الشديد على أنفسهن، ورغبتهن في التعلم، وجني شهادات التعليم النظامية؛ إذ كان الحصول على شهادة الثانوية العامة في الفرعين الأدبي والعلمي -للأسف- مشروطًا بشرط تعسفي؛ يكمن في المرور بهذا المعسكر القومي المهين لكرامة الإنسان، والواقع تحت إمرة زبانية النظام العاملين في وزارة التربية والتعليم بتفويض من طغاة هذا النظام الظالم.

لم يكن لدينا خيار سوى الامتثال لأوامر ذلك الملازم المصاب بعنود العظمة؛ رغم ما بذلنا من مجهود كبير خلال الأيام العشر الأولى في تنظيف شوارع المدينة المكتظة بالقمامة والنفايات حتى نتجنب الاصطدام به، ولكن ذلك لم يشفع لنا عند ذلك الطاغية؛ الذي كان ينشب أنيابه الحادة ليغرزها في رقابنا في أي لحظة جنون ومجون عابرة.

أصدر الملازم أمرًا للمدربين العسكريين قائلاً:

- هلموا إلى تربية هؤلاء الكلاب، وعلموهم الأدب، ومن يرفض التعلم أرسلوه إلي؛ لأعلمه الأدب بواسطة هذا الخذاء العسكري.

انتشر المدربون العسكريون بين أفواجنا المصطفة؛ والتي بلغ عددها عشرة أفواج تقريبًا، وتولى كل مدرب مسئولية فوج واحد كامل بمفرده.

شرع المدربون في تطبيق العقوبات العسكرية القاسية؛ تنفيذًا لأوامر الملازم المتعجرف، فيما جلس الأخير فوق كرسيه الوثير في منصة الباحة؛ كما يجلس الملوك الطغاة فوق عروشهم الملطخة بالدماء، وراح يحدق باستمتاع وتلذذ في مشهد تعذيبنا تحت لهيب الشمس الحارق.

صاح المدربون العسكريون بملء أفواههم فينا؛ بعد أن اتفقوا على خطة تعذيبنا ومعاقبتنا قائلين:

- واقفًا، جاثيًا، منبطحًا. جاثيًا، منبطحًا، واقفًا.

صرخ أحد المدربين في فوج الفتيات أمرًا:

- اجثين على ركبتك، وازحفن.

بينما صرخ مدرب آخر في فوجنا قائلاً:

- انبطحوا على بطونكم، وازحفوا.

لم تكن جولات التعذيب النفسي والبدني في مدارس النظام تقف عند حد معين، كما لم تكن تقتصر فقط على انتهاك حقوق الأطفال، والشباب الصغار في مدارسهم، بل طالعت حقوق الفتيات القاصرات، والراشدات أيضًا.

كان الكثير من الطلاب يغادر صفوف الدراسة مبكرًا، ويستنكف عن مواصلة تعليمه الأساسي؛ لإحساسه العميق بانتهاك كرامته، وتخطيم شخصيته، وأدميته. أذكر أنني كنت لا أكاد أخرج من دوامة قمع؛ حتى أقع في دوامة أخرى أشد فتكًا وهولاً من سابقتها، فمن دوامة القهر الذي تجرعت مرارته في المدرسة الإعدادية، إلى دوامة الجور الذي تجرعت في المدرسة الثانوية.

في أواخر شهر نوفمبر عام ألف وتسعمائة وتسعة وتسعين كنت طالبًا في الصف الثالث الثانوي في مدرسة الملكة بليقيس الكائنة في شارع الثالث والعشرين من شباط، وتخصصت منذ ذلك العام في دراسة الآداب والعلوم الإنسانية.

كان الدوام الدراسي يبدأ يوميًا في سوريا في تمام الساعة السابعة صباحًا. لم أكن أناخر البتة عن اللحاق بميعاد الاجتماع الصباحي المخصص لترديد شعارات النظام الرنانة؛ التي دأبنا على ترديدها منذ نعومة أظافرنا بالغضب والقوة. حتى ذلك العام؛ كانت البزة العسكرية واجبًا أساسيًا من واجبات الدراسة، بل كانت مقررًا دراسيًا لا يقل عن المقررات الأخرى كالفلسفة والتاريخ أهمية.

كان المدرب العسكري بشخصيته الديكتاتورية يمثل وجهًا آخر من وجوه القمع والإذلال الذي طُبِّقَ على الطلاب في سوريا؛ بإيعاز مباشر من النظام؛ لتحطيم وتدمير شخصية الإنسان السوري؛ بغية قتل كل قيم ومعاني الحرية والكرامة، وزرع بذور العبودية والخوف بدلًا منها.

حضرت الاجتماع الصباحي في الوقت المحدد، وبعد الانتهاء من ترديد الشعارات الجوفاء أوعز لنا المدرب العسكري بالتحرك، والانطلاق من الباحة إلى الصفوف الدراسية داخل المبنى.

انطلقت مع زملائي الطلاب إلى المبنى، وقبل وصولي إلى باب المبنى الرئيس اعترضني مدرب التربية العسكرية، وسألني بنبهة حادة:

- أين قبعتك العسكرية؟

فأجبت متلعثمًا:

- عفواً لقد نسيتها.

فنظر المدرب إلي بفضاظة، ثم أومأ بيده جهة اليمين قائلاً:

- قف هناك، عند الطرف الأيمن.

وقفت في الطرف الأيمن الذي أشار إليه مع مجموعة من الطلبة المتخلفين عن حضور الاجتماع الصباحي، وبعدما أنهى المدرب العسكري تفقده للطلبة الصاعدين إلى صفوفهم الدراسية خطا بضع خطوات نحونا، وتحدث إلينا قائلاً:

- لقد مللت من قول وتكرير: «لا أريد أن يتأخر أحد منكم عن الاجتماع

الصباحي»

أف لكم، ولعقولكم الصدئة، أشعر أحياناً أنني أتكلم مع قطع من الأبقار، وليس مع ثلة من البشر.

تدخلت بشكل عفوي، وبطريقة لا شعورية في محاولة مني لتخفيف غضب واحتقان المدرب العسكري؛ فقلت:

- عذراً أستاذ، لا يوجد أحد بيننا يريد أن يتأخر عن الاجتماع الصباحي بشكل

مقصود، هذه المشكلة دائمة الحدوث في كل المدارس.
اندفع المدرب العسكري نحوي، وانقض علي فجأة كما ينقض الضبع الخسيس
على فريسته، ولكمني بقبضة يده اليمنى لكمة قوية استقرت في منتصف صدري، ثم
تفوه ببضع كلمات بذينة في وجهي؛ قائلاً:

- يا خرا! من سمح لك بالكلام؟.. يا قليل الشرف! يا ابن القحبة!
لم يُبدِ المدرب العسكري أي احترام لمشاعر الفتيات اللواتي وقفن بإطراق،
وأصغين بإنصات وتعجب لكللماته البذينة.

لم أتمالك أعصابي بعد اللكمة القوية التي سددها المدرب إلى صدري.
استثارت كلماته البذينة بركان غضبي بعد أن طالت العرض، ومست الشرف،
فسدلت لكمة قوية إلى صدره، ثم دفعته بكامل قوتي إلى الخلف، فكاد المدرب أن
يسقط أرضاً؛ لولا أنه تمالك نفسه في اللحظات الأخيرة.

صرخت فيه بغضب وحزم شديدين:
- ما من مخلوق على وجه هذه الأرض هتك عرضي، ومس كرامتي، وطعن في
شرفي، إلا وكانت قدمي فوق رأسه، لا تعتقد أنني سأكتفي بذلك، بل سأجعلك
تدفع الثمن غالياً؛ عاجلاً أو آجلاً.

رد المدرب بحقن شديد:
- أتهدني أيها الأحمق؟! تباً لك ولتهديدك!
افعل ما تشاء، وتصرف كما يحلو لك، على أي حال لنا لقاء آخر في مكتب الإدارة
بعد أن أفرغ من معاقبة هؤلاء الأوباش الذين يشبهونك.

أومأت برأسي موافقاً، وقلت بحزم:
- سنرى من الذي سيتغلب على الآخر.

(15)

كانت المسيرات الحاشدة التي نظمها زبانية النظام فصلاً آخر من فصول استعباد الإنسان في سوريا.

كان طلاب المدارس -من فتى الأشبال والناشئين- الخزان البشري الذي اعتمد عليه زبانية النظام في تنظيم مسيرات المديح والثناء لشخص القائد الفذ، والزعيم الأوحّد، والرئيس الملهم من رب السماء.

شاركت في هذه المسيرات بشكل جبّري وقسري عندما كنت تلميذاً يافعاً في المرحلتين الابتدائية والإعدادية.

مثّل حضور الطلبة للمسيرات الحاشدة حدثاً مهمّاً لدى زبانية النظام؛ كان أهم بكثير من حضورهم اليومي إلى المدرسة لتلقي العلم.

تسبب عدم حضور أي طالب للمسيرة -أيّاً كانت الأسباب والذرائع التي حالت دون مشاركته- في تعرضه للملاحقة الحزبية والمدرسية، واستدعاء ذويه وأفراد أسرته للتحقيق معهم، ولتقديمهم تعهداً خطيباً وشفهياً لإدارة المدرسة بعدم تكرار ذلك مرة أخرى.

كان الملعب البلدي أو ما يعرف بملعب الرشيد الكائن وسط مدينة الرقة نقطة الانطلاق الرئيسة التي يجتمع فيها طلاب المدارس من كل الأعمار والفئات قبل انطلاقهم في مسيرات التأييد لنظام الأسد.

لم يكن هناك توقيت محدد لميعاد انطلاق تلك المسيرات؛ فتتّظيمها مساءً أو صباحاً يتوقف على أهمية كل مناسبة تخص النظام، وقد تعددت المناسبات التي نظمت من أجلها المسيرات، وكان من أبرزها:

• «ذكرى حرب السادس من أكتوبر ضد إسرائيل»؛ وهي حرب تحريك القوات السورية على جبهة القنيطرة عام ألف وتسعمائة وسبعين للميلاد؛ حيث ادعى نظام الأسد أنها حرب تحريرية؛ ليرفع رصيده الشعبي والعربي على حساب العداء لإسرائيل. ومن أبرز الشعارات التي حملها الطلاب بأيديهم المرتعشة أثناء المسيرة:

«حافظ الأسد بطل الحرب والسلام»

• «حركة التصحيح المجيدة بتاريخ السادس عشر من نوفمبر»؛ والتي تمثل ذكرى الانقلاب العسكري الأسود الذي قاده حافظ الأسد مع ثلة من ضباط الجيش، وبغطاء سياسي من رجالات حزب البعث على صلاح جديد، ورئيس الجمهورية نورالدين الأتاسي.

ومن أبرز الشعارات التي كنا نرددناها قسرًا بملء أفواهنا:

«حافظ الأسد رمز الأمة العربية»

«بالروح بالدم نفديك يا حافظ»

• «ثورة الثامن من مارس»؛ والتي تمثل تاريخ الانقلاب المشؤم الذي قام به ضباط حزب البعث على السلطة الوطنية المنتخبة عام ألف وتسعمائة وثلاثة وستين؛ بذريعة القضاء على حركة الانفصاليين، وإعادة الوحدة مع مصر؛ أثناء فترة حكم الرئيس جمال عبد الناصر.

ومن أبرز الشعارات التي كنا نرددناها تحت سياط الجلادين:

«إلى الأبد، إلى الأبد يا حافظ الأسد»

• «السابع من أبريل»؛ ذكرى ولادة حزب البعث العربي الاشتراكي عام ألف وتسعمائة وسبعة وأربعين، وقد استخدمه نظام الأسد كواجهة سياسية لتغطية حكمه الأمني والعسكري.

ومن أبرز شعارات تلك المناسبة:

«سبعة نيسان يا رفاق ميلاد الحزب العملاق»

«يا شباب العرب هيا، وانطلق يا موكبي،

وارفع الصوت قوياً: عاش بعث العربي»

• «السابع عشر من أبريل»؛ ذكرى جلاء القوات الفرنسية عن كافة الأراضي السورية بعد انتهاء فترة وصايتها على سوريا؛ والتي بدأت فعلياً بعيد الحرب العالمية الأولى؛ في عام ألف وتسعمائة وثمانية عشر، وانتهت عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ألف وتسعمائة وستة وأربعين.

ومن أبرز شعارات الجلاء المحقونة بالسياسة:

«سورية يا حبيبتى أعدت لي هويتي، أعدت لي كرامتي يا حبيبتى، بالحرب

والكفاح وشعلة الجراح تنير درب ثورتى»

كان الاستعداد للمسيرات الصباحية -كمسيرة السادس عشر من نوفمبر، والثامن من مارس، والسابع من أبريل- يبدأ قبل يوم واحد من انطلاقها؛ من خلال حشد الطلاب في المدارس، وإخطارهم من قبل مدربي التربية العسكرية بضرورة المشاركة الجبرية، ومن ثم يبدأ الزبانية بتوزيع أعلام النظام، وصور حافظ الأسد؛ التي يظهر في كل واحدة منها بشكل مختلف؛ فمرة بأزياء مدنية، وأخرى عسكرية، إضافة إلى توزيع اللافتات والشعارات التي كان الطلاب يضطرون لرفعها عاليًا بأيديهم المرتعدة خوفاً ورعباً.

جابت المسيرات شوارع مدينة الرقة، ودوت هتافاتنا التي كنا نردددها بصخب كبير في آذان السكان؛ الذين كانوا حولنا، وكان ينبغي علينا المرور من أمام قصر المحافظ، ومن أمام المبنى المركزي لحزب البعث العربي الاشتراكي الكائن في أطراف حي الثكنة، والمجاور للمستشفى الوطني؛ ومثلَّ المسير بهذه الخطة الهدف الرئيس للقائمين على تنظيم المسيرة.

ولكي يثبت الطلاب ولاءهم لنظام الأسد، وليبرهنوا على حبهم له كان لا بد لهم من الوقوف أمام مكتب المحافظ القابع في قصره الفاخر، ومن ثم المرور من أمام مكتب أمين فرع حزب البعث؛ اللذين مثلا الوجه الآخر لرأس النظام، وإسماعهما أقوى هتافات التأييد، وشعارات الولاء الأعمى.

كنت طالباً في الصف الثاني الثانوي العلمي في مدرسة أبي تمام، وفي مساء يوم الاثنين الموافق للسادس عشر من نوفمبر عام ألف وتسعمائة وثمانية وتسعين؛ أخطرنا المدرب العسكري بضرورة المشاركة في المسيرة مساء اليوم نفسه.

استنكفت عن الخروج في المسيرة ظناً مني أن أسلوب زبانية النظام في التعامل مع طلبة المرحلة الثانوية قد تغير بشكل جذري مقارنة بتعاملهم مع طلبة المرحلة الإعدادية؛ نظراً لفارق السن، والمستوى التعليمي المتقدم لطلاب الثانوية العامة.

لم يفوت مدرب التربية العسكرية فرصة إجراء التفقد قبل المسيرة وأثنائها وبعيد انتهائها لحصر الطلاب؛ سواء الذين شاركوا في المسيرة أو أولئك الذين رفضوا المشاركة فيها، ولسوء الحظ؛ كنت الطالب الوحيد الذي رفض المشاركة في المسيرة.

في اليوم التالي حضر المدرب العسكري إلى القاعة الدراسية، وطلب مني مرافقته إلى الخارج، فاستأذنت مدرس اللغة العربية، ثم لحقت بالمدرّب الذي سألني بحدة:

— لماذا تغيبت البارحة عن المسيرة؟

فأجبته بثقة:

— لقد حضرت الكثير من المسيرات دون أن يكون هناك أي جدوى منها.

فغر المدرب عينيه، وسأل باحتداد:

— ماذا قلت؟ أتعي ما تقول أيها الأبله؟

ابتلعت ريقِي، وأردفت قائلاً:

— لقد شاركت البارحة بشكل غير مباشر.

سأل المدرب:

— كيف ذلك؟

فقلت دون تفكير:

— لقد شاهدني الكثير من الطلاب، وتستطيع أن تتحقق من ذلك.

نظر لي بقسوة، وقال:

- لا يهمني إن شاهدوك في المسيرة، أم لا، ما يهمني أن اسمك غير مقيد في سجلات المشاركين، لماذا لم تحضر المسيرة؟
رددت بتؤدة:

- عذراً، لقد كنت مشغولاً ليلة البارحة.
قطّب المدرب العسكري حاجبيه، وزمّ شفّتيه، وقال بغضب متأجج:
- على كل حال ستخضع غداً لتحقيق عسكري، عليك أن تخطر والدك بالحضور، وبحوزته البطاقة الشخصية.
فقلت في استسلام:
- حسناً.

في اليوم التالي أحضرت بطاقة والدي الشخصية؛ لأنني لم أستطع دعوته لمثل تحقيق كهذا.

كنت أظن أنه مجرد تحقيق روتيني تافه، فقدمت البطاقة للمدرب العسكري، واعتذرت عن عدم حضور والدي لكونه مريضاً، ولا يستطيع القدوم إلى المدرسة.
احتجز المدرب بطاقة والدي، ورفض منحني إياها، وتذرع قائلاً:
- بطاقة والدك ستبقى بحوزتي إلى حين حضوره بشكل شخصي لاستلامها.
كظمت غيظي المتأجج، وأردفت قائلاً:
- ولكننا لم نتفق على هذا، بأي حق تصدر بطاقة والدي؟
أجاب المدرب بعنجهية:
- إذا كان والدك مهتماً ببطاقته فليأت لاستلامها، ولن أرده خائباً.

بعد مضي خمسة أيام على وقوع هذه الحادثة؛ فتش والدي عن بطاقته الشخصية، فلم يعثر عليها، وقبل أن ينهمك في البحث والتقصي عنها من خلال سؤال والدي، قلت له متأسفاً:
- أرجو المعذرة، لقد أودعت بطاقتك في المدرسة.

سأل والدي مندهشاً:

- ماذا تفعل البطاقة في المدرسة؟

أجبت بحياء:

- لقد طلبها مدرب التربية العسكرية.

لوح والدي بيده، وأردف متسائلاً:

- لماذا؟

فأجبته:

- لأنني لم أحضر المسيرة.

سأل متعجباً:

- وما علاقة البطاقة بالمسيرة؟

أجبت بصوت خفيض:

- لا أعرف؛ لقد طلب المدرب إحضار بطاقتك، وعندما أحضرتها له أخبرني بأن

عليك أن تحضر إليه شخصياً لاستلامها، واستكمال التحقيق.

هزّ والدي رأسه باستغراب، وقال مذهولاً:

- حقاً إنه أمر غريب.

رغم غرابة الموقف، وخرجي الشديد أمام والدي إلا أنه قرر في اليوم التالي الذهاب

إلى المدرسة؛ لاسترداد بطاقته، ومعرفة ما الذي يريده مدرب التربية العسكرية، فضلاً

عن الوقوف على الأسباب التي دفعته إلى مصادرة البطاقة.

صبيحة اليوم التالي انطلق والدي إلى المدرسة، استجابة لإلحاح المدرب العسكري،

وعندما وصل إلى جدرانها المحاطة بالخوف، قرع الباب المعدني الضخم، وطلب من

خفير المدرسة أن يأذن له في مقابلة المدرب.

التقى الرجلان في باحة المدرسة، ثم واصلا السير بخطوات متمهلة إلى مكتب

المدرب العسكري الكائن في الطابق الأرضي.

دلف المدرب الشاب إلى مكتبه الذي امتلأت جدرانه بصور رئيس النظام حافظ

الأسد، وجلس على كرسيه الوثير، ثم أردف قائلاً:

- تفضل.

رد والدي بتؤدة:

- شكرًا.

شرح المدرب في سرد أقاصيصه المملة حول المسيرات الطلابية، وأخذ يشرح أهميتها في تثقيف الطلبة تثقيفًا عقائديًا بأهداف ومبادئ حزب البعث، ولم تخل كلماته السمجة من نبرة استعلائية.

امتعض والدي، وتبرم غيظًا من الطلبات الساذجة التي عرضها المدرب قائلاً:
- ابنك لا يشارك في المسيرات، وهذا الشيء يمكن أن يتسبب في إيذائه أمنياً، وقد يعرض مستقبله للخطر.

سأل والدي هازئاً:

- ما الأذى الذي يمكن أن يصيبه؟

أجاب المدرب بصوت غليظ:

- قد يلحق الضرر في ملفه الحزبي.

ازدرد والدي ريقه، وقال بحزم:

- ولدي لا يتغيب عن المسيرات إلا لأسباب قاهرة، فما الذي تغير اليوم؟

أجاب المدرب بغطرسة:

- لم يتغير أي شيء على الإطلاق؛ فولدك قد تغيب عمداً عن المشاركة في مسيرتين، وإذا تغيب عن المشاركة في المسيرة القادمة سيفصل من الدراسة، وسيحال إلى التحقيق الأمني.

سأل والدي بصبر نافذ:

- حسناً؛ ماذا تريد الآن؟

هتف المدرب بعنجهية:

- عليك أن تدون تعهداً خطياً ألا يتغيب ولدك عن المشاركة في جميع المسيرات

تحت طائلة المسؤولية، والعقوبات المشددة، وأنت المسئول الوحيد عن غيابه، إذا تكرّر هذا الأمر مرة أخرى.

رد والدي بنزق:

– حسنًا؛ دعني أمضي لك ما تريد لأخلص من هذه القضية.

استرد والدي بطاقته الشخصية، بعد أن أمضى ورقة التعهد التي عرضها المدرب العسكري.

رمى المدربون العسكريون من وراء اشتراطاتهم السقيمة إلى الاعتداد بأنفسهم أمام ذوي الطلاب، والحفاظ على ولائهم الأعمى للنظام، وإظهار بأسهم الشديد مع التلاميذ في ساحات المدارس، وإجبارهم على المشاركة في المسيرات الحزبية كلها.

استمر النظام في إذلال المواطنين السوريين، دون أن يعترض أحد منهم على سلطته التي امتدت لأكثر من أربعين عامًا؛ فكل الأحزاب اليسارية والقومية والدينية التي اختلفت معه، كان اختلافها حول السلطة، وليس حول القضايا الإنسانية التي تهم المواطن، وتحفظ كرامته، وتصون حقوقه المدنية والسياسية التي ظلت مفقودة في سوريا.

في هذه الأثناء، صحت من غفوتي الطويلة التي قادتني لاستذكار الماضي السحيق بكل آلامه وأوجاعه، وبدأت أتساءل في قرارة نفسي:

«أين كنا في الأمس؛ وأين أصبحنا اليوم؟»

اغرورقت عيناى بالدموع، وسالت قطراتها السخينة التي امتزجت بشريط الذكريات الأليمة على وجنتيّ المتغضبتين، فشبهت عميقًا، وأردفت قائلاً بحزن مرير: «ها هي الروح تعود مجددًا إلى جسدنا المسكون بالخوف والرعب منذ أربعين عامًا، وها هي براكين الثورة قد استشاطت غضبًا في النفوس، وتأهبت لقذف حممها الملتهبة»

الجزء الثاني

(16)

صبيحة يوم الاثنين الموافق للسابع من شهر فبراير، استكمل طلاب المرحلة الابتدائية في مدرسة الأربعين الكائنة في مدينة درعا فصلهم الدراسي الثاني، بعد أن أنهوا فصلهم الأول على وقع رياح التغيير العاصفة التي خلعت الرئيسان المصري والتونسي من سدة الحكم.

احتشد التلاميذ في باحة المدرسة، واصطفوا بشكل ثنائي في صفوفهم الدراسية التي تسلسلت أنساقها بشكل طولاني، ابتداءً من الصف الأول وانتهاءً في الصف السادس الابتدائي.

عصف البرد القارص بأجساد التلاميذ النحيلة التي لم تحتمل الوقوف لوقت طويل في فناء المدرسة.

ردد التلاميذ الشعارات الحزبية التي تلاها عليهم الموجه الصباحي، ثم دلفوا إلى مبنى المدرسة الذي بدا بناءه القديم أشبه بفروع الأمن والمخابرات. أثناء صعود التلاميذ درجات السلم الاسمتي، اعترض مدير المدرسة أحد التلاميذ وناداه قائلاً:

- زكريا! هلم إلي.

أردف التلميذ زكريا -الذي كان بصحبة رفيقيه إبراهيم ومحمود- للمدير قائلاً بانكسار:

- أعلم أنني قد تأخرت كثيرًا في تسديد الرسوم الدراسية، ولكنني أعدك بتسديدها قريبًا.

جذب المدير زكريا من كتفه النحيل، وقال له بإلحاح:

- تعال فلا يهمني أمرها.

اقتاد المدير التلميذ زكريا إلى مكتبه الكائن في الطابق الأول، فيما ولج رفيقاه محمود وإبراهيم إلى حجرتهما الدراسية وجلسا على مقاعدها الخشبية، وشرعا في انتظار وصول مدرس مادة التربية القومية الاشتراكية.

دلف نضال إلى الحجرة الدراسية في تمام الساعة السابعة والنصف صباحًا؛ نهض تلاميذ الصف السادس الابتدائي دفعة واحدة؛ طأطأوا رؤوسهم، وشدوا أبدانهم المرتخية احترامًا للمدرس الذي حملق في رؤوسهم المطرقة لبضع ثوانٍ، ثم هتف بصوت جهور:

- أجلسوا.

جلس التلاميذ على مقاعدهم الدراسية، وحدثوا في سحنة المدرس الذي هتف لهم بصوت خشن:

- عمتم صباحًا.

رد التلاميذ بصوت واحد:

- عمت صباحًا.

سأل نضال برود:

- هل حفظتم الدرس السابق؟

هزّ التلاميذ رؤوسهم بالإيجاب كدلالة على حفظهم للدرس، ثم هتف نضال بارتياح:

- حسنًا.

حدّق المدرس في عيني محمود لبرهة قصيرة من الزمن، ثم أوعز له بصوت جهور:

- قف.

نهض محمود بثقل؛ ثم رد بارتباك:

- نعم.
- سأل نضال بصوت جهور:
- ماذا كان عنوان درسنا السابق؟
- ابتل محمود ريقه، وأجاب بصوت خفيض:
- التحوّل الاشتراكي.
- هزّ نضال رأسه، وسأل بدهاء:
- وما هي شروط التحوّل الاشتراكي؟
- عصف محمود ذهنه لبرهة قصيرة، دون أن يعثر على جواب وافٍ لسؤال المدرس، ثم قال بارتجال:
- الديمقراطية.
- زمّ نضال شفّتيه، وهزّ رأسه مسايّرًا بغير اقتناع، وسأل بعد ذلك بإصرار:
- وماذا أيضًا.
- ابتل محمود ريقه، وشرع في نبش أفكاره العالقة في ثنايا ذهنه، علّ إحداها تسعفه من فداحة الموقف، ثم قال بثقة مستوحاة من مشاهداته الكثيفة للمظاهرات العارمة التي عرضتها قنوات التلفزة من ميادين الاعتصام في القاهرة وتونس:
- الحرية والكرامة شرطان أساسيان لحدوث التحوّل الاشتراكي.
- مطّ نضال شفّتيه، وسأل بإلحاح:
- هل حفظت الدرس أم لا؟
- أجاب محمود باحتيال:
- أجل، لقد حفظته، ولكنني نسيت له سوء الحظ.
- لم يعتد محمود على حفظ واجباته الدراسية بطريقة تلقّينيه كما اشترط المدرسون في معظم المدارس، فرغم ذكائه المتقد ونباهته في دراسة المقررات العلمية كالرياضيات والفيزياء، لكنه كان أقلّ حماسًا في إرهاب ذاكرته الصغيرة في حفظ المقررات الأدبية، وخاصة المقررات ذات المحتوى الأيديولوجي، كمادتي التربية

الدينية الإسلامية، والتربية القومية الاشتراكية اللتين فرض النظام على المعلمين تدريسهما للتلاميذ؛ دون أن تكون لدراستهما أي جدوى معرفية.

صرخ المدرس لمحمود:

- تعال إلى هنا.

ارتعشت قدما محمود، وعصف الخوف في وجدانه، بعد أن أيقن في سريره العقاب الغليظ الذي ينتظره.

غادر محمود مقعده الخشبي الذي ضم إلى جواره رفيقيه زكريا وإبراهيم، وسار بخطوات متتدة إلى موقع المدرس الذي انتصبت قامته القصيرة في مقدمة الحجرة. وقف محمود أمام مدرسه بانكسار؛ أطرق رأسه، وأطبق جفنيه، وأرهف أذنيه لسماع إعازته.

اشتمل السكون أرجاء الحجرة كلها، ولفها بالرعب لبرهة قصيرة من الزمن؛ بدأ التلاميذ في استراق النظر إلى زميلهم بعيون أربها الخوف.

زجر نضال تلميذه:

- ارفع رأسك.

رفع محمود رأسه بحركة بطيئة، وما إن استقام نظره مع عين نضال حتى صفعه براحة كفه القوية بضع صفعات شديدة على وجنتيه الضامرتين.

ترنح الجسد النحيل من شدة الصفعات، وكاد أن يسقط أرضاً لولا أن أوقف المدرس ضرباته العنيفة في اللحظات الأخيرة، ثم صات بانفعال:

- اغرب عن وجهي.

كظم محمود غيظه، وأقفل عائداً إلى مقعده بعينين منكسرتين؛ تلمّس بأنامله الرقيقة وجنتيه المحمرتين اللتين انطبعت عليهما آثار الصفعات العنيفة.

خطا مدير المدرسة بضع خطوات مضطربة داخل فناء الحجرة، وتسمّر بجوار النافذة الملاصقة لمكتبه الوثير، ثم حدّق في عيني التلميذ زكريا الذي وقف بمحاذاة

الطاولة المكتبية، وقال له بتؤدة:

- اجلس.

سيطر الذهول على زكريا لبضع ثوان قصيرة، وظل منتصبًا باستعداد دون أن يستجيب لنداء المدير الذي كرر نداءه مرة أخرى بصوت جهور:

- قلت لك أن تجلس.

رد زكريا بعد أن استفاق من دهشته:

- حسنًا.

جلس زكريا على الكرسي الوثير المواجه لطاولة المدير الذي خصص لجلوس كبار الزوار، ولم يكن يسمح للتلاميذ بدخول مكتب الإدارة الدراسية إلا في حالة القصوى.

أحاط الفضول روحه، وغزت التساؤلات ذهنه، دون أن يعثر على جواب حاسم عن سر الاهتمام الكبير الذي أظهره مدير المدرسة تجاهه.

جلس المدير على كرسيه، وهتف بهدوء:

- كيف حال والدتك؟

فغر زكريا فاه واتسعت عيناه، ثم ازدرد ريقه، وقال بتؤدة:

- إنها بخير.

في هذه الأثناء، عصف زكريا ذهنه، وبدأ في تمحيص الأفكار، وتقليب الأسئلة في روحه، ثم ناجاها بحذر شديد:

«لماذا يسألني عن أمي؟ ماذا يريد منها؟ هل سيشكو لها سلوكي؟ أم أنه يريد إنذارها بضرورة تسديد المستحقات الدراسية؟»

أدار المدير مجسم الكرة الأرضية الراقد فوق طاولة المكتب، وحدق بتركيز وانتباه لحركة دوران السريعة، ثم غرز سبابته في منتصف المجسم.

توقفت حركة المجسم عن الدوران، فرفع المدير سبابته، وأخذ يحملق في النقطة التي توقفت عندها، ثم هتف مذهولاً:

- أوه مصر! يا لحظي العاشر.
رد زكريا بغفوية وتلقائية:
- إنها بلد جميل.
مطّ حسين فمه، وقال باستهتار:
- كانت بلدًا جميلًا، أما الآن فقد أصبحت بؤرة للفوضى.
سأل زكريا بنباهة:
- لماذا؟
التقط المدير نفسًا عميقًا، وزفر قائلاً:
- بسبب المظاهرات.
أجاب زكريا باقتضاب:
- ربما.
رشف المدير رشفة خفيفة من فنجان القهوة، ثم قال بدهاء:
- على أي حال، أخبر والدتك أنني سأكون في غاية السعادة بلقائها قريبًا، أما بالنسبة لدراستك فلا تقلق، كل شيء سيكون على ما يرام، وستنال أعلى الدرجات في نهاية الفصل الدراسي.
سأل زكريا بتلهف:
- عذرًا حضرة المدير؛ لماذا تريد لقائها؟
رد المدير بارتباك:
- لأخبرها .. لأخبرها أنني قمت بتسديد جميع الرسوم الدراسية نيابة عنك.
فهم زكريا مراد مديره، وقال بفطنة:
- لا بأس، سأبلغها بذلك.
هتف حسين معترضًا:
- كلا؛ لا تبلغها، أنا سأفعل ذلك.
رد زكريا باستسلام أمام إلحاح مديره:

- حسنًا.

أردف حسين بحماس:

- اعطني رقم هاتفها الجوال لأكلمها حالًا.

رد زكريا مداورًا دون أن يجرؤ على سؤال مديره عن السبب الذي دفعه لطلب رقم والدته:

- إنه ليس بحوزتي الآن.

نجح زكريا في الهروب إلى الأمام بضع خطوات، لكن دهاء المدير وخبثه أوقعه في المأزق عندما قال له بصوت جهور:

- أجلبه غدًا صباحًا.

رد زكريا بطاعة:

- حسنًا.

أوعز المدير للتلميذ:

- تستطيع أن تذهب الآن.

نهض زكريا، ورد بانزعاج مبطن:

- حسنًا.

رد المدير بارتياح:

- صحبتك السلامة.

غادر التلميذ حجرة المكتب بخطوات متعجلة، فيما نهض المدير، وبدأ في ذرعه جيئة وذهابًا، وهاتف روحه بيقين لا يخامر الشك:

«سأحصل عليها؛ أجل سأحصل عليها، فلا بد أن تكون من قسمتي، لن أدعها تذهب إلى رجل آخر غيري»

فغر حسين درج الطاولة؛ استل مجلة ورقية فاخرة، وشرع في تقليب صفحاتها الملونة بأنامله المرتعشة إلى أن وصل لإحدى الصفحات؛ أمعن النظر فيها لبرهة قصيرة من الزمن، فوقع بصره الحاد على صورة لفنانة أجنبية شقراء فاتنة الحسن

والجمال، ثم هاتف روحه بجشع:

«يا إلهي! إن صورة هذه الفنانة الجميلة هي نسخة طبق الأصل من صورة أمه في الواقع؛ يا لها من امرأة ساحرة»

شرع حسين في اقتطاع الصورة بواسطة المقص، ثم وضعها في جيب معطفه، وأنشأ قائلاً:

- حتى الآن لم أظفر في حياتي كلها بامرأة شقراء؛ الآن وبعد أن وجدت ساقا قاتل من أجل الحصول عليها.

كان حسين في الخامسة والأربعين من عمره؛ متوسط طول القامة، نحيل البنية، أصلع الرأس، غائر العينان، ذاكن البشرة، دميم الوجه.

أبطن حسين عداوة مضمرة للإناث بسبب فشله في الارتباط من ثلاث سيدات، إلا أنه كان شديد الوله بهن لإشباع رغبته الجنسية، فلم يوفر امرأة واحدة سبق أن صادفها في حياته إلا وتقرب منها بشتى الطرق والوسائل.

تبوأ حسين منصبه الوظيفي بعد أن نجح في التملق لضباط المخابرات وأعضاء الفرق الحزبية، منذ أن كان مدرساً خاصاً لابنة رئيس فرع الأمن العسكري، ونجح من خلال منصبه الرفيع في تهديد النساء وترغيبهن بشخصيته الكريمة، وعندما كان يخفق في الحصول على مراده منهن، كان يرغمهن على مضاجعة رئيس فرع الأمن العسكري، مقابل أن يصفح عنهن.

كان حسين شديد الحرص على اقتناء معظم المجلات الفنية؛ التي احتوت صفحاتها الداخلية على صور مشاهير السينما، لإمتاع روحه ومواساة ذاته كلما شعر باليأس والإحباط من إحدى النساء، وكان همه الأكبر، وهدفه الأسمى في الحياة ممارسة الجنس مع جميع النساء في العالم كله.

احتفظ حسين بصور النساء اللواتي مارس معهن الجنس في ألبوم الذكريات الذي كان يعود إليه بين الفينة والأخرى؛ لمقارنة صورهن مع صور الممثلات السوريات ونجمات السينما العالمية.

تسمّر حسين في منتصف حجرة المكتب وقال بإصرار:

- حسنًا يا زكريا! أعدك بأنني سأحصل على والدتك لا محالة، وسأصهر جمالها الخارق بين شفتيّ.

كانت والدته زكريا، امرأة شابة في الخامسة والثلاثين من عمرها، فقدت زوجها إثر حادث أليم، أثناء اصطدام دراجته النارية بحافلة نقل كبيرة على أحد الطرق الزراعية المؤدية إلى بلدة نوى في ريف درعا.

انشغلت المرأة المترملة في تربية أولادها الثلاثة الذين كان أكبرهم زكريا البالغ من العمر اثني عشر عامًا، وأصغرهم تيم البالغ من العمر خمسة أعوام، ولم يكن في ذهنها الاقتران برجل آخر بعد رحيل زوجها، رغم جمالها الوضاء الذي أثار شهوات الرجال الذين حاموا حولها، دون أن يظفروا بها.

في هذه الأثناء قرع زكريا باب الحجرة الدراسية، ثم دلف إليها بأنفاس متقطعة. وهنا سأل المدرس نضال بانزعاج:

- لماذا تأخرت عن موعد حضور الدرس؟

التقط زكريا أنفاسه، وأجاب لاهثًا:

- عذرًا! لقد كنت بصحبة المدير.

قطّب نضال حاجبيه، وقال بنزق:

- انتظر في الباحة.

غادر زكريا الحجرة الدراسية، استجابة لرغبة نضال الذي رفض إدخاله إليها بحجة تأخره عن موعد حضور الدرس، دون أن يشفع وجوده عند المدير في إقناعه.

هبط زكريا درجات السلم بخطوات متعثرة، وعندما استقبل وجهه النحيل فناء الباحة، بصق ملء فمه في الهواء الطلق، وقال بغضب متأجج:

- تبا لكم ولمدارسكم القميئة.

سار زكريا في الفناء الرحيب تحت أشعة الشمس الدافئة، وما إن وصل منتصف

الباحة، حتى دوى رنين الجرس المدرسي في أذنيه معلناً بدء الاستراحة الأولى؛ التي دأب الطلاب في سوريا على تسميتها «بالفرصة الدراسية» .

هتف زكريا باستياء:

— استراحة بلا راحة.

انطلق زكريا إلى الحديقة التي حاذت أسوار المدرسة العالية، وأحيطت بعدد غفير من أشجار السرو.

بارح التلاميذ صفوفهم الدراسية على عجل، واندفعوا مسرعين إلى فناء الباحة، لأخذ قسط قصير من الراحة، وقضاء حاجتهم في دورات المياه.

خطا التلميذان محمود وإبراهيم نحو رفيقهما زكريا؛ الذي كان جالساً بجوار جذع شجرة باسقة.

سأل إبراهيم رفيقه زكريا:

— ماذا تفعل هنا؟

رفع زكريا رأسه ببطء شديد حتى وقع بصره في بصر رفيقيه، ثم قال لهما بصوت خفيض:

— اجلسا.

جلس محمود وإبراهيم نزولاً عند رغبة زكريا الذي بادرها قائلاً بانزعاج:

— لقد كرهت التعليم بسبب هذه المدرسة اللعينة.

رد محمود بغضب:

— تبّاً لهم ولتعليمهم القذر؛ هل يظنون أننا خرافاً؟

هتف إبراهيم باستسلام:

— ما العمل؟ ليس في اليد حيلة.

عقب زكريا بحنق:

— عذراً صديقي؛ كلامك مرفوض، وهو أشبه بحديث المنهزمين.

هتف محمود مؤيداً الكلام زكريا:

- أجل؛ يجب أن لا نسكت أبدًا على استهتارهم بكرامتنا.

سأل إبراهيم بفضول:

- ماذا ينبغي علينا أن نفعل الآن؟

رد زكريا بشجاعة:

- يجب أن نحطم رؤوسهم.

شهق إبراهيم شهقة عميقة، وهتف مندهشًا:

- نحن!

هزّ زكريا رأسه، وقال بثقة:

- أجل.

سأل محمود متلهفًا:

- كيف؟

قبل أن يشرع زكريا في تقديم جوابه، دوى رنين الجرس المدرسي في آذان التلاميذ الثلاثة معلنًا انتهاء فرصة الاستراحة، وبدء استئناف الحصص الدراسية، حيث لم يكن باستطاعة التلاميذ التأخر دقيقة واحدة عن الالتحاق في صفوفهم الدراسية، تحت طائلة الطرد والعقاب الشديد.

نهض زكريا وهتف بتؤدة:

- يجب أن نذهب الآن إلى الصف.

سأل محمود مستنكرًا:

- ولكنك لم تجب عن سؤال إبراهيم.

جذب زكريا رفيقيه الجالسين، وقال لهما بهدوء:

- هيا انفضا الآن، وسأجيبيكما لاحقًا.

سأل إبراهيم باهتمام:

- متى؟

خطا زكريا ورفيقه بضع خطوات باتجاه مبنى المدرسة، ثم أجابهما برزانة بعد

أن عصف ذهنه:

- بعيد انتهاء الدوام؛ أرجو أن تستعدا للذهاب معي إلى بحيرة مزيريب.

وهنا سأل إبراهيم باندهاش:

- لماذا؟

غمز زكريا بطرف عينه اليمنى لرفيقه محمود، وأجاب بتؤدة:

- لنصطاد في مياهها النظيفة.

فهم محمود مراد رفيقه، فهتف بارتياح:

- حسناً.

(17)

عشية اليوم عنه تسلل حسين إلى حي المنشية الواقع في الجزء الغربي من منطقة درعا البلد؛ والذي كانت تقطنه عائلة التلميذ زكريا.

تسمّر حسين أمام العمارة المنخفضة ذات الطوابق الثلاثة، وحقق بعينه السابحين في لجة الظلام إلى شرفة البيت الكائن في الطابق الثاني؛ كانت والدة زكريا قد ورثت البيت عن زوجها الفقيد.

تردد حسين في الولوج إلى العمارة والصعود إلى الشقة، وشرع يناجي روحه بصوت جهور وسط أكناف الظلام:

يجب أن أصعد حالاً .. كلا بل يجب أن انتظر قليلاً .. أوه ما الذي ينبغي عليّ فعله الآن؛ الصعود أم الانتظار؟

استل حسين لفافة تبغ من علبة السجائر؛ أشعلها بقداحته، ثم شرع يذرع الشارع المعتم جيئةً وذهاباً.

سحب نفساً عميقاً من لفافته التي ملأ تبغها المحترق رثتيه المنقبضتين بالدخان الكثيف الذي حبسه لهنيهة، ثم نفثه ببطء شديد؛ انبعثت سحب الدخان الأبيض من شفتيه المكشرتين، وأخذ يراقب بعينه المفغورتين وذهنه المشوش حركة انسيابه البطيء في الهواء البارد، وأردف قائلاً بصبر نافذ:

«يجب أن أضع حدًا لهذا التردد»

قذف لفافته المشتعلة أرضاً، ثم دهسها بطرف نعله وهرسها بغضب شديد، وسار بضع خطوات متتلة في اتجاه العمارة، وعندما وصل إلى مدخلها الرئيس، ارتدى نظارته الطبية، ورش قليلاً من العطر على سترته، ثم دلف إلى ردهة البناء،

وبدأ في صعود درجات السلم الإسمنتية إلى أن وصل إلى الطابق الثاني.
تسمر حسين أمام باب الشقة، وضغط بسبابته اليمنى على مفتاح الجرس،
وأخذ ينتظر لبرهة قصيرة، دون أن يحصل خلاها على رد أو استجابة؛ تأفف عميقاً
بملاء شذقيه، ثم قرع الجرس مرة أخرى.

في هذه الأثناء، تسمرت جنان وراء الباب بصمت وسكون، وأخذت تحرق
بواسطة منظار العين السحرية بحذر شديد، ثم أزاحت رأسها عن المنظار،
وشهقت عميقاً، وزفرت قائلة باضطراب:

- يا إلهي! مَنْ عساه يكون هذا الشخص؟ ماذا يريد؟ ولماذا جاء في هذه الساعة
المتأخرة؟ ما الذي علي فعله؟ هل أوقظ زكريا أم أدعه نائماً؟ يا إلهي!
حسنت جنان ترددها في لحظات قصيرة، وقررت فتح الباب، واستطلاع
الطارق المجهول.

فغرت جنان الباب بتؤدة، وهتفت بصوت ناعم:
- مَنْ هناك؟

أطل حسين بوجهه الدميم من فرجة الباب، وقال بصوت غليظ:
- أنا.

وهنا التقى بصرها المتقد في بصره الشاخص، ثم هتفت مدعورة:
- مَنْ أنت؟

رسم حسين ابتسامة صفراء على شفثيه وقال بتؤدة:
- أنا حسين!

واربت جنان الباب عندما أبصرت وجهه الدميم الذي دبّ الخوف في أوصالها.
سأل حسين ببرود شديد بعد أن انتشت روحه برؤية وجهها الصبوح:
- هل أستطيع الدخول؟

ارتعدت أطرافها، وارتفعت حرارتها، وتسارعت ضربات قلبها، واختنقت
أنفاسها داخل جوفها، ثم أردفت مستفهمة بسيل عارم من الأسئلة التي اضطربت

حروفها على لسانها:

- مَنْ تكون؟ ماذا تفعل هنا؟ ماذا تريد؟

رد حسين بلباقة مصطنعة:

- أنا حسين! مدير المدرسة التي يدرس فيها ابنك زكريا؛ أود أن أتكلم معك في مسألة مهمة، فأرجو أن تأذني لي بالدخول إلى بيتك.

قالت جنان بحزم:

- عذراً؛ فأنا لا استقبل أحداً في بيتي.

ابتل حسين ريقه، وقال مراوغةً:

- حسناً؛ لا بأس، أدعوك في هذا الصدد إلى زيارة المدرسة، وسأكون سعيداً في الحديث معك، واعتذر بشدة عن زياتي المفاجئة.

أغلقت جنان الباب، ثم تنهدت عميقاً، وقالت بارتياح:

- رافقتك السلامة.

(18)

ظهرت يوم الثلاثاء الموافق للثامن من شهر فبراير، استعاد محمود دراجته الهوائية التي أودعها في محل الصيانة قبل يومين، بسبب أعطالها الكثيرة.

ابتاع محمود دراجته المتهالكة من السوق الشعبي «البازار» عندما كان طالباً في الصف الرابع الابتدائي، بعد أن كان قد حصل على ثمنها الزهيد من عمله في جمع المواد المعدنية القديمة كالحديد والنحاس والألمنيوم؛ التي بادها في سوق الخردة مقابل مبلغ بسيط.

حَلِمَ الفتى الصغير في الحصول على دراجة جديدة، ولكنه لم يستطع ابتياعها، بسبب ظروف والده الصعبة التي دفعته للاستدانة من أقاربه، واضطرته بعد ذلك للسفر إلى خارج البلاد؛ لإعانة أفراد عائلته وتلبية احتياجاتهم المتزايدة، وتسديد الديون المترتبة عليه.

امتطى محمود دراجته وانطلق من شارع الوحدة الكائن في منطقة درعا البلد إلى بحيرة مزيريب الواقعة في أطراف المدينة.

شقت الدراجة طريقها السريع في أحياء المدينة التي خلت من الازدحام المروري والاحتفاظ البشري، لانخفاض كثافتها السكانية غيرها من بقية المدن السورية مقارنة بالعاصمة دمشق ذات الكثافة العالية.

في هذه الأثناء، وصل زكريا إلى موقع البحيرة، وترجل من دراجته، وكان من أوائل الواصلين إليها لقرب بيته من موقعها.

أسند زكريا دراجته على جذع شجرة سامقة، ثم سار بخطوات متتدة بين ظلال الأشجار الوارفة؛ التي سورت حوض البحيرة بغطاء نباتي كثيف.

جلس زكريا أمام ضفة البحيرة، وأخذ يمعن النظر في مياهها العذبة لبرهة قصيرة من الزمن.

عكست صفحة المياه الراقدة خيوط الشمس الذهبية، التي تسللت إليها من ثغر الغمام الداكن.

أطلق زكريا زفرة طويلة ارتجت من شدتها أعماقه، والتقط حصاة صغيرة من الحصوات المفروشة على ضفاف البحيرة، ثم قذفها بأقصى قوته إلى قاعها.

وما إن سقطت الحصاة في قاع البحيرة التي بدد سقوطها هدأة المياه الراكدة، وزعزع رقوقها المديد، حتى تنهى لسمعه صوت قوي تردد صدهاء في الأرجاء:

- زكريا!

التفت زكريا إلى الطرف الأيسر من البحيرة، وحمل نحو مصدر الصوت الذي كرر ندائه مرة أخرى:

- زكريا!

رفع زكريا يده اليمنى، ولوح بها لمصدر الصوت بعد أن رصد حركته بعينه الثابتين، وهتف بأعلى صوته قائلاً:

- محمود! تعال إلى هنا.

رد محمود بصوت جهور:

- إني قادم إليك.

ربض محمود دراجته بجوار مصطبة رخامية، وركض بأقصى سرعته إلى موقع زكريا الذي لم يبعد عن موقعه سوى بضعة أمتار.

نهض زكريا استعداداً لاستقبال صاحبه الذي بدا عليه التعب والإرهاق الشديدين؛ وعندما وصل محمود سأل بأنفاس متقطعة:

- أين إبراهيم؟

رد زكريا بتؤدة:

- على رسلك، أجلس من فضلك.

جلس محمود، والتقط نفساً عميقاً ثم قال لاهئاً:

- يا لحظنا العاثر.

سأل زكريا بتلهف:

- ما الأمر؟

رد محمود عابساً:

- انظر بعينيك إلى السماء، لقد ادهمت السحب، واخلو لقت أن تمطر.

جلس زكريا بجوار صاحبه، ثم ربت على كتفه لتهدئته وتبديد مخاوفه، وقال

له باسمًا:

- لا تقلق؛ ألا تعلم أن المطر رزق من الله.

أردف إبراهيم قائلاً بارتياح:

- ونعم بالله.

في الأثناء، ولج إبراهيم راجلاً إلى فناء البحيرة، وانضم إلى صاحبيه اللذين كانا

في انتظاره.

هتف إبراهيم بصوت جهور:

- طاب يومكما.

رد زكريا بارتياح:

- أهلاً بك، اجلس من فضلك.

سأل محمود بانزعاج مضمر:

- أين كنت؟ لقد تأخرت كثيراً.

جلس إبراهيم، وأجاب باعتذار:

- لقد أفلت من قبضة والدي بصعوبة بالغة؛ لذا أرجو المَعذرة إن كنت قد

تأخرت عليكما بعض الوقت.

رد محمود بتؤدة:

- إذا كان الأمر كذلك، فلا لوم عليك ولا عتب.

حدّق إبراهيم في عيني زكريا وقبل أن يشرع في سؤاله، رد زكريا بنباهة لا يحسنها إلا الدهاة:

- أعلم كل ما تود قوله.

هتف محمود بحماس:

- إذن؛ أخبرنا من فضلك.

هزّ زكريا رأسه، وقطّب حاجبيه، ثم أمعن نظره في صفحة الماء، وشرّد لبرهة قصيرة، بدا خلالها كما لو كان يستعيد صورتَي المدير والمدرس اللتين انطبعتا في ذهنه، وقال بانفعال:

- أولاد الحرام!

سأل إبراهيم بعفوية ودون تفكير:

- مَنْ؟

التقط زكريا حصاة صغيرة، ثم قام بقذفها في اتجاه قاع البحيرة، وأخذ يراقب بعينيه المتقدمتين حركة اندفاعها وارتقائها في الهواء حتى لحظة سقوطها في الماء، ثم قال بحنق وهياج:

- المدير اللعين، والمدرس الحقير.

جذب محمود نفساً عميقاً، وتحسس بأنامله آثار الصفعات القوية التي ارتسمت على وجنتيه، ثم زفر قائلاً بامتعاض:

- أولاد الزانية! تالله لأحطم رأسيهما العفنين.

سأل إبراهيم باهتمام:

- ما العمل الآن؟ كيف السبيل إلى فعل ذلك؟

حدّق زكريا في أرجاء الغابة المحيطة بالبحيرة، وبعد أن أمّنَ خلوها من البشر؛ أمال رأسه إلى صاحبيه، وهمس في أذنيهما قائلاً:

- اسمعاني جيداً.

ابتل محمود ريقه وأردف قائلاً:

- تفضل.
- رد زكريا بصوت خفيض:
- لن نستطيع لجمهما طالما بقيا يحتميان بالنظام.
- سأل إبراهيم ببلاهة:
- هل تقصد المدير والمدرس؟
- أطبق زكريا جفنيه على حدقتيه المنقبضتين وقال باقتضاب:
- أجل.
- هتف محمود موافقًا:
- أنت على حق.
- سأل إبراهيم بإصرار:
- وما العمل؟
- التقط زكريا نفسًا عميقًا وقال بحماس:
- يجب أن نسقط النظام.
- فغر محمود فاه، ثم قال باندهاش وتعجب:
- النظام!
- رد زكريا محاججًا:
- أجل؛ يجب أن نسقط النظام، كما أسقطه الشوار في تونس، وكما يفعل الشوار الآن في مصر.
- حكَّ إبراهيم صدغه الأيمن بأنامله الرفيعة، ثم التفت إلى زكريا، وقال له باستخفاف:
- يبدو أنك تحلم كثيرًا في هذه الأيام.
- رسم زكريا ابتسامة خفيفة على شفتيه وقال ببراءة:
- هذا صحيح؛ فأنا أحلم أن أسير في الشارع دون أن يتباني خوف أو قلق من عناصر الشرطة، وأحلم أيضًا أن اشتكي على المدرس اللعين دون أن يمسنني بسوء؛

فكما ترى، إنني أحلم بأشياء كثيرة.

عقب إبراهيم هازئاً:

- إذن؛ استمر في أحلامك لوحده.

وهنا عضد زكريا بقبضته القوية ذراع إبراهيم وقال له بحزم:

- انظر من حولك، ماذا ترى؟

أطرق إبراهيم رأسه، ولاذ بالصمت دون أن يقول شيئاً.

رد محمود بصوت خفيض:

- واقع مرير.

هتف زكريا بانفعال:

- إذا لم نغيّره بأنفسنا فلن يغيّره الآخرون لنا.

سأل إبراهيم بعد أن بدا مقتنعاً بكلام زكريا:

- حسناً؛ وكيف سنغيّره؟

أردف زكريا متسائلاً:

- أليس صراعنا الآن مع المدير والمدرس؟

أجاب محمود بتؤدة:

- بلى.

استعاد زكريا في ذهنه صورة جدران المدرسة، واستذكر من خلالها لحظات

التعذيب المريرة التي سامها مدير المدرسة للعديد من التلاميذ، عندما كان يرغمهم

على الوقوف الطويل أمام الجدران، ثم يأمرهم أن يضموا أيديهم خلف رقابهم.

التقط زكريا نفساً عميقاً ثم هتف بجديّة:

- إذن؛ سنخوض صراعنا معهما بالكتابة على جدران المدرسة.

سأل إبراهيم متلهفًا:

- وماذا سنكتب؟

رد زكريا بصوت خفيض:

- الشعب يريد إسقاط النظام.

حدّق إبراهيم في عيني محمود، وحدّق محمود أيضًا في عيني إبراهيم لبرهة قصيرة، وقبل أن يكسر زكريا صمتها المطبق، انهمرت أولى قطرات المطر على وجنته الشاحبة.

مسح زكريا قطرات المطر السائلة بأنامله النحيلة، وهتف قائلاً:

- اللهم اجعل لنا في كل قطرة خير وبشرى.

رد محمود وإبراهيم بصوت واحد:

- آمين.

انهمر مطر غزير فوق صفحة مياه البحيرة؛ نهض الصبيان الثلاثة واستعدوا للرحيل أمام انهياره المفاجئ.

أردف محمود قائلاً باطمئنان:

- اتفقنا.

عقب إبراهيم دون تفكير:

- توكلنا على الله.

هتف زكريا بابتهاج:

- دعونا نذهب الآن.

اتفق الصبيان الثلاثة بعد لقائهم الأخير في بحيرة مزيريب على التوجه إلى المدرسة للكتابة على جدرانها المصمتة، وفقاً لاقتراح زكريا.

لم يبدِ إبراهيم حماساً شديداً لاقتراح رفيقه، فيما وافق محمود على مضض؛ دون أن يظهر الحماس الكامل والقناعة القوية للسير وراء زكريا، إلا أنه وبعد مرور أيام قليلة من لقاء الصبيان الثلاثة؛ نجح المتظاهرون في مصر في إزاحة الرئيس محمد حسني مبارك عن سدة الحكم، فيما أطلق الليبيون ثورة عاصفة ضد نظام معمر القذافي.

عَدَلْ محمود عن رأيه بشكل جذري، ودحر الخوف المستوطن في روحه، وقرر السير وراء زكريا، مهما بلغت الأثمان.

عشية يوم الجمعة الموافق للخامس والعشرين من شهر فبراير، وفي تمام الساعة الثامنة مساءً، غادر الصبيان الثلاثة بيوتهم الكائنة في منطقة درعا البلد، وساروا بحذر شديد في الأزقة الضيقة.

أثناء سيرهم البطيء إلى المدرسة؛ غرقت أقدام الصبيان في لجة الظلام، وتاهت خطواتهم المتتدة في أكناف الضباب.

استدل الصبية على موقع مدرستهم بواسطة المصابيح الضوئية الصغيرة التي بددت سُدف الظلام.

وبعد مرور بضع دقائق، التقى الصبيان الثلاثة أمام جدران مدرستهم التي دثرها الظلام الدامس برداء أسود، ولفها الضباب الكثيف بوشاح أبيض.

كان زكريا قد جلب معه حقيبة ظهرية صغيرة، حوت على فرشاة نحيلة وقارورة طلاء أسود.

أخرج زكريا الفرشاة والقارورة من حقيبته، ثم هتف لصاحبيه قائلاً:

– هيا دعونا نبدأ عملنا.

أردف إبراهيم متسائلاً:

– ما الذي ينبغي علينا فعله الآن؟

أشار زكريا بيده اليمنى إلى ناصية الشارع المؤدي إلى المدرسة، ثم أوعز لإبراهيم بحزم:

– اذهب إلى هناك لمراقبة الشارع، واستطلاع حركة المارة؛ هيا بسرعة.

هزّ إبراهيم رأسه، وقال موافقاً:

– حسناً؛ سأذهب حالاً.

انطلق إبراهيم إلى ناصية الشارع، فيما بدأ زكريا ومحمود في الكتابة على جدران المدرسة وسط أهوال الظلام وأكداس السحاب.

التقط زكريا الفرشاة بأنامله الرقيقة التي كانت ترتعش من شدة البرد، فيما حمل محمود قارورة الطلاء، ثم سارا بضع خطوات في اتجاه جدار المدرسة.
تسمر الصبيان أمام الجدار الإسمتي لبرهة قصيرة من الزمن؛ أخذ زكريا يمعن النظر في الجدار بصمت وسكون.
في هذه الأثناء، بدا زكريا وكأنه يرى على صفحة الجدار صورتي المدير حسين والمدرس نضال المنطبعين في ذاكرته.
كسر محمود صمت رفيقه، عندما سأله بصوت خفيض:

— ما بك؟ —

انقبض وجه زكريا الذي ارتسمت عليه علامات الغضب الشديد، ثم قال بصوت جهور:
— تبّاً لهما.

هزّ محمود رأسه، بعد أن أدرك مرامي رفيقه، فأردف مواسياً:
— هون عليك.

أولج زكريا الفرشاة في عنق القارورة، وأدار جذعه ببطء شديد نحو صفحة الجدار الذي كان غارقاً في الظلام، ثم بدأ في الكتابة:
«الشعب يريد إسقاط النظام»

(19)

صبيحة يوم السبت الموافق للسادس والعشرين من فبراير؛ انبلج الفجر، وأشرقت الشمس، فانقشع الضباب، ودبت الحياة في أوصال مدينة درعا. استفاق سكان المدينة على وقع العبارات الصاخبة التي دبجتها أنامل الصبيان الثلاثة، ورصدتها عيونهم بكثير من الدهشة والذهول. استقبل السكان كتابات الصبيان بترحاب مضمّر خوفاً من بطش النظام، وتهامسوا فيما بينهم عن هوية الفاعل، وتساءلوا في قرارة أنفسهم عما تحبته لهم الأيام.

حطمت كتابات الصبيان، جدران الخوف التي استوطنت الأرواح، ومنذ ذلك اليوم؛ بدأت الانتفاضة تشق طريقها إلى سوريا بخطوات واثقة. أثارت العبارات التي كتبها الصبيان الثلاثة الحماس لدى رفاقهم التلاميذ، وبثت الشجاعة في نفوسهم، ونزعت الخوف من أرواحهم، فأخذوا يعربون عن رأيهم الجريء، وإعجابهم الشديد بالأبطال المجهولين؛ الذين أربكت كتاباتهم القوية أزلام النظام، وأججت غضبهم الشديد، وقضت مضجع المدير الذي أصبح في موقف لا يحسد عليه أمام رجال الأمن الذين طوقوا المدرسة من الاتجاهات كلها، وأغلقوا أبوابها الداخلية والخارجية، وشرعوا في تفتيش التلاميذ بحثاً عن أي أثر يمكن أن يساعدهم في الوصول إلى الفاعل الحقيقي.

أصدر العميد لؤي رئيس فرع الأمن العسكري في مدينة درعا قراراً حاسماً لضباطه في تتبع أثر الأنامل التي دوّنت عباراتها الحماسية على جدران المدرسة،

وأشرف بنفسه على عمليات البحث، بعد أن تلقى إيعازاً مباشراً من العميد عاطف رئيس فرع الأمن السياسي، والحاكم الفعلي للمدينة.

لجأ ضباط المخابرات إلى معاينة الخط، وتحليل حركته التي كتبت فيها العبارات الصاخبة، واستقدموا لهذا الأمر خبراء الخطوط من فرع البحث الجنائي؛ الذين طلبوا من مدير المدرسة تزويدهم بعينات نصية مختلفة من دفاتر التلاميذ؛ لمقارنتها مع حركة الخط الذي رصدته عدساتهم ومجاهرهم الدقيقة على جدران المدرسة. بعد مرور ثلاثة أيام فشل ضباط المخابرات في الوصول إلى أي معلومة من مصادره الخاصة المنتشرة في أرجاء المدينة كلها، فيما أخفق خبراء الخطوط في العثور على أي أثر لخطوط التلاميذ التي قاموا بمقارنتها ومطابقتها مع نمط الخط الذي كتبه الصبيان الثلاثة.

صبيحة يوم الأربعاء الموافق للثاني من شهر مارس، انسابت أشعة الشمس الدافئة على أرجاء الباحة كلها، وأخذ التلاميذ يسرون بارتياح كامل في فنائها الرحيب بعد أن خلصوا من رجال الامن؛ الذين جثموا فوق صدورهم لمدة ثلاثة أيام، كما تجثم الضباع فوق أجساد فرائسها.

عقد زكريا العزم على توسيع دائرة نشاطه المناهض للنظام بالاتفاق مع رفيقيه محمود وإبراهيم، وقرروا سوية دعوة بعض التلاميذ الذين أظهروا تأثرهم العميق بعباراتهم الحماسية التي كتبوها على جدران المدرسة.

التقى زكريا رفاقه التلاميذ في الباحة أثناء الفرصة الدراسية، وأخبرهم برغبته الجارحة في الكتابة على جدران ثانوية البنين عشية يوم الجمعة الموافق للاربع من مارس، وعندما سأله أحد التلاميذ عما إذا كان يعرف هوية الفاعل الذي كتب على جدران مدرسة الأربعين، أردف زكريا قائلاً بحماس:

— أنا.

فغر التلاميذ عيونهم، وملأت الدهشة وجوههم، وعقدَ الدهول ألسنتهم عن الكلام لبرهة قصيرة.

مطّ التلميذ شفّتيه، ثم هزّ رأسه بخبث مضمر، وقال مراوغةً:

- يا لك من فتى شجاع.

انفرجت ابتسامة خفيفة من بين شفّتي زكريا الذي رد قائلاً:

- شكراً لثنائك.

حملق زكريا في عيون رفاقه الذين تحلقوا حوله كأسراب النحل، ثم سألهم بإصرار بعد أن أجلّت اعترافاته الصريحة الدهشة من وجوههم:

- هل توافقون على الذهاب معي إلى ثانوية البنين؟

حدّق التلاميذ بعضهم في عيون البعض، ولاذوا في الصمت، دون أن ينبسوا بأي حرف؛ كسر رنين الجرس المدرسي صمتهم، وقبل أن يفضوا جمعهم، هتف زكريا بصوت جهور:

- يا رفاق من يريد الذهاب معنا فليأت غداً إلى شارع الجمهورية.

غادر التلاميذ فناء الباحة، وانطلقوا إلى قاعاتهم الدراسية بخطى حثيثة يملأها الحماس.

في هذه الأثناء، بارح التلميذ -الذي كان قد تحدث إلى زكريا وألح في سؤاله- جموع رفاقه الصاعدين إلى قاعاتهم الدراسية، واتجه بخطوات حذرة إلى مكتب الإدارة المدرسية.

قرع التلميذ باب المكتب بيد مرتعشة، وأخذ ينتظر فتحه بصبر نافذ، ثم شرع يتلفظ حوله يمينه ويسرة خوفاً من عيون رفاقه.

فغر المدير باب المكتب، وحدّق في سحنة التلميذ باشمئزاز، ثم سأله بنبرة حادة:

- ماذا تريد؟

أطرق التلميذ رأسه هرباً من نظرات مديره التي قدحت شرراً، ثم قال بارتباك:

- لقد، عرفت، عرفت ..

سأل حسين بعصبية:

- ماذا عرفت؟

صرَّ التلميذ عزمه، وضبط أعصابه، وانقبض قلبه، وانكمشت ملامحه، ثم زفر قائلاً:

- عرفت مَنْ قام بالكتابة على جدران المدرسة.

فغر المدير عينيه، وأرخى شديقه، ثم سأل باندهاش:

- مَنْ؟

رفع التلميذ رأسه ببطء شديد إلى أن وقع بصره الحاد في عيني المدير، وأجاب باقتضاب:

- زكريا!

هزَّ حسين رأسه بتؤدة، ومطَّ شفتيه، ثم قال بصوت مشبع بالخبث:

- هكذا إذن.

انتهز مدير المدرسة الفرصة الثمينة التي منحها له التلميذ على طبق من ذهب، وانطلق مسرعاً إلى فرع الأمن العسكري، فالتقى بالعميد لؤي، وأخبره بالأسرار الدفينة التي التقطتها أذناه من فم التلميذ.

(20)

عشية يوم الخميس الموافق للثالث من مارس، انطلق العميد لؤي إلى مزرعة العميد عاطف الكائنة في أطراف مدينة درعا، بعد أن كان قد أرسل في طلبه قبل يوم واحد.

ولجت حافلة العميد لؤي إلى المزرعة الفسيحة التي ظللتها جذوع الأشجار بغطاء نباتي كثيف، وانتشرت في أطرافها أبراج المراقبة التي رابطت فيها عناصر الأمن، ورصدت من خلالها حركة القادمين والمغادرين.

ربضت حافلة العميد لؤي أمام قصر شاهق؛ احتل بناؤه المهيب منتصف المزرعة، وأحاطته عناصر الأمن من الاتجاهات كلها.

ترجل العميد من حافله الفارهة، وسار بخطوات متعجلة بصحبة مرافقه الشخصي إلى مقدمة القصر، دون أن يعترضهما أحد من عناصر الحراسة. وقبل أن يصل الرجلان إلى البوابة الرئيسة، انتزع لؤي الحقيبة الجلدية من يد مرافقه، وأوعز له بصوت جهور:

- انتظرنى هنا.

هزّ المرافق رأسه، وقال بطاعة:

- أمرك سيدي.

اجتاز لؤي بوابة القصر، وسار في ردهته الطويلة التي انتهت بقاعة رحبية، وسط ترحيب الحراس الذين أدوا له التحية العسكرية، ثم صعد الدرج الاسمتي الكائن في مؤخرة الردهة والذي أدت درجاته إلى مكتب العميد عاطف.

تسمّر لؤي لبضع ثوانٍ قصيرة أمام حجرة ازدان بابها الخشبي بنقوش فنية

عريقة، وقبل أن يشرع في قرعه، فغر أحد الحراس الباب من الداخل، وافترت شفتاه الداكنتان الرقيقتان بفعل التدخين الكثيف عن ابتسامة خفيفة، ثم أردف قائلاً بترحاب:

- أهلاً وسهلاً؛ تفضل سيدي.

رد العميد لؤي بصوت خشن:

- شكرًا.

دلف لؤي إلى الحجرة الفسيحة، ثم حدّق في فنائها الرحيب، فوقع بصره الثاقب في بصر العميد عاطف الذي كان جالسًا على أريكة لدنة، انتصبت أذرعها القوية في مؤخرة الحجرة التي بدت كحجرات الملوك لعظم حجمها وروعة عمرانها. هتف لؤي بصوت جهور:

- عمت مساء.

نهض العميد عاطف ورد بصوت غليظ:

- أهلاً وسهلاً؛ تفضل.

خطا لؤي بضغ خطوات متتدة في اتجاه عاطف الذي سار هو الآخر نحو ضيفه الوافد؛ التقى الرجلان في منتصف الحجرة، وتعانقا عناقًا حارًا تخلله سيل من عبارات الترحيب الدافئة التي ردها عاطف على مسامع لؤي قائلاً:

- حللت أهلاً ووطئت سهلاً، وأضئت بحضورك الكريم عتمة المكان؛ فمنذ وقت طويل لم نلتق.

عقب لؤي مجاملاً:

- شكرًا جزيلاً؛ سأواظب على زيارتك كلما سنحت لي الفرصة.

سأل عاطف مماًزحاً:

- هل تعديني بذلك؟

ردّ لؤي ملاطفاً:

- أعدك.

عقب عاطف هازناً:

- أرجو أن لا تكون وعودك كوعود النساء.

ازدرد لؤي ريقه وقال بانزعاج مبطن:

- فليذهبن جميعاً إلى الجحيم.

أضمر لؤي عداوة مطلقة للنساء، منذ أن كان طفلاً صغيراً، بعد أن تعرض للتعنيف الشديد على يد جدته التي رآته مضاجعاً لابن عمه فوق سريرها الوثير. كان الصبيان المتعريان في غاية النشوة والسعادة، قبل أن تقتحم عليهما جدهما خلوتهما، وأخذت في ضربهما ضرباً مبرحاً عقاباً لهما على سوء فعلتهما، ثم قامت بكى دبرهما بواسطة الملعة الحامية كي لا يكررا فعلتهما ولا يفتحا المجال أمام روجيهما للانحراف الجنسي، ومنذ ذلك الحين ظل لؤي يشعر بألم الكى في دبره، كلما استعاد صورة ذلك الموقف في ذهنه.

مَقَّتْ لؤي ذاته، وجلد روحه جلداً عنيفاً عندما كان غلاماً، بسبب صراعه النفسي المرير مع ابن عمه الذي كان يخادعه في كل مرة، ويقتاده كالأبله إلى سهوب قرية الصبورة الواقعة في ريف مدينة حماة، ثم يبدأ في مضاجعته كما تفعل البهائم مع بعضها في الخلاء، مقابل أن يقوم لؤي في نكحه بعد انتهائه من المضاجعة. ورغم أن لؤي كان شديد الهوس في المدافعة عن ذاته أمام صبيان القرية، إلا أنه ظل ضحية الاستغلال الجشع الذي مارسه ابن عمه، ولم يكن له أن يظفر في مضاجعته بحجة أن عضوه الذكري كان شديد الصغر، وضعيف الانتصاب، وكلما أراد أن ينال حقه ويمارس دوره في المضاجعة، كان ابن عمه يهرب منه متذرعاً بحجج واهية لا طاقة له في دحضها.

ظهرت يوم صيفي قاتظ، دلف لؤي إلى بيت جدته الريفي الذي كان خالياً من الزوار، ثم ولج إلى حجرة نومها، فرمق غريمه وقد كان راقداً على سريرها، فارتمى بطريقة غريزية فوق جسده الأملس، ونجح لأول مرة في مضاجعة ابن عمه، بعد أن هلبت حرارة الصيف بدنه، وحرّضت قضيبيته الصغير على الانتصاب مدفوعاً برغبة

- جامحة من روحه الطامحة لرد الاعتبار واستعادة الثقة في ذاته المهزوزة.
عضد عاطف ذراع لؤي بقبضته القوية، وقال له بصوت جهور:
- هلم معي.
سار الرجلان بضع خطوات في فناء الحجرة التي أنيرت بأضواء خافتة عكست
هدوءها وسكونها، ثم جلسا على كرسيين خشبيين أنيقين.
سأل العميد عاطف بصبر نافذ:
- هل توصلتم للفاعل؟
فغر العميد لؤي الحقيبة الجلدية، وأخرج منها صورة التلميذ زكريا، ثم وضعها
فوق سطح الطاولة الزجاجية، وأردف قائلاً بارتياح:
- أجل؛ هذا هو الفاعل.
حدّق عاطف في صورة زكريا، وسأل باندهاش:
- هل هذا هو الفاعل؟!
هزّ لؤي رأسه، وقال بثقة:
- أجل؛ هو الفاعل بعينه.
سأل عاطف باهتمام:
- هل تحققتم من هويته، وتأكدتم من فعلته؟
أجاب لؤي بجدية:
- نعم؛ لقد أمطنا اللثام عن هويته من خلال مدير المدرسة الذي استدل عليه
عبر أحد التلاميذ، وتحققنا من فعلته بواسطة خبراء الخطوط الذين أكدوا على
تطابق خطه مع الخط المكتوب على جدار المدرسة.
كظم عاطف غيظه وسأل بالحاح:
- هل اشترك معه صبية آخرون أم كان وحده؟
رد لؤي بصوت خشن:
- لقد اشترك معه صبيان آخرون من صبيان المدرسة، وهو ينوي الآن الكتابة

على جدران ثانوية البنين.

سأل عاطف باهتمام:

— متى؟

أجاب لؤي بثقة:

— عشية يوم الجمعة.

التقط عاطف نفساً عميقاً، ثم نهض من مجلسه وقال بانفعال:

— اعتقلوهم فوراً.

نهض لؤي، وقال بإذعان:

— حسناً.

هتف عاطف في حزم:

— أريدكم أحياءً لأجعلهم بعد ذلك أمواتاً.

قال لؤي بطاعة:

— أمرك.

(21)

صبيحة يوم الأحد الموافق للسادس من شهر مارس، اعتقل أزالام النظام الصبيان الثلاثة، واقتادوهم بعنف مفرط من بيوتهم إلى فرع الأمن العسكري، كما لو كانوا قتلة المسيح.

أشرف العميد لؤي بنفسه على تنفيذ عمليات الاعتقال؛ التي تمت بإيعاز مباشر من العميد عاطف رئيس فرع الأمن السياسي في محافظة درعا، وابن خالة رئيس النظام.

وَقَعَ الصبيان الثلاثة في قبضة رجال المخابرات الذين داهموا بيوتهم في ساعة متأخرة من الليل، واقتحموا غرف نومهم، فيما اعتقلت عناصر الأمن بقية الصبيان الذين شاركوا في الكتابة على جدران ثانوية البنين من داخل صفوفهم الدراسية. أفرغ أزالام النظام حقدهم الأعمى على الصبيان المعتقلين؛ الذين أودعوهم في البدء في فرع الأمن العسكري في درعا، ثم قاموا بنقلهم إلى فرع فلسطين وسط دمشق.

قضى زكريا نوجه بضربة حادة من عصا غليظة استقرت في رأسه، أثناء تعرضه للتعذيب الوحشي؛ الذي مارسه جلادو النظام الذين اقتلعوا أطراف الصبيان وسلخوا جلودهم بالضرب والصعق العنيف.

أثارت واقعة اعتقال الصبيان واختفائهم في فروع الأمن، حمية الأهالي في مدينة درعا الذين لم يقبلوا على أنفسهم الصمت والسكوت عن هذه الواقعة؛ التي بدت مثيرة لاستغرابهم وحنقهم، فقرروا مواجهتها مهما بلغت الأثمان.

عقد ذوو الصبيين محمود وإبراهيم، لقاءً حاسماً مع وجهاء المدينة الذين أظهروا

تعاطفهم الشديد مع الصبيان المعتقلين، واعتبروا قضية اختفائهم القسري مساساً لوجدانهم، وطعنًا في كرامتهم.

في هذه الأثناء، قرر وجهاء المدينة لقاء العميد عاطف لاستدراار عطفه، وطلب الصّفح منه، ومن ثمّ مطالبته في رفع يده عن أعناق الصبيان، بعد أن خبروا من العميد لؤي، أنه الأمر النهائي في قضية اعتقالهم.

ظهرت يوم الأربعاء الموافق للتاسع من مارس، شكّل وجهاء المدينة وفدًا رفيعًا من عقلاء المدينة، وانطلقوا بعد ذلك إلى مكتب العميد عاطف.

رفض العميد عاطف في البداية لقاء أفراد الوفد، بذريعة انشغاله في الترتيب للقاء وزير التربية، رغم أنهم كانوا قد حصلوا على إذن مسبق من مكتب الضابط المساعد، وبعد إلحاحهم على عقد اللقاء، استجاب عاطف لمطلبهم على مضض، وقرر لقائهم دون رغبة.

بدا اللقاء بين وفد العقلاء والعميد عاطف عاصفًا منذ اللحظات الأولى التي استقبلهم فيها بوجه متجهّم، واشتدّ عصفًا عندما طالّبوه بالإفراج العاجل عن الصبيان المعتقلين، فما كان منه إلا أن قام بتوبيخهم وردّهم على أعقابهم، ثم قال لهم بغضب متأجج:

- عليكم أن تنسوا أولادكم؛ اعتبروهم ليسوا موجودين في حياتكم، وإذا لم تستطيعوا نسيانهم، فلا بأس، أرسلوا لنا نسائكم لتكسحن ونجعلهن ينجبن لكم أولادًا جدد عوضًا عنهم، إن كنتم غير قادرين على الإنجاب.

غادر أفراد الوفد مكتب العميد عاطف، وهم في حالة سخط وهياج من كلماته البذيئة التي التقطتها آذانهم، وقرروا رد الاعتبار لذواتهم المطعونة من خلال تصعيد الموقف مع أزلام النظام، وعدم نسيان فلذات أكبادهم.

عشية يوم الخميس الموافق للعاشر من مارس، التقى وفد العقلاء وجهاء المدينة في مضافة الشيخ صلاح، وهو أحد أبرز زعماء العشائر الكبرى في سهل حوران،

وشرحوا تفاصيل اللقاء العاصف الذي جمعهم مع العميد عاطف، ونقلوا كلماته البذيئة التي نفت لسانه الرذيل سمها الزعاف. أثارت كلمات العميد عاطف السخط والهياج في نفوس الوجهاء، وأججت نيران الغضب في أوصالهم، وهنا هم أحد الرجال ناهضاً من مجلسه، وقال بعفوية وتلقائية:

«يا نجيب سوف ننسيك الحليب»

لم يستسغ وجهاء المدينة وعقلائها تجرع مرارة الإهانة التي وجهها لهم العميد عاطف، فأخذوا يعدون العدة للرد على كلماته القميئة.

عشية يوم الثلاثاء الموافق للخامس عشر من مارس، عقد وجهاء المدينة اجتماعاً طارئاً في مضافة الشيخ صلاح، بعد أن تناهت لأسماهم أنباء عاجلة عن انطلاق مظاهرات غاضبة في سوق الحميدية وسط دمشق، كما لم تغب عن عيونهم المظاهرات الحاشدة التي قوضت عروش الاستبداد والفساد في البلدان العربية. كان الشيخ صلاح قد تولى بنفسه الدعوة للاجتماع؛ الذي أحاطه بسرية تامة، وحصّن موقع المضافة بأبناء عشيرته الذين وثق بهم تحسباً لأي هجوم طارئ من رجال الأمن.

توخى وجهاء المدينة أقصى درجات الحيلة والحذر أثناء اجتماعهم السري، وأغلقوا هواتفهم المحمولة، ثم شرعوا في عرض اقتراحاتهم، وطرح أفكارهم وسط أجواء مفعمة بالحماس، وقرروا الثأر لأولادهم المختفين في زنازين النظام عبر حشد الجماهير وتسيير المظاهرات في أرجاء درعا كلها.

وهنا هتف خالد وهو والد الصبي محمود قائلاً بصوت جهور:

- طالما أن رياح الثورة قد هبت في مصر وتونس وليبيا، فلا بد أن تهب في سوريا.
رد أحد الرجال بثقة وحماس:

- ستهب لا محالة.

سأل رجل آخر بيأس:

- ما الذي يجعلك متيقناً أنها ستهب؟
في هذه الأثناء، ران صمت مطبق في أنحاء المضافة كافة، أعقبه غضب عارم
عبر عنه الشيخ صلاح عندما قال بحزم:
- سنجعلها تهب طالما أن النظام أصرّ على خطف أولادنا، وأوغل في طعن
كرامتنا.

أردف هيثم وهو والد الصبي إبراهيم قائلاً برزانة:
- لنتنهنز هذه الفرصة كما انتهنزها الثوار في مصر وتونس وليبيا.
عقب صلاح بحماس:
- صدقت؛ فإن لم نفلح في انتهازها، فقد لا تتكرر أماننا مرة أخرى.
وهنا نهض أحد عقلاء المدينة مدفوعاً بالغضب والحمية، وهتف بصوت
جهور:

- المظاهرات هي سلاح الضعفاء والمظلومين والمقهورين في الأرض، ولا
سلاح لنا اليوم سواها.

علق رجل كهل بصوت مبحوح:
- إنها مغامرة كبرى غير محمودة العواقب.
سأل خالد مستنكراً:
- عذراً؛ ماذا قلت؟
التقط الرجل الكهل نفساً عميقاً، وقال بضيق:
- لن أكرر ما قلت.

رد خالد بانزعاج:
- أأست مهتاً في الذود عن كرامتك؟
هتف الرجل الكهل بحماس:

- بل؛ إني متحمس لكسر جبروت النظام قبل أي واحد فيكم، ولكن يجب
علينا أن نحسب خطواتنا بحذر شديد.

سأل خالد باهتمام:

- كيف؟

رد الرجل الكهل بهدوء:

- قبل إقدامنا على أي خطوة غير محسوبة العواقب، يتوجب علينا أن نتوقع مشاركة واسعة من أبناء المدن في المظاهرات التي تخططون لها، فهل نستطيع أن نتوقع ذلك؟

خيّم الوجوم على وجوه الرجال المجتمعين، وحملق بعضهم في أعين البعض لبرهة قصيرة من الزمن، دون أن ينبسوا ببنت شفة.
أردف الرجل الكهل مكملًا حديثه:

- يا رجال؛ ماذا لو خرجنا في المظاهرات وحدنا، دون أن نلقى ردًا أو استجابة من أشقائنا في المدن الأخرى؛ حينها سنلقى نفس المصير الأسود الذي لاقته حماة في حقة الثمانينات، فرهاننا على مؤازرة المدن قد يودي بنا إلى الهاوية.
رد صلاح متسائلًا:

- أنسيت هتافات الناس في سوق الحريقة؟ أنسيت المظاهرات في سوق الحميدية؟ لقد طفح الكيل بأبناء شعبنا.
أجاب الرجل الكهل مستسلمًا:

- حسنًا؛ لم يعد لدي كلام أقوله.

سأل هيثم بحماس:

- يا رجال! ما رأيكم في التظاهر يوم الجمعة؟
هزّ صلاح رأسه موافقًا وقال بتفكير:

- الجمعة هو يوم مبارك، بل هو من أفضل الأيام لحشد آلاف الشبان.
أردف أحد عقلاء المدينة مستنبحًا ومستفهمًا:

- هذا يعني أن يوم الجمعة القادم هو أول أيام الاحتجاج ضد النظام.
رد صلاح بثقة:

- إن شاء الله.
- سأل الرجل الكهل بارتياب:
- هل أبلغتم أبناء القرى والبلدات المجاورة؟
- أجاب خالد بثقة:
- سنبلغهم بدعوتنا اعتبارًا من صباح يوم الغد.
- مطّ الرجل الكهل شفّتيه وقال بعدم اقتناع:
- حسنًا؛ وفقكم الله.
- سأل أحد عقلاء المدينة باهتمام:
- أين سنلتقي؟
- أردف صلاح متسائلًا:
- ما رأيكم أن يكون لقاءنا في ساحة المسجد العمري عقب انتهاء صلاة الجمعة؟
- وهنا تدخل أحد عقلاء المدينة، وعقب معترضًا:
- ألا يوجد مكان آخر غير المسجد؟
- أجاب صلاح بحصافة:
- بلى؛ هناك الكثير من النقاط الساخنة، ولكن المسجد في مثل هذا اليوم، هو أفضل مكان لشحن الهمم.
- قال خالد بتؤدة:
- أرى أن يكون لقاءنا أمام مقر حزب البعث.
- رد هيثم مستنكرًا:
- ماذا دهاك يا رجل؟ أنسيت أن هذه النقطة هي من أخطر النقاط في درعا، وأشدّها حراسة وتحصينًا من رجال الأمن والجيش.
- مطّ خالد شفّتيه، وقال ببرود:
- لست واثقًا أن المسجد هو المكان الأمثل لحشد المظاهرات.

حملق صلاح في عيون الرجال، ثم قال محاججاً:
- فلتكن البداية من باحة المسجد العمري، فإن نجحنا في حشد المتظاهرين؛
سنعمم التجربة لتشمل أرجاء المحافظة كلها، وإذا أخفقنا - لا قدر الله - سنتنظر
في خيارات أخرى.

رد خالد بعدم اقتناع بعد أن نجح صلاح في فرض رأيه:
- حسناً.

هتف صلاح بارتياح:

- توكلنا على الله.

صبيحة اليوم التالي، انطلق وجهاء المدينة وعقلائها إلى القرى والبلدات
المترامية في سهول حوران، وشرعوا في دعوة السكان للاحتشاد والتظاهر وسط
مدينة درعا، وذلك يوم الجمعة الموافق للثامن عشر من شهر مارس.

(22)

ظهيرة يوم الجمعة الموافق للثامن عشر من مارس، ثارت الجماهير في مدينة درعا استجابة لنداء الوجهاء والعقلاء، وردًا على استهتار النظام بمشاعرهم ومسه لكرامتهم.

كان أبناء درعا ذوو الجذور العشائرية شديدي الحفاظ على عاداتهم وتقاليدهم؛ التي ورثوها تاريخيًا منذ بداية تأسيس مدينتهم في الألف الثالث قبل الميلاد، ولم يع أزالام النظام خصوصية طباعهم الفردية، وتقلّب مزاجهم الاجتماعي الذي جعلهم يعدّلون رأيهم بين ليلة وضحاها، ويقلبون الطاولة على النظام رأسًا على عقب.

وما إن انتهت صلاة الجمعة في باحة المسجد العمري، حتى هزجت حناجر الناشطين، وأنشدت أولى هتافات الانتفاضة التي دوت في عنان السماء:

«ثورة .. ثورة يا حوران»

« من حوران هلت البشائر لعيونك يا شعب يا ثائر »

في هذه الأثناء، غلت نفوس المتظاهرين، واشتد غضبهم العارم، واستشاطت همهم سخطًا كالمراجل ذات الحمم الملتهبة، فانطلقوا يجوبون الأحياء، غير آبهين برجال المخابرات الذين ذخروا بنادقهم وكشروا أنيابهم استعدادًا للانقضاض عليهم.

أطلقت عناصر الأمن أولى رصاصاتها الحارقة نحو المتظاهرين السائرين في شوارع المدينة، فاستقرت إحداها في جسد الشاب حسام، والأخرى في جسد رفيقه محمود، فأردتهما قتيلين على الفور.

أهاج دمهما المراق على ثرى حوران، حماس المتظاهرين الذين ردّدوا بعفوية

وتلقائية الهتافات الصاخبة التي تردد صداها في القاهرة وتونس وبنغازي، دون أن يتنبأهم خوف أو فزع:

«الشعب يريد إسقاط النظام»

«مكتوب على الروسية بشار خائن سوريا»

أصبحت درعا في ذلك اليوم الصاخب؛ شعلَةً متقدَّة أضاءت سراج الثورة، وشمسًا مشرقةً ألهبت حماس الجماهير، ومهدًا للانتفاضة الوليدة.

ظهيرة يوم الثلاثاء الموافق للثاني والعشرين من مارس، أوعز النظام لقواته الأمنية أن تبدأ في اقتحامها للمسجد العمري الذي اتخذ الناشطون معقلًا لهم ومنصة لإطلاق مظاهراتهم ضده.

كان ذلك اليوم من أشد الأيام دموية في ريف درعا، فما إن شقت الانتفاضة طريقها إلى سهول حوران، حتى بدأت قوات النظام في حصد أرواح المتظاهرين للحيلولة دون امتداد جذوة الثورة إلى المدن المتاخمة لدرعا.

عشية ذلك اليوم الذي شهد نهاره الصاخب؛ انطلاق العديد من المظاهرات الحاشدة في مدن وبلدات جاسم والصنمين ونوى؛ اعتصم الناشطون في باحة المسجد العمري، وأحاطوا أسواره بأكياس الرمل وأكوام الحجارة الاسمنتية دفاعًا عن أنفسهم ومنعًا لقوات النظام من اقتحامه.

كان عدد المعتصمين داخل المسجد -وهو مسجد أثري قديم بنيت جدرانته ومئذنته من الحجر البازلتي الأسود- حوالي خمسمائة معتصم، وكان في مقدمتهم خالد وهيثم والدا الصبيين محمود وإبراهيم.

غرقت قاعة المسجد التي تحصَّن المعتصمون في ردهتها ورواقها الطويل في أكناف الظلام، بعد أن قطع النظام خدمات الكهرباء والاتصالات في أنحاء المدينة كلها.

استدل المعتصمون بعضهم على وجوه البعض بواسطة الأنوار الخافتة التي

أطلقتها هواتفهم المحمولة.

هتف خالد بصوت جهور بعد أن تبرم غيظاً وضاق ذرعاً:

- يا رجال! أرى أن نغادر المسجد حالاً، لقد سبق أن حذرتكم من اللجوء إليه، فهذا المكان هو للعبادة، وليس لاستنهاض همم الجماهير ودفعها للانتفاضة، فوجدنا فيه خطأ جسيم، أرجو أن لا يتسبب في تكبيدنا أثمان باهظة.

رد أحد المعتصمين بغضب:

- لن نبرح المسجد إلا ونحن مكملين بغار النصر، فإن أردت الفرار، فاغرب لوحداً.

علق خالد بجدية:

- أتحال نفسك في حلبة صراع أم في سباق للخيل الأصيل؟ أرجو أن تفكر بعقلك قليلاً.

أردف رجل آخر، وقال بحزم:

- تالله، ما خرجنا من بيوتنا إلا طلباً للشهادة.

عقب خالد بانزعاج:

- ما هذا الهراء؟ هل نحن في حرب لطلب الشهادة أم في ثورة لنيل الحرية؟
التقط هيثم نفساً عميقاً وأردف قائلاً بتؤدة في محاولة منه لتهديئة نفوس المعتصمين:

- يا رجال! تعوذوا بالله من شر الشيطان، واستشهدوا بالرحمن؛ أرجو أن تخفضوا أصواتكم وتنبذوا فرقتكم احتراماً لقدسية المكان.

تأفف خالد وسأل هيثم بصوت خفيض:

- حسناً؛ ما الذي ينبغي علينا فعله الآن؟

هزّ هيثم رأسه، وقال محاججاً:

- ينبغي أن نواصل صمودنا بعزم وثبات، بعد أن بات محتوماً علينا البقاء وراء هذه الجدران، بصرف النظر عما إذا كان وجودنا في هذا المكان صحيحاً أم خاطئاً،

فليس في اليد حيلة.

في هذه الأثناء، شنت عناصر الأمن هجوماً ساحقاً على المسجد، واقتحمت باحته الرحبية؛ بعد أن تمكنت من إزالة أكياس الرمل التي أحاطت بجميع المداخل المؤدية إليه.

أطلقت العناصر المقتحمة نيران بنادقها الرشاشة نحو حشود الناشطين المعتصمين داخل القاعة الرحبية، بغية إرغامهم على الانسحاب من المسجد، وتسليم أنفسهم بالقوة المسلحة.

فشلت قوات الأمن في اقتحام المسجد، وفض الاعتصام الحاشد، رغم قوتها النارية الكثيفة.

التحمت أجساد المعتصمين داخل ردهات المسجد، وشكلت أجسادهم الملتحمة دروعاً بشرية حصينة، بدت كالجدار الحديدي أثناء تصديها لطلقات الرصاص المنهمرة من فوهات البنادق.

لم يكن أمام المعتصمين من سبيل آخر لمواجهة الموقف، سوى البقاء في المكان، والاستمرار في صد الرصاص المنهمر.

أردف هيثم لرفاقه المعتصمين قائلاً بحماس:

- اهتفوا يا رجال .. اهتفوا بملء أفواهكم.

هتف خالد بصوت جهور:

«الله سوريا حرة وبس»

التقطت آذان المعتصمين هتاف خالد، فصدحت حناجرها بأقوى الهتافات الحماسية، التي بثت الرعب والذعر في قلوب عناصر الأمن:

«الله سوريا حرة وبس»

«مَنْ يَقْتُلْ شَعْبَهُ خَائِنٌ»

«يا خونة نحن سوريين مثلكم»

«يا خونة نحن أهلکم، لا تقتلونا»

جلجلت اهتافات الحماسية في الأصداء، وانسابت كلماتها القوية من أفواه المحاصرين إلى آذان عناصر الأمن التي توقفت عن إطلاق النار لبرهة قصيرة، ورفعت أصابعها عن زناد البنادق، بعد أن قضت صرخات المعتصمين مضجعها، وأزّقت غرائزها المهووسة بشهوة القتل والدم.

أثار هذا الموقف حقن أحد الضباط الذي أوعز لعناصره بغضب وهياج: لماذا توقفت عن إطلاق النار؟ افرغوا رصاص بنادقكم في رؤوسهم. استأنفت عناصر الأمن هجومها الناري على المعتصمين، وأهاج أزيز الرصاص المتناثر من بنادقها من شدة شرستها وفرط وحشيتها.

اجتاح العناصر باحة المسجد، ونفذت انتشاراً سريعاً في أنحائه كافة، ومن ثم اقتحمت قاعته الفسيحة بغطاء ناري كثيف إلى أن أصبحت فوهات بنادقها في مواجهة المعتصمين العزل.

لم يكن اقتحام عناصر الأمن لقاعة المسجد كافياً لثنيها على رفع أصابعها عن زناد البنادق، وإرغام المعتصمين على الخروج من المسجد كما أرادت، بل واصلت انتقامها منهم عندما أطلقت نيرانها الكثيفة على صدورهم العارية، دون أن يرف لها جفن وتطرف لها عين.

تحولت مدينة درعا وريفها منذ تلك المجزرة المروعة إلى ثكنة عسكرية مغلقة؛ انتشرت فيها قوات الأمن والجيش التي نصّبت حواجزها وكمائنها في جميع المداخل والمخارج المؤدية إليها، وبدأت في تفتيش المارة، والتدقيق في بطاقاتهم الشخصية، واعتقال المشتبه في أمرهم لسبب أو لآخر.

(23)

ظهيرة يوم الأحد الموافق للرابع والعشرين من شهر أبريل، استدعى رئيس النظام قادة الفرق العسكرية العاملة في محافظة درعا، بعد مرور شهر كامل على انطلاق المظاهرات المناوئة لحكمه، واتساع رقعتها في أنحاء سوريا كلها.

انطلق قادة الفرق العسكرية إلى مقر هيئة الأركان الحربية الكائنة وسط دمشق؛ بغية وضع خطة محكمة لاقتحام مدينة درعا، وردعها عن مواصلة الاحتجاجات. ترجل القادة من حافلاتهم الفارغة، وكان في استقبالهم أمام مقر الهيئة، ضابط شاب في منتصف الثلاثينات من عمره؛ أدى الضابط التحية العسكرية لقادته، ثم طلب منهم أن يتبعوه.

دلف القادة إلى مقر الهيئة وسط حفاوة وترحيب كبيرين من الضباط الأعوان الذين اصطفوا في ردهة المقر لاستقبال الضباط الأمراء؛ بدا المقر من الداخل أشبه بالقلاع الرومانية الحصينة لاتساع رقعته وضخامة بناءه.

هبط الضباط القادة درجات السلم، واتجهوا نحو الطابق الأرضي، ثم استقلوا مصعدًا كهربائيًا، وواصلوا هبوطهم إلى أن توقف المصعد فجأة أمام باب حجرة دثرتها سدف الظلام.

فغر المصعد بابه الزجاجي بشكل آلي، فهتف الضابط الشاب للقادة بصوت جهور:

- تفضلوا.

ولج القادة إلى حجرة الاجتماع؛ كانت الحجرة عبارة عن قاعة كبيرة أشيدت أعمدها من الأسمنت المسلح، وخلت جدرانها الصماء من النوافذ، ورَصَّعت

النقوش والزخارف اليدوية بابها الخشبي الذي بدت قبضته النحاسية الأنيقة كقبضات أبواب القصور.

اعتلت جدران القاعة صورة كبيرة لرئيس النظام وشقيقه باسل اللذين ظهرا فيها بالبنزة العسكرية، فيما انتصب تمثال حجري لوالدهما حافظ الأسد في مقدمة القاعة؛ كان التمثال متوسط الحجم ارتفع إلى جواره من الطرف الأيمن علم هيئة الأركان، بينما ارتفع علم النظام من الطرف الأيسر.

انتصبت في منتصف القاعة الرحبة طاولة خشبية مستطيلة؛ فرشت بغطاء زهري غامق انتهت حوافه باللون الأبيض، كان طولها خمسة أمتار، وعرضها حوالي مترين؛ أحاطتها ثلاثة كراسٍ وثيرة من الطرف الأيمن، ومثلها من الطرف الأيسر.

جلس الضباط الستة على الكراسي، وحدث بعضهم في أعين البعض، وكان معظمهم من قادة الأفواج والألوية العسكرية التابعة للفرقتين السابعة والتاسعة. في هذه الأثناء، وسط صمت الضباط وإطراقهم، فتح أحد الضباط الباب على مصراعيه، فالتفت الضباط القادة، وأداروا رؤوسهم وجذوعهم بحركة سريعة لمعرفة الواطئ.

دلف ضابطان عسكريان شابان إلى ردهة القاعة، ثم سارا إلى الطاولة بخطوات ثابتة وسط انبهار الضباط واندهاشهم.

نهض الضباط الستة الذين انقبضت وجوههم لبرهة قصيرة من الزمن، واحتبست الأنفاس في صدورهم، ووقفوا باحترام واستعداد كبيرين، ثم بدأوا في تأدية التحية العسكرية للضباطين الشابين اللذين كانا أدنى رتبة من رتبهم العسكرية.

اتخذ الضابطان مكانهما في مقدمة الطاولة التي احتلت صدارة الاجتماع؛ كان الضابط الأول العميد ماهر، وهو شقيق رئيس النظام، فيما كان الضابط الثاني العميد حافظ وهو ابن خالته.

تنحني ماهر، وحقق باستياء بالغ في أعين الضباط، ثم أردف قائلاً بنبهة حادة دون أن يخوض في المقدمات:

- لم أكن أتوقع في حياتي قط، أن يخرج الناس في مظاهرات ضدنا؛ حتى الآن لست مصدقاً، كيف أصبح الشعب جريئاً وراح يطالب بإسقاطنا على حين غرة؟ هل تعرفون ماذا يعني إسقاطنا؟

أطرق الضباط رؤوسهم، ولاذوا بالصمت، دون أن يجروا أحدهم في الرد على سؤال ماهر الذي أكمل حديثه بحزم:

- إن سقطت عائلتنا الحاكمة، فستسقطون أنتم وعائلاتكم جميعاً، وكل ما نملكه اليوم بأيدينا من سلطة ومال ونفوذ، سنفقدته غداً في حال فقداننا السيطرة على النظام؛ لهذا كله، يجب أن نحافظ على الحكم، ونحمي النظام من السقوط، مهما بلغت الأثمان، وسالت الدماء، فكل ذلك لا يهم؛ المهم أن نحمي أنفسنا، ونحمي النظام من السقوط، فلولاً النظام، لما كنتم قد بلغت هذه المناصب الرفيعة والمراتب العليا في الجيش.

رفع الضباط رؤوسهم بتؤدة، وفغروا عيونهم التي امتلأت بالدهشة، إثر إصغائهم لكلمات العميد ماهر التي أثارت دهولهم، بعد أن اعتقدوا واهمين أنهم أصبحوا ضحية مؤامرة كونية، وصدقوا إشاعات رئيس النظام حول وجود العصابات المسلحة وتغلغل قطعان المندسين بين صفوف المواطنين.

أوماً حافظ لماهر، وغمز له بطرف عينه رغبة منه في متابعة الحديث مع الضباط، فهزّ ماهر رأسه موافقاً، وهنا حلق حافظ في وجوه الضباط، ثم أردف قائلاً:

- أتمنى أن لا تكونوا في حالة ارتباك، فما قاله سيادة العميد قبل قليل، هو عين الحقيقة؛ فسوريا آيلة للضياع من أيدينا، مثلما ضاعت مصر وتونس وليبيا ما لم نتحرك بالسرعة القصوى.

وهنا تدخل العميد ماهر مقاطعاً حديث العميد حافظ، ثم سأل بصوت خشن:

- هل لك أن توضح أكثر؟

ابتل العميد حافظ ريقه، وقال بجدية:

- حسناً؛ يجب أن نضرب المتظاهرين بيد من حديد، فلا ينبغي أن نتساهل معهم، وإلا فقدنا الحكم؛ لذا يجب أن نقاتل دفاعاً عن مصالحنا، وفي الوقت عينه يجب أن نقول للعالم كله إننا نحارب الإرهاب؛ لهذا كله، يجب أن تكون حربنا ضد المتظاهرين الأوباش حرباً ضد الإرهاب، ولا يهم كم سنقتل منهم، المهم أن ننجح في جرهم إلى حمل السلاح.
سأل ماهر باهتمام:

- فكرة معقولة، ولكن ما هو السبيل إلى تنفيذها؟
هزّ حافظ رأسه بتؤدة، وقال بدهاء:

- كلما ضربنا المتظاهرين بقوة وشدة، كلما كان ميلهم إلى حمل السلاح أسرع وأكبر؛ فنحن لا نستطيع الاستمرار في محاربتهم كمتظاهرين، لأننا سنكون مدانين أمام العالم أجمع، وسيكون موقفنا ضعيفاً وهشاً.
رفع أحد الضباط يده اليمنى طالباً الإذن في الكلام؛ أوماً حافظ برأسه موافقاً، ثم هتف للضابط قائلاً:
- تفضل.

تنحى الضابط، وأردف قائلاً بتؤدة:

- شكراً لكم سيدي، والشكر الأكبر لسيادة العميد ماهر، ولقائنا المفدى الدكتور بشار؛ سيدي العميد! إن وجودنا في هذا البلد هو من وجودكم، ونحن رهن إشارتكم، وطوع بنانكم، وما تأمرونا به سننفذه بصمت وإخلاص، ودون أي تهاون؛ لقد وضعنا لسيادتكم خطة محكمة لاقتحام درعا وتطهيرها من المتظاهرين، أتمنى أن تنال رضاكم، وأن نكون عند حسن ظنكم.

ابتل ماهر ريقه، ثم رد بغطرسة:

- حسناً؛ سأمنحكم الصلاحيات المطلقة كلها لاستخدام القوة النارية ضد المتظاهرين، ولكن يجب أن تكون غايتنا، وضع الشعب بين خيارين قاسيين، إما

القبول بالنظام كما هو، أو حرق البلد حرقاً كاملاً؛ هل هذا مفهوم؟

رد الضباط بصوت واحد:

- مفهوم سيدي .

في هذه الأثناء، عرض العميد ماهر خريطة عسكرية، اشتملت على أهم المناطق الساخنة في محافظة درعا، ثم أكمل حديثه بحلق وغطرسة:

- ستتولى قوات الفرقة الرابعة، والوحدات الخاصة، تطهير منطقة درعا البلد من رجس المتظاهرين الذين ظنوا أنفسهم ثواراً، أما قوات الفرقتين التاسعة والسابعة، فستوليان تطهير الأرياف بموجب هذه الخطة.

غمز العميد حافظ الماهر، ثم حدّق في عيون الضباط، وقال لهم بلهجة حازمة:
- إن حسن ظننا بكم لن يكون الآن، بل يعد ظهور نتائج العملية العسكرية، كما أن السيد الرئيس، لن ينسى أبداً، مَنْ وقف معه من الشرفاء، وَمَنْ خانهُ من فئات الشعب.

انتصب ماهر واقفاً على حين غرة، تبعه حافظ ثم بقية الضباط الذين وقفوا بانضباط واستعداد؛ رمق ماهر وجوه الضباط بنظرة قاسية أبطنت حنقاً شديداً، ثم غادر القاعة، دون أن يقول شيئاً.

(24)

عشية يوم الأحد الموافق للرابع والعشرين من أبريل، وفي تمام الساعة العاشرة، أصدر الضابطان ماهر وحافظ أوامرها الحازمة إلى قوات الفرقتين العسكريتين السابعة والتاسعة المتمركزتين في سهول حوران بالتحرك السريع بغية حصار القرى والبلدات المناوئة للنظام.

في هذه الأثناء، ترجل المقدم سومر من حافلته التي ربضت وسط رحبة عسكرية فسيحة امتلأت باحتها بالمدرعات والدبابات، وأحاطتها الحقول الزراعية من جميع الأطراف.

خطا سومر -الذي كان ضابطاً عسكرياً في قسم التوجيه السياسي- بضع خطوات في اتجاه ساحة الرحبة، وقبل أن يطأ مكتبه، هرع نحوه النقيب ثابت، وهو قائد كتيبة الدبابات.

أدى النقيب ثابت التحية العسكرية للمقدم سومر وقال له بحماس:

- احترامي سيدي! ارتال الدبابات أصبحت جاهزة للتحرك والانطلاق.

هزّ سومر رأسه ببطء، ومطّ شفتيه الغليظتين، ثم أخذ يحملق في فناء الرحبة التي عجت بمئات الجنود الذين كانوا على أهبة الاستعداد منذ لحظة وصوله المفاجئ.

التقط سومر نفساً عميقاً، ثم هتف بصوت أجش:

- أيها الجنود! أصغوا إلي جيداً، بعد ساعة من الآن، سوف ننطلق إلى بلدة جاسم؛

لذلك أوكار المندسين ومساعدة المواطنين على استعادة ممتلكاتهم التي سيطر عليها الإرهابيون .. أيها الجنود! أريدكم أن تعلموا جيداً؛ إذا لم تضربوا الإرهابيين بقوة، فقد يغتصبون أخواتكم وأمهاتكم، فهل تقبلون في ذلك؟ قطعاً لن تقبلوا؛ لذا يجب أن نتحرك بأقصى سرعة لدرهم وردهم على أعقابهم؛ كما أريدكم أن لا تتباطؤوا في

تنفيذ الأوامر العسكرية، وعليكم أن تتذكروا دائماً، أنكم هنا لإنقاذ الأهل والوطن من شر الإرهابيين والمندسين الذين يتلقون الدعم والإسناد من أعدائنا، فلا ينبغي أن يكون هناك أي تهاون أو تقاعس في مواجهتهم؛ هل هذا مفهوم؟
رد الجنود بصوت واحد:

- مفهوم سيدي.

غادر المقدم سومر فناء الرحبة، وسار بخطوات متعجلة نحو مكتبه، فيما أوعز النقيب ثابت بأعلى صوته:
- قادة السرايا والمفارز؛ استعدوا لتنفيذ المهمة.

في تمام الساعة الحادية عشر ليلاً، استعدت ارتال الدبابات وناقلات الجند الرابضة في مقر الفرقة التاسعة الكائنة في أطراف مدينة الصنمين؛ للانطلاق نحو بلدة جاسم بغية اقتحامها واجتياحها.
قاد العقيد نهاد -وهو واحدٌ من أشرس ضباط الفرقة التاسعة- العملية العسكرية بتكليف مباشر من العميد ماهر الذي منحه صلاحيات واسعة في الضرب بيد من حديد.

وقبل أن يصدر أوامره في التحرك والانطلاق، اجتمع نهاد بلفيف غفير من الجنود والضباط المكلفين بالمهمة القتالية، وأردف قائلاً بلهجة حازمة:
- أريدكم أن تطهروا البلدة تطهيراً كاملاً من المندسين والإرهابيين، فلا أريد أن أرى في شوارعها وأزقتها إنساً ولا جان.
هتفت الحشود العسكرية بصوت واحد:
- أمرك سيدي.

امتطى الجنود الناقلات المدرعة، وتكدسوا داخل حواضنها كتكدس أفراخ الدجاج في أعشاشها الصغيرة، دون أن يعلموا أنهم ذاهبون لإخماد جذوة الثورة، وإطلاق الرصاص الحي على المواطنين العزل، خاصة بعد أن منعهما النظام من

الاطلاع وسائل الإعلام، وحظر عليهم استخدام وسائل الاتصالات الحديثة كالهواتف المحمولة لئلا يعرفوا الحقيقة المرة من ذوبهم وأقاربهم. شقت الدبابات والناقلات الحربية طريقها الوعر إلى بلدة جاسم وسط حلقة الظلام، وقصّ ضجيج محركاتها الضخمة هدأة الليل وسكونه، وأحاله إلى حرب صاخبة.

في تمام الساعة الرابعة فجراً، تقدمت إحدى الحافلات العسكرية نحو بلدة جاسم؛ فجأة توقفت عجلاتها عن الدوران، وربض هيكلها المعدني الضخم بجوار شجرة زيتون معمرة.

ترجل من الحافلة النقيب ثابت قائد كتيبة الدبابات؛ التقط بكلتا يديه المنظار الحربي الذي طوّق عنقه بحزام جلدي رفيع، ثم رفعه إلى الأعلى، وثبت عدسته المستديرة حول عينه اليمنى، وأخذ يحقق في الأفق.

أبصرت عين النقيب بلدة جاسم التي تراءت له عبر عدسة المنظار سابحة في لجة الظلام؛ كان النظام قد أوعز لأزلامه في وقت سابق، أن يقطعوا الماء والكهرباء والاتصالات عن أرجاء البلدة كافة، بغية عزلها عن العالم الخارجي تمهيداً لاقتحامها وتأديبها.

واصلت الدبابات والناقلات سيرها البطيء في اتجاه بلدة جاسم، تحت إمرة العقيد نهاد الذي كان قد حضر الاجتماع الطارئ في مقر قيادة الأركان الحربية وسط دمشق. كان نهاد في الثامنة والأربعين من عمره؛ عانى طوال حياته من وساوس كثيرة ملأت ذهنه المشوش، بسبب ما كانت تفعله جدته، عندما كانت تستحضر الجن داخل حجرة بيتها في بلدة برج القصب الكائنة في جبل الأكراد في ريف اللاذقية. اضطر نهاد للعيش مع جدته المتصعبة، إثر انفصال والدته عن أبيه الذي أمضى حياته ضابطاً في فرع الأمن العسكري.

دأبت الجدة على تهديد حفيدها الوحيد بعقاب الجن بين الفينة والأخرى، كلما

عثرت عليه راقداً بجوار حجرتها المهجورة، بعد أن استرعى انتباهه الأصوات الشاذة التي كانت تصدرها أثناء حديثها مع الجن.

عاش نهاد صراعاً نفسياً محمداً داخل ذاته الموبوءة برؤية الجن، فقد تخيل الجن بأشكال متعددة وفقاً لتهديدات جدته، فمرة كان يراه على هيئة تيسها الأسود، ومرة أخرى على هيئة قطتها الداكنة.

قتل نهاد قطة جدته عندما كان في الحادية عشر من عمره، حينما أسقط فوق رأسها صخرة صلدة من الحجر الرخامي، خاله في ذلك أن أجساد القطط تحوي أرواح الجن في ثناياها، ومنذ ذلك الحين، ظل يواجه القطط إلى أن بلغ أشده.

أنهى نهاد دراسته الأكاديمية في الكلية الحربية عندما كان في سن الثانية والعشرين من عمره، وتخرج ضابطاً عسكرياً برتبة ملازم أول؛ واصل الضابط الشاب حربه الضروس ضد الجن الذي لم يفارق ذهنه لحظة واحدة سواء في أحلامه أو يقظته، فشرع في مطاردته ومحاربته بواسطة السلاح الناري، كلما تراءى له في جسد حيوان سائر أو على هيئة جماد جاثم.

ظل نهاد خاضعاً لتأثير رؤى الجن الذي أرق عيشه وقصّ مضجعه، فلم يصمد في زواجه طويلاً، بعد أن اتهم زوجته بخيانتها مع جن آخر كان قد رآه في منامه، أثناء غيابه عنها في فترة انشغاله بتنفيذ أحد المشاريع العسكرية الكبرى.

في هذه الأثناء، أخذت جنازير الدبابات وعجلات الناقلات الحربية في الاقتراب من تخوم البلدة، وسدد قادتها فوهاتها المدفعية الثقيلة ووجهوها بشكل مباشر نحو بيوت المواطنين، وفقاً لخطة العقيد نهاد الذي أشرف بنفسه على وضعها.

رافق نهاد الارتال الجرارة، وسار خلفها بواسطة حافلتها العسكرية التي قادها أحد المجندين، وظل طوال الطريق يستطلع البلدة من خلال منظاره الحربي، وما إن أبصرت عيناه الشاخصتان معالمها السابحة في دياجير الظلام حتى اتصل بالنقيب ثابت بواسطة جهاز اللاسلكي، وخاطبه قائلاً:

- ألو؛ نقيب ثابت! هل تسمعي؟

دوى صوت النقيب الذي كان لا يزال واقفاً بجوار شجرة الزيتون، وأردف قائلاً:

- نعم أسمعك جيداً.

أوعز العقيد نهاد بحزم:

- أبلغ قادة الدبابات أن يبدؤوا انتشارهم في محيط البلدة، وأن يرابطوا في أماكن

ثابتة وغير مكشوفة، وأن لا يتحركوا من مواقعهم إلا بإيعاز مباشر مني.

رد ثابت بإذعان:

- أمرك سيدي.

أكمل العقيد إيعازه، وقال بصوت جهور عبر أنير اللاسلكي:

- إيعاز عسكري! إلى قادة الناقلات المدرعة .. تقدموا بأقصى سرعة نحو البلدة،

واشرعوا على الفور في قصف بيوتها ومحلاتها التجارية بقوة نارية كثيفة، ثم انتشروا

في شوارعها الرئيسة، وأحكموا سيطرتكم على جميع المداخل والمخارج المؤدية إليها.

رد النقيب بحماس:

- عُلِّم سيدي.

أنهى النقيب ثابت المكالمة مع قائده، واتصل بعد ذلك بقيادة الناقلات الحربية

الذين أصبحوا على مقربة من مداخل البلدة.

أوعز ثابت بصوت جهور عبر جهاز اللاسلكي:

- مدرعة ثمان وتسعون .. مدرعة ثلاث وخسون، هل تسمعاني؟

رد قائدا المدرعتين:

- أجل سيدي.

- أسمعك جيداً سيدي.

أردف النقيب ثابت مكماً:

- تقدما نحو البلدة بأقصى سرعة، وابدأ في قصف بيوتها ومحلاتها بكثافة نارية

هائلة.

سأل قائد المدرعة ثمان وتسعون الذي كان متحصناً داخلها:

- هل هذه هي أهدافنا الراهنة؟

أجاب النقيب بحزم:

- أجل؛ أما هدفنا التالي فهو إحكام السيطرة على جميع المداخل والمخارج المؤدية إلى البلدة، على أي حال سأוכל تلك المهمة لقادة الدبابات، أما أنتم فننفذوا ما أمرتكم به.

رد قائد المدرعة:

- عَلمَ سيدي.

اندفعت ناقلات الجند في اتجاه البلدة كاندفاع القطار السريع نحو محطته الأخيرة، وانبعث الدخان الأسود من محركاتها التي بدا ضجيجها في هدأة الليل البهيم كعواء الذئاب، وزمجرة الضباع لحظة انقضاضها على فرائسها.

أثناء سير الناقلات الحربية، أطلق رماثها سيلاً من الرصاص الغزير والقذائف الصاروخية نحو البيوت والمتاجر التي كانت غارقة في لجة الظلام.

انطلقت القذائف من فوهات المدافع، وبدت كثافتها النارية كزخات الشهب المتوهجة في عتمة السماء.

خَرَقَ دوي القذائف وأزيز الرصاص هدوء البلدة وسكونها، وقعقع صداهما عميقاً في آذان البهائم التي هرعت من مخادعها وأعشاشها فزعاً وخوفاً لا تلوي على أحد، فيما اخترقت الطلقات الملتهبة التي أطلقتها الرماة جدران البيوت والمحلات، وأحدثت فيها ثقوباً عميقة بدت كثقوب الغربال.

كان شبان البلدة ورجالها، قد هربوا منها قبل ساعات قليلة من بدء الهجوم، بعد أن خبروا بالخطّة من أحد الضباط العاملين في الفرقة السابعة؛ الذي سرب لهم تفاصيلها الدقيقة ثم فرّ معهم رافضاً أن يكون أداة قتل بيد النظام بعد أن أدرك نواياه المبيتة ضد المتظاهرين العزل.

لم يكن في البلدة سوى الأطفال والنساء اللواتي واجهن بأجسادهن وأرواحهن

نيران الغضب وجحيم الحقد.
في غمرة تقدم الناقلات، وأثناء سيرها المتمهل في اتجاه الشوارع الرئيسة والأزقة الضيقة، تركزت الدبابات في أطراف البلدة، وطوقتها من الجهات كلها.
واصل الرماة إطلاق نيرانهم الكثيفة من الرشاشات الآلية التي انتصبت قواعدها فوق أسطح الناقلات.

ضجت جدران البيوت بصرخات النساء لشدة الاقتحام وضراوة الهجوم الناري، وظلت صرخاتهن حبيسة الجدران المصمتة، وإن تسلفت في بعض الأحيان من ثغورها المثقوبة بالقذائف إلا أن أزيز الرصاص المتطاير كان أسرع في إخمادها وإسكاتها.

ربضت حافلة العقيد نهاد في سهل رحيب؛ ترجل من حافلتها وسار بضع خطوات نحو ثابت الذي كان يراقب سير العمليات الحربية بواسطة المنظار الحربي.
هتف نهاد إلى ثابت بصوت غليظ:
- عمت مساء.

أزاح ثابت المنظار عن عينيه والتفت إلى قائده مذعورًا، وقال بارتباك:
- مَنْ؟ هذا أنت! أوه؛ عذرًا سيدي، لقد أفرعتني.
هز نهاد رأسه، وانقبض وجهه لهنيهة ثم قال بانزعاج مبطن:
- لا أعرف إن كنت قد أصبحت جنياً.

فغر ثابت عينيه الواسعتين، وحملق باندهاش في سحنة قائده التي وشحها الظلام دون أن يفهم مراميه، ثم حرف دفعة الموضوع في اتجاه آخر قائلاً بهدوء:
- لا بأس سيدي، كل شيء يسير على ما يرام.
ازدرد نهاد ريقه وأردف قائلاً:
- حسنًا؛ دعني أرى.

التقط نهاد المنظار الحربي من يد النقيب ثابت، وأخذ يحدق في عدسيته لبرهة قصيرة من الزمن، ثم أزاحه جانبًا عن عينيه، وهتف قائلاً:

- اعطني اللاسلكي.
- دفع ثابت جهاز اللاسلكي نحو قائده، ورد ببرود:
- تفضل سيدي.
- اتصل نهاد بقيادة المدرعات الذين كانوا داخل حواضن نقلاتهم الحربية التي شرعت في التوغل بعمق الأحياء بعد أن شاهدها بواسطة المنظار الحربي.
- أصدر العقيد نهاد أوامره الصارمة عبر جهاز اللاسلكي، قائلاً بصوت جهور:
- مدرعة أربع وستون؛ هل تسمعي؟
- رد قائد المدرعة الذي كان جالساً داخل المدرعة:
- اسمعك سيدي.
- أوعز نهاد بحزم:
- ابدؤوا في اقتحام البيوت حالاً، ثم قوموا بتمشيطنها بيتاً، واقبضوا على مَنْ في داخلها من الشباب والرجال.
- سأل قائد المدرعة ببلاهة:
- سيدي العقيد! في حال تعرضنا لإطلاق النار من طرف العدو، كيف ستتصرف حينها؟
- أجاب العقيد بصرامة:
- إذا تعرضتم لإطلاق النار من طرف الإرهابيين، لا تتوانوا لحظة واحدة في قتلهم جميعاً، سواء كانوا رجالاً أو نساءً أو حتى أطفالاً.
- رد قائد المدرعة بإذعان:
- أمرك سيدي.
- أردف نهاد مكماً بعد أن استذكر أمراً مهماً:
- اسمعني جيداً؛ بعد أن تفرغوا من اقتحام البيوت، اصعدوا إلى أسطحها فوراً؛ إياكم أن تعبثوا في ممتلكاتها، هل هذا مفهوم؟
- رد قائد المدرعة بتؤدة:

- مفهوم سيدي.

ترجل الجنود من المدرعات والآليات العسكرية، واحتشدوا في ساحة البلدة، ثم انتظموا ضمن مجموعات حربية، ضمت كل مجموعة ثمانية جنود؛ قادها ضابط صف برتبة رقيب.

في هذه الأثناء، اجتمع الرقيب عويّد بأفراد مجموعته؛ كان عويّد قائد المدرعة الحربية رقم أربع وستون التي خاطبها العقيد نهاد عبر جهاز اللاسلكي.

كان عويّد ضابط صف برتبة رقيب مجند، وهو من سكان بلدة موحسن الكائنة في ريف محافظة دير الزور؛ لم يكن الرقيب الشاب يعلم أنه في مهد الانتفاضة، وليس في أوكار الإرهابيين، وأن أبناء مدينته ثاروا على النظام كبقية أبناء المدن الأخرى، بل كان واقعاً تحت تأثير الدعاية السوداء، أثناء تأديته للخدمة العسكرية الإلزامية، وظن أنه في عقر دار العدو، دون أن يعرف شيئاً عن هوية العدو.

حدّق عويّد في عيون أفراد مجموعته، ثم شرع في إبلاغهم بالأوامر والتعليمات العسكرية التي تلقاها من قائده؛ قائلاً بحزم:

- عسكري انتباه! سنبدأ الآن في اقتحام أوكار الإرهابيين والمندسين.

هزّ الجنود رؤوسهم، وحدق بعضهم في أعين البعض، ثم لاذوا بالصمت، وأطبّقوا أفواههم موافقين على كلام قائدهم، دون أن ينبسوا بحرف واحد.

وهنا استأنف عويّد كلامه قائلاً بحزم:

- يجب أن نتوخى الدقة والحذر أثناء اقتحام البيوت، فغايتنا القصوى من ذلك، إلقاء القبض على مجاميع الإرهابيين، وكل مَنْ يقبض على إرهابي فإنه سينال رضى القيادة العسكرية وقد تمنحه مكافأة مجزية، أما إذا واجهتم مقاومة شرسة من بنادق الإرهابيين، إياكم أن تترددوا في إطلاق النار دفاعاً عن أنفسكم، وردّاً لعدوانهم الغاشم.. بعد انتهائنا من اقتحام البيوت، يجب أن نصعد فوراً إلى أسطحها، فليس من حقنا العبث والتصرف في محتوياتها وفقاً لتوجيهات العقيد نهاد؛ هل هذا مفهوم؟

ردّ الجنود بصوت واحد:

- مفهوم سيدي.

هتف الرقيب عويّد بصوت جهور:

- عسكري! نفذ.

تفقد الجنود عتادهم الحربي المكوّن من بندقية آلية من طراز كلاشينكوف روسية الصنع، وجعبة من القماش المتين احتوى متنها على مخازن الذخيرة. تحزّم كل جندي جعبته، وأحاطها بإحكام حول منطقة الصدر، ثم انطلق بصحبة أفراد مجموعته القتالية لاقتحام بيوت البلدة.

كانت البيوت عبارة عن أحواش ريفية؛ أشيدت أعمدتها الخارجية من الحجر البازلتي الأسود، وبنيت جدرانها الداخلية من الطوب الأبيض.

أحيطت البيوت بحدائق صغيرة، واحتوى فنائها الخصب على المزروعات المثمرة التي استفاد منها السكان في حياتهم اليومية، كأشجار الزيتون وعرائش العنب. ذخر الرقيب عويّد مسدسه الحربي، وربت براحتة القوية على أكتاف أفراد مجموعته، ثم هتف بصوت جهور:

- اتبعوني.

قاد عويّد أفراد مجموعته التي كانت من أوائل المجموعات المهاجمة، وانطلق مسرعاً إلى بيوت المواطنين لمداومتها واقتحامها.

كان عويّد شاباً شديد الخشونة والرعونة، اكتسب خشونته من قسوة الطبيعة الصحراوية، وعسف المناخ الحار في بلدته التي اشتهرت بمواسمها الزراعية الصيفية ما اضطره للعمل كفلاح فتي في بستان والده منذ أن كان طفلاً صغيراً.

عانى عويّد من عقدة نفسية عويصة، لازمته طوال سنوات حياته، تمثلت في قصر عضوه الذكري، مقارنة بأولاد بلدته الذين كانوا يتباهون بفحولتهم، حيث أنه لم يكن مستساغاً في أوساط الشبان اليافعين في المناطق الشرقية ذات التركيبة القبلية أن يكون العضو الذكري قصيراً، فالفحولة أساس الرجولة عندهم.

وفي صيف يوم قانظ، عِلِمَ عويّد من ابن خالته الذي كان طالبًا في الثانوية الزراعية، أن نكح أنثى الحمار ولمرات متتالية يمكن أن يؤدي إلى زيادة طول العضو الذكري، بسبب الافرازات الكثيرة ذات اللزوجة الكثيفة، واختلاط الهرمونات الأدمية بنظيرتها الحيوانية التي يقذفها مهبل الأتان أثناء الإيلاج.

في هذه الأثناء، تفتقت رغبة عويّد الجاححة، أمام نزواته الجنسية المكبوتة، فحتى ذلك الحين، لم تتحسس أنامله الخشنة جسد أنثى في حياته قط، رغم أن سنه لم يتجاوز السادسة عشر عامًا.

انطلق عويّد إلى فناء البلدة باحثًا عن مراده، وعندما وجد أن نكح الأتان في وضح النهار، أمر متعذر لكثرة عيون الفلاحين السابحة في أرجاء المكان، ودونه الكثير من الفضائح، قرر الاختلاء بحمارة جاره في ساعة متأخرة من الليل.

اصطدمت رغبة عويّد بعناد الأتان؛ التي قامت برفسه رفسة قوية أوقعته أرضًا قبل أن يشرع في إيلاج عضوه البائس، وهنا اضطر إلى ربطها من ساقها القويتين بحبل ثخين، ثم أخذ في نكحها نكحًا زكيًا اشتتهته روحه الشبقية، واستلذه جسده الفتى حتى مطلع الفجر.

اندفع الجنود إلى أحياء البلدة كاندفاع الثيران إلى قيعان الوديان، وشرعوا ضمن مجموعاتهم العسكرية في اقتحام أبواب البيوت، وحطموا أقفالها المعدنية بواسطة المطارق الحديدية التي جلبوها معهم أو عبر إطلاق النيران الكثيفة من رشاشاتهم الآلية.

ولج الجنود إلى البيوت السابحة في أكناف الظلام بحثًا عن الإرهابيين، فلم يعثروا سوى على النساء اللواتي احتضن أطفالهن، وأوقدن الشموع وأضئ بنورها الخافت عتمة المكان.

في هذه الأثناء، دلف الرقيب عويّد بصحبة أفراد مجموعته إلى أحد البيوت الآمنة؛ انتصبت قامته الممشوقة في منتصف صالة فسيحة دثرها الظلام الدامس، وأحاطها

الصمت والسكون، وأخذ يحرق في أرجاء البيت كله، دون أن يعثر على المندسين الذين اعتقد بوجودهم اعتقاداً مادياً لا يرقى له الشك.
هاتف عويّد روحه باندھاش:

- كيف فروا؟ وإلى أين فروا؟ واقع أغرب من الخيال!

خطا عويّد بضع خطوات حذرة نحو مؤخرة الصلاة التي انتهت بنافذة زجاجية موصدة، فرمق بطرف عينه اليمنى قبساً نورانياً خافتاً انبعث ضيائه من الحجرة المجاورة؛ استرعى ذلك الضوء انتباهه، وأثار اهتمامه، فسار في إثره، كالسائر وراء سراب بري، ثم تسمّر أمام هليه الساطع.

أبصرت عيناه الجاحظتان امرأة شابة في منتصف الثلاثينات من عمرها، احتضنت بذراعيها النحيلتين ثلاثة أطفال صغار، واختبأت في المطبخ أسفل طاولة الطعام.
شهى عويّد عميقاً، ثم زفر قائلاً:

- ما اسمك؟

ردت المرأة بإباء:

- جانيت.

كانت جانيت امرأة شركية ذات أصول روسية، أحبت خليلها حباً جنونياً قادها إلى ترك ذوبها والهروب معه في سبيل إدامة العلاقة العاطفية والاستمرار في حبها له.
تعرفت جانيت إلى زوجها في جامعة دمشق، أثناء دراستها للغة الإنكليزية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، ثم انتقلت إلى العيش معه في بلدة جاسم في ريف درعا، وأنجبت منه ثلاثة أولاد.

لم يكن مسموحاً لجانيت -بموجب أعراف مجتمعه- الارتباط برجل آخر من غير أبناء ملتها، وعلى الرغم من ذلك، فقد ضحت بأفراد عائلتها، وفطرت بعاتات مجتمعه، وسمحت لخليلها أن يخطفها لتبرر لذاتها ولأقاربها شرعية علاقتها الزوجية، حيث أنه لم يكن مقبولاً لأي امرأة شركية أن تعود لذوبها؛ دون أن يعلنوا خطفها على الملأ أمام أفراد المجتمع الشركي، ليكون ذلك بمثابة صك براءة لها.

اضطرت جانيت إلى الاختباء في المطبخ والاحتباء أسفل طاولة الطعام، بعد أن خرقت طلقات الرصاص والقذائف جدران بيتها، وأحالتها إلى ثقب دقيقة كغربال الرمل.

سأل عويّد باهتمام:

- أين الإرهابيين؟

أزاحت جانيت الشمعة جانبًا ثم سألت باندهاش:

- أي إرهابيين؟

رد عويّد بإصرار:

- الإرهابيون والمندسون الذين يعيشون بوطننا خرابًا وفسادًا.

عقبت جانيت بصوت متأجج بالغضب:

- أنتم من أربنا وبث الرعب في قلوب أطفالنا؛ أيرضيكُم ما تفعلوه بنا؟ أنسيتم

أننا أهلكم وأبناء وطنكم الذي تدعون حمايته والدفاع عنه؟

سأل عويّد بتؤدة:

- أين زوجك؟

ردت جانيت بانزعاج:

- إنه في درعا.

هتف عويّد ببلاهة:

- هذا يعني أنه قد هرب.

عقبت جانيت بنبرة حادة:

- كلام يهرب، ولكنه خشي من غدركم.

هزّ عويّد رأسه، ومطّ شفتيه الغليظتين، ثم سأل بإصرار:

- ماذا يعمل زوجك؟

أجابت جانيت بشموخ:

- معلم صف في المدرسة.

تنحني زيد ثم ابتل ريقه، وأردف قائلاً بجدية:
- لقد جئنا إلى هنا بمهمة رسمية من القيادة العسكرية للبحث والتحري عن
الإرهابيين الذين تسللوا إلى البلدة، أرجو أن ترشدني إلى مواقعهم.
هتفت جانيت بثقة:
- لا يوجد إرهابيين في البلدة، ولا يعيش فيها أحد سوانا؛ إذا أردتم قتلنا بحجة
الإرهابيين، هيا فاقتلونا.
أطرق زيد رأسه أرضاً، وأمسك عن الكلام أمام نظرات الأطفال الثلاثة التي
أصابته في حرج وارتباك، ثم خرج من المطبخ هائماً على وجهه لا يلوي على أحد بعد
أن أصابه الذهول من هول ما سمع ورأى بأم عينه.
وهنا كسر أحد الجنود صمته المديد، عندما سأله قائلاً:
- سيدي ماذا نفعل بالبيت؟
رد عويّد بحزم:
- إياكم أن تفعلوا شيئاً؛ هيا اصعدوا إلى السطح بسرعة.
هتف الجندي بطاعة:
- أمرك سيدي.

صعد الجنود إلى أسطح البيوت تنفيذاً لتعليمات العقيد نهاد، دون أن يعثروا على
الإرهابيين، وبعد مرور نصف ساعة على صعودهم، ضاقوا ذرعاً من شدة البرد
القارص الذي نخر عظامهم، وتبرموا غيظاً من الجوع الذي عصف ببطونهم الخاوية،
فهتف أحدهم متأففاً بصوت جهور:
- لقد فتك البرد بأجسادنا فإلى متى سنظل ننتظر؟
أردف جندي آخر قائلاً بيأس:
- ليس البرد وحده يا صديقي، فمنذ ظهيرة الأمس لم نسد رمقنا ولو بكسرة خبز
صغيرة.

رد جندي ثالث باستياء:

- أما كان من الأفضل بقائنا في حجرات البيوت؛ بدلاً من وقوفنا هنا كالأصنام.
عقب جندي رابع:

- صدقت؛ ذلك أسلم لنا، وأقرب لحفظ ماء وجوهنا.

تناهت كلمات الجنود إلى مسامع النقيب ثابت؛ الذي كان واقفاً بصحبة الرقباء أمام بيت جانيت، فما كان منه إلا أن رد على الجنود بحقن وهياج:
- اخرسوا! تباً لكم؛ يا لكم من جرذان نتنة، فلو كنتم رجالاً بحق لما تأوهمتم تأوه النساء في مخادع الرجال.

وهنا أبدى عويّد تعاطفه المضمر مع الجنود، ثم ناجى روحه باستياء:
«وَيْلٌ لِلشَّجِيِّ مِنَ الْخَلِيِّ»

لاذ الجنود بالصمت، وأطرقوا رؤوسهم في فراغات الظلام، في هذه الأثناء خرقت موجات اللاسلكي دوائر السكون، فاستل النقيب ثابت جهاز اللاسلكي من جيب سترته، وأنشأ في استقبال المكالمة، ثم أردف قائلاً بصوت جهور:
- ألو؛ احترامي سيدي! هل تسمعني؟

رد العقيد نهاد الذي كان جالساً في حافله الرابضة في أطراف البلدة، ثم سأله مستفهماً عن تفاصيل العملية العسكرية:

نعم اسمعك جيداً؛ ما الأخبار لديكم؟
رد النقيب ثابت بتباه:

- كل شيء يسير على ما يرام وفقاً لتعليماتكم، وقد تم تنفيذ الاقتحام بنجاح باهر.
تنهد نهاد تنهيدة طويلة ثم قال بارتياح:
- عظيم! سوف آتي إليك حالاً.

رد ثابت بسرور:

- حسناً؛ سأكون في انتظارك.

أوعز نهاد لسائقه:

- انطلق إلى مركز البلدة.
هزَّ السائق رأسه، وأردف قائلاً:
- أمرك سيدي.
- أدار السائق محرك الحافلة، فانطلقت عجلاتها في اتجاه البلدة المستباحة؛ أخرج نهادهاتفه المحمول من جيب سترته العسكرية، واتصل على الفور بالعقيد جميل، فيما واصلت عجلات الحافلة شق طريقها السريع نحو ساحة البلدة.
- هتف نهادهاتف بصوت جهور عبر سماعة الهاتف قائلاً بحيوية ونشاط:
- عمت صباحاً، أرجو المذرة لقد تأخرت عليك قليلاً.
- رد العقيد جميل، وهو ضابط أمن الفرقة التاسعة المكلفة بمهمة الاقتحام، ثم استدرك كلامه متسائلاً بشغف:
- لا بأس؛ كيف تسير الأمور؟
أجاب نهادهاتف بثقة:
- كل شيء أصبح تحت سيطرتنا التامة.
- سأل جميل بصبر نافذ:
- هل باستطاعتنا المجيء الآن؟
رد نهادهاتف بارتياح:
- بكل سرور.
- في هذه الأثناء وصل العقيد نهاده إلى ساحة البلدة، فترجل من حافله وخطا بضع خطوات في اتجاه النقيب ثابت الذي وقف باستعداد وانضباط لحظة وصوله إليه.
- أدى ثابت التحية العسكرية، ثم أردف قائلاً:
- احترامي سيدي.
- سأل نهادهاتف بصوت أجش:
- كيف تسير الأمور؟
رد ثابت بثقة:

- كل شيء يسير على ما يرام.
هزّ نهاد رأسه المفلطح، ثم سأل باهتمام:
- كم مندسًا اعتقلتم حتى الآن؟
دفن ثابت وجهه المتقبض في لجة الظلام، وأجاب بصوت خفيض:
- مع الأسف؛ ليس هناك مندسين.
سأل نهاد باندهاش:
- ماذا قلت؟
رد ثابت آسفًا:
- لقد فرّ المندسون من البلدة.
سأل نهاد بغضب وهياج:
- إلى أين فروا؟
خمنَ ثابت لبرهة قصيرة، ثم رد مستتبعًا:
- يبدو أنهم فروا إلى درعا.
سأل نهاد ببلاهة:
- وهل فروا جميعًا؟
أخفض ثابت رأسه وقال بتؤدة:
- أجل؛ فليس هناك أحد في البلدة سوى النساء والأطفال.
تمتم نهاد بانزعاج:
- سنتعقبهم واحدًا تلو الآخر.
سأل ثابت بارتباك:
- سيدي! ماذا تريدنا أن نفعل مع النساء والأطفال؟
قال نهاد بصرامة:
- سأندبر أمر النساء والأطفال بنفسي، ولكن اسمعني جيدًا.
رد ثابت بإذعان:

- أمرك سيدي.
- استذكر نهاده صراعه المرير مع الجن، ثم قال بصوت مشيع بالحقد والضغينة:
- أرسل ثلاث مجموعات مسلحة إلى منطقة البساتين المحيطة في البلدة.
- سأل ثابت مستفهمًا:
- لماذا؟
- أوعز نهاده قائلاً بهياج:
- اقتتلوا جميع المواشي الراقدة في حظائرها، فلا أريد أن أرى شاة ولا بقرة ولا حتى دجاجة، إلا وقد انتزعت روحها من جسدها.
- رد ثابت بحماس:
- سنتزعهما كانتزاع الفارس لروح عدوه.
- أوعز نهاده بحزم:
- هيا انطلق.
- هتف ثابت بصور جهور:
- أمرك سيدي.

في هذه الأثناء، وصل إلى البلدة موكب طويل من الحافلات الأمنية التي كانت محملة بعشرات العناصر.

تقدم الموكب حافلة فارهة، بدت في سيرها المتمهل وأنوارها الساطعة كحافلة الرؤساء، وعندما اقتربت من ميدان البلدة ربطت في جواره فربضت ورائها حافلات الموكب كلها.

ترجل العقيد جميل من حافلته بصحبة رجلين ضخمين كانا من أشرس مرافقيه، وسار بضع خطوات متعجلة في اتجاه العقيد نهاده.

كان جميل واحدًا من أكثر الضباط جرأة في فضح المستور وأقلهم حياء، فاستحق أن يكون الضابط المفضل عند النظام الذي قام بترقيته لرتبة عقيد رغم صغر سنه،

وأوكل إليه مهمة مراقبة الضباط والجنود في الفرقة التاسعة. انتصر جميل على عقدي الخوف والخرج اللتين لازمتاه منذ سنوات طفولته، فكلما رأى طفلاً صغيراً في العاشرة من عمره، كان يستمني أمامه لتشجيعه على فعل الاستمناء، ولداواة عقده المزمنة.

احتفظ جميل في ذهنه المضطرب بصورة أولاد قريته الصغيرة التابعة لبلدة الشيخ بدر في ريف محافظة طرطوس؛ والذين كانوا يجتمعون في أطرافها القصية أثناء أيام الصيف القاطئ، ثم يعقدون حفلة استمناء جماعية وسط أجواء من اللهو والمرح. لم يكن جميل قادراً على إظهار عضوه الذكري أمام أعين رفاقه كما كانوا يفعلون بعضهم تجاه البعض رغم قبوله مصاحبتهم؛ بسبب الحرج الشديد والخوف الداهم الذي انتابه من نظراتهم المرتابة، فكان محل سخريتهم واستهزائهم الدائم. تسمر جميل أمام نهاد، ثم أردف قائلاً بصوت غليظ مشبع بالنعاس:

- طاب يومك.

استرق نهاد نظرة خاطفة إلى موكب الحفلات الأمنية الرابضة في الميدان الرحيب، فانبسست أساريره المنقبضة، ثم حلق في عيني شريكه، وقال بسرور:

- حللت أهلاً ووطئت سهلاً.

سأل جميل ببرود:

- كيف تسير الأمور؟

أجاب نهاد بارتياح:

- كل شيء يسير على ما يرام.

وهنا سأل جميل باهتمام:

- أين المعتقلون؟

هزّ نهاد رأسه، ومطّ شفتيه، ثم قال بتؤدة:

- مع الأسف لم نعتقل أحداً، لقد فروا جميعاً كالأرانب البرية.

وهنا استل جميل لفافة تبغ من علبة السجائر؛ أولج اللفافة بين شفتيه الغليظتين،

وقبل أن يبدأ في إيقادها، أردف إلى نهاد قائلاً باطمئنان:

- لا بأس؛ سنجليهم واحداً تلو الآخر أينما كانوا.

رد نهاد بهدوء:

- أرجو ذلك.

أوقد جميل رأس اللفافة بواسطة عود الثقاب، وجذب نفساً عميقاً، احتبسه في رثيته لبرهة قصيرة، ثم نفث سحب الدخان بتؤدة، وأخذ يراقب انسياها في الهواء البارد بتمعن شديد، بدا وكأنه يستجمع شتات أفكاره المبعثرة، ثم سأل مستفهماً:

- ما حال البيوت؟

رد نهاد بتلقائية:

- خاوية على عروشها إلا من النساء والأطفال.

هزّ جميل رأسه، وغمز بطرف عينه لنهاد، ثم أردف قائلاً بانسراح:

- رائع! سنبدأ في جني الغنائم.

رسم نهاد ابتسامة صفراء على شفثيه، وقال مراوفاً:

- سنفعل ذلك بكل تأكيد، ولكن أرجو الالتزام بينود الاتفاق.

قطّب جميل حاجبيه، ثم رد بانزعاج مبطن بعد أن فهم مرامي شريكه:

- أجل؛ سنتقاسم الأثاث سوية.

تهلل وجه نهاد فرحاً، وقال مداوراً:

- لقد حذرت الجنود ألا يقتربوا من الأثاث قبل أن تحضر بنفسك.

قذف جميل اللفافة أرضاً، ثم دهسها بنعله السميك المنبسط، وهتف بصوت

جهور:

- عظيم! هيا بنا إذن.

في هذه الأثناء، نما إلى مسامع العقيد جميل صوت إطلاق نار كثيف، قضّ مضجعه،

وبدا مصدر إطلاقه من موقع قريب.

سأل جميل بارتباك:

- يا إلهي إطلاق نار! ما الذي يحدث هناك؟ هل يوجد اشتباك؟
 قهقهة العقيد نهاد بملء شديقه، وأجاب هازئاً:
 - كلا على الإطلاق؛ كل ما في الأمر، أنني أوعزت للنقيب ثابت أن يقوم بتصفية
 المواشي كلها؛ يبدو أنه اختار إعدامها رمياً بالرصاص.
 سأل جميل باستنكار:
 - ماذا قلت؟
 كرر نهاد جوابه بتؤدة:
 - لقد أوعزت للنقيب ثابت أن يعدم المواشي.
 رد جميل معترضاً:
 - ساحك الله، لماذا لم تخبرني؟ هل من المعقول أن تعدم المواشي كلها دفعة واحدة
 دون أن أحظى بحصة منها.
 أردف نهاد قائلاً بصوت أجش:
 - حسناً؛ لا تقلق، سأتصل بالنقيب ثابت، وسأجعله يحتفظ بحصتك من
 الدجاج.
 أطلق العقيد جميل نفساً عميقاً، وتمتم بارتياح:
 - شكراً جزيلاً، فلنبدأ بعملنا الآن.

انطلق العقيد جميل إلى أزقة البلدة بصحبة جنود سرية الأمن الذين ترجلوا من
 حافلاتهم، وساروا وراءه بانتظام وانضباط، وقبل أن يبدؤوا سطوهم المسلح على
 البيوت، التفت نحوهم وأوعز لهم بلهجة حازمة:
 - اسمعوني جيداً! سنقوم الآن بمداهمة بيوت الإرهابيين والمندسين؛ تذكروا
 دائماً، أن حربنا ضدهم تقتضي منا مصادرة ممتلكاتهم وأموالهم، وقلعهم من بيوتهم،
 فعندما تهزم عدوك في الحرب، لديك الحق كله في أن تفعل به ما تشاء؛ هيا توزعوا
 ضمن مجموعاتكم القتالية، وابدؤوا في تمشيط البيوت بيتاً بيتاً، واحملوا معكم ما

تستطيعون حمله من أثاث وأمتعة، ثم ضعوها جميعاً في صناديق الحافلات.
هنا تدخل أحد الجنود، وسأل ببلادة أثارت غضب جميل:
- عذراً سيدي! ماذا لو واجهنا مقاومة مسلحة من الأهالي أو حاولوا منعنا من
مصادرة الأثاث، ماذا سنفعل حينها؟
رد جميل بامتعاض:
- سؤال غبي كصاحبه؛ يا بني آدم! عندما يعترضك أحد من ذوي الإرهابيين،
ضع بندقيتك في رأسه، وأطلق النار عليه، أنسيت أنك من سرية الأمن العسكري؟
أطرق الجندي رأسه دون أن يقول شيئاً، ثم أردف جميل مكماً بحزم:
- سأكرر ما قلته قبل قليل للمرة الأخيرة، إذا اعترضكم أحد من ذوي الإرهابيين
اسحلوه إلى هنا، وضعوه أمام حذائي.
رد الجنود بصوت واحد:
- أمرك سيدي.

واصل النقيب ثابت تمشيط الحظائر، وقتل كل ما في داخلها من بهائم وأنعام، بدءاً
من أعشاش الحمام الوادعة، وانتهاءً بزرائب الحمير انتقاماً من سكان البلدة؛ الذين
كسروا حاجز الخوف، وانتفضوا ضد النظام.
في هذه الأثناء، انقض جنود سرية الأمن العسكري على بيوت البلدة، كانقضاض
قطعان الضباع المتوحشة على فرائسها.
أشعل جنود السرية مصابيحهم المبهرة التي جلبوها معهم، وساروا في فناء
الحدائق، ثم اتجهوا إلى البيوت التي كانت أبوابها الخارجية مشرعة لهم، بعد أن سبقهم
في اقتحامها رفاقهم الذين صعدوا إلى أسطحها.
بدأ الجنود سطوهم المسلح على البيوت مع بداية بزوغ خيوط الفجر الأولى،
فولجوا إلى ردهاتها، واندفعوا في حجراتها المعتمة كاندفاع الثيران في حلبات المصارعة.
ارتعدت قلوب النساء والأطفال، وامتلاّت خوفاً وذعراً، عندما شرع الجنود في

سرقة محتويات البيوت، وسط ضوضاء صاخبة من اللهو، تخللها سيل من الشتم المقلدة.

استولى جنود السرية على ما وقع تحت أيديهم من أثاث ثمين كالثلاجات، والغسالات الأوتوماتيكية، وأفران الغاز، والأجهزة الكهربائية؛ كالتلفاز، والحواسيب، وأجهزة تسخين الماء، والمكيفات الهوائية الباردة، دون أن يوفرُوا الأسرة والمفروشات والستائر.

أثناء اقتحام جنود السرية لأحد البيوت المستباحة، هجم جنديان على امرأة رقيقة، جلست في ردهة الصالة، واحتضنت بين ذراعيها المرتعشين أولادها الثلاثة الذين لم ينسبوا ببنت شفة، طوال فترة استيلائهما على الأثاث.

سلط الجندي الأول المصباح الضوئي على وجهها المنقبض، وحدّق في عينيها الواسعتين بحقد دفين قططت جمراته وقدحت شرارته من عينيها الغائرتين، ثم زجرها قائلاً:

— ما اسمك؟

أجابت المرأة بصوت خافت مرعوب:

— نجلاء.

كانت نجلاء في منتصف الأربعينات من عمرها، اضطرت للبقاء في البلدة حافظاً على بيتها بعد أن اتفقت مع زوجها الذي فرّ هارباً من بطش النظام.

لزمت نجلاء السكون، وحافظت على هدوئها أثناء الهجوم على بيتها، إلا أنها خرجت عن صمتها، عندما استشعرت بنية الجنديين في اغتصابها، فقررت مواجهة الموقف مهما بلغت الأثمان.

سألت نجلاء الجنديان بصوت مشبع بالغضب:

— ماذا تريدان؟

ارتبك الجندي الثاني لبرهة قصيرة من الزمن، وأطرق رأسه أرضاً، دون أن يملك جواباً لسؤالها، فيما ازدرد الجندي الأول ريقه، ثم أعاد تسليط منبع الضوء إلى وجهها،

وأجابها بصوته الأجش النشاز:

- اخلعي ذهبك وحليّك؛ هيا بسرعة.

همّت نجلاء ناهضة، ووقفت شاحخة كشموخ الجبال، ثم حدثت في سحنة الجندي الأول، ورمته بنظرة ساخطة أظهرت غضبها واستيائها العارم، وهتفت بكلمات حانقة تقافزت من صميم كبرائها:

- أيها الوغد ألا يكفيك ما فعلت في البيت؟ ألا يكفيك ما سرقت من أثاث ثمين؟ ثم تأتي بعد ذلك وتقول: هيا اخلعي حليّك؛ تبّاً لك.

انقبضت سحنة الجندي الأول، ثم هتف حانقاً:

- أيتها العاهرة الشمطاء! سأعطيك درساً بليغاً في الأدب والأخلاق، وسأحصل على الذهب والحلي، رغماً عنك.

صاتت نجلاء بأعلى صوتها:

- إن استطعت أن تحرث ماء البحر، هيا فافعل، تالله لن أنكسر لأحد سواه؛ اغرب عن وجهي.

انصرف الجنديان مدحورين بعد أن تجرعا مرارة الهزيمة، فيما بقيت نجلاء شاحخة كالطود، ثم انحنت بتؤدة واحتضنت أطفالها الثلاثة بحنان دافق، ولم تستطع الصمود أمام عبراتها التي غالبتها في لحظة ضعف وانكسار؛ فانهمرت بغزارة على وجنتيها المكتنزتين.

تمتم الأطفال الثلاثة بكلمات مضطربة في أذني أمهم المجيشين في المشاعر:

- لماذا فعلاً بنا كل هذا؟

- ماذا يريدان منا؟

- إني خائف كثيراً يا أمي.

طوّقت نجلاء أطفالها الثلاثة، ثم مسّدت براحتيها المعروقتين على رؤوسهم، وطبعت قبلة دافئة على جباههم، ثم أردفت قائلة بحزم:

- لا تخافوا من هذين الجنديين الأحمقين، إنهما كالكلاب المسعورة؛ فليس بوسعهما

أن يفعل شيئاً سوى النباح؛ ولن يقدرنا على قهرنا أو كسر إرادتنا.
في هذه الأثناء، أقفل الجنديان عائدين إلى بيت نجلاء بصحبة العقيد جميل الذي
ولج إلى الصالة ووقف في منتصفها، ثم استدار ببطء شديد نحو ركنها الأيمن، وحملق
في عيني نجلاء اللامعتين بنظرة غاضبة.

استمرت نجلاء في احتضان أطفالها المفزوعين الذين اشتد ذعرهم عندما أبصرت
أعينهم المرعوبة العقيد جميل الذي استل مسدسه الحربي المدفون في غمده الجلدي، ثم
أشهره في وجوههم البريئة قائلاً بصوت أجش:

— إما أن تستسلمي حالاً أو سأقتل أطفالك على مرأى من عينيك، فلم يعد لدي
كلام أقوله.

سلط الجندي الأول ضوء المصباح على وجه نجلاء، ورمقها بنظرة ثأرية شامتة،
ثم همز رأسه المستطيل رأساً ابتسامة صفراء على شفتيه السميكتين اللتين عكستا
حقده المرير.

كظمت نجلاء غيظها، وضبطت أعصابها، وصرت عزمها، وكتمت أنفاسها
المضطربة لبرهة قصيرة، دون أن تكثر لتهديد العقيد جميل، ثم أردفت متسائلة بنبرة
حادة:

— ماذا تريد؟

قطب جميل حاجبيه الكثين، ثم جذب زلاقة المسدس بعنف مفرط، وقبل أن يهم
في الرد على سؤالها، تعالى صراخ الأطفال، واشتد بكائهم لعظم الخوف الذي ضرب
قلوبهم المرتاعة من السلاح المصوب في وجوههم.

لم تستطع نجلاء الحفاظ على رباطة جأشها، والصمود لوقت طويل أمام دموع
أطفالها المنهمرة التي قطعت نياط قلبها، فانهارت أمام صراخهم المرير، ولم يعد لديها
شيئاً تخسره سوى فلذات كبدها.

واصل جميل تهديده وقال بغطرسة:

— ما قولك؟ هيا اجيبي بسرعة؛ فليس لدي مزيد من الوقت كي أبدده في الحديث

معك.

أطبقت نجلاء جفنيها الرقيقين الذابلين، وصمتت لهنيهة بعد أن نضب اللعاب في حلقها، ثم قالت بصوت خفيض:
- حسنًا؛ لك ما أردت.

انبسطت أسارير جميل، وتهلل وجهه بالفرح، وانتابه شعور مفعم بنشوة النصر لحظة سماعه كلماتها المنكسرة، فيما طار قلبا الجنديين فرحًا وابتهاجًا بانكسار إرادتها العتيدة.

عزّز جميل شعوره المنتشي بالغرور، وقال بصلف وعنجهية:
- هيا؛ اخلي ذهبك وحليك.

خلعت نجلاء خواتمها من أناملها الرقيقة، وأسوارها وأطواقها من جيدها السامق، وقرطبيها الدقيقين من كلتا أذنيها الصغيرتين، ثم قامت بوضع حليها أمام نعلي جميل؛ الذي حدّق في عينيها المنكسرتين وزجرها قائلاً:
- انهضي بسرعة، واخرجي بصحبة الجنديين.

سألت نجلاء بارتباك:

- إلى أين سأذهب؟

هتف جميل بأعلى صوته:

- اخرجي! فهذا ليس شأنك.

نهضت نجلاء من مجلسها، واستقامت في وقفها، ثم جذبت أطفالها وسارت بضع خطوات في اتجاه باب الصلاة؛ التفت جميل نحوها، وقال لها بصوت جهور:
- سيبقى الأطفال هنا لوقت قصير؛ هيا اخرجي.

حدقت نجلاء في عيون أطفالها الثلاثة الذين اختلجت أجسادهم من شدة البكاء، وأمسكوا عن الكلام من فرط الخوف الذي ضرب قلوبهم.
نبتت نجلاء بصوت خافت مشيع بالاستسلام:
- حسنًا.

اقتاد الجنديان نجلاء إلى الحجرة المجاورة التي تسلك إليها ضوء الفجر، بعد أن انتشل العكس شوارع البلدة وأزقتها من دياجير الظلام.
 أمال جميل رأسه، وحقق في فناء الحجرة من خلال فرجة الباب، فأبصرت عيناه الشاختتان نجلاء التي وقفت في منتصف الحجرة محاطة بالجنديين؛ أصمها بنظرة حقودة قدحت منها شروره الدفينة، ثم زجرها بسخط وهياج:
 - اجثي على الأرض، وأطرق برأسك.
 جثت نجلاء على ركبتيها اللتين لامستا أرض الحجرة، دون أن تنبس بحرف واحد، فيما أوعز العقيد للجنديين قائلاً بحزم:
 - ستبقيان معها إلى حين انتهائي من العمل.
 رد الجنديان بصوت واحد:
 - أمرك سيدي.

حملق جميل في عيون الأطفال، ثم بدأ في خلع سرواله؛ شهق الأطفال شهقة عميقة لهول المشهد الذي لم يألفوا رؤيته من قبل، وظنوا أنه سيشرع في اغتصابهم جميعاً.
 اختنقت أرواح الأطفال داخل أجسادهم المنهكة، وتحشرت كلماتهم في حناجرهم دون أن يكون في استطاعتهم بوحها، فاستعدوا للصراخ والبكاء، بعد أن ارتاعت قلوبهم خوفاً، وارتعدت أطرافهم رعباً، وارتعشت شفاههم من شناعة المنظر، فيما واصل العقيد جميل خلع له سرواله الداخلي، وعندما أصبح عضوه الذكري في متناول كفه الغليظة، شرع في نكحه نكحاً خفيفاً، ثم رسم ابتسامة مريحة على شفتيه السميكتين لتهدئة نفوسهم المضطربة، وأردف قائلاً بارتياح:
 - إياكم أن تصرخوا؛ أمعنوا النظر جيداً، وشاهدوا ما سوف يحصل الآن.

الجزء الثالث

(25)

صبيحة يوم الأحد الموافق للسابع عشر من أبريل الذي يصادف ذكرى الجلاء، وإعلان استقلال الجمهورية السورية عن سلطات الانتداب الفرنسي، عام ألف وتسعمائة وستة وأربعين، وبعد مرور شهر كامل على اندلاع الاحتجاجات، أدرك المتظاهرون السوريون أن رحلة الحرية طويلة وشاقة، ودونها الكثير من المصاعب، وأن الحرية التي سلبها النظام بجنائز الدبابات وفوهات المدافع والراجمات، لن يكون ثمنها أقل من إراقة الدماء والتضحية بالأرواح.

وأدركوا أيضًا بما لا يخامر عقولهم الشك، أن التراجع خطوة واحدة إلى الوراء، سيحجب عنهم شمس الحرية المنشودة، وسيطيل زمن الطغيان، ويزيد هدر الدماء الزكية التي بذلها من قضوا نحبتهم في ميادين التظاهر.

لم تغب مدينة حمص لحظة واحدة عن تلبية نداء الثورة التي انطلق ثوارها لأول مرة من حي باب السوق المحاذي لمسجد النوري الذي اتخذ الناشطون معقلًا لهم. كان حي باب السوق أحد أهم الأحياء التابعة لمنطقة حمص القديمة، وهو حيٌّ أثري موغل في القدم، بُني في عهد الإمبراطور الروماني ثيودوسيوس الأول في الحقبة التي سبقت ميلاد المسيح ليكون هيكلًا للشمس.

ظهيرة اليوم عينه، انطلقت المظاهرات الحاشدة في منطقة حمص القديمة، وشقَّ الثوار دربهم الوعر الذي نبتت في تربته أشواك الموت، وواصلوا تحطيم جدران الخوف إلى أن وطأت أقدامهم ساحة الساعة التي توسطت قلب المدينة، لأول مرة منذ أن غرقت حمص في مستنقع الاستبداد.

احتشد المتظاهرون في حي باب السباع منذ ساعات الصباح الباكر، ثم راحوا يهتفون بملء أفواههم بإسقاط النظام، وهنا انسابت هتافاتهم القوية إلى الأحياء

المجاورة، واسترعت انتباه ميليشيات الشبيحة التي اتخذت من حيي النزهة والزهرء معقلًا لها.

اشتد وطيس المظاهرة الصاخبة مع حلول الساعة الحادية عشر صباحًا، وفي تمام الساعة الثانية عشر ظهرًا، عزم المتظاهرون الزحف إلى نظرائهم في حي باب دريب لإذكاء حماسهم الثوري في ذكرى يوم الجلاء.

في هذه الأثناء تسلفت ميليشيات الشبيحة إلى الحي، وسددت فوهات بنادقها نحو أبدان المتظاهرين، ثم أطلقت العنان لنيرانها الحارقة التي خرقت أجسادهم الفتية وأطفأت نور الحياة في وجوههم.

خرَّ سبعة شبان مضرجين بدمائهم القانية التي روت ثرى الحي بأكمله، فيما أقفلت ميليشيات الشبيحة عائدة إلى معاقلها بعد أن أروت ظمأها وأشفت غليل حقدتها من دماء المتظاهرين.

ألهمت الجريمة النكراء مشاعر الجماهير وأججتها بالغضب الذي امتد سعيره إلى أرجاء المدينة كلها، فهبت جموعها الغفيرة عن بكرة أبيها، فيما تقاطر الناس من بيوتهم ومحلاتهم التجارية نحو حي باب السباع، وحملوا نعوش المتظاهرين القتلى، وساروا بعد ذلك إلى المسجد الكبير الكائن وسط المدينة للصلاة عليهم قبل مواراتهم الثرى.

حالما أنهى المواطنون الغاضبون صلاة الجنازة رفعوا نعوش قتلاهم السبعة، ثم انطلقوا بهم نحو مقبرة الكتيب الأحمر، وأثناء خروجهم من المسجد هتفوا بملء أفواههم قائلين:

«على الجنة رايمين شهداء بالملايين»

«وين المندسين وين المندسين»

«هيه ويا الله ومنصورين بعون الله»

«عين خير عين خير باي باي يا بشار تصبح على خير»

انضم آلاف المواطنين المترددين إلى حشود المشيعين الغفيرة أثناء مرورها في

أحيائهم؛ التي أدت طرقاتها المتشعبة إلى المقبرة القديمة.
وما إن وارى المشيعون جنائمين قتلاهم، حتى بدأ الناشطون يوجهون الحشود
الغفيرة نحو ساحة الساعة للاعتصام فيها.
استجاب المشيعون لتوجيهات الناشطين دون اعتراض، ويمموا وجوههم
شطر ساحة الساعة، وأثناء سيرهم إليها ولجوا إلى حي الحميدية الكائن وسط
المدينة.

مكث المشيعون في الحي لبضع دقائق، وما إن أبصرت أعينهم سكانه الذين
أطلوا برؤوسهم من شرفات النوافذ، حتى أخذوا يلوحون لهم بأيديهم ويحونهم
بأقوى الهتافات الحماسية التي صدحت بها حناجرهم:

«حرية حرية إسلام ومسيحية»

«هي لنا هي لنا والحرية هي لنا»

«الشعب يريد إسقاط النظام»

عشية اليوم عينه، وطأت أقدام الثوار ساحة الساعة الكائنة في محاذة شارع
الرئيس شكري القوتلي وسط مدينة حمص.
كانت الساحة التي أشيدت في عام ألف وتسعمائة وثمانية وخمسين، عبارة عن
برج صخري شاهق، بلغ ارتفاعه حوالي ثلاثة أمتار، وبني من الحجارة الصخرية
القديمة ذات اللونين الأبيض والأسود.

أحيط البرج الصخري -الذي لم يختلف تصميمه الهندسي عن تصميم مآذن
المساجد- بأربع حجرات احتوت كل واحدة منها على ساعة.
بُنيت الحجرات الأربع على هيئة قباب صغيرة؛ ضمت أقواساً صخرية توصلتها
الساعة التي ظهرت عقاربها الطويلة من الجهات الأربع كلها.

استمر توافد المتظاهرين إلى ساحة الساعة بلا انقطاع حتى امتلأت بأعدادهم
الغفيرة، وعندما دنت الشمس من الأفق، أطلق قرصها المتهب شفقته الأحمر

الزاهي الذي أحاط سماء المدينة بهالات باهرة وأضفى عليها جمالاً وبهاءً شحذ الهمم وبعث الحماس في النفوس.

في هذه الأثناء، رفع الناشط بلال الآذان، ثم نادهم بأعلى صوته قائلاً:
- إلى الصلاة يا إخوان .. إلى الصلاة.

اصطففت الجموع الغفيرة بعضها وراء البعض ضمن أنساق طويلة ومنظمة، وبشكل دقيق ومتسق، وراحت تؤدي صلاة المغرب، كما لو كانت داخل أسوار الكعبة.

بعد أن فرغ المصلون من أداء صلاتهم تضرعوا إلى ربهم بقلوب خاشعة أن يرحم شهدائهم، ويتقبلهم في واسع رحمته ومغفرته، وأن يثبتهم على درب الثورة، ثم أخذوا يرددون بملء حناجرهم:

«اللهم ارحم شهدائنا»

«أمين»

«اللهم تغمدهم في واسع رحمتك»

«أمين»

«اللهم تقبلهم في فسيح جناتك»

«أمين»

انفض المعتصمون بعد انتهائهم من الصلاة، وبدؤوا في الاحتشاد من جديد، ثم تحلقوا حول برج الساعة، وأخذوا يهتفون أقوى الهتافات الثورية:

«الشعب يريد إسقاط النظام»

بعد مرور بضع دقائق، أرخى الليل سدوله، وخيم الصمت على أرجاء الساحة كلها، وتسلسل التعب والإجهاد إلى أجساد الناشطين الذين أمضوا يوماً طويلاً وشاقاً؛ بدؤوا في تشييع جثث رفاقهم القتلى، وأنهبوا بالاعتصام في ساحة الساعة.
في هذه الأثناء، افترش بعض الناشطين الأرض، فيما جلس الباقون القرفصاء

أمام برج الساحة، وبدأت التساؤلات الغامضة حول مصيرهم الراهن تتقافز إلى أذهانهم المشتتة التي أعيها الإرهاق الشديد.

حدّق الناشطون بعضهم في أعين البعض ببرود شديد بعد أن تسلل الملل إلى أرواحهم.

وفي غمرة ذلك التكاسل، التفت زيدان نحو ابن عمه فوجده مستلقياً على الأرض، ثم حملق في عينيه اللتين بدتا مغمضتين من شدة النعاس، وأردف له قائلاً:
- سعيد! ما دهالك؟

رفع سعيد رأسه وجذعه بقوة إلى الأعلى حتى اعتدل جسده اعتدالاً كاملاً، وأجاب بصوت خافت مشبع بالنعاس:

- مع الأسف؛ لقد غلبني النعاس.

ربت زيدان على كتف سعيد، وقال بحزم:

- صرّ عزمك، وارسخ بقوة.

رد سعيد بغير اكتراث:

- حسناً.

أثار رده استياء زيدان الذي سأل باستنكار:

- هل جئنا إلى هنا للنوم أم لإسقاط النظام؟

تشاءب سعيد طويلاً، بدا وكأنه يطرد النعاس من جفنيه، ثم هتف بصوت جهور:

- يا لك من رجل لحوح مسرف في ثورتك.

أمسك زيدان ذراع سعيد ثم جذبه نحوه بقوة، وقال له بإصرار:

- تعال معي.

نهض الشابان وسط جموع المعتصمين الذين استلقوا على ظهورهم وبطونهم،

وقبل أن يمضيا في طريقهما إلى برج الساعة الذي لم يبعد عن موقعهما سوى بضعة أمتار قليلة، هتف زيدان بأعلى صوته قائلاً:

- يا شباب! مَنْ يريد أن يتبعنا فليأت بسرعة.

وما إن خطت قدما الشابين بضع خطوات نحو برج الساعة حتى تبعهما عشرات الناشطين، وساروا وراءهما بهمة وحماس كبيرين بعد أن نفصوا التعب عن وجوههم، ورموا الكسل خلف ظهورهم.

تحلّق الناشطون حول برج الساعة وبدءوا في اعتلائه؛ كان زيدان في مقدمة المعتلين مدفوعًا برغبة جامحة في الوفاء لرفاقه الذين قضوا نحبهم في حي باب السباع.

أكمل زيدان اعتلائه لمقدمة البرج، ثم جلس -بصحبة الناشطين الذين استجابوا للنداء- على سوره الحجري الذي بلغ ارتفاعه عن مستوى الأرض حوالي مائة وخمسين سنتيمترًا، ثم أخذوا يهتفون هتافات الثورة ويرددون شعاراتها القوية بغية دبّ الحماس في نفوس رفاقهم التي أضناها التعب.

كان زيدان في الحادية والعشرين من عمره، وهو من سكان حي باب السباع الذي يعد واحدًا من أكثر الأحياء في حمص تظاهرًا ضد النظام، وكان الولد الوحيد لأمه التي لم تفلح محاولاتها الدؤوبة في إثناؤه عن المشاركة في الاعتصام؛ عندما اصطدمت برغبته الجارحة في الوفاء لدماء رفاقه الذين ترجلوا عن الثورة.

لم يكن باستطاعة والدته التي تعاضمت مخاوفها على فلذة كبدها، سوى القبول بالأمر الواقع ومسايرة رغباته حتى وإن بدت لها متناقضة في بعض الأحيان، خاصة بعد أن فهمت خصاله وعرفت طباعه، ولا سيما العناد الشديد المتأصل في شخصيته الحساسة، وميله الجامح لبلوغ أهدافه مهما بلغت الأثمان.

عكست شخصيته الهادئة حبه الكبير للحيوانات الأليفة التي لم يفارقها طوال حياته، وأظهرت إنسانيته المفرطة في طريقة تعامله مع الحيوانات أحاسيسه المرهفة، وخاصة بعد أن فقد فرخه الصغير عندما كان طالبًا في المرحلة الابتدائية في سن العاشرة من عمره.

كانت قد اغرورقت عيناه بالدمع، وبكى بكاء شديداً على رحيل فرخه الوديع، بسبب البرد الشديد الذي فتك ببدنه الضعيف في ليلة شتوية عاصفة، رغم أنه حرص على وضعه داخل صندوق خشبي في مكان دافئ ومغلق. رفض زيدان رمي فرخه النافق في حاوية النفايات كما كان يفعل السوريون مع حيواناتهم النافقة، بل قام بدفنه في حديقة المنزل، ووضع فوق قبره زهرتين صغيرتين.

أصيب الغلام من بعد رحيل فرخه بكآبة عميقة، وعزلة مريرة أفعدته في البيت لبضعة أيام، ومنذ ذلك الحين شرع في جلد روحه جلدًا قاسيًا عقابًا لإهمالها في توفير الرعاية اللازمة لحفظ حياة الفرخ.

رافق سعيد ابن عمه زيدان طيلة ساعات الاعتصام، ولم يفارق ظله لحظة واحدة إلا عندما أعياه التعب الشديد ودفعه إلى الاستلقاء على ظهره لنيل قسط من الراحة، ومنذ ذلك الحين لم يُغمض عينيه اللتين كانتا تتبعان ظل زيدان المنكسر على الأرض، نزولاً عند رغبة والدته التي كانت قد اتفقت معه سرًا على أن يشمل حياة وحيدها بالرعاية والاهتمام.

كان سعيد في الخامسة من الثلاثين من عمره، أقام مع زوجته وأطفاله الثلاثة في حي باب دريب المتاخم لحي باب السباع في منطقة حمص القديمة.

أمضى سعيد جُلّ وقته في لبنان منذ عام ألف وتسعمائة وسبعة وتسعين وحتى أواخر عام ألفين وثمانية؛ عمل حدادًا في ورشة خاصة لتصنيع الأبواب والنوافذ في منطقة الإمام الأوزاعي الشعبية ذات الكثافة السكانية العالية.

عاش سعيد في لبنان وقتًا طويلًا؛ بعد أن تعرض لصدمة عاطفية حادة، تمثلت بتخلي خليلته عنه التي أحبها حبًا عميقًا انتهى بزواجها من رجل آخر، بعد أن رفضت والدته زواجه منها.

قطع سعيد كل صلته بأفراد عائلته الذين ظلوا يبحثون عنه في لبنان دون

جدوى؛ كان سعيد شديد العناد، صعب المراس والانقياد، تسبب غيابه المديد عن قلب أمه إلى ابتلائها بأمراض مزمنة بدءاً من ضغط الدم وانتهاءً بمرض السكري، بعد أن ساءت حالتها النفسية، وانكسر وجدانها حزناً وألماً على فراقه الطويل.

رجع سعيد إلى سوريا بعد انتحار صديقه السير لانكية التي شاركتها المسكن والمأكل في نفس البيت الصغير الذي احتضنها سقفه لأكثر من أربعة أعوام.

اضطرت نينا -وهي شابة سير لانكية- للقدوم إلى لبنان بغية العمل مع إحدى شركات التنظيف لإعانة أفراد أسرهما الفقيرة، وتوفير مصاريف الرعاية لطفلهما الرضيع الذي تركته لدى زوجها السابق.

كانت نينا شابة آسيوية رقيقة المشاعر، مرفهة الأحاسيس، عاشت في نفس الزقاق البحري المتاخم لبيت سعيد؛ تعرضت للتعنيف الشديد من بعض الأسر اللبنانية الثرية، وظلت تكظم غيظها في سبيل كسب قوتها اليومي، دون أن تظهر استيائها وتبدي غضبها على سوء المعاملة.

احتضنها سعيد عندما طردتها الشركة المشغلة من العمل، وأصبحت بعد ذلك بلا مأوى، ومنذ ذلك الحين عاشت بصحبته كزوجة سرية؛ وفي منتصف عام ألفين وثمانية، ألقت نينا بنفسها من فوق أحد الأبنية، بعد أن اتهمتها إحدى السيدات اللبنانية بسرقة حليها، وكانت قد تلقت قبلها ببضعة أيام قليلة، نبأ وفاة ولدها إثر إصابته بمرض الجفاف الناتج عن سوء الرعاية الصحية في قريتها النائية.

في هذه الأثناء، ملأ الفرح قلب زيدان، رغم الحزن الذي ارتسمت معالمه على سحنته، أثناء تلقيه نبأ رحيل رفاقه الذين استذكروهم وسط الحشود الغفيرة، ورأى صورتهم المتلائة في صفحة السماء، ثم أخذ يهتف بأعلى صوته:

«على الجنة رايجين شهداء بالملايين»

رددت الجموع الغفيرة هتافه بملء أفواهها، وهنا رفع زيدان بصحبة رفاقه الذين كانوا يجلسون بجواره اللافتات الكبيرة التي صنعت من القماش الأبيض،

ثم قاموا بتثبيتها حول أسوار برج الساعة من الجهات الأربع كلها، ودونوا عليها آرائهم ومطالبهم التي كان من بينها:

«لا للطائفية لا للتخريب لا للفساد لا للظلم، ثورتنا سلمية»

«لا نريد إصلاحًا، هيا ارحل»

في هذه الأثناء، بدأ المعتصمون بالانتشار في أطراف الساحة وقوفًا عند رغبة الناشط بلال الذي استشعر بحدسه العميق خطر تعرضهم لهجوم مباغت من ميليشيات الشبيحة، فأردف قائلاً لهم بصوت جهور:

– أرى أن نضبط الساحة ضبطاً صارماً لتأمين أنفسنا بشكل جيد، وللحيلولة دون إفشال الاعتصام.

انتشرت عشرات من المعتصمين في شارع عبد الحميد دروي، كما انتشرت أيضاً في مداخل الأزقة والأحياء المؤدية إلى الساحة كشارعي الدبلان وجورة الشياح، وأقامت عند جميع النقاط التي اعتصمت بها حواجز بشرية؛ للتدقيق في هويات المارة الراغبين في الانضمام إلى الاعتصام، وأخضعتهم لتفتيش صارم؛ بغية التحقق من خلوهم من الأدوات الحادة، والأسلحة البيضاء والنارية.

بعد أن فرع المعتصمون من تنفيذ خطة رفيقهم بلال، بلغ التعب منهم مبلغه، وبدأ الإرهاق جلياً على وجوههم أكثر من ذي قبل.

طاف سعيد على الحواجز البشرية التي أقامها رفاقه من أجسادهم العارية، وحملق في عيونهم الساهدة لبرهة قصيرة؛ ساء حالهم المزرية، ورفض الجلوس مكتوف اليدين دون أن يفعل شيئاً، فما كان منه إلا أن سار نحو ابن عمه، وعندما أصبح في مواجهته، سأله بصوت جهور:

– زيدان! هل تستطيع أن تذهب معي أنت ورفاقتك؟

هزّ زيدان رأسه موافقاً، ثم سأل مستفهماً:

– أجل؛ ولكن إلى أين؟

رد سعيد باقتضاب:

- إلى البيت.

وهنا سأل زيدان بفضول:

- لماذا؟

حكَّ سعيد صدغه الأيمن بتؤدة، ثم قال محمناً:

- اعتقد أن الجوع بدأ يفتك في بطون رفاقنا المعتصمين، فقد صار لهم وقت

طويل لم يتناولوا فيه شيئاً من الطعام.

رسم زيدان ابتسامة خفيفة على شفثيه، وعقب قائلاً:

- ربها؛ ولكن أرجو أن لا ترهق نفسك وألا تكلفها أكثر من وسعها.

التقط سعيد نفساً عميقاً وردَّ بأساً:

- ليس هناك أي إرهاق على الإطلاق، فكل ما في الأمر أن زوجتي رنا أعدت

لنا ما استطاعت صنعه من المأكولات والأطعمة.

ربت زيدان على كتف سعيد، وأثنى عليه قائلاً:

- بوركتم وأحسنتما صنعاً.

ردَّ سعيد بسعادة غامرة ملأت شغاف قلبه:

- بوركتم الثورة التي وحدت قلوبنا.

وهنا شرَّد زيدان لبضع ثوانٍ قصيرة، ثم أطلق تنهيدة عميقة، شعر خلالها

بالنشوة والارتياح، ثم عقب برزانة:

- الثورة أخرجت الخير الدفين في قلوبنا، وطردت الشر البغيض من أرواحنا.

هزَّ سعيد رأسه موافقاً، ثم جذب زيدان من ذراعه، وقال له بإصرار:

- هلم معي من فضلك.

ردَّ زيدان بحماس كبير:

- هيا بنا.

اصطحب سعيد وزيدان ثلة من رفاقها وانطلقا بهم إلى حي باب دريب، لمساعدتهما في جلب وجبات الطعام للمتظاهرين المعتصمين في ساحة الساعة. في هذه الأثناء، هبط الظلام وهبط معه السكون على أرجاء حمص كلها، واتشحت سماءها الصافية بالسواد الحالك، وبدأت درجات الحرارة بالانخفاض تدريجيًا، فارتعشت أيدان المعتصمين للوهلة الأولى، إلا أن تأخي قلوبهم وتآلفها، دبّ الدفء والحرارة في أرواحهم النائرة. تعانقت أشلاء المعتصمين، وتعاضدت سواعدهم طلبًا للحرية، وارتفعت أكفهم واشربأت أعناقهم نحو السماء طلبًا للنصر على الاستبداد.

رجع سعيد بصحبة الناشطين الذين اصطحبهم معه إلى بيته لمساعدته في إحضار وجبات الطعام، وما إن وطأت أقدامهم أرض الساحة من جديد، حتى بدؤوا في توزيع أكثر من مئتي وجبة على رفاقهم المعتصمين. احتوت كل وجبة على طبق من الأرز، وقطعتين من البطاطس المسلوقة، ووجبة من الطماطم الطازجة. شرع المعتصمون في تناول وجبات الطعام التي سدت رمقهم وأعانتهم على الصمود والبقاء في الساحة لوقت أطول. في غضون ذلك، طاف زيدان وسعيد حول برج الساعة في أجواء مفعمة بالفرح والابتهاج، وأطلقا نفسيين عميقين تعبيرًا عن كدهما وتعبهما اللذين بلغا منهما مبلغًا عظيمًا. في هذه الأثناء، اندفع الناشط بلال إلى الساحة وسط حشود المعتصمين التي أنهت للتو طعامها، ثم اتجه بخطوات متعجلة إلى برج الساعة، وانتصب بقامته السامقة فوق منصبه التي جلس عليها زيدان وسعيد. رفع بلال المضخم الصوتي بيده اليمنى، وأخذ يخاطب المعتصمين بصوت جهور:

- يا إخوان! لقد تلقيت للتو رسالة من رئيس فرع الأمن العسكري.

هتف المتظاهرون بصوت واحد:

- ماذا يريد؟

ابتل بلال ريقه، وأردف قائلاً:

- قال إنه يريد الوقوف عند مطالبكم.

أوقعت كلمات بلال المعتصمين في لجة من الحيرة، فصمتوا لبرهة قصيرة، ولم يعلقوا البتة، بعد أن بدا كلامه مفاجئاً لهم.

لم يجد بلال بداً من مواصلة الحديث مع الحشود المعتصمة، فأردف مكملاً:

- برأيي إن مطالبنا هي عينها مطالب أهلنا في درعا، وفي أنحاء سوريا كلها.

هزّ المعتصمون رؤوسهم تعبيراً عن موافقتهم لكلام بلال، ولم ينتظر بعضهم طويلاً للخوض في المزيد من النقاشات الجانبية، فسرعان ما همّوا وانتفضوا، ثم رفعوا قبضاتهم إلى الأعلى، وهتفوا بملء حناجرهم:

«الشعب يريد إسقاط النظام»

لم يكن أزالام النظام بعيدين عن موقع الاعتصام، بل كانوا يحيطونه من الجهات كلها بواسطة عملائهم وجواسيسهم؛ الذين زجوا بهم في صفوف المعتصمين لمراقبة فعاليات الاعتصام لحظة بلحظة.

أنصت الأزالام لجواب المعتصمين الذي بدا واضحاً لا لبس فيه، ودوى صدها في أرجاء المدينة كافة، فلم يبق إنسان في حمص إلا وسمعه.

في هذه الأثناء، أنشبت أجهزة الأمن أظفارها، وكشرت ميليشيات الشبيحة عن أنيابها الحادة، وراحتا تعدان العدة لقتل أكبر عدد من المعتصمين إرواءً لحقدهما الدفين، وبغضهما العميق لهتافات الحرية التي قوضت كيانهما، وزلزلت الأرض من تحت أقدامهما.

في تمام الساعة العاشرة ليلاً، عقد زبانية النظام اجتماعاً حاسماً في نادي الضباط

الكائن وسط مدينة حمص بمحاذاة ساحة الساعة.

اجتمع العميد عبد الحميد رئيس فرع الأمن العسكري بلفيف من ضباط الأمن والمخابرات؛ كان عبد الحميد ضابطاً دميم الوجه، قبيح الأخلاق؛ احتوى وجهه الكالح على جبهة عريضة مسطحة، بدت في تسطحها كجبهة الثيران الهائجة، وذقناً دقيقة، وعينين غائرتين حذرتين كعيني الذئب؛ اعتلاهما حاجبان كثان متباعدان كتباعدا السماء عن الأرض، فيما انتصب أنفه الطويل المدبب الذي بدا كنصل السيوف الرومانية في منتصف وجهه المربع.

كان عبد الحميد شديد الحنق على النساء؛ اشتد عداؤه لهن منذ أن اكتشف خيانة زوجته التي مارست الهوى مع ضابط صف برتبة رقيب مجند.

أمضى الرقيب خدمته العسكرية في منزل العميد، وكان الحاجب الوفي لزوجته قائده التي عاشت الحرمان الكامل في سني صباها، ولم تحظ باهتمام زوجها الضابط الذي لم يكن لديه الوقت الكافي لتلبية احتياجاتها الجنسية، حاله كحال الكثيرين من الضباط العسكريين الذين اضطروا لترك نساءهم وراء ظهورهم، أثناء انشغالهم في تنفيذ المشاريع العسكرية.

اكتشف عبد الحميد خيانة زوجته بواسطة سائقه الخاص الذي أنبأه بالكارثة الأليمة، مقابل تقربه منه وكسب رضاه.

ارتبط السائق بعلاقة وثيقة مع الرقيب المجند الذي أسرَّ له بعفوية ساذجة غرامه بزوجة العميد، وشبقها المفرط فيه.

استغل السائق بخبث رهيب السر الثمين الذي أفشاه الرقيب بغباء مزمن، ونية صادقة، وأخذ يفتش عن البرهان، ويتحرى الأدلة القاطعة لإدانة رفيقه المغفل.

عثر السائق على الدليل القاطع، بعد أن أمضى جلَّ وقته في مراقبة تحركات الرقيب.

وبعد مرور بضعة أيام، أعدم العميد عبد الحميد الرقيب في حقل الرماية، عندما اصططحه معه في رحلة صيد، وحالما أصبحا في منطقة نائية، أو عز عبد الحميد

الذي كان في حينها برتبة مقدم للسائق عينه أن يطلق النار على الرقيب عقاباً لخيانته الآثمة.

نفذ السائق حكم الإعدام بسعادة غامرة، وابتهج قلبه عندما قذف جثة رفيقه في وادي سحيق لتكون طعاماً للضباع الجائعة.

في هذه الأثناء، ولج سмир إلى نادي الضباط محاطاً برجلين ضخمين من رجاله؛ صعد الرجال الثلاثة إلى الطابق الأول، وعند وصولهم إلى ردهته الطويلة، كان في استقبالهم ضابط شاب برتبة ملازم أول؛ هتف الضابط مرحباً:

- أهلاً وسهلاً.

حدّق الضابط في عيني سмир، وأردف له مكماً:

- أرجو أن تتفضل معي.

وهنا خلق سмир في عيون رجله وغمز لها بطرف عينه اليمنى؛ هزّ الرجلان رأسيهما الكبيرين كدلالة على فهمهما لإشارة قائدهما.

التفت سмир إلى الضابط الشاب، وقال له بصوت أجش:

- حسناً.

دلف سмир إلى قاعة الاجتماع، فيما بقي الرجلان ينتظران في ردهة الطابق؛ كان سмир أحد أبرز قادة ميليشيات الشبيحة في حمص، وقد حضر إلى الاجتماع تلبية لدعوة العميد عبد الحميد.

كان سмир في الثامنة والأربعين من عمره، أمضى جل حياته في التلصص على النساء دون أن يشأ الارتباط بإحداهن لاعتقاده بأن هناك من سيتلصص على زوجته مثلاً كان يتلصص على أخواته وزوجات أخوته.

فتفتت رغبته الجاحمة في التلصص منذ أن كان طفلاً صغيراً في سن الحادية عشر من عمره، عندما شاهد شقيقته الكبرى من فرجة قفل الباب أثناء دخولها إلى الحمام. تعرّت الفتاة من أسافلها الريفية الرثة كتعري الأغصان من أوراقها الذابلة، وانتصبت قامتها المشوقة أمام رشاش المياه.

شهى الغلام عميقاً حينما رأى بزاوية عينه اليسرى جسدها الأثوي؛ الذي انتصب عارياً كانتصاب السيف في قبضة الفارس. ابتل سميز ريقه، وعَضَّ بأسنانه شفته السفلى عندما أبصر ردفها الأبيضين المكتنزين اللذين تهدلت عليهما خصلات شعرها الأشقر المبللة بقطرات الماء الدافئ.

لم يكتف سميز بمشاهدة ظهرها العاري، فاندفع إلى نافذة الحمام الكائنة في الطرف الآخر من بيت عائلته الريفي، ثم جلب كرسيًا خشبيًا صغيرًا، وانتصب فوقه، وأخذ يحرق من شقوق النافذة بأنفاس مكتومة بالدهشة وريق ناشف إلى نهديها الفاتنين؛ حتى شعر بسائل دافئ يندفع اندفاعاً قوياً من عضوه الذكري. تلمس الغلام السائل الدافئ بأنامله النحيلة، وبدا مأخوذاً في حالة من الصدمة والحيرة، دون أن يعي شيئاً حول طبيعة ذلك السائل الذي كان اندفاعه المفاجئ إيذاناً ببدا بلوغه المبكر.

منذ ذلك الحين احتفظ سميز بملابس شقيقته، وواظب على اشتهاها باشتهاء جامع بين الفينة والأخرى، لاستذكار جسدها العاري الذي انطبعت صورته البهية في ثنايا عقله الباطن.

بدت قاعة الاجتماع شديدة الاتساع، واعتلت جدرانها صورة رئيس النظام حافظ الأسد، وإلى جوارها ارتفعت صورتان نجليه بشار وباسل؛ اللذين أضيفت لصورتيهما العسكريتين صورة شقيقهما الأصغر ماهر.

احتدم النقاش بين المجتمعين حول إعلان ساعة الصفر، واشتد الجدل، وتعمدت خيوطه، واتسعت دوائره ودواماته اللامتناهية حول حتمية الحرب الضروس ضد المعتصمين في الساحة.

تنحى سميز، وقال بحق شديد:

- من الواضح أن المعتصمين الآن لا يريدون إنهاء الاعتصام والعودة إلى

بيوتهم.

- وهنا عقب أحد ضباط الأمن قائلاً بسخط:
- رؤوسهم يابسة كجرف الصخر.
- هتف سمير بأعلى صوته:
- تالله لأحطمن رؤوسهم العفنة.
- أردف العميد عبد الحميد قائلاً باحتداد:
- يقولون إنهم يريدون إسقاط النظام.
- ردّ ضابط آخر:
- إنهم يعوون كالكلاب الشاردة.
- ضرب سمير الطاولة بباطن كفه بعنف مفرط، ثم هتف بصوت خشن متأجج بالغضب:
- تالله لأجعلن عواءهم يصل إلى عنان السماء.
- التفت سمير نحو العميد عبد الحميد، وسأله بهدوء:
- ما هو وضع الرماة؟
- أجاب عبد الحميد بتباهٍ:
- لقد أمرت بانتشارهم فوق أسطح المباني المحيطة بالساحة.
- رد سمير بارتياح:
- عظيم.
- وهنا سأل عبد الحميد شريكه سمير:
- ما هو وضع جماعتكم؟
- أردف سمير بغطرسة:
- رجالنا جائعون كثيرًا، فمنذ وقت طويل لم يأكلوا شيئًا من أشلاء الأعداء.
- هتف العميد بانسراح:
- هنيئًا لرجالك الصناديد؛ أمامهم صيد ثمين هذه الليلة.
- قطّب سمير حاجبيه، وزمّ شفّتيه، وقال بعنجهية:

- لا شك أننا سنلتهم لحومهم الآدمية، وسنرشف نخب النصر من دمائهم.
نهض العميد عبد الحميد من كرسیه اللدن الذي توسط قاعة الاجتماع، ثم
خاطب الضباط الذين أصغوا له بإنصات شديد؛ قائلاً بصرامة:
- حضرة الضباط! لقد اتصل بي سيادة العميد حافظ قبل قليل، وأبلغني
بضرورة التحرك العاجل لنسف الاعتصام الحاشد بأي شكل من الأشكال، وقد
فوضني بكل الصلاحيات لفعل ذلك.
رد سمير بانتشاء:

- رائع.

حدّق عبد الحميد في عيني سمير وأردف قائلاً بحزم:
- علينا أن نتحرك بأقصى سرعة، فليس لدينا المزيد من الوقت للتفكير في
الخيارات الأخرى، بعد أن أصبح كل شيء واضح أمامنا، ولا يجب أن نخذل
القيادة أكثر مما فعلنا حتى الآن، عندما تغافلنا عن عقد الاعتصام في الساحة.
رفع أحد ضباط الأمن سبابته اليمنى طالباً الإذن في الكلام، وعندما تلقف
إشارة الموافقة من العميد عبد الحميد، أردف قائلاً:

- سيدي العميد! لا بد لنا من تصحيح موقفنا أمام القيادة، وأن نعتذر منها
بطريقة لبقّة، وهؤلاء الكلاب هم قربان اعتذارنا، لذلك يجب ألا نرحم منهم أحداً.
هم أحد الضباط واقفاً باستعداد، ثم هتف ممالئاً بصوت جهور:
- سيدي العميد! نحن وجنودنا طوع بنانك، وكلنا فداء السيد الرئيس؛ إنني
أتعهد لكم، أننا سنسلخ جلود هؤلاء الكلاب لنجعلها طبولاً نقرعها في أفراحنا
وأعيادنا.

أوماً العميد بيده اليمنى للضباط أن يجلس على كرسیه، ثم أردف مكماً:
- عليكم أن تبلغوا عناصركم على وجه السرعة، أن موعد الاقتحام سيكون في
تمام الساعة الثانية فجراً.
رد الضباط بصوت واحد:

- أمرك سيدي.

جلس عبد الحميد على كرسيه، والتقط نفساً عميقاً، ثم قال بصوت غليظ مشبع بالثقة:

- الإيعاز الأول في خطة الاقتحام سيكون لسرية الرماة، فبعد أن يفرغ الرماة من تنفيذ الإيعاز، سيكون الإيعاز الثاني لمجموعاتكم المقاتلة لتبدأ في شن هجومها الساحق.

وهنا سأل سمير باهتمام:

- وما هو دور رجالي في هذه الخطة؟

أجاب عبد الحميد بتؤدة:

- اطمئن؛ رجالك سيكونون في طليعة المهاجمين.

التقط سمير نفساً عميقاً، ثم زفر قائلاً:

- عظيم.

همّ العميد عبد الحميد واقفاً؛ وقبل أن يغادر قاعة الاجتماع، حدّق في عيون الضباط، ثم أصابهم بنظرة حازمة، وقال بغطرسة:

- خذوا حذرکم؛ واضربوهم في رؤوسهم العفنة .. لا أريد أي تقاعس أو تهاون أثناء تنفيذكم للخطة؛ أريد أن أسير صباحاً في ساحة الساعة دون أن أرى أحداً فيها.

نهض الضباط، وهتفوا بصوت واحد:

- أمرك سيدي.

غادر الضباط قاعة الاجتماع، واتجهوا بعد ذلك إلى مكاتبتهم الكائنة في مقر النادي، وبدؤوا في إصدار الأوامر لعناصرهم التي التأم شملها في ساحة النادي خلال أقل من نصف ساعة.

استدعى العميد عبد الحميد النقيب مازن قائد سرية الرماة إلى مكتبه بشكل

فوري، كان مازن ضابطاً عسكرياً من مرتبات الفرقة الرابعة التي تولى قيادتها العميد ماهر شقيق رئيس النظام.

كانت الفرقة الرابعة واحدةً من أشرس الفرق العسكرية، وأشدّها وحشيةً في ارتكاب الجرائم ضد المواطنين السوريين منذ ثمانينات القرن الماضي، عندما تولى قيادتها آنذاك رفعت الأسد شقيق رئيس النظام الراحل حافظ الأسد.

دلف النقيب مازن إلى مكتب العميد عبد الحميد، وجلس على الأريكة المحاذية لطاولة المكتب، دون أن يؤدي التحية العسكرية للضابط الذي تقدمه رتبة، واكتفى بإلقاء التحية المسائية:

- عمت مساءً.

تنحني عبد الحميد ورد قائلاً:

- أهلاً بك.

حمّل عبد الحميد في سحنة النقيب مازن فوجده غارقاً في التحديق في لوحة زيتية لفتاة ريفية جميلة علقت صورتها الأنيقة على جدران الحجرة.

وهنا سأل عبد الحميد بصوت خشن:

- كيف تجري استعداداتكم لهذه الليلة؟

التفت مازن نحو عبد الحميد بحركة سريعة، استجمع خلالها شتات أفكاره، وأجاب بحزم:

- وحوش السرية رهن إشارتك.

استل عبد الحميد لفافة تبغ من علبة السجائر؛ غرز اللفافة بين شفثيه السميكتين، ثم أوقد رأسها بعود الثقاب، وجذب نفساً عميقاً، ثم سأله بتؤدة:

- هل أكمل الرماة انتشارهم فوق الأسطح؟

هزّ مازن رأسه ورد قائلاً:

- أجل.

نفث عبد الحميد الدخان، وأخذ يُحدّق في سحبه البيضاء المنبعثة من جوفه، ثم

أردف قائلاً بعنجهية:

- لا أريد ارتكاب أي أخطاء أو حماقات أثناء تنفيذ الخطة، فكما تعلم أنا المسئول عن عملية الاقتحام برمتها.

رد مازن ببرود:

- حسناً.

استل عبد الحميد قدح النبيذ الأحمر المنتصب فوق الطاولة، ورشف رشفة خفيفة، ثم قال بانتشاء وغبطة:

- يجب أن نقضي على كلاب الثورة التي ملأت الساحة ضجيجاً بعوائها. هتف مازن بحزم:

- سنروي عطش الأرض بدمائهم المسفوحة.

فرك عبد الحميد عينيه المحمرتين بشدة طارداً منهما الكرى، ثم قال بصرامة:

- ستبدؤون هجومكم المباغت بقتل بعض المعتصمين في رؤوسهم وصدورهم بغية دبّ الرعب في قلوب الباقين، وسيتهي دوركم عندما تبدأ قوات المشاة في اقتحام الساحة، حينها يجب أن تصدر أوامرك للرماة أن يكفوا عن إطلاق النار، لإفساح النطاق الناري أمام القوات المقتحمة. همّ النقيب مازن ناهضاً، وهتف بصوت جهور:

- حسناً.

سار مازن في ردهة النادي، ثم صعد درجات السلم الاسمتي، واتجه بخطوات متعجلة إلى الطابق الثاني وسط أنوار المصابيح الخافتة؛ تأفف عميقاً، ثم أولج المفتاح في المغلاق، وناجى روحه بامتعاض:

- أوف هؤلاء المعتصمين السفلة لقد أفسدوا علي متعتي.

فغر الباب على مصراعيه، وتقدم خطوة واحدة نحو جوف الحجرة المظلمة، ثم استدار قبالة الباب المفتوح فأوصده بإحكام، وسار بعد ذلك بضع خطوات

متعجلة نحو طاولة المكتب، ثم جلس وراءها على كرسيه الوثير، وأطلق نفساً عميقاً، وناجى روحه قائلاً بحنق:

- تَبَّاهُمْ، لقد أفقدوني مشاهدة الفيلم.

حدّق مازن في شاشة الحاسوب التي انتصبت قاعدتها فوق سطح الطاولة. استعرض الضابط الشاب فيلماً إباحياً، وشرع في مشاهدته؛ أثارت مشاهد الفيلم هياجه، وأهبت حماسه، وأججت شهوته للاستمتاع. ازدرد مازن ريقه ثم نس بكلمات مبعثرة:

- يا إلهي! كم هو عظيم هذا الفيلم! يا لروعة هذه الفتاة الأميركية، فلو بحثت عنها في أرجاء سوريا كلها، لن أعثر على واحدة مثلها.

أدمن النقيب مازن على ممارسة العادة السرية، عبر مشاهدة الأفلام الإباحية، واستعراض المجالات الجنسية، منذ أن كان مراهقاً في سن الخامسة عشر عاماً.

أردف مازن قائلاً بصوت مبحوح:

- فيلم رائع يستحق المشاهدة ولكن ليس الآن.

هزّ مازن رأسه بنشوة وسعادة، وشرع في البحث عن فيلمه المفضل الذي واطب على مشاهدته بين الفينة والأخرى.

وما إن استعرض الضابط الفيلم المخزن في ذاكرة الحاسوب، حتى علق قائلاً بحماس شديد بعد أن استثار الفيلم شهوته:

- والآن جاء دور فتاتي الروسية الجميلة التي تستحق أن أهدر كامل طاقتي الكامنة في سبيلها.

واظب مازن على مشاهدة الأفلام الإباحية بشكل مستمر، ودون انقطاع، فلم يكن يمضي يوم واحد، دون أن يشاهد فيه عشرات الأفلام التي حظيت باهتمامه وإعجابه، واحتفظ بها في ذاكرة الحاسوب ليتسنى له مشاهدتها كلما راودته نفسه.

توجّ مازن مشاهدته للأفلام المشوقة بممارسة الاستمتاع، وإهدار فحولته الجنسية على المشاهد التمثيلية؛ التي وجد فيها ضالته أكثر مما وجدها بين أرداف

النساء.

حددت نوعية الأفلام الإباحية التي خضع الضابط لتأثيرها المزدوج، مزاجه وطريقة تعامله مع الضباط والجنود، فإذا استمتع بمشاهدتها، وحقق مراده منها؛ تنفس الصعداء، وأطلق العنان لروحه المرحه، أما إذا لم يحصل على نشوته المنشودة، انقلب مزاجه رأسًا على عقب، واكفهر وجهه، وانقبضت قسائمه، وانكلمشت أساريه، وقَلَّ كلامه.

انفصل النقيب مازن عن زوجته، بعد أن أخفق في أداء واجباته الجنسية، بسبب هوسه الدائم في ممارسة العادة السرية على خلاف رغبات الزوجة؛ التي ضاقت ذرعًا، وامتلأت غيظًا من إهمال زوجها لواجباته تجاهها، وانغماسه في مشاهدة الأفلام الإباحية دون أن يقيم وزنًا واعتبارًا لمشاعرها الأنثوية الرقيقة.

بدأ الرماة في اعتلاء أسطح المباني العالية التي أطلت واجهاتها الأمامية على ساحة الساعة، واتخذوا مواقعهم الثابتة والمتحركة، ثم تركزوا في بعض النقاط المواجهة لأماكن تواجد المعتصمين الذين بدت أبدانهم في مرمى نيرانهم. بينما احتشدت عناصر الأمن، وميليشيات الشبيحة في ساحة النادي، وبدأت في تهيئة مخازن أسلحتها الآلية استعدادًا لتنفيذ الأوامر بقتل المعتصمين.

في هذه الأثناء، جلبت هتافات المعتصمين في آذان العناصر، وقضت مضاجعها، وزادت من حنقها وسخطها للذين طفحت بهما أفواهها بأقذر الكلمات، وأحط الألفاظ:

- تَبَّا لكم يا أولاد القحبة.

هتف شبيح آخر قائلاً بهيج:

- تالله لنغرقن أجسادهم بالدماء.

وهنا لهجت عناصر الأمن والمخابرات ثم قالت بغلظة وصرامة:

«ألا لعنة الله عليهم وعلى ثورتهم المشؤومة»

«إنهم يعوون مثل الكلاب الضالة»

«يقولون إنهم يريدون إسقاط السيد الرئيس»

«الآن سنرى مَنْ سيسقط»

وهنا انفجر أحد عناصر الشبيحة غاضباً من ثرثرة عناصر الأمن، وقال بصوت جهور:

- إن هذا القطيع الضخم من البقر لا تكفيه بناقنا.

سأل شبيح آخر باستياء:

- ما الذي يكفيه إذن؟

يمم الشبيح وجهه شطر الساحة وأشار بيده نحو جموع المعتصمين، ثم أجاب بغطرسة:

- إن هؤلاء الجرذان يحتاجون إلى رشاش آلي.

قهقه أحد عناصر الأمن، وأردف هازئاً:

- حقاً إنهم يستحقون رشاشاً ثقیلاً يحصد أرواحهم النجسة.

افترش زيدان وسعيد الأرض، والتحفا السماء، وسبحت عيناهما في كبدها الداجي، وراحتا تتأملان ولادة فجر يوم جديد، ملؤه الحرية والكرامة.

استلقى آلاف المعتصمين على ظهورهم لنيل قسط من الراحة، وسرت قشعريرة باردة في أجسادهم المجهدة، إثر انخفاض درجات الحرارة في مساء ذلك اليوم الربيعي الذي كان نهاره الدافئ باعثاً على النشاط والحيوية.

أطلق زيدان تنهيدة عميقة، ثم أخذ يتنأب إلى أن غفت عيناه تحت وطأة التعب والإرهاق الشديدين اللذين بلغا منه مبلغهما.

في هذه الأثناء، اقتربت عقارب الساعة من ملامسة الواحدة فجراً، ومضت دقائقها سريعة على المعتصمين لاستقبال يومهم التالي، فيما مضت بطيئة على ميليشيات الشبيحة التي نفذ صبرها وطال انتظارها.



حدّق النقيب مازن في ساعته الذهبية المربعة التي سورت معصمه الثخين، وشرع يحسب باستياء شديد ارتسمت معالمه على حاجبيه المقطبين ووجه المنقبض؛ الدقائق والثواني المتبقية من زمن بدء عملية الاقتحام.

في هذه الأثناء، ارجع العميد عبد الحميد كرسيه الوثير للخلف، ثم أطلق نفساً عميقاً، وانتصب واقفاً أمام الطاولة، والتقط من فوق سطحها الزجاجي الشفاف نظارته الطبية؛ استل منديلاً أحمرًا من جيب قميصه، ونفث من جوفه نفساً حاراً على عدستها الرقيقتين حتى بدنا مغبشتين بضباب أنفاسه اللافحة، ثم مسحها برفق وعناية بواسطة المنديل، وخطا بعد ذلك بضع خطوات إلى أن غادر الحجرة. هبط الضابط درجات السلم بخطوات متعجلة، واتجه إلى الطابق الأرضي، ثم سار نحو ساحة النادي ممتلئاً بالنشاط والحماس.

كانت عناصر الأمن في حالة استرخاء تام، وما إن اقتربت خطوات عبد الحميد منها، حتى استقامت ووقفت باستعداد تام.

تجول عبد الحميد بين صفوف العناصر؛ التي اصطفت بانتظام دقيق في ساحة النادي، تحت بريق الأنوار المبهجة التي أطلقتها المصابيح المعلقة في أعلى رؤوس الأعمدة الكهربائية.

أخذ عبد الحميد يتفقد عناصر الأمن بعينه اللتين كانتا تبرقان حقداً وبغضاً على المعتصمين الذين قضوا مضجعه، وحطموا كبريائه.

تفرّس عبد الحميد وجوه العناصر لبرهة قصيرة من الزمن، واستمر في تجواله الهادئ دون أن ينبس بحرف واحد.

فجأة ومن دون سابق إنذار، هتف العميد عبد الحميد بأعلى صوته قائلاً بحزم: - أيها الرجال! اسمعوني جيداً.

حدّقت عناصر الأمن في سحنة عبد الحميد، وهزت رؤوسها بتؤدة، وأصاحت أذانها لسماع كلماته.

في هذه الأثناء، ولج النقيب مازن إلى ساحة النادي خائر القوى بعد أن أهدر طاقته على محظياته، وأمضى معهن أجمل لحظات الإثارة والتشويق.

أردف عبد الحميد مكملاً حديثه مع رجال الأمن:

- أريدكم أن تسحقوا الخونة، وأن تسيّلوا دمائهم في الأزقة كلها، فَمَنْ كان منكم ضعيفاً واهن القلب، فليرجع إلى بيت أمه؛ لا أريدكم أن تكونوا جبناءً، أريدكم أن تكونوا شجعاناً كالوحوش الكاسرة.

ردت العناصر بصوت واحد:

- أمرك سيدي.

قطّب عبد الحميد حاجبيه، وصرّ قبضته بقوة، ثم هتف بهياج:

- ينبغي أن أسير غداً صباحاً فوق أشلائهم.

وهنا التفت عبد الحميد نحو النقيب مازن، وأوعز له باللاح:

- حضرة النقيب! أبلغ الرماة أن يبدووا في إطلاق النار حالاً؛ مرة أخرى لن أكرر ما قلته سابقاً، لا أريد أي أخطاء أو تهاون أثناء تنفيذ الخطة.

هزّ مازن رأسه بانزعاج مضمّر، ثم أردف قائلاً:

- حسناً.

استل النقيب مازن جهاز اللاسلكي من جيب بزته العسكرية، وانصرف مغادراً ساحة النادي بخطوات مضطربة، فيما واصل العميد عبد الحميد حديثه مع رجال الأمن قائلاً بصرامة:

- بعد عشر دقائق، ستشنون هجومكم الساحق؛ سأعطي الفرصة أولاً للرماة، وعند انتهائهم من القنص، ستبدؤون في اقتحام الساحة فوراً.

في هذه الأثناء بدأ الرماة في تسديد فوهات بنادقهم نحو صدور ورؤوس المعتصمين العزل.

أصدر النقيب مازن إيعازاً عسكرياً للرماة عبر جهاز اللاسلكي، وهتف بأعلى

صوته:

- نحو الهدف سدد.

وضع الرماة أصابعهم على زناد البنادق، وحبسوا أنفاسهم، وجمدت أطرافهم عن الحركة، وأصغت آذانهم بإنصات شديد، وانفرجت أعينهم باتساع كبير. التقط مازن نفساً عميقاً ثم صرخ بصوت خشن:

- نار.

ضغط الرماة على زناد بنادقهم، دون أن يرف لهم جفن وتطرف لهم عين. انهمرت طلقات الرصاص من فوهات البنادق كأنهار البرد من جوف السحاب، واستقرت في أبدان عشرات المعتصمين الذين كانوا يحوطون رفاقهم. خرّ المعتصمون الذين انتصبت قاماتهم السامقة في ساحة الساعة كشموخ الجبال، وتدفقت دمائهم القانية التي استنشقت لتوها عبر الحرية، كتدفق المياه العذبة من جوف الصخر.

روت الدماء النازفة ثرى الساحة، فيما دوى أزيز الرصاص في الأجواء، وقعقع صدها في أرجاء محص كلها.

في هذه الأثناء، انتفض زيدان وسعيد مذعورين من هول الهجوم المباغت، فيما لاذ آلاف المعتصمين بالفرار، وأخذوا يختبئون في الأزقة الضيقة، وهم في حالة ذعر ورعب.

هتف المعتصمون الهاربون من جحيم النيران الهائلة:

«لقد بدأ الهجوم؛ اختبئوا يا رجال»

«لعنك الله يا بشار، ولعن ضباeck كلها»

«الله ينتقم منك يا بشار»

اشتد وطيس الهجوم الناري، ودوى أزيز الرصاص المنهمر من فوهات البنادق كأنهار المطر، وأضحى أشد ضراوة مما كان عليه قبل بضع دقائق، عندما بدأت ميليشيات الشبيحة في شن هجومها الساحق.

نهض زيدان وسعيد وهما في حالة ذهول وهذيان من هول الصدمة؛ وأخذ زيدان يتجول تائهاً بين جثث القتلى، ويتفقد المصابين بلا وعي.
استدرك سعيد بنباهة خطورة الموقف مع اقتراب خطوات الشبيحة من ساحة الاعتصام.

أمسك سعيد ذراع زيدان، وقال مدعوراً:
- لقد بدأ المجرمون هجومهم؛ هيا بنا نهرب.
وهنا استرد زيدان وعيه، وقال بعزم وإصرار:
- اذهب أنت ومن معك، أما أنا فسأبقى هنا لمساعدة الجرحى.
صات سعيد بصوت جهور:
- هلم معي.

التفت سعيد مدعوراً نحو الطرف الأيمن من الساحة، فرمق بطرف عينه ميليشيات الشبيحة، وقد بدأت عناصرها المدججة بالسلاح تحت خطاها مسرعة نحو الساحة.

صرخ سعيد بأعلى صوته، ثم لاذ مدبراً:
- زيدان! .. اتبعني يا زيدان.
التفت زيدان بتؤدة، وشرع يفتش عن سعيد وسط الجموع الهاربة، فلم يعثر على أي أثر له.

في هذه الأثناء، تحولت ساحة الساعة خلال لحظات قصيرة من بدء الهجوم الساحق إلى بركة مخضبة؛ امتلأت بدماء المعتصمين الذين سقطوا بين قتيل وجريح.
أثر زيدان البقاء في الساحة الدامية، وحملق في الأرجاء كلها بحثاً عن مسعفين، وحالما سرت موجات اليأس في وجدانه، وانتابه شعور جارف بالإحباط، صرخ بأعلى صوته:

- يا رجال! تعالوا إلى هنا؛ ثمة كثير من الجرحى.

بدا زيدان وكأنه يصرخ في وادي سحيق لا قاع له دون أن ينصت إليه أحد، فيما كان المعتصمون يهربون من عناصر الشيعة التي طاردتهم ظلالها السوداء كأشباح الموت الرافلة في مشيتها قبل أن تخطف أرواحهم. أفلتت ميليشيات الشيعة العنان لبنادقها، وبدأت عناصرها تقترب شيئاً فشيئاً من برج الساعة.

أجلى زيدان بعض الجرحى الذين استطاع الوصول إليهم من أرض الساحة، وشدّ أبدانهم المخضبة بمشقة وعسر إلى الأبنية السكنية التي أحاطت بها، ومن ثم أودعهم في طوابقها الأرضية.

أثناء عودته إلى قلب الساحة قادماً من أحد الأبنية السكنية، شقت إحدى الرصاصة الغادرة طريقها إلى صدره.

خرقت الرصاصة قلبه المفعم بالحب والأمل، والطامح في غد مشرق تزهر في واحاته براعم الحرية، وتغرد في سمائه طيور السلام بدلاً من خفافيش الظلام.

لفظ زيدان أنفاسه الأخيرة، واسترجعت ذاكرته أثناء احتضار روحه، واستعدادها لاستقبال الموت، هتافات المتظاهرين التي علقت في ذهنه لآخر مرة:

«على الجنة رايمين شهداء بالملايين»

خرّ زيدان أرضاً، وسالت دماؤه القانية من شرايينه التي مزقتها رصاصات الطغيان، لتروي عطش الأرض، وتنبث زهور الحرية في ترابها.

الجزء الرابع

(26)

ظهرت يوم الثلاثاء الموافق للثاني من أبريل، شنت ميليشيات الشبيحة مدعومة بقوات إسناد من جهازي الأمن العسكري والسياسي؛ حملة دهم واعتقالات، طالت أعدادًا غفيرة من سكان بلدي البيضاء وبيت جناد الواقعتين في محيط مدينة بانياس، وذلك ردًا على المظاهرات الحاشدة التي انطلقت في مدن وبلدات الساحل السوري، منذ بداية انطلاق الانتفاضة.

رفض ثوار الساحل حزمة الإصلاحات الوهمية التي قدمها لهم النظام، واقتدوا بأبناء المدن المتفضة، وكان رفضهم سببًا رئيسًا لاستمرار المظاهرات، وفي الوقت عينه، كان ذريعة استخدمها النظام لمواصلة أعمال القتل التي استهدفت المواطنين العزل.

كانت بانياس واحدة من أوائل المدن؛ التي لبت نداء الثورة منذ الأيام الأولى، وهي مدينة مغرقة في القدم، ترجع جذورها التاريخية إلى العهد الفينيقي، عندما كانت مرفأ فينيقيا، تتبع لمملكة أرواد البحرية.

حملت المدينة الساحلية أسماء متعددة عبر حقبة التاريخ، ففي العصر الإغريقي، عرفت المدينة باسم بالانبا، أما في العهد الروماني، فقد عرفت باسم بلنياس، وتعني الحمامات التي اكتشفت فيها قرب منبع نهر بانياس، ثم أصبح اسمها في العهد البيزنطي ليوكاس.

صبيحة يوم الأحد الموافق للعاشر من أبريل؛ احتشد آلاف الثوار والناشطين الذين قدموا من قرى البيضاء، والباصية، والعديمة، وبيت جناد، والمرقب، في ساحة

السوق ردًا على اجتياح النظام لمدينة بانياس .
جاء الثوار شوارع المدينة، وهزجت حناجرهم بأقوى اهتافات الحماسية، وأشد عبارات التنديد:

«الشعب يريد إسقاط النظام»

«سوريا حرة حرة بشار يطلع برا»

«الله سوريا حرة وبس»

جلجلت اهتافات في أرجاء المدينة كلها، ووصلت أصداؤها إلى مسامع مليشيات الشبيحة؛ التي كانت ترابط في القرى الموالية المحيطة ببانياس .
لم يستغ عباس -قائد مليشيات الشبيحة- اهتافات الحماسية التي استثارت هياجه وسخطه الشديدين؛ واللذين عبر عنها أمام عناصر الشبيحة التي أحاطت به، وطوقته ضمن دائرة صغيرة، ثم هتف بصوت غليظ:

- تبا لكم وللحرية التي تريدونها، قسمًا بالله لندهسن رؤوسكم العفنة في منتصف ساحة السوق، ولنجعلنكم عبرة للآخرين .

وثب أكثم من مجلسه متظاهراً الانزعاج، ثم أردف إلى قائده عباس متسائلاً:

- أخي أبا علي، ما العمل مع هؤلاء الأوباش؟ .. أولاد القحبة!

رد عباس بصوت متأجج بالغضب:

- سنكتفي اليوم بقنصهم وغداً سنسحلهم في شوارع المدينة .

عقب أكثم بحماس:

- ونحن على أتم الاستعداد لفعل ذلك .

عمل أكثم قبل انضمامه لمليشيات الشبيحة جزاءً للمواشي والدواجن في قرية الحصنان الكائنة في منطقة بيت ياشوط التابعة لريف محافظة اللاذقية .
كان أكثم شديد الهوس بذبح الحيوانات، وجزّ أعناقها، منذ أن كان طفلاً صغيراً عندما كان طالباً في المرحلة الابتدائية .

واظب أكثم على سفح أرواح الحيوانات التي وقعت في قبضته كالقطط والكلاب

أو تلك التي كان يصطادها والده كالطيور والأرانب، حيث تحولت مع مرور الزمن إلى هوايته المفضلة.

دأب أكثم على التمسح بدماء الحيوانات، فكان يبلى أنامله الغليظة بدمائها القانية بعد أن يفرغ من جزأعناقها، ثم يلطخ بها جبينه العريض، ويهتف بأعلى صوته قائلاً: «واذبح عدوك كالنعجة بالسكين»

لم يكن أكثم يطبق تناول لحوم الحيوانات التي كانت تطهئها والدته، إذا لم يذبحها بنفسه؛ وقد تسبب سلوكه الأهوج وتهوره الأعمى، أثناء نحره لإحدى الدجاجات في جرح سبابتة اليمنى بواسطة سكينه الحادة التي لازم على استخدامها في يده اليسرى.

تقدم الناشطان إبراهيم وأحمد صفوف المتظاهرين، واقتادوهم إلى ساحة السوق بكل عزيمة وإصرار.

كان إبراهيم وأحمد من طليعة الثوار الأوائل الذين نظموا ونسقوا المظاهرات في مدينة بانياس بالتعاون مع أبناء القرى والبلدات المجاورة، ولم يدخرا جهداً إلا وبذلاه في سبيل تحقيق أهداف الثورة.

انضم إلى المظاهرة أثناء مرورها أمام مسجد الرحمن، مئات المتظاهرين الجدد؛ الذين أراححت شعارات الثورة، وهتافتها الحماسية حُجب الخوف من أفئدتهم. واصل المتظاهرون مظاهراتهم العارمة، وأسمعت هتافتهم المنادية بالحرية والكرامة مَنْ أصاب أذنيه الصمم.

استمر تقدم الثوار إلى أن وطأت أقدامهم ساحة مسجد أبو بكر. اعتصم المتظاهرون أمام ساحة المسجد، فيما بدأ الناشطون في حث المواطنين الصامتين، واستنهاض همهم، بغية دفعهم إلى المشاركة في المظاهرة.

صعد الناشط إبراهيم إلى شرفة أحد البيوت المجاورة لساحة المسجد، التي بدت إطلالتها المواجهة للساحة كالمنصة، وأخذ يخاطب الجموع المحتشدة بأعلى صوته:

- يا أهل بانياس؛ يا أهل الساحل، إن هذا اليوم هو يومكم التاريخي؛ لنخلص

من الظلم والقهر، ولنعرف مصير أخوتنا وأولادنا وأقاربنا الذين اختفوا في سجون النظام منذ عشرين عامًا؛ دعونا نكون يدًا واحدة ضد الظلم؛ دعونا نكون قلبًا واحدًا ضد قطعان الشيعة التي أذلتنا على مدار السنوات الماضية، دعونا نقول: بالروح بالدم نفديك يا حرية.

هتف المتظاهرون بصوت واحد:

«بالروح بالدم نفديك يا حرية»

«بالروح بالدم نفديك يا سوريا»

تسللت ميليشيات الشيعة التي قادها عباس، ومساعدته أكثم من قرية السودا الموالية للنظام إلى موقع المظاهرة الحاشدة، واتخذت من جدران البيوت المحيطة بساحة السوق نقاط تركز أساسية لرماتها.

لم يكن في ذهن عباس أي خطة مسبقة لمواجهة المتظاهرين، سوى فتح النيران عليهم، وقتل أكبر عدد منهم، لدب الرعب والذعر في قلوب المواطنين الذين حطموا جدران السجن الكبير المسمى «سوريا الأسد»

بعد أن تناهت لمسامع عباس وأكثم هتافات الجماهير الغاضبة، وكلمات إبراهيم الهادرة التي أرعدت بقوة في آذانها، وقضت مضجعيهما، وجعلتهما يتخبطان تخبطاً عشوائياً كتخبط الثيران الهائجة.

تسمّر عباس فوق سطح أحد البيوت، حاملاً بيده منظاراً حربياً، وراح يراقب حراك المتظاهرين السلميين الذين تجمهروا أمام ساحة مسجد أبو بكر، وأثناء التقاط عدسة المنظار للناشط إبراهيم؛ امتقع وجهه، وكمد لونه.

أثارت هتافات إبراهيم، وتشجيعه المواطنين على التظاهر ضد النظام، غضب عباس، وفجرت هياجه الأعمى، وأهلبت حقنه وغيطه، فما كان منه، إلا أن رمى المنظار جانباً، والتقط بندقية القنص، وسدد مؤشرها الدقيق نحو الهدف، ثم ضغط على الزناد بسبابته الملوثة بالدماء.

وما إن اعتدل عباس في وضعية الرمي، حتى استقرت الرصاصة في صدر إبراهيم. خرَّ إبراهيم صريعاً مضرّجاً بدمائه النازفة من صميم قلبه المشجوج، وسط جموع المتظاهرين الذين احتشدوا حوله، كاحتشاد النحل حول خليته، وبدنوا يصيحون بأعلى صوتهم:

«لا إله إلا الله»

«الله على الظالم»

«حسبي الله ونعم الوكيل»

«إسعاف يا شباب»

ترجل إبراهيم عن الثورة كترجل الفارس عن صهوة جواده، ولفظ أنفاسه الأخيرة، ثم أطلق ابتسامة الوداع، وأغمض عينيه البراقطين لتفيض روحه السامية إلى علياء المجد، ولتهيم مع الأرواح الثائرة في سماوات الحرية.

جحظت عيون المتظاهرين لهول المصيبة وعظيم الفاجعة، وامتنعت وجوههم بألوان الذهول والدهشة، وارتسمت عليها علامات التعجب، ثم جاشت صدورهم غيظاً وحنقاً على مقتل إبراهيم.

اغرورقت عيون المتظاهرين بدموع الحزن والأسى على فراق إبراهيم، وقبل أن يشرعوا في نقله، تناهت لأساعهم أصوات إطلاق النيران الكثيفة التي أرعدت شدتها عميقاً في آذانهم.

هدأت روح عباس المسكونة بالشر حالما تأكد من مصرع إبراهيم، ثم أصدر إيعازاً صارماً لعناصر الشبيحة، وأمرهم بفتح النيران على المتظاهرين العزل؛ قائلاً في هياج: - أحرقوهم برصاص بنادقكم، ولا توفروا أحداً؛ اضربوا صغيرهم قبل كبيرهم. سددت ميليشيات الشبيحة فوهات بنادقها الآلية على حشود المتظاهرين الذين تجمهروا حول جثة إبراهيم المعمدة بالدم، ثم شرعت في الضغط على زناد بنادقها، دون أن تأخذها بالمتظاهرين رحمة ولا شفقة.

خرق رصاص الشبيحة المحشو بالحقد والكراهية، قلوب أربعة متظاهرين؛ سقطوا مضرجين بدمائهم القانية التي روت ثرى بانياس.

فرّق الرصاص المنهمر جموع المتظاهرين، وجعلهم يدبرون هائمين على وجوههم، نحو الأحياء والأزقة الضيقة.

اقتفت طلقات الرصاص آثار المتظاهرين، وشرعت في مطاردتهم وملاحقتهم من زقاق لآخر، حتى نالت من أجساد اثنين وعشرين شاباً أردتهم بين قتيل وجريح.

أوعز عباس لرجاله في التقهقر، بعد أن رأى بعينه الزرقاوين الغائرتين الساحة المواجهة لمسجد أبي بكر، وقد بدت خاوية على عروشها، ثم قال بحماس:

- حياكم الله أيها الأبطال، أشهد أنكم لم تقصروا البتة في تأديب هؤلاء الرعاع الذين صدعوا رؤوسنا بنباحهم؛ غداً سنسحلهم في شوارع المدينة، وسنجعلهم يهتفون: الله سوريا بشار وبس.

قهقهت عناصر الشبيحة بملء أشداقها، ورفعت أصابعها بعلامات النصر، وراح أفرادها يتمتمون ويغمغمون كالسكارى الغارقين في غيهم:

«يا بشار لا تهتم نحن رجالك نشرب دم»

«على الجنة رايحين شبيحة بالملايين»

وهنا سأل أحد الشبيحة ساخرًا:

- يا رجال؛ هل حقاً تودون الذهاب إلى الجنة؟

رد شبيح آخر، وسأل هازئًا:

- وما الذي ينقصنا؟ هل أصبحت الجنة حكرًا لأولئك الكلاب؟ أولاد القحبة!

هتف أحد الشبيحة بأعلى صوته، وبدا كما لو كان يلقي بيانًا:

- الجنة تغلق أبوابها حتى إشعار آخر.

استغرقت ميليشيات الشبيحة في نوبة صاخبة من الضحك العميق، ثم أردف

أحد أفرادها قائلاً بلهجة ساخرة:

- أسأل الله أن تكون الحرية سبباً رئيساً لجز رقابهم.

تداعى الناشطون لحمل جثامين القتلى الذين سقطوا برصاص الشبيحة، فيما همّ المواطنون بإسعاف الجرحى الذين أصيبوا بجروح متفاوتة.

اضطرب المواطنون، واحتاروا في أمر نقل جرحاهم، فجميع مستشفيات المدينة التي كانت خاضعة لسيطرة النظام، لم تختلف معاملة كوادرها الطبية مع الجرحى عن معاملة ضباط الأمن والاستخبارات مع المعتقلين.

حوّل النظام زنازين الاعتقال والمستشفيات العامة إلى مسالخ بشرية، وتفنن أزالاه من ثُلل الأطباء والممرضين والضباط والجنود في تصفية الجرحى والمعتقلين، واستخدموا طرقاً مبتكرة لصناعة الموت، بعضها سريع ومباغت، كالصعق بالكهرباء ذات التوتر العالي، وبعضها الآخر بطيء وطويل الأمد، كحقن الجلد بمواد ملوثة أو بتر الأطراف السليمة.

حدّق الناشط أحمد بعينه الساخطين إلى حشود المواطنين الذين احتاروا في أمر جرحاهم، ثم هتف قائلاً:

- يجب أن ننقل الجرحى بأقصى سرعة.

رد أحد المواطنين، وسأل مستنكراً:

- حسناً، ولكن إلى أين؟ هل تريدنا أن ننقلهم إلى المستشفى الحكومي؟

حسم أحمد الجدل الدائر بين حشود المواطنين؛ وأردف قائلاً:

- قطعاً لا يمكننا فعل ذلك؛ لن ننقل جرحانا إلى المجرمين في مستشفيات النظام؛

دعونا ننقلهم إلى مستشفى جمعية البر.

سأل مواطن آخر مستفهماً:

- هل تعتقد أن ذلك أفضل؟

أجاب أحمد برزانة:

- بكل تأكيد؛ على أي حال، لقد اتفقت مع أعضاء الكادر الطبي بشأن الجرحى

وقد رحبوا في استقبالهم؛ أرجو أن تطمئنوا، فكل شيء سيكون على ما يرام.

رد المواطنون بارتياح:

- توكلنا على الله.

حملَ المواطنون جرحاهم على أكتافهم القوية، وساروا بها بضعة أمتار قليلة، ثم أحضروا الدراجات النارية والحافلات بعد ذلك، فركب الجرحى ذوو الإصابات الخفيفة على متن الدراجات، فيما نقلت الحافلات ذوي الإصابات الخطيرة.

دلفت ميليشيات الشيعة إلى مضافة عباس الكائنة في قرية السودا المجاورة لمدينة بانياس؛ كانت المضافة عبارة عن قاعة كبيرة، فُرِشَتْ أرضها بالسجاد، وأسندت جدرانها السفلية بالوسائد والأرائك، فيما غطت الستائر جدرانها العلوية.

ترامت عناصر الشيعة في أطراف المضافة، وتمطت أجسادها الضخمة أرضاً، واتكأت على الأرائك الوثيرة، ورسمت على شفاهها المشققة ابتسامات عريضة فرحاً وابتهاجاً بالجرائم المخزية التي اقترفتها أناملها المملوطة بالدماء.

ولج عباس إلى المضافة حاملاً بيده صندوقاً بلاستيكيًا احتوى على أنواع مختلفة من المشروبات الروحية، ونادى لأحد رجاله:

- أجمد! خذ هذا الصندوق، وأفرغ محتوياته على الرجال.

رد أجمد بطاعة:

- حسنًا.

هتف أكنم لعباس وقال مجاملًا برياء:

- لماذا أجهدت نفسك وأحضرت كل هذه الأنواع من المشروبات؟

رد عباس بفرح غامر:

- ليست هناك مشكلة على الإطلاق، فرجالنا يستحقون أكثر من ذلك، بعد أن

رفعوا رؤوسنا عاليًا وشحذوا هممنا، وأظنهم سيواصلون السير على نفس المنوال.

وهنا أردفت عناصر الشيعة لقائدها بحبور وسرور:

«أطال الله بعمر زعيمنا أبا علي، وحفظ الله قائدنا بشار»

«أبو علي شيخ الحسب والنسب، وابن العز والجاه»
 «سنعلي مقامكم الرفيع في أرجاء بانياس كلها»
 «عهداً علينا، أن نسحق الكلاب سحقاً»
 «سنظل رجالك الأشاوس مثلما كنا رجالاً للأسد»
 وزع أجد الأقداح والقوارير على عناصر الشبيحة وسط أجواء من اللهو والرقص
 فوق أشلاء المتظاهرين.

أفرغت عناصر الشبيحة قوارير الخمر في أفواهها دفعة واحدة، دون أن تسكبه في
 الأقداح، ثم راحت تهتف منتشية:
 «بنخب قائدنا المفدى الدكتور بشار، وبصحة معلمنا أبو علي»
 «بنخب النصر على الكلاب»
 «بصحة سوريا الأسد»

في هذه الأثناء وسط هو ميليشات الشبيحة ومجونها، رن جرس هاتف عباس.
 حذق عباس في كود الرقم الظاهر على شاشة الهاتف، ثم أجاب بصوت جهور:
 - ألو؛ احترامي سيادة العميد! عمت مساء .. أخي العزيز أبا منذر! رجالنا
 الصناديد يرسلون لك أحر التهاني، ويودون أن يقولوا لك، إن أول الغيث قطرة،
 واليوم جعلوا السماء تمطر دماً في بانياس .. أخي أبا منذر! نحن وإياكم على درب
 واحد، وفي نفس المضمار .. صدقني لا فرق بيننا، أرجو أن تتركوا لنا بانياس، فلکم
 القلب ولنا الأطراف .. دمت بخير أخي أبا منذر.
 أنهى عباس مكالمته الهاتفية، والتفت إلى عناصر الشبيحة؛ رمقها بنظرة هادئة، ثم
 أردف قائلاً بتؤدة:

- لقد تحدث إلي سيادة العميد حافظ.

وهنا تدخل أحد العناصر، وأردف متسائلاً:

- ما الخطب؟ ماذا يريد أبا منذر؟

رمق عباس العنصر بنظرة قاسية، وقال له متأففاً:

- دعني أكمل حديثي، فلم أبدأ بعد في الكلام؛ على أي حال، لن أطيل كثيرًا؛ غدًا صباحًا ستتوغل أفواج الجيش معززة بوحدات خاصة من المخابرات العسكرية والجوية إلى بانياس والبيضا وبيت جناد، ولكوننا من أبناء المنطقة، فلن نقبل أن يسبقنا الآخرون في الدخول إلى بانياس، حتى لو كانوا من رجال الدولة؛ لهذا كله، سنشرع في دخولها قبل الجميع؛ لقد أكد لي العميد حافظ أن قوات الجيش ستوفر لنا الحماية من الأطراف، وستغلق جميع المداخل والمخارج المؤدية إلى المدينة، وما تبقى سنتولاه بأنفسنا.

أردف أكثم مبتهجًا:

- إن هذه الأنباء المفرحة تحتاج إلى برميل من الخمر.

رد عباس بثقة:

- أعدك ببرميل من النبيذ المعتق بعد إتمام دخولنا إلى بانياس، وتأديب كلابها.

عقب أكثم بفرح:

- عظيم.

حدّق عباس في عيون رجاله وهتف لهم بحزم:

- يا رجال! دعونا الآن نعدّ خطة عسكرية محكمة لدخول بانياس.

جلس عباس في منتصف المضافة؛ التفت عناصر الشبيحة حوله، وأصغت إلى

حديثه بإنصات شديد.

كان عباس في الرابعة والخمسين من عمره، عمل ضابطًا سابقًا في الجيش؛ ثم قام النظام بعزله من الخدمة العسكرية، عندما كان برتبة نقيب لتورطه في تأييد الانقلاب العسكري؛ الذي قاده رفعت الأسد ضد شقيقه حافظ، أثناء فترة مرضه وصراعه السابق مع جماعة الإخوان المسلمين.

استوعب النظام معظم الضباط الذين أيدوا الحركة الانقلابية، فبدلاً من أن يقوم بتصفيتهم، كما درجت العادة، قام بتسريحهم من الجيش، وأطلق يدهم في مناطق

الساحل السوري كافة؛ ليكونوا وكلائه الرسميين في جميع أعمال المافيا التي أتاحها لهم بشكل حصري، خارج سلطة القانون.

أصيب عباس بانتكاسة نفسية كبرى، عند خروجه من الجيش، جعلته أكثر هيجاناً وتخططاً مع أفراد أسرته الذين ابتعدوا عنه، بعد أن أصبح سلوكه الشائن عبئاً على العائلة.

كان عباس يبطن كراهية شديدة لضباط الجيش الذين اعتبرهم كلاباً للسلطة، لا وجدان لهم ولا ذمة ولا كرامة، وكان يتعامل معهم عند اقتضاء الحاجة فقط، وبحذر شديد.

أمضى عباس سنوات حياته عازباً بلا زواج، بعد أن تلقى صدمة عاطفية، من إحدى قريباته التي وعدته بالزواج بعد انتهاء الانقلاب، لكن الفشل الذريع الذي مني به الانقلاب، جعلها ترتبط بأحد الأطباء من سكان مدينة اللاذقية، طمعاً بمركزه العلمي وثروة عائلته الكبيرة.

لم ينسَ عباس ما اعتبره فصلاً من فصول الخيانة العظمى، بل ظل يتحين الفرص للثأر والانتقام لذاته إلى أن تحقق له ما أراد.

في مطلع عام ألفين وتسعة، رجع الطبيب وزوجته وأولادهما الثلاثة إلى مدينة اللاذقية، بعد أن أمضيا ردهاً طويلاً من الزمن في بلاد المهجر.

لم تكن عشيقة عباس على علم بما ينتظر ابنتها الشابة البالغة من العمر اثنان وعشرون عاماً، فما إن حطت العائلة رحالها في مدينة اللاذقية، حتى بدأ عباس في إعداد العدة للانقضاض على ضحيته، بعد أن بلغه الخبر اليقين من صديقه أكثم الذي لازمه في تنفيذ معظم أعماله الدنيئة، منذ أن تعارفا بعضهما إلى بعض أثناء سنوات خدمتهما الوظيفية في الجيش.

نصب عباس كميناً محكماً لباسمين، بعد أن أمضى بضعة أيام في مراقبتها؛ وذات يوم صيفي قائف، وقبل أن تغيب الشمس وراء الأفق، انقضض أكثم على الشابة الحسنة التي كانت تسير لوحدها في أطراف شارع الجمهورية وسط مدينة اللاذقية، وقام

بخطفها عنوة، وأجلسها في الحافلة، ثم انطلق بها إلى قرية السودا الكائنة في ريف مدينة اللاذقية.

أهدى أكثم الشابة ياسمين لقائده عباس، كقربان لوفائه وإخلاصه. لم يكن باستطاعة عباس الانتظار طويلاً أمام جمال الفتاة الذي لم يفلح في مقاومته، فشرع في افتراسها واغتصابها لمرات عديدة؛ انتقاماً لذاته المسكونة بالشر، وعقاباً لوالدتها التي تخلت عنه.

أودع عباس ضحيته في بيت قصي في أطراف البلدة، وظل يداوم على اغتصابها شهراً كاملاً إلى أن أروى عطشه الجنسي، وأشبع دوافعه الانتقامية، ثم قام بقتلها ورميها في أحد الوديان السحيقة للتخلص من عبئها الثقيل.

صبيحة اليوم التالي، حمل المواطنون نعوش القتلى الأربعة الذين سقطوا برصاص ميليشيات الشبيحة وساروا بهم إلى مسجد الرحمن، وبعد أدائهم صلاة الجنازة، انطلقوا نحو مقبرة المدينة.

احتشد الأهالي أمام بيوتهم، للإلقاء نظرة الوداع الأخيرة على أبنائهم؛ الذين ضحوا بحياتهم لأجل أن يحيا كراماً.

ردد الأهالي هتاف التحية لشهداءهم:

«بالروح بالدم نفديك يا شهيد»

واصل الناشطون طريقهم نحو المقبرة بخطوات متناقلة وسط أجواء مفعمة بالحزن والألم؛ واللذين خيموا على المدينة الساحلية الهادئة.

في هذه الأثناء، بدأت دبابات الجيش، والآليات العسكرية المدرعة في الانتشار والتمركز عند المداخل والمخارج المؤدية إلى المدينة.

أدرك المشيعون تحوم المقبرة القديمة، وشرعوا بتشجيع قتلاهم، ومواراتهم الثرى، دون أن يعلموا بنوايا النظام وخطته الرامية لاحتلال مدينة بانياس والقرى المحيطة بها؛ بغية إركاها وإخضاعها له بالقوة المسلحة.

حالما فرغ الناشطون من دفن قتلاهم، أقفلوا عائدين إلى مركز المدينة. سار الثوار بحماس زائد استمدته أرواحهم من تضحيات رفاقهم؛ الذين قضوا نحبهم في سبيل الحرية التي استنشقوا عبرها لبضع ساعات قليلة قبل أن يرحلوا عن دنياهم.

تباطأت خطوات أحمد، وثقلت قدميه عن اللحاق بجموع القافلة، بعد أن أعياه الأسى، وأصمها بسهام الألم حزنًا على رحيل رفيق دربه إبراهيم. شكّا أحمد آلامه المضنية للطبيعة، ولاذ إليها بعينيه الذابلتين، وشرّد عميقًا في تأمل صفحة السماء الصافية، فانكسر بصره المتقد، عندما لامس حواف قرص الشمس الملهب.

أحنى رأسه ببطء، وقبل أن يستقر بصره على الأرض، رمق بطرف عينه اليسرى الحشود العسكرية الجرارة التي تغلغت آلياتها المدرعة بين الأشجار الكثيفة على الطرف الآخر من الطريق العام المؤدي إلى مدينة بانياس. حثّ أحمد خطواته، وشق صفوف القافلة، واندفع جسده الرشيق بين أجساد المشيعين كالسهم النافذ.

اعترض أحمد مسار القافلة، وتسمّر في منتصفها، ثم صدح غاضبًا:
- ورب الكعبة لن ندعهم يطئون بانياس إلا على أشلائنا الممزقة.
رسمت كلماته الحيرة والدهشة على وجوه المشيعين، فاندفع أحدهم مستفهمًا:
- ما الخطب أخي أحمد؟
استدار أحمد نحو الجهة اليمنى، ثم رمى الوادي السحيق بنظرة ثاقبة، وأشار بسبابته قائلاً:

- شاهدوا بأعينكم، وسترون العجب العجاب.
حدّق المشيعون بعيون جاحظة نحو الوادي، فرمقوا ثلاث دبابات ارتفعت أعلام النظام فوق أبراجها المصفحة.
سيطر الذهول على وجوه المشيعين، وبدؤوا يتساءلون في قرارة أنفسهم، دون أن

يعثروا على إجابات محددة:

«ماذا يريدون منا؟»

«إلى أين يريدون جرّ البلاد؟»

«حتى الآن لم يفهمونا جيداً»

«البارحة قتلوا خيرة شبابنا؛ ماذا يريدون أكثر من ذلك؟»

«ما العمل برأيكم؟»

«يجب أن نذهب إليهم، لنفهم منهم ما الأمر؟ ولماذا هم قادمون إلينا؟ وماذا

يريدون منا؟»

تدخل أحمد، وأبدى اعتراضه الشديد على آخر سؤال سمعته أذنيه، ثم أردف قائلاً:

- كلا على الإطلاق، لن نبرح مواقعنا، ولن نذهب إليهم متذللين؛ أنسيتم غدرهم وخيانتهم؟ في الأمس غدروا بأخوتنا، واليوم قد يغدرون بنا، فالغدر والخيانة من شيمتهم؛ أرى أن نبقى في بيوتنا أسلم لنا، فنحن لم نرتكب أي معصية أو خطيئة، ولسنا خائفين من أحد.

أيد الثوار كلام أحمد، وعقب أحدهم قائلاً:

- أجل؛ يجب أن نبقى هنا لنحمي أهلنا؛ يجب أن لا ننكسر أمام دباباتهم، فعندما خرجنا في المظاهرات، لم نخش من الجيش والمخابرات، ولا يوجد لدينا خط للعودة، وإلا فإن أخوتنا الذين استشهدوا، لن يسامحونا، وستظل دمائهم الزكية تلعننا أبد الدهر.

رد أحمد بحماس:

- لا فض فوك.

أكمل الناشطون سيرهم نحو مركز المدينة، مستسلمين لقدرهم الذي اختار لهم درب الحرية المعمد بالدم، وخطت أقدامهم ذلك الدرب بقلوب يحدوها الأمل في الخلاص من زعاف القهر؛ الذي تجرعوا مرارته بكؤوس الذل والهوان.

أمضت بانياس ليلتها الأولى، وسط حصار الدبابات، والآليات المصفحة التي طوقتها من الجهات كلها، وغفت عيون أطفالها الأبرياء، كما تغفو عيون العصافير في غابة الوحوش والكواسر.

تلألأت النجوم تلألؤاً زاهياً في سماء المدينة وفاءً لأبنائها الذين اصطبغت أجسادهم بالدم، وارتقت أرواحهم إلى علياء المجد، فيما كانت عيون ثوارها التي جفاها النوم؛ تترقب انقشاع ظلمة ليل القهر، وانبلاج فجر الحرية.

صبيحة يوم الثلاثاء الموافق للثاني عشر من أبريل، اندفعت مجاميع الشبيحة مدعومة برجال الأمن والمخابرات إلى بلدة البيضا الواقعة جنوب مدينة بانياس. مكثت مليشيات الشبيحة عند إحدى التلال المطلة على بلدتي البيضا وبيت جناد، وقبل أن تبدأ اقتحامها للبلدتين المجاورتين لبانياس، تفقد عباس مليشياته المدججة بالسلاح.

امتطى بعض أفراد الشبيحة الدراجات النارية، فيما استقل البعض الآخر حافلات النقل الصغيرة «البيك آب» وقد أثر عباس الحديث مع الرائد عصام - الذي وصل لتوه إلى أطراف البلدة - قبل أن يصدر أمراً بالهجوم على البلدتين. عمل عصام ضابطاً ميدانياً في جهاز المخابرات العسكرية، وكان قد حصل على تكليف رسمي من النظام باقتحام البلدة، واعتقال جميع سكانها من فتتي الشبان والرجال.

حدّق عباس في عيني الرائد عصام، ورماه بنظرة حادة نمت عن احتقار متأصل في ذاته، ثم شرع في الحديث معه بلهجة متعالية، لم تخلُ نبرتها من الاستهتار:

- أهلاً بك، فأنت اليوم في ضيافتنا.

رد الرائد عصام مجاملاً:

- إنه لمن دواعي سروري لقائكم والعمل معكم.

- استل عباس لفافة تبغ من جيب قميصه؛ غرزها بين شفتيه، وقال بغطرسة:
- تكلمت البارحة مع سيادة العميد حافظ، وقد اطلعني على تفاصيل الهجوم.
- رد عصام بارتباك:
- تحياتي الحارة لسيادة العميد حافظ.
- أوقد عباس اللفافة بعود الثقاب، ثم سأل ببرود:
- هل اطلعت على تفاصيل الخطة؟
- سأل الرائد عصام ببلاهة:
- أي خطة تقصد؟
- جذب عباس نفساً عميقاً من لفافته المتقدة، وقال بعنجهية:
- صح النوم! إذا كنت لا تعرف خطة الهجوم، فماذا تفعل هنا؟
- رد عصام باضطراب:
- أرجو المذكرة، فأنا لا أعرف شيئاً حول خطة الهجوم التي أشرت إليها؛ على أي حال، قيادتي في طرطوس ستبلغني بكل التطورات، وسأتحرك من خلالها.
- مطّ عباس شفتيه الداكنتين بفعل التدخين، وزمّ فمه، ثم قال بامتعاض لا يخلو من السخرية:
- أهلاً وسهلاً بقرارات القيادة؛ عزيزي عصام! نحن أولاد هذا الجبل، وهؤلاء الشباب الذين يقفون أمامك؛ أمضوا جُل حياتهم في الجبل، وهم على استعداد تام لحرق الأخضر واليابس؛ في سبيل أن يبقى الجبل آمناً وهادئاً من نباح الكلاب.
- أحنى الرائد عصام رأسه باحترام وتوقير، وقال بهدوء:
- أحييهم من أعماق قلبي، وأشد بكل إخلاص على أيديهم وسواعدهم القوية.
- سأل عباس متجهماً:
- برأيك من الأقدر على حماية الجبل؟
- أشار عباس بيده اليمنى نحو رجاله المتسمرين، ثم أشار باليد اليسرى نحو عناصر المخابرات، وأردف مكماً:

- أهؤلاء الرجال الصناديد من أبناء الجبل؟ أم هؤلاء الجنود الذين لا نعرف جذورهم، ولا حتى منبت آبائهم؟
رد الرائد عصام بانزعاج مبطن:
- أخي أبا علي! نحن هنا لتأدية واجبنا الوطني وفاء لسيادة الرئيس، وإننا نحترم كل من يدافع عنه.

جذب عباس نفساً عميقاً من لفافته، ثم زفر قائلاً:

- دعنا نتفق من الآن؟

سأل عصام باندهاش:

- على ماذا نتفق؟

قال عباس بغطرسة:

- على العمل طبعاً.

سأل عصام بفضول:

- كيف؟

قال عباس بثقة:

- نحن من سيبدأ الهجوم، أما أنتم فستوفرون لنا الغطاء الناري الكثيف من جميع الجهات.

فغر عصام عينيه، وسأل مشدوهاً:

- وماذا أيضاً؟

تنحنح عباس، وأردف بعنجهية:

- أريد خمسة عناصر من رماةكم المهرة.

ابتل عصام ريقه، وسأل مستفهماً:

- لماذا؟

أجاب عباس بصوت جهور:

- للانتشار فوق التلال المحيطة بالبلدة.

استرسل عباس في الكلام دون أن يعير بالاً لكل التساؤلات التي طرحها شريكه؛ قائلاً بيقين:

- سنتحصر مهمتكم في اعتقال كلاب الثورة؛ أما نحن فسنستولي مدهامة البيوت والمحلات.

عقب الرائد عصام بمرارة واستسلام:

- حسناً؛ كما ترى.

أردف عباس بإصرار:

- لا أريد أن أرى أي عنصر من عناصرك داخل البيوت.

أوماً عصام برأسه موافقاً، ثم قال مدعناً:

- حسناً، سأبلغ العناصر بذلك، فالبيوت والمحلات هي من صلب اختصاصكم. رد عباس باستهزاء:

- نحن متخصصون في كل شيء.

استدار عباس بقامته السامقة نحو جموع الشبيحة، وأطلق ابتسامة خفيفة، ارتسمت على وجهه الكالح، بعد أن نجح في لي ذراع الرائد عصام، ثم بدأ في الحديث مع أزالامه كالقائد المنتصر:

- يا رجال؛ إن هذا اليوم هو يومكم التاريخي المرتقب؛ سندخل الآن إلى قرية البيض لندس رؤوس كلابها التي تطاولت على سيادة الرئيس، وكل كلب ترونيه في الشارع، اتركوه لعناصر المخابرات كي تتولى تربيته، أما نحن فمهمتنا اقتحام البيوت، وكل كلب يعوي في وجوهكم، اقتصوه برصاصة في منتصف رأسه.

هتفت عناصر الشبيحة بابتهاج بعد أن أطربتها كلمات قائدها؛ والتي استشعرت النصر من خلالها:

«يحيا المعلم عباس»

«أبا علي معلمنا، وبشار قائدنا»

«أرواحنا فداء المعلم والقائد»

استقل عباس حافلته الفارغة، وجلس بجوار مساعده أكثم الذي تولى قيادتها، وما إن انطلقت الحافلة، حتى انطلق في إثرها موكب الحافلات الذي بدا في سيره المتمهل، كسير المواكب الجنائزية.

تمركز رماة المخابرات العسكرية فوق التلال المطلة على بلدة البيضاء. رقدت بيوت البلدة، وأزقتها الضيقة في سكون تام، ونزع هدوءها العميق الخوف من قلب العندليب، الذي حطّ رحاله على أرضها المعمدة بالدم، وراح يخطو وسط جموع الناس، شاديًا بين الفينة والأخرى أعذب الألحان. لحق موكب الرائد عصام المكون من عشر مركبات مصفحة، بموكب عباس الذي واصل سيره نحو البلدة، مارًا بتلالها الخضراء التي ترامت شجيرات الباسقة على أطراف الطريق الإسفلتي.

لعب أطفال البلدة بفرح ومرح في ساحتها، وتسلفت أشعة شمس الربيع الدافئة إلى أجسادهم الغضة التي تراقصت ابتهاجًا، وتطايرت فرحًا كالفراشات في أمان كامل لم يعكر صفوه أحد.

فجأة ومن دون سابق إنذار، لعلع صوت الرصاص في سماء البلدة، وقعقع صده المدوي في آذان الأطفال الذين فروا إلى بيوتهم، مثلما فعلت العصافير التي أدبرت هاربة إلى أعشاشها، بعدما خرق دوي الرصاص هدوء البلدة، وقوّض سلامها الدائم.

استمرت ميليشيات الشبيحة في إطلاق الرصاص من فوهات بنادقها، دونما توقف.

ترجل عباس من حافلته، وخطا ثلاث خطوات باتجاه ساحة البلدة؛ اصطفت الحافلات والدراجات خلفه، ومضى سائرًا في مشيته كالطاووس.

وطأت قدما عباس منتصف الساحة، وسط ذهول الأهالي واندھاشهم العميق من هول الكارثة التي حلت بهم.

رفع عباس قبضة ذراعه اليمنى، ثم أخفضها للأسفل.

كانت تلك الإيلاء التي نمت عنه؛ إيداناً لرجاله بوقف إطلاق النار، وإعلاناً لهم في بدء الهجوم.

ترجلت عناصر الشبيحة من حافلاتها ودراجاتها، واندفعت كالثيران الهائجة إلى بيوت البلدة، وبدأت في اقتحامها وتمشيها بيتاً تلو الآخر، فيما انتصب عباس كالصنم في منتصف الساحة، وشرع في مراقبة رجاله.

في هذه الأثناء، احتلت عناصر المخابرات العسكرية ساحة البلدة، وتوغلت في الأزقة، وقامت باعتقال شبان البلدة الذين عثرت عليهم في الشارع، واقتادتهم إلى الساحة.

انتصب الرائد عصام بجوار عباس، وأخذ في توجيه رجاله الذين اقتادوا الشبان، ثم هتف لهم بأعلى صوته:

- اجلبوا هؤلاء الكلاب إلى هنا.

نفذت عناصر المخابرات ما طلب منها، وجلبت الشبان الذين اعتقلتهم إلى ساحة البلدة.

هتف عباس لغريمه عصام بحزم:

- سأمرغ أجسادهم في أوساخ الأرض.

هزّ عصام رأسه، وأردف بطاعة:

- حسناً؛ كما تشاء.

هتف عباس بصوت محتقن بالحقد والغضب:

- وأخيراً أيها الكلاب؛ تالله لأجعلنكم تتمنون الموت ولا تجدونه .. هيا انبطحوا

على بطونكم، وضعوا أيديكم خلف رؤوسكم العفنة.

انبطح المعتقلون أرضاً، واستلقوا على بطونهم، ووضعوا أيديهم خلف رؤوسهم.

رفع عباس بندقيته عاليًا، وأطلق رصاصتين لإرهاب المعتقلين وبث الرعب في

قلوبهم، ثم دمدم بسخط وهياج:

- أيها الكلاب؛ أما زلتم تريدون حرية؟

تريدون حرية أليس كذلك؟
هل تعرفون ماذا تريدون؟
تريدون رصاصة حامية تستقر في رؤوسكم يا أولاد العاهرة.
وهنا التفت عباس نحو مساعده أكثم، وقال له بلهجة حازمة:
- أكثم؛ كفالك كسلًا، هيا قم واصنع شيئًا لنفسك خير لك من التحديق بلا جدوى.
سأل أكثم باندهاش:
- ما الأمر أخي أبا علي؟
غمز عباس بطرف عينه اليمنى؛ وأجاب بصوت جهور:
- أخبر رجالنا أن يتحركوا بأقصى سرعة، وأن لا يتأخروا في تنفيذ مهامهم،
فأماننا عمل كثير مع كلاب الثورة.
أطرق أكثم رأسه، وأجاب بإذعان:
- حسنًا.

انطلق أكثم مسرعًا نحو أزقة البلدة، فيها داهمت ميليشيات الشبيحة بيوتها، واعتقلت كل مَنْ كان بداخلها من رجال وشباب؛ حتى الأطفال الذين تراوحت أعمارهم بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة عامًا اعتقلتهم واقتادتهم إلى ساحة البلدة تحت حراب البنادق.
عاثت الميليشيات فسادًا وخرابًا في بيوت المواطنين، وأرعبت الأطفال الذين اختبئوا بصحبة أمهاتهم في الحمامات والمطابخ هربًا من بطش عناصر الشبيحة التي ضربت النساء دون هوادة، واعتدت عليهن داخل المطابخ، ثم بصقت في وجوههن، وقدحتهن بسيل من الكلمات النابية والشتائم المقذعة.
داهم أكثم بصحبة عناصر الشبيحة بيت الناشط محمود، وهو واحدٌ من أبرز الناشطين الذين أسهموا بإذكاء جذوة الثورة في بلدة البيضا.

عَفَّ أَكْثَمَ غَرِيمِهِ مُحَمَّدٌ، ثُمَّ قَامَ بِضَرْبِهِ ضَرْبًا مَبْرَحًا بِأَخْصَصِ الْبَنْدُوقِيَّةِ؛ صَرَخَ مُحَمَّدٌ مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ الَّذِي سَبَبَتْهُ الضَّرَبَاتُ الْعَنِيفَةُ الَّتِي اسْتَقَرَّ مَعْظَمُهَا فِي رَأْسِهِ، ثُمَّ سَقَطَ أَرْضًا مُضْرَجًا بِدِمَائِهِ.

هَتَفَ أَكْثَمَ لِعَنَاصِرِهِ بِابْتِهَاجٍ:

- هَا قَدْ خَلَصْنَا مِنْ كَلْبٍ أَجْرَبَ.

سَأَلَ أَحَدَ الْعَنَاصِرِ مُسْتَفْهِمًا:

- أَيْعَقِلُ أَنْ يَكُونَ قَدْ مَاتَ؟

رَدَّ شَبِيحٌ آخَرُ:

- رُبَّمَا؛ فَمَصِيرُهُ الْمَحْتَمُومُ، أَنْ يَلْحَقَ بِبَقِيَّةِ الْكِلَابِ إِلَى قَعْرِ جَهَنَّمَ.

وَهُنَا وَثَبَتْ إِيَّانَ مَنْ مَرَقْدَهَا؛ جَزَعَةً، مَشْوُشَةً الْبَالِ، بَعْدَ أَنْ تَنَاهَى لِأَذْنِيهَا صَرَاحَ زَوْجِهَا.

انْدَفَعَتِ الزَّوْجَةُ مِنَ الْمَطْبِخِ إِلَى الصَّالَةِ كَانْدِفَاعِ السَّهْمِ الْمَائِرِ مِنْ كَنَانَتِهِ، وَنَظَرَتْ شِزْرًا بَعَيْنَيْهَا الْمُتَلَاثَتَيْنِ فِي وَجْهِهِ عَنَاصِرِ الشَّيْبَةِ.

وَجَفَّ قَلْبُهَا، وَخُبِسَتْ أَنْفَاسُهَا دَاخِلَ جَوْفِهَا، وَارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهَا هَلَعًا، حِينَمَا رَأَتْ زَوْجَهَا الْمَسْجِي.

تَمَاطَلَتْ أَطْرَافُهَا الْمُضْطَرِبَةُ كَأَغْصَانِ الشَّجَرِ، وَكَادَتْ أَنْ تُخَرَّ لَهُولِ الصَّدْمَةِ، وَلَكِنَّهَا نَجَحَتْ فِي اسْتِعَادَةِ تَوَازُنِهَا بِصُعُوبَةٍ بِالْغَةِ، ثُمَّ صَدَحَتْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا:

- مَاذَا فَعَلْتُمْ بِزَوْجِي يَا أَوْلَادَ الْحَرَامِ؟ أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنْكُمْ شَرَّ انْتِقَامٍ.

أَصْغَا أَكْثَمُ الْمَرْأَةَ الْمَوْجُوعَةَ بِنَظَرَةٍ حَاقِقَةٍ تَطَايَرُ مِنْهَا الشَّرُّ، ثُمَّ خَطَا نَحْوَهَا ثَلَاثَ خَطَوَاتٍ؛ وَسَدَدَ لَهَا صَفْعَةً قَوِيَّةَ بَرَاةٍ يَدِهِ الْيَمْنَى، وَنَعْتَهَا بِغَضَبٍ شَدِيدٍ:

- أَيْتَهَا الْعَاهِرَةُ! تَبًّا لَكَ، وَتَبًّا لِكَلْبِكَ الْأَجْرَبِ؛ أَمَا زَالَ فِي وَجْهِكَ دَمٌ لِلشَّرْثَةِ؟

أَفْقَدَتْ الصَّفْعَةُ الْمَدْيُونَةَ تَوَازُنَ الزَّوْجَةِ لِبَرَهَةٍ قَصِيرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ، وَمَا إِنْ اسْتَعَادَتْ تَوَازُنَهَا مَرَّةً أُخْرَى، حَتَّى حَدَجَتْ فِيهِ بِنَظَرَةٍ حَادَةٍ، اسْتَجْمَعَتْ خِلَالَهَا قَوَاهَا الْكَامِنَةُ فِي ثَنَائِيَا رُوحِهَا، ثُمَّ بَصَقَتْ فِي وَجْهِهِ قَائِلَةً:

- يابن الحرام؛ ورب الكعبة، لأجعلنك تدفع الثمن غالبًا، والأيام بينا.
لقم أكثم سلاحه الناري في لحظة جنون وغضب، ثم سدّد فوهة المسدس نحو صدر إيمان، وقبل أن يشرع في الضغط على الزناد، نَمَا إلى أذان رجاله أنين خافت، بدا قصيًّا للوهلة الأولى.

أصاخ أكثم السمع لبضع ثوانٍ؛ ارتفع خلالها صوت الأنين مرة أخرى، فيما حدثت إيمان في جثة زوجها المسجى.
حرك محمود أنامله، وشرع في فغر أجفانه ببطء شديد.

هرعت إيمان لمعانقة زوجها، دون أن تعير بالاً لسلاح أكثم المسدّد نحو رأسها.
احتضنت جسد زوجها المسجى، وتمتّت بكلمات مرتعشة:

- حبيبي! يا حشاشة كبدي، أمازلت حيًّا؟ حمدًا لله على سلامتك.
نكّس أكثم مسدسه، واستدار جانبًا نحو المرأة الموجوعة؛ أمسك بقبضته القوية ذراعها الملساء، واجتذب جسدها الغض عن زوجها، ثم دفعها أرضًا، وزجرها قائلاً:

- اغربي عن وجهي أيتها العاهرة؛ اذهبي من هنا، يا عديمة الشرف.
أوعز أكثم لعنصره:
- يا رجال! أفرغوا البيت من محتوياته كلها، ولا تتركوا فيه شيئًا؛ أريد أن أراه خاويًا.

وهنا سدّد أحد العناصر فوهة بندقيته نحو محمود، ثم سأل قائده:

- ماذا نفعل به؟

رد أكثم بغضب:

- اسحلوه سحلاً إلى ساحة البلدة.

انصرف أكثم غاضبًا، بعد أن زعزت إيمان كيانه، وأسمعتة كلمات نابية، لم يعتد على سماعها من قبل، فيما بدأت عناصر الشيعة بسلب ونهب ممتلكات البيت كلها.
جلب أحد عناصر الشيعة، إناء ماء بارد، ثم صبه فوق جسد محمود.

شهو محمود عميقاً، واستفاق مفزوعاً، ثم جذبه العنصر من يده اليمنى، ونعته بغضب:

- قف أيها القواد.

في هذه الأثناء، استقامت إيمان بثقل، بعد أن اسقطتها أرضاً ذراع أكثم القوية، وهمت على الفور في الإمساك بزوجها في محاولة لمنع أفراد الشبيحة من اعتقاله، لكنها فوجئت ببنادقهم التي صوبت فوهاتنا نحو رأسها.

هجمت عناصر الشبيحة على المطبخ، وشرعت في العبث في محتوياته، وهنا بارح ثلاثة أطفال صغار أدراج الخزائن الخشبية التي اختبئوا داخلها، وهرعوا مدبرين نحو الصالة، فارتعدت فرائصهم رعباً، وتعالى صراخهم وعويلهم عندما رأوا والدهم المعتقل، ووالدتهم الراححة تحت حراب البنادق.

ضاق أفراد الشبيحة ذرعاً من بكاء الأطفال، وصرخ أحدهم بملء فمه، وقال محدثاً:

- صه أيها القرد، وإلا أفرغت مخزن الرصاص برأسك التن.

حدقت إيمان في أعين أولادها، ثم رمتهم بنظرة رادعة، ورفعت سبابتها اليمنى للأعلى ثم قاطعتها بشكل عامودي مع فمها حتى بدت كإشارة الصليب. فهم الأطفال إباءة والدتهم، وتوقفوا عن البكاء والعويل. لم تستطع إيمان أن تفعل شيئاً للتخفيف عن معاناة أطفالها، ولا حتى إنقاذ زوجها من براثن الشبيحة.

أثرت الزوجة الصمت، بدلاً من مواجهة عناصر الشبيحة التي بدت في تخيلتها قطعاً ممسوخة بهيئة آدمية.

سقط عناصر الشبيحة على البيت، ونهبت محتوياته التي أودعتها في حافلات النقل «البليك آب» ثم اقتادت محمود الذي لم يستطع عقله المشوش، استيعاب ما كان يجري من حوله.

اكتظت ساحة البلدة بالشبان الذين اعتقلتهم عناصر المخابرات العسكرية وميليشيات الشيعة، واستمر تدفقهم إليها حتى فاقت أعدادهم أكثر من مئتي معتقل، وتراوحت أعمارهم بين الرابعة عشر والخمسين عامًا.

انبطح المعتقلون أرضًا، ولم يكن باستطاعتهم أن يفعلوا شيئًا أمام جبروت عباس، وأضحوا رهائن له، بعد أن طوقت الدبابات مداخل بلدتهم، وأحاطتها بنادق الرماة بحزام ناري ملتهب.

انصب عباس في منتصف ساحة البلدة مزهواً كالطاووس الهندي الرافل لذيله وريشه الزاهي، وأخذ يركل بقدميه أجساد المعتقلين، دون أن يجرؤ أحد على اعتراضه. خطا الرائد عصام نحو عباس، وهمس في أذنه قائلاً:

- أرجو أن تأذن لنا بتصوير الكلاب.

سأل عباس بفضول:

- لماذا؟

علق عصام بتؤدة:

- يجب أن نظهرهم لوسائل الإعلام وكأنهم في مسيرة تأييد للسيد الرئيس.

قهقهه عباس وسأل بتعجب:

- من أين أتيت بهذه الفكرة؟

رد عصام بجدية:

- إنها ليست فكري، بل هي تعليمات القيادة في طرطوس.

هزّ عباس رأسه، وقال ببرود:

- حسنًا، افعل ما يحلو لك فعلة.

صات عصام بأعلى صوته مخاطبًا جموع المعتقلين:

- أيها الكلاب! اسمعوني جيدًا؛ قسمًا بشرفي العسكري، مَنْ يرفض منكم تنفيذ

الأوامر، سأفجر رأسه بالرصاص؛ لا تنسوا أنكم ختمتم الوطن وقائده، ولكي تكفروا عن ذنوبكم وخيانتكم لسيادة الرئيس، عليكم أن تهتفوا له أقوى هتافات التأييد؛ هيا

قفوا بسرعة.

نهض المعتقلون بلمح البصر، واستقاموا في وقفتهم؛ أوماً عصام للمصور التلفزيوني أن يحضر من الحافلة التي كان يجلس في متنها.

حضر المصور، ووقف في مواجهة المعتقلين، ثم وجّه عدسة الكاميرا نحوهم، ورفع إبهامه الأيمن إلى الأعلى.

هتف الرائد عصام الذي كان يقف بجوار المعتقلين قائلاً:

«بالروح بالدم نفديك يا بشار»

«الله سوريا بشار وبس»

ردد المعتقلون ما تناهى لأسماعهم من شعارات زائفة دأبوا على ترديدها في الأمس القريب، وها هم يرددونها الآن مكرهين، تحت تهديد السلاح، بعد أن كفروا بها، ورموها وراء ظهورهم.

التقطت عدسة الكاميرا وجوه المعتقلين الذين بدت ملامحهم شاحبة، وظهروا كالرهائن المكرهين على قول وفعل ما يطلب منهم، فيما رصدت سماعات المذياع، أصواتهم التي بدت شديدة الخفوت.

استمرت عدسة الكاميرا في تصوير المظاهرة المصطنعة لبضع دقائق.

غمز عصام بطرف عينه لعباس فأوماً برأسه موافقاً، ثم أوعز عصام للمصور قائلاً:

- أغلق الكاميرا.

رد المصور:

- حسناً.

أغلق المصور عدسة الكاميرا، وانسحب متقهقراً إلى الخلف، فيما سار عباس نحو المعتقلين، وصرخ بأعلى صوته:

- أيها الأوباش! سحقاً لكم، هل هذه مظاهرة تأييد أم نزهة في رحاب الطبيعة الساحرة؟ إنه هراء وحماقة؛ تالله سأجعلكم تأكلون خرائكم؛ هيا انبطحوا على

بطونكم.

انبطح المعتقلون على بطونهم، وفرشت الساحة بأجسادهم المسجاة، دون أن يجرو أحد منهم على الاعتراض.

أردف عباس للشبان المنبطحين بغضب متأجج:

- ضعوا أيديكم خلف رؤوسكم.

أوعز عباس لميليشياته المدججة بالسلاح، أن تبدأ هجومها على المعتقلين؛ قائلاً في حزم:

- يا رجال! أريدكم أن تنظفوا الأرض بأجسادهم التنتة؛ يجب أن نعطيهم درساً قاسياً في الأدب ليكونوا عبرة لبقية الكلاب في سوريا.

انقضت عناصر الشبيحة على المعتقلين المنبطحين، كانقضا الضارب الضاربة على فرائسها، وبدأت في ركل وجوههم وبطونهم بنعالها العسكرية، ثم تمت بهستيرية:

«أمازلتم تريدون حرية أيها الكلاب؟»

«هل تريدون حرية أيها الخونة؟»

«تباً لكم يا أولاد القحبة»

«أيها السفلة الأذال! الحرية لا تناسبكم، بل هذا الخداء، هو الأنسب لدوس رؤوسكم»

تطور هجوم ميليشيات الشبيحة العنيف من ركل أجساد المعتقلين إلى دهس ظهورهم والوقوف عليها لبرهة من الزمن، ثم القفز على أضلاعهم وفقراتهم بشكل متكرر، بغية كسرها وشل حركتهم.

اغتاظت نفوس المعتقلين، وامتألت أجوافهم بالسخط والحنق ضد همجية القطعان المتوحشة؛ التي اعتدت على كرامتهم، ودنس بلدتهم، ونهبت بيوتهم، وتناولت على نسائهم وأطفالهم في وضح النهار.

أمعنت أعين المعتقلين النظر في وجوه عناصر الشبيحة، ورصدت ملاحمها وسماتها

الدقيقة، بغية التعرف على هوياتها.

لم يكن لدى المعتقلين أي سلاح يدافعون فيه عن أنفسهم، سوى امتلاكهم سلاح الصبر، ضد أذى ميليشيات الشبيحة التي كشرت عن أنيابها، وأوغلت نهباً وسلباً وقتلاً، دون أن يردعها قانون أو قضاء، لا بل أخذت تمارس جرائمها بدعم كامل من النظام الذي تشكلت نواته الأولى من زعماء الشبيحة؛ الذين ثار الشعب السوري ضد جورهم وطغيانهم.

واصلت ميليشيات الشبيحة لهُوها وهرجها ومرجها فوق أجساد المعتقلين، واستمرت في ضربهم على وجوههم ورؤوسهم بأعقاب البنادق. وسط تلك الجلبة الصاخبة من الصباح؛ هتف أكنم لقائده عباس قائلاً بأعلى صوته:

- أبا علي! أرجو أن تحضر بسرعة.

رد عباس مبتهجاً:

- سأهديك اليوم برميلاً كاملاً من الخمر المعتق.

ركل عباس جسد أحد المعتقلين بكل عنف وقوة، وقال له موبخاً:

- انهض أيها القرد! قف يابن العاهرة! أمازلت تريد حرية؟

انتشل عباس جسد المعتقل الذي انبطح أرضاً، واقتاده نحو إحدى حافلات الأمن العسكري، وأثناء الطريق إلى الحافلة، أوماً عباس برأسه للرائد عصام الذي كان منشغلاً بركل المعتقلين وصعقهم بكبل كهربائي ثخين، ثم قال له بسخرية:

- هؤلاء الخنازير ملك لك؛ افعل بهم ما شئت.

رفع عصام رأسه الذي بدا عليه التعب والإجهاد بسبب ضربه العنيف للمعتقلين، ثم مسح العرق المتفصد من جبينه بباطن كفه، وقال لاهتاً:

- عملنا معهم سيكون بمقر الإدارة العامة في طرطوس؛ قسماً بشرفي العسكري لنسلخن جلدوهم ولنشوين لحومهم.

أردف عباس هازئاً:

- ومع ذلك، سيظلون يقولون لك إنهم يريدون حرية.
رد عصام بانفعال:
- لست أعلم من أين أتوا لنا بقصة الحرية؟
عقب عباس بصوت جهور:
- بل ويبتفون أيضاً بكل دناءة «الشعب يريد إسقاط النظام»
أردف عصام بصرامة:
- ونحن نقول لهم بكل صراحة «حذائنا العسكري سوف يسقط فوق رؤوسكم
العفنة»
- رد عباس بثقة وارتياح:
- لقد أطعمناهم اليوم، خراء الحرية بنعالنا العسكرية؛ على أي حال، سنرى ما
إذا كانوا قد فهموا الدرس جيداً أم لا، وإلا فإننا سنجعلهم في المرة القادمة يفهمون
بالصواريخ المتساقطة فوق رؤوسهم.
- هزّ عصام رأسه، وقال بتحدٍ:
- سنتنظر ونرى.
- أوعز الرائد عصام لرجالهِ بصرامة:
- عسكري! انتباه؛ بعد خمس دقائق من الآن، أريد أن أرى الساحة خاوية
من المعتقلين، وبعد نصف ساعة، أريد أن أراهم في مبنى القيادة؛ هيا انقلوهم إلى
الحافلات.
- رددت عناصر المخابرات العسكرية بصوت جهور:
- أمرك سيدي.
- شرعت عناصر المخابرات في انتشار المعتقلين من الأرض، ثم اقتادتهم من ساحة
البلدة إلى الحافلات الرابضة في محيطها.
- زجت عناصر المخابرات المعتقلين في صناديق الحافلات، التي لم يكن حجمها
يتسع لمعظمهم، بعد أن جاوزت أعدادهم الغفيرة أكثر من مئتي معتقل.

تظاهر عباس بالتبرع ببعض حافلاته للرائد عصام، ولكنه لم يفعل حقيقة، متذرّعاً بامتلائها بأثاث البيوت الذي نهبته ميليشياته.

كان الأثاث المنهوب أهم لدى عباس من القبض على المعتقلين، واقتيادهم لفرع المخابرات العسكرية.

هتف أحد العناصر إلى الرائد عصام، وسأله مستفسراً:

- سيدي الرائد! حافلاتنا لا يمكن أن تتسع لكل هؤلاء الكلاب، فما العمل؟
شرد عصام لبرهة قصيرة، ثم جَهَرَ بفكرة شيطانية قفزت إلى عقله الأمني؛ قائلاً:
- اجمعوهم ثم كدسوهم في صناديق الحافلات كالقمامة، فإن عاشوا أو ماتوا خنقاً، فذلك ليس شأننا.

ركلت عناصر المخابرات المعتقلين الذين كانوا ينتظرون دورهم في الصعود إلى الحافلات الأمنية، ثم قامت بزج أجسادهم بعنف مفرط داخل صناديقها المعدنية، ودفعتهم بعد ذلك نحو أقرانهم الذين سبقوهم في الصعود إليها.

رددت العناصر عباراتها المذدعة على مسامع المعتقلين:

«سر أيها الحمار! سر بسرعة؛ إياك أن تصدر صوتاً أو جلبة»

«أيها القرود! أطرق برأسك، وامضي مسرعاً إلى الحافلة.

صعد المعتقلون باستعجال، وتكدسوا فوق بعضهم في صناديق الحافلات الأمنية التي بدت أشبه بحافلات الدواب والمواشي؛ رغم أن حافلات البهائم، لم تخطئ طريقها نحو المسلخ، فيما اتجهت حافلات المخابرات نحو معسكرات الاعتقال الرهيبة للتكنيل بآدمية الإنسان وسلب كرامته.

انطلقت الحافلات واحدة تلو الأخرى إلى أن أصبحت بلدة البيضا خاوية على عروشها من كل شيء إلا من النساء والأطفال الصغار؛ الذين وجفت قلوبهم، وحبست الأنفاس في صدورهم هلعاً ورعباً من وحشية ميليشيات الشبيحة التي أنشبت مخالبها الحادة، وكشرت عن وجوهها الكالحة المهووسة بشهوة القتل والدم.

(27)

عشية يوم الثلاثاء الموافق للثاني عشر من أبريل، فرضت دبابات النظام حصارها الخانق على مدينة بانياس، وطوّق الجنود مداخلها ومخارجها من خلال عشرات الحواجز التي أقاموها؛ الأمر الذي أدى إلى تقييد حركة سكانها، وتسبب مع مرور الأيام في نفاد مادي الطحين والوقود اللازمتين لتشغيل الأفران.

هدف النظام من وراء حصاره الخانق إلى معاقبة سكان المدينة؛ حيث تسبب انعدام الطحين إلى حدوث أزمة حادة في نقص الخبز؛ الذي اختفى وجوده في المدينة والقرى المجاورة طيلة أيام الحصار الخانق.

التزم السكان بيوتهم، بعد أن تناهت إلى مسامعهم أنباء عاجلة عن اقتحام ميليشيات الشبيحة لبلدة البيضا.

فرغت شوارع المدينة من المارة، حتى أضحت كالمدن المهجورة، ولم يستطع أحد من سكانها التجول دون أن ينال حظه العاثر من رصاص الرماة؛ الذين انتشروا في التلال المحيطة بها.

نَفَذَت عناصر المخابرات الجوية، حملة دهم واعتقالات في بلدة بيت جناد المجاورة لبانياس، طالت أكثر من مائة وخمسين مواطناً.

اضطر شبان البلدة إلى الفرار من بيوتهم، وهربوا مدبرين للنجاة بأنفسهم من قبضة النقيب وسيم؛ الذي كلفه النظام باقتحام البلدة.

في هذه الأثناء، اتصل النقيب وسيم بواسطة جهاز اللاسلكي بالنقيب حسان، وهو قائد كتيبة المشاة، وقال له بصوت جهور:

- النقيب حسان! هل تسمعي؟
رد النقيب حسان الذي كان مرابطاً مع جنوده قبالة البلدة الراححة لحصار خانق، وهتف قائلاً:
- أسمعك جيداً؛ تفضل.
قال وسيم بارتياح:
- أنا النقيب وسيم من إدارة المخابرات الجوية.
كان وسيم قد عمل ضابطاً في شعبة المخابرات الجوية؛ التي كانت أقيبتها المعتمة وزنازينها القميئة واحدة من أسوأ مراكز القتل والتعذيب في سوريا.
رد النقيب حسان الذي كان متحصناً في التلال المحيطة بمدينة بانياس، وقال بود وترحاب:
- أهلاً وسهلاً بك؛ هل أستطيع المساعدة بأي شيء تحتاجه؟
أجاب وسيم بغطرسة:
- لقد هرب للتو كلاب الثورة من بلدة بيت جناد، وأظنهم أصبحوا الآن على مقربة من مواقعكم.
سأل حسان باهتمام:
- حسناً؛ ماذا تريدنا أن نفعل؟
أوعز وسيم بصوت جهور:
- اعتقلوهم جميعاً، وإذا رفضوا الاستجابة لأوامركم، لا ترددوا في قتلهم.
رد حسان بإذعان:
- حسناً.

انحصرت مهمة وسيم الأساسية في اعتقال المواطنين، بغية شل حركة المظاهرات اليومية التي صدعت رأس النظام، وقضت مضجعه.
ربضت حافلة وسيم في محطة الحافلات التابعة لشعبة المخابرات الجوية في محافظة طرطوس؛ ترجل من حافلته الأمنية الفارهة، وسار نحو المقر ذي البناء

القديم الذي بدا على هيئة مدرسة ثانوية، ثم ارتقى درجات السلم، وبدأ في الصعود السريع قاصداً الوصول إلى مكتبه الكائن في الطابق الثاني.

تسمر وسيم أمام حجرة المكتب؛ أدار المفتاح في القفل، ثم فغر بابه الموصد، ودلف بعد ذلك إلى فناءه الفسيح.

سار بخطوات متعجلة نحو طاولة المكتب، ثم جلس وراءها على كرسيه الوثير، وأطلق نفساً عميقاً.

التفت وسيم نحو شاشة الحاسوب التي انتصبت قاعدتها فوق الطاولة الزجاجية الأنيقة، ثم ضغط على مفتاح الشاشة، وهائف روحه بانزعاج:

- تَبَّاهُؤْلاء المتظاهرين الأوباش لقد أفسدوا علي أجمل أيام حياتي.

حدّق وسيم بعينه الغائرتين في شاشة الحاسوب، فرأى فتاة أجنبية متعربة، ملأت صورتها الشاشة، وبدأت تداعبه بحركات مثيرة.

هزّ وسيم رأسه الصغير، ومطّ شفتيه الرقيقتين ثم عضهما باشتهاء، ونبس بصوت خافت مشبع بالشهوة الجنسية:

- أوه! يا لك من فتاة شهية بهية، قسماً بشر في العسكري، لو عرفت الطريق إليك لجئتك زاحفاً ثم جاثياً أمام روعة ساقيك البيضاوين المبرومتين اللتين لا يساوِيهما في العظمة والفتنة إلا ساقِي بلقيس؛ أوه! ليتني استطعت الوصول إليك، لما انتظرت هنا لحظة واحدة.

حرك وسيم عدسة الكاميرا المثبتة فوق شاشة الحاسوب، وارتدى سماعات الرأس، ثم بدأ يومئ للفتاة المتعربة بحركات متصافية، وشرع بعد ذلك في خلع ثيابه الشتوية نزولاً عند رغبتها.

كان النقيب حسان الابن الأوسط لأفراد أسرته المكونة من أربعة أخوة وأخوات؛ تعرض أثناء طفولته للسقوط من الدراجة النارية التي كان يقودها خاله، ما تسبب في كسر أنفه، ومنذ ذلك الحين، أصبح يعاني من أزمة نفسية حادة،

تجلت في شكل أنفه المكسور الذي بات مظهره مختلفاً عن أنوف أفراد عائلته، وازداد إحباطه بصورة أكبر عند بلوغه سن المراهقة، حيث بدا أنفه أكثر ضخامة واعوجاجاً من ذي قبل على حساب بقية حواسه الأخرى التي بدت في سياق حجمها الطبيعي، بخلاف التضخم المفاجئ الذي شمل أشلاءه كلها.

أثناء التحاقه بالمدرسة الإعدادية، عاش حسان صراعاً نفسياً مريعاً مع زملائه في المدرسة الذين هزئوا من أنفه المعوج، ولم يكن أمامه من سبيل آخر لمواجهة سخريتهم سوى ارتداء النظارات الطبية والشمسية داخل المدرسة وخارجها؛ للتغطية على موضع الكسر الذي بدا مقلقاً له طوال الوقت.

عشية يوم شتوي قارص، تسمّر حسان أمام المرأة في بيته الكائن في بلدة مصيف الكائنة في ريف محافظة حماة، وأخذ يحرق في موضع الكسر الواقع أسفل أرنبة أنفه، وظل يراه طوال الوقت كجزرة مدلاة أمام عيني حسان، وفي بعض الأحيان كان يراه على هيئة الرسوم الكرتونية الساخرة التي كان يشاهدها باستمرار على شاشة التلفاز.

كان أنفه قبل أن يتعرض للكسر مستقيماً ودقيقاً كالأنف الإغريقي، ولكنه أصبح بعد ذلك مائلاً ومنحرفاً نحو وجنته اليمنى؛ قرر حسان في لحظة ضعف وانكسار بتر أنفه بواسطة المقص، بعد أن فشل في إقناع والده بإصلاح الكسر الذي أصابه.

أولج شفرتا المقص بين حافتي أنفه لبرهة قصيرة من الزمن، وقبل أن يبدأ في الضغط والإطباق على أذني المقص، تراجع عن ذلك بسبب ألم الضمير الذي عصف بروحه، وقرر الانتقام لذاته وكسر شوكة الهازئين.

واجه حسان سخرية رفاقه بنطح رؤوسهم بواسطة رأسه المستدير، حيث تسبب في فح رؤوس العديد من أصدقائه الذين أصبحوا يتحاشون الاصطدام معه، بعد أن أبدى بأساً شديداً في طرق رؤوسهم التي بدت هشة أمام رأسه الصلب، فأطلقوا عليه سراً لقب « أبو رأس » .

التحق حسان مكرهًا بالكلية الحربية؛ رغم حصوله على تقدير جيد جدًا بعد انتهائه من دراسة الثانوية العامة، وكان السبب في ذلك، قلقه الدائم من مظهر أنفه المكسور الذي خشى أن يكون محل استهزاء زملائه، وخاصة في أوساط الطالبات الجامعيات.

اقتفى النقيب حسان قائد كتيبة المشاة أثر الشبان الفارين الذين كانوا يسرون إلى أسفل الوادي المحاذي لبلدة بيت جناد، ثم هتف لهم بواسطة مضخم الصوت قائلاً:

- استسلموا .. استسلموا حالاً، إننا على مقربة منكم؛ قواتنا تحاصركم من الاتجاهات كلها، هيا استسلموا دون مقاومة .. إياكم أن تعتقدوا أنكم قادرون على الإفلات من قبضتنا؛ ستعقبكم في كل مكان.

كذف قائد الكتيبة مضخم الصوت جانباً، وهدق بأعين جنوده الذين وقفوا باستعداد تام، وبوضعية قتالية صارمة لتنفيذ أي إيعاز عسكري يطلب منهم، ثم خاطبهم في حزم:

- انتباه! انتباه! يجب أن تعلموا جيداً، أننا هنا للقضاء على حشود الإرهابيين والمندسين، فمنذ خمس دقائق فقط، تسللت من قرية بيت جناد مجموعة خطيرة من الإرهابيين، وهي الآن على مقربة من الوادي؛ يجب أن نستعد جيداً لضربها بيد من حديد .. أيها الجنود استعدوا لتنفيذ المهمة.

ردد الجنود بصوت واحد:

- أمرك سيدي.

قسّم النقيب حسان الجنود إلى ثلاث مجموعات قتالية.

عملت المجموعة الأولى في الخطوط الخلفية، وتحت أمرته شخصياً، فيما عملت المجموعة الثانية من الطرف الأيمن، وانشغرت مهمتها في التوغل بين الأشجار الكثيفة لإحكام الطوق على الشبان الفارين، أما المجموعة الثالثة فقد عملت من

الطرف الأيسر.

حدّق حسان في عيون الجنود، وربت على أكتاف بعضهم، ثم بدأ في تنبيههم وتحذيرهم من مغبة التصرف بشكل فردي أثناء تصديهم للشبان الفارين؛ قائلاً بصراصة:

- ليس من حقكم أن تتصرفوا من تلقاء أنفسكم، ولن تطلقوا رصاصة واحدة على الإرهابيين قبل أن أسمح لكم بذلك؛ ستأخذون الأمر مني مباشرة، واعلموا بمجرد سماعكم لصوت إطلاق أول رصاصة أن الأمر قد صدر بفتح النار، وعليكم أن تذكروا دائماً أن أهاليها يدفعون ثمن كل طلقة نطلقها على الإرهابيين والمندسين؛ لنحمي الوطن والسيد الرئيس من شرهم.

انقسم الجنود إلى ثلاث مجموعات، وكل مجموعة ضمت ثمانية عناصر. اندفع الجنود المدججين بالأسلحة النارية نحو الوادي؛ الذي لم يبعد عن موقع تواجدهم، سوى بضعة مئات الأمتار.

سار الشبان الفارون بتؤدة وتمهل في جوف الوادي السحيق الذي ارتبطت نهايته في الكثير من القرى الصغيرة التي تناثرت بيوتها الريفية على أطرافه. استمر النقيب حسان في رصد خطوات الشبان الهاربين اعتماداً على بصره الحاد، فيما واصل الشبان سيرهم المتمهل بمحاذاة الطريق العام الذي أحاطته الأشجار الكثيفة من كلا الجانبين.

في هذه الأثناء، توغلت عناصر المجموعتين الثانية والثالثة في عمق الغابة التي حاذت الوادي عند نهايته، وأخذ الجنود يحثون خطاهم بين جذوع الأشجار، فيما سارت عناصر المجموعة الأولى -بقيادة النقيب حسان- على الطريق العام المؤدي إلى الوادي.

ظلت عينا النقيب حسان تراقبان عناصر المجموعتين الثانية والثالثة، بواسطة المنظار الحربي الذي دأب على استخدامه، وحالما رأى عناصر المجموعة الثانية قد أصبحت على مقربة من الهدف، سدّد فوهة مسدده نحو ظهور الشبان الهاربين

الذين واصلوا سيرهم المتد في عمق الوادي، دون أن يتتابهم خوف أو ذعر بعد أن اطمأنت نفوسهم، وظنوا أنهم أصبحوا في مأمن من قبضة عناصر المخبرات الجوية.

ضغط قائد الكتيبة على زناد المسدس، فانطلقت الرصاصة الأولى نحو الهدف، تلتها الرصاصة الثانية فالثالثة.

سقط أحد الشبان إثر إصابته بإحدى الرصاصات الحارقة التي أصابته في قدمه اليسرى.

استوعبت روح الشاب الجريح أثر الإصابة؛ منذ اللحظات الأولى التي خرقت فيها الطلقة سطح ساقه.

امتص خليل موجات الألم التي احتبسها قسراً ومكابرة في ثنايا روحه. هتف خليل لرفاقه الذين واصلوا سيرهم السريع من شدة الخوف الذي ضرب قلوبهم، دون أن يلتفتوا ورائهم ويكلفوا أنفسهم عناء السؤال لما جرى لرفيقهم المسجى، وصرخ قائلاً:

- يا شباب!

نما صوت خليل إلى آذان رفاقه السائرين، فتسمّر أحدهم بجوار شجرة باسقة، واستند جذعه النحيل إلى جذعها الغليظ، واستدر بتؤدة إلى الخلف، وما إن وقعت عيناه على رفيقه الجريح، حتى بادره خليل مستغيثاً:

- لا تتركوني لوحدي؛ لا تذهبوا بعيداً؛ أرجوكم ساعدوني.

التقط الشاب أنفاسه، والتفت نحو رفاقه، ثم قال لاهثاً:

- يا شباب! إن خليل ينادينا.

رد أحد الشبان بانزعاج:

- أوه! تباً، يا للهول، لقد نسيناه من شدة الرعب الذي ملأ قلوبنا.

سأل شاب آخر:

- ما العمل الآن؟

أجاب أحد الشبان بحماس:

- يجب أن ننقذه حالاً.

وهنا سأل أحد الشبان ببرود:

- كيف سننقذه والرصاص يطاردنا من مكان لآخر.

حسم الشاب المتحمس الجدل الذي أثاره رفيقه، وأجاب جواباً قاطعاً:

- سنتعاون في حمله.

رد الشبان بصوت واحد:

- هيا بنا.

لبى الشبان نداء رفيقهم الجريح، وساروا نحوه بخطوات حذرة خوفاً من الرصاص الطائش، ثم شرعوا في حمله مهمة ونشاط كبيرين.

تناهى صوت الرصاص المنهمر من مسدس النقيب حسان إلى مسامع المجموعتين الثانية والثالثة.

شرعت عناصر المجموعة الثالثة في فتح نيران بنادقها الآلية نحو الشبان الفارين؛ الذين تفرقوا في دهاليز الغابة هرباً من الرصاص المصوب على أجسادهم. توغلت عناصر المجموعة الثانية في باطن الغابة، وحالما أدركت فوهات بنادقها أجساد الشبان الهارين، تردد قائدها في إطلاق النار عليهم.

برر الرقيب بلال -قائد المجموعة الثانية- تردده في إطلاق النار على الشبان الفارين، بعد أن استيقظ ضميره، وتفتقت إنسانيته بشكل مفاجئ على وقع أزيز الرصاص المتطاير الذي ذكره بحادثة مقتل خالته على يد خاله في مدينة الأتارب -الواقعة في ريف محافظة حلب- عندما أطلق النار على رأسها أمام عينيه الصغيرتين؛ إثر مطالبتها بحصتها الكاملة من ميراث العائلة.

حدّق بلال في أعين الجنود لبرهة قصيرة من الزمن، ثم رمقهم بنظرة وادعة بعد أن هدأت نفوسهم المضطربة، وخاطبهم بصوت خفيض مشبع بالندم:

- يا رجال! هل فكرنا بضمير حي قبل أن نطلق النار على أولئك الشبان؟
انظروا إليهم، إنهم بشر مثلنا.
- عقب أحد الجنود بسجل ساذج:
- منذ متى كان الإرهابيون بشرًا؟
سأل جندي آخر مستفهمًا:
- ما الذي يدرينا أنهم أبرياء وليسوا إرهابيين؟
أبطن بلال انزعاجه، وقال محاجبًا:
- طبعًا هم بشر مثلنا إلا إذا رأيتهم بصورة أخرى.
رد الجندي ببلاهة:
- ولكن النقيب حسان، قال لنا إنهم رهط من الكلاب.
كتم بلال غيظه لبرهة قصيرة، ثم انفجر غاضبًا:
- أرى أن حسان هو الكلب، لا بل وحمار أيضًا.
ابتلع الصمت لسان الجندي الذي أطرق عن الكلام، ولاذ بالسكوت، دون أن
ينبس بحرف واحد.
- أردف بلال مكملًا حديثه مع الجنود:
- يا رجال! أرجو أن نعمل عقولنا لنفهم ما يجري حولنا، وكى لا نصبح مطية
للآخرين؛ تأكدوا تمامًا أنه ليس هناك إرهابيين ولا مندسين.
سأل جندي آخر باندهاش:
- إذن؛ مَنْ هم هؤلاء الناس الذين كُلّفنا بإطلاق النار عليهم؟
أجاب بلال برزانة:
- هؤلاء هم أختوتنا، إنهم أناس بسطاء من سكان القرى التي داهمتها عناصر
المخابرات الجوية، وهم الآن يفرون من قبضتها.
سأل الجندي بإصرار:
- ولماذا يفرون؟

ابتل بلال ريقه، وأجاب بصبر نافذ:

- لأن عناصر المخابرات تبحث عنهم في كل مكان، بحجة خروجهم على النظام عبر المظاهرات والاحتجاجات.

هتف الجندي مشدوهاً:

- مظاهرات!

رد بلال بثقة:

- نعم؛ لقد خرج معظم المواطنين في مظاهرات حاشدة بعد أن طُفح بهم الكيل من القمع والفساد؛ أعتقد أنك لا تعلم شيئاً، حالك في ذلك كحال الكثير من الجنود، وهنا الطامة الكبرى.

عقب الجندي بارتباك:

- في الواقع، لا أعرف ماذا أفعل الآن، هل يجب أن أطلق النار أم لا؟ أرجو أن يساعدني الرب.

هتف بلال بصوت جهور:

- بالنسبة لي، لن أطلق رصاصة واحدة، فلست مستعداً لأن أحمل براحتي البريئين دماء أناس أبرياء.

أردف أحد الجنود قائلاً بلهجة حازمة:

- وأنا كذلك لن أفعل، فإن أراد النقيب حسان أن ينزل بي أشد أنواع العقاب، فليفعل ذلك خير لي من التورط بقطرة دم واحدة.

قذف الرقيب بلال بندقيته أرضاً، وهتف للجنود قائلاً بحماس:

- يا رجال! كلكم يعلم أننا التحقنا بالجيش، كي ندافع عن تراب الوطن، ولم نلتحق به كي نقتل بعضنا.

وهنا تدخل أحد الجنود، وأردف مؤيداً للكلام بلال:

- أجل؛ لقد التحقنا بالجيش كي نسدد بنادقنا على صدور الأعداء، وليس على الناس الأبرياء الذين هم أهلنا جميعاً.

رد الجنود كل على حده:

- صحيح.

- قلت بصدق لا يدانيه الشك.

- لا فض فوك.

هتف بلال بحزم:

- ولأجل هذا السبب، لن أنفذ الأوامر العسكرية الرامية إلى قتل الناس جميعاً، ولن أطلق النار حتى لو أدى ذلك إلى جزّ رقبتني.

في هذه الأثناء، تناهى إلى آذان الجنود صوت إطلاق الرصاصة الأولى من مسدس النقيب حسان.

شرد الجنود لبرهة قصيرة؛ ارتبك بعضهم فيها، وانعقد لسانه عن الكلام، فيما حسم الباقون خيارهم وحزموا أمرهم، ثم قالوا للرقيب بلال في عزم وثبات:

- نحن معك خطوة بخطوة حتى الموت.

- لن ننفذ الإيعاز، ولن نطلق النار على أهلنا.

رد الرقيب بلال بحماس:

- وأنا معكم حتى الموت.

أطلقت عناصر المجموعة الثالثة نيران بنادقها نحو الشبان الذين لاذوا بالفرار، بعد أن سقط رفيقهم خليل متأثراً بجراحه.

لحق قائد المجموعة المسلحة بجموع الشبان الهارين، وأصمهم بوابل من الطلقات الحارقة التي شتت شملهم وفرقت جمعهم في أنحاء الغابة كلها.

أوعز قائد المجموعة لعناصره:

- اتبعوهم بسرعة؛ لا تدعوهم وشأنهم.

اقتفت عناصر المجموعة الثالثة آثار الشبان الذين انتهى بهم المطاف في سفح الوادي، وانتشروا ضمن مناطق المكشوفة، وباتوا تحت مرمى نيران البنادق.

التف الشبان حول الأشجار الباسقة، واحتموا بجذوعها الثخينة.
خطا الرقيب حسان بضع خطوات متعجلة نحو قاع الوادي، ورصد بصره
الثاقب عناصر المجموعتين الثانية والثالثة اللتين أحاطتا أماكن احتباء الشبان
الفارين.

أخذ حسان يتفحص أماكن احتباء الشبان، بواسطة منظاره الحربي.
رملق حسان أربعة شبان انتصبت قاماتهم المشوقة بين جذوع الأشجار، ثم
أخرج جهاز اللاسلكي من جيب بزته العسكرية، واتصل بقائد المجموعة الثانية؛
قائلاً له بصوت جهور:

- ألو؛ الرقيب بلال! هل تسمعني؟

استقبل بلال الاتصال، وقال ببرود:

- أسمعك جيداً.

أوعز الرقيب حسان بحزم:

- رقيب بلال! ثمة مجموعة مارقة مؤلفة من أربعة إرهابيين، إنها تسير
بمحاذاتك؛ عند أقصى نقطة في يمين الوادي.. هيا انطلق نحوها بسرعة.

رد بلال بغير اهتمام:

- حسناً.

واصلت عناصر المجموعة الثالثة جريها السريع وراء الشبان الفارين، فيما أناخ
الرقيب بلال أرضاً، كما تنوخ النوق في هجير الصحارى، ورَبَضَ بجوار جذع
شجرة وارقة، ثم أطرق رأسه، وأمسك بمقبض بندقيته، دون أن ينبس بحرف
واحد، وشرد لبرهة قصيرة من الزمن، ثم ما لبث أن كسر شروده أحد الجنود عندما
سأله مستفسراً:

- ما العمل الآن؟

هزّ بلال رأسه، وأجاب باقتضاب:

- لا شيء.

نبس الجندي باندهاش:

- لا شيء!

رد بلال بهدوء:

- أجل؛ لا شيء نفعله الآن، هل تريد أن تقتل الناس؟

رد الجندي مذعورًا:

- أعوذ بالله! لا يمكنني أن أفعل ذلك.

حدّق بلال في عيون الجنود التي بدا عليها القلق، ثم خاطبهم برجاء:

- اجلسوا من فضلكم؛ لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

هتف الجندي بارتياح:

- ونعم بالله.

جلس الجنود وأخذ بعضهم يحدق في أعين البعض، دون أن يقولوا شيئًا، فحاجز الخوف الذي حطمه الشعب السوري في مظاهراته العارمة التي جابت الشوارع والأزقة، بدؤوا في تحطيمه الآن، ولأول مرة في حياتهم من خلال رفضهم الانصياع للأوامر العسكرية القاضية بإطلاق النار على الشبان الفارين، وقتلهم بدم بارد، بذريعة أنهم إرهابيين ومندسين.

واصلت عناصر المجموعة الثالثة، قنصها للشبان المختبئين في جوف الوادي. في هذه الأثناء، ازداد سعار حسان واشتد هياجه، عندما رأى بواسطة المنظار الحربي، عناصر المجموعة الثانية، وقد افترشت الأرض طولًا وعرضًا دون أن تنفذ مهمتها.

أحكم النقيب حسان قبضته على جهاز اللاسلكي، وهتف محتدًا:

- ألو؛ رقيب بلال! هل تسمعني؟

رد بلال باشمئزاز:

- نعم أسمعك جيدًا.

سأل النقيب حسان بصبر نافذ:

- ماذا تفعل الآن؟

رد بلال ببرود مبهم:

- لا شيء.

سأل حسان بغضب متأجج:

- ماذا يعني ذلك؟

أيقن بلال في سريره أن النقيب حسان قد كشف موقعه، فما كان منه إلا أن رد بسخرية واستهزاء:

- كما ترى إننا جالسون على الأرض، ننتظر بصبر وملل انتهاء المهمة.

هتف حسان بأعلى صوته:

- هل تعلم أنك تخالف الأوامر العسكرية؟ وهل تعلم ما هي عقوبة مَنْ يخالف

تنفيذ الأوامر أثناء الحرب؟

أجاب بلال برزانة:

- أعلم جيدًا، ولكن أرجو عدم المؤاخذه، فأنا وجنودي يتابنا إحساس عميق أننا برحلة مفاجئة لاصطياد البشر، ولسنا في حالة حرب حقيقية ضد أعدائنا الفعليين، وعندما تتبدل أحاسيسنا ونفقد إنسانيتنا حينها سنفتح النار بلا هوادة، ولكننا لن نفعل الآن.

عضّ حسان على شفته السفلى بحقن، وقطّب حاجبيه، ثم أردف بغضب شديد:

- لقد خالفت التعليمات العسكرية، وستنال العقاب الذي تستحق.

رد بلال هازئًا:

- حسنًا؛ هاأنذا انتظر العقاب.

أغلق قائد الكتيبة جهاز اللاسلكي، ثم رماه أرضًا بسخط شديد، وبدت روحه كألسنة النيران المشتعلة في موائد الشواء؛ بصق أرضًا بملء فمه، ثم غمغم قائلاً:

- ويلٌ لقلبك الغليظ، سأريك كيف يكون العقاب العسكري.

ازدرد حسان هياجه، وامتص غضبه المستعر، وزفر عميقاً، ثم اتصل عبر هاتفه المحمول بالنقيب وسيم الذي واصل استمتاعه في مشاهدة الفتيات المتعريات والحديث معهن عبر المواقع الإباحية التي اشترك في معظمها.

كتم حسان غيظه، ونبس بهدوء:

- احترامي سيادة النقيب.

حدّق وسيم في كود الرقم الظاهر على شاشة هاتفه المحمول، وهزّ رأسه بانزعاج، ثم أجاب متأففاً:

- أهلاً بك؛ ما الأخبار؟

رد حسان باحتيال:

- كل شيء يسير على ما يرام، لقد اعتقلنا كلباً واحداً، وهو الآن مصاب بطلق ناري، كنت قد سدّدته من سلاحي، وعمليات البحث والتحري لازالت مستمرة.

قال وسيم بارتياح:

- عظيم؛ أرجو أن تستمروا في مهمتكم حتى النهاية.

أردف النقيب حسان بتلكؤ:

- سيدي! ثمة مجموعة صغيرة من جنودنا رفضت تنفيذ الأوامر بإطلاق النار على كلاب الثورة الملعونة.

فغر النقيب وسيم فاه فاتسعت عيناه، ثم سأل بتعجب واندهاش:

- ماذا؟ ماذا قلت؟ مَنْ هو الكلب الذي رفض تنفيذ الأمر؟

أجاب حسان بانتقام:

- إنه الكلب بلال.

سأل وسيم بهياج:

- ومَنْ هو بلال؟

رد حسان بغلٍ مدفون في صدره:

- هو واحدٌ من أقدر رقباء الكتيبة، لقد رفض الاستجابة للإيعاز العسكري،

بحجة أن كلاب الثورة هم بشر مثلنا.

سأل وسيم بانفعال:

- أين هو الآن؟

أجاب حسان بابتهاج بعد أن نجح في استشارة غضب وسيم:

- إنه في الوادي بصحبة الجنود الخائنين.

صرخ وسيم بغضب:

- الخيانة في الحرب مصيرها القتل.

سأل حسان بخبث:

- سيدي! هل أقتله وحده أم مع مجموعته الخائنة؟

أردف وسيم بحزم:

- بل اقتلهم سوية وفق الأعراف العسكرية، ودون أدنى تردد، فمثل هؤلاء

الخونة هم عبءٌ ثَقِيلٌ على الجيش، بعد أن تفرغ من قتلهم سنعلن في وسائل

الإعلام أن الذي قتلهم هم الإرهابيون.

عقب حسان باستمتاع:

- خطة رائعة.

هتف وسيم بصوت جهور:

- إياك ثم إياك أن ترحم أحداً منهم.

رد حسان بطاعة:

- أمرك سيدي.

أنهى حسان المكالمة الهاتفية، ثم استدار نحو جنود المجموعة الأولى الذين كانوا

بصحبه، وأوعز لهم بصوت جهور:

- انتباه! أمر عسكري؛ لدينا قاعدة عسكرية تقول: إن نهاية كل خائن للوطن

هي الإعدام رمياً بالرصاص؛ زميلكم بلال، انكشف أمره، وظهر على حقيقته

البشعة، عندما رفض مع مجموعته الخائنة تنفيذ الأوامر العسكرية في قتل الإرهابيين

والمندسين، وبناء عليه، تقرر إعدامهم رمياً بالرصاص؛ هيا استعدوا لتنفيذ الحكم.
صدحت عناصر المجموعة الأولى بأعلى صوتهما:
- أمرك سيدي.

انطلقت عناصر المجموعة الأولى نحو الوادي، وتوغلت في سفحه الأيمن إلى أن أصبحت على مسافة قريبة من بلال ورفاقه.
حدّق جنود المجموعة الأولى بعضهم في أعين البعض لبرهة قصيرة، ثم أومئوا رؤوسهم بضرورة التزام الصمت والهدوء التام، أثناء تنفيذ المهمة.
لَقَمَ الجنود بنادقهم، وضبطوا أنفاسهم، واتخذوا مواقعهم الثابتة خلف جذوع الأشجار تحسباً لأي اشتباكات مسلحة مع عناصر المجموعة الثانية.
أوماً أحد العناصر بيده، ثم أصدر إشارة بدء الهجوم.
ضغط جنود المجموعة الأولى على زناد بنادقهم، دون أن يرف لهم جفن أو يرق لهم قلب على رفاقهم الذين قاسموهم رغيف الخبز، وتبادلوا معهم الهموم والأحلام.
لعل الرصاص المنهمر من فوهات البنادق كقطرات المطر الغزير، وانصب لهيبه الحارق في أرجاء الغابة كلها، وتحول سكونها المديد إلى بركان ثائر.
في هذه الأثناء، شقت الطلقات المنهمرة طريقها نحو عناصر المجموعة الثانية.
رمق بلال جنوده الذين تساقطوا حوله واحداً تلو الآخر، كتساقط أوراق الخريف.

نهض بلال من مجلسه، مشوش الذهن، غاضباً، شديد الاضطراب؛ ثم لقم بندقيته، وهتف بانفعال:

- يا أولاد الحرام؛ يا أولاد ..

وقبل أن يكمل عبارته المنددة بجيش النظام الذي انشق عنه للتو، ويبدأ في صد هجومه المفاجئ، استقرت إحدى الرصاصات في صدره، فأردته قتيلاً على الفور.

خرّ بلال صريعاً، واستلقى جسده المخضب إلى جوار رفاقه الذين مزّق
الرصاص أجسادهم المسجاة.
هتف جنود المجموعة الأولى بفرح وابتهاج:
- لقد ماتوا ميتةً شنيعة.
- لا راحة لأرواحهم النجسة.
- ولا رحمة عليهم.
- هذا جزاء من يخون الوطن والسيد الرئيس.
أقفلت عناصر المجموعة الأولى عائدة من حيث أتت، بعد أن قضت على
عناصر المجموعة الثانية، فيما واصلت عناصر المجموعة الثالثة تعقبها للشبان
الهاربين الذين استطاعوا الفرار من قبضة الجيش، بعد استنكاف الرقيب بلال عن
تعقبهم ومحاصرتهم في الوادي.

(28)

صبيحة يوم الأربعاء الموافق للثالث عشر من أبريل، لبت المدن السورية نداء الثورة تضامناً مع بلدة البيضا، وكان في مقدمة المتضامنين؛ طلبة كلية الآداب في جامعة حلب الذين تظاهروا في ساحتها الرئيسة، وهزجت حناجرهم بأقوى هتافات التضامن والتآخي مع المدن المحاصرة، ورددوا قائلين:

«يا بانياس كلنا معك للموت»

«يا بيضا كلنا معك للموت»

في ذلك اليوم الربيعي الدافئ، لم تكتف النساء في بلدة البيضا بالجلوس المديد خلف جدران بيوتهن، دون أن يفعلن شيئاً لإنقاذ أزواجهن المعتقلين.

فمنذ ساعات الصباح الباكر؛ جابت إيمان شوارع البلدة كلها إلى أن استقر بها المقام في بيت جاريتها فاطمة.

اندفعت إيمان متسلحة بروح الصبر والثابرة، وسعت من وراء اندفاعها المتوثب إلى رد الاعتبار لكرامتها، بعد أن أصبحت ضحية لهمجية ميليشيات الشبيحة التي نكلت بزوجها محمود، واعتدت عليه أمام أعين أطفالها.

التقت إيمان بحشد غفير من نساء البلدة في بيت فاطمة التي تولت دعوتهم إلى بيتها استجابة لطلب إيمان.

تحدثت إيمان مع النساء مطولاً بغية إقناعهن بضرورة الخروج في اعتصام حاشد؛ لقطع الطريق الدولي الرابط بين محافظة طرطوس الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، ومدينة بانياس التي تعد واحدة من أكبر المدن التابعة لها.

أعربت النسوة عن قلقهن العميق من العواقب الناجمة عن الخطة التي عرضتها

إيمان، واقتضت بموجبها إعلان الإضراب العام، والاعتصام أمام الطريق الدولي للتنديد بسياسات النظام الجائرة.

ردت النسوة على نقاط الخطة التي قدمتها إيمان بقلق وارتباك:

«ليس الأمر هيناً؛ أرى أن نعتصم داخل البلدة»

«علينا أن نكون أكثر حذراً إزاء هذه المسألة الحساسة»

«لا بد لنا من فعل أي شيء في نهاية المطاف، بخلاف هذه الخطة»

عاشت إيمان طفولة مريرة، عندما خضعت لسطوة والدها الذي كان رجلاً طائشاً، قليل الحيلة، ضيق الأفق، شديد الصرعة، ولم يكن التعنيف اللفظي وسيلته الوحيدة لإخماد حسها الأنثوي الرقيق، وقمع صوتها الناعم، بل لجأ في كثير من الأحيان إلى ضربها وسجنها في سقيفة البيت.

اكتسب والد إيمان عدوانيته المفرطة، وبنى شخصيته الحازمة التي تطبعت بطباع حزب البعث، وتأثرت بأيديولوجيته الصارمة، عندما عمل في ريعان شبابه أميناً حزبياً في شعبة المدينة، ثم انقلبت شخصيته رأساً على عقب بعد ابتعائه إلى السعودية، حيث عمل فيها مدرباً للملاكمة لبضع سنوات، وبعد أن رجع إلى سوريا، أصبح يرى النساء في صورة الضلع الأعوج، والعورة المكشوفة التي لا بد من سترها وتعميتها بأسال الدين.

أصيب إيمان بحالة خوف مستديمة من الأماكن المعتمة، إثر مكوثها الطويل في السقيفة الضيقة، وكان صراخها يملأ البيت ضجيجاً، دون أن يكون باستطاعة والديها عتقها من قبضة زوجها؛ الذي كان يهددها بالطرده من البيت، ويرمي عليها يمين الطلاق إذا ما تفوهت بكلمة واحدة.

لم يكن باستطاعة إيمان النوم بعيداً عن الأضواء المبهرة، بعد أن أصبحت كوابيس العتمة، وأشباح الظلام تطاردها من ليلة لأخرى، وتترأى لها أثناء نومها بأشكال متعددة.

اضطرت إيمان مكرهة للتخلي عن مدرستها الإعدادية؛ بعد أن أظهرت تفوقاً

لافتاً في دراستها، وكانت حجة والدها في ذلك، أن نظام التعليم المختلط بين الذكور والإناث يفسد الإنسان الصالح، ويبعده عن طاعة ربه.

أثر والدها بقاءها في البيت بذريعة أن التعليم في المدارس والجامعات سيسلخها عن قيمها العائلية المحافظة، وسيدفعها للانحراف والضياع في أحضان الشباب.

تخلصت إيمان من سطوة والدها، بعد ارتباطها بابن عمته محمود؛ الذي أمضى ردحاً طويلاً من حياته خارج البلاد؛ أنفقها في تجارة الألبسة النسائية متنقلاً بين تركيا ولبنان إلى أن استقر به المقام في بلدة البيضا.

منيت إيمان بخيبة أمل كبيرة في أولى أيام جولتها التي قادتها إلى بيت جارتها فاطمة، ولكنها لم تعدم الأمل داخل روحها المتوثبة، بل استمرت طوال يومين كاملين في قرع الأبواب المؤصدة، وولجت إلى معظم بيوت البلدة؛ انطلاقاً من بيت فاطمة التي وافقت على خطبتها كأول امرأة من نساء البلدة.

عبرت إيمان عن شكيمتها وجسارتها التي جمعت بين روح الثورة المتأصلة في وجدانها، ورصانة موقفها الإنساني في الدفاع عن الأولاد والأزواج، مهما بلغت الأثمان المترتبة عن ذلك الموقف.

في هذه الأثناء، تحدثت إيمان مع نساء البلدة اللواتي دلفت إلى بيوتهن، وقالت لهن بيقين لا يخامرهن الشك:

- يجب أن نفعل ما بوسعنا لإنقاذ أزواجنا وأولادنا الذين خطفهم رجال الأمن أمام أعيننا؛ علينا أن لا ننكسر أمامهم أبداً، فبالأمس القريب سرقت قطعان الشبيحة بيوتنا، ونكلت برجالنا، وغداً قد يقوم جنود الجيش باغتصابنا إذا استمررنا في صمتنا، وربما يذبحوننا ذبح النعاج؛ دون أن يسمع أحد صراخنا، لذلك كله، يجب أن يسمع العالم صوتنا القوي: نحن أبناء الساحل؛ كرامتنا أهم من الخبز، وأهم من الهواء الذي نتنفس، وإذا كان النظام قد خطف رجالنا، فعليه أن يعرف جيداً، أن البيضا وبانياس كلها رجال، حتى النساء هنَّ بصلابة الرجال.

لبت نساء البيضا نداء إيمان، وبدأن في التوافد إلى ساحة البلدة منذ ساعات الصباح الباكر.

احتشدت أكثر من خمسمائة امرأة وطفل في الساحة؛ تقدمت إيمان صفوف النسوة المحتشدات، وهتفت قائلة لهن بأعلى صوتها:

- أخواتي العزيزات! طاب يومكن، وشكر الله سعيكن لفعل الخير؛ قبل أن ننطلق إلى الطريق العام، دعونا أولاً نقصد بانياس لطلب الدعم والموازنة، فعددنا قليل جداً. وهنا ردت إحدى النسوة:

- أنت على حق، يجب أن نقصد بانياس لطلب الدعم. خطت إيمان أولى خطواتها الواثقة نحو مدينة بانياس، غير أمهة بتهديدات النظام، وسارت خلفها مئات النساء والأطفال اليافعين.

أثناء الطريق إلى بانياس الذي استغرق بضع دقائق، تهاست النسوة بأحاديث جانبية حول مصير أزواجهن المختطفين:

«كان الله يعون أولادنا ورجالنا؛ أشعر بقلق شديد حيالهم»
«أنتِ على حق»

«الله أعلم ما حالهم الآن عند الشبيحة»

«عصابات الشبيحة لا ترحم أحداً؛ إنها قطعان متوحشة مهيئة آدمية»

«سننتقم من الظالمين إن شاء الله»

«يا أخوات من الآن وصاعداً، لم يعد هناك خوف، لقد أصبح الخوف وراء ظهورنا»

«لن نخاف بعد الآن إلا من الله»

«كرامتنا أهم من كل شيء في هذه الدنيا وما فيها»

في هذه الأثناء، وصلت إيمان إلى مداخل مدينة بانياس وسط دھول جنود الجيش؛ الذين حاصروها بشدة، وأحكموا إغلاق مداخلها ومخارجها بعشرات الدبابات والآليات العسكرية الثقيلة.

التقت أعين النسوة بأعين الجنود والضباط الذين امتلأت قلوبهم بالدهشة، وأصبحوا في حالة ارتباك وتخط، دون أن يكون باستطاعتهم مواجهة الموقف. حدقت النساء شزراً في أعين الجنود الذين لم يعيروهن أي اهتمام بدورهم، وتركوهن يمضين في طريقهن إلى المدينة.

فتك الشك برأس النقيب حسان، وعجز عقله الباطن عن فهم ما كان يجري من حوله، فما رآته عيناه لا هو بمظاهرة صامته، ولا هو اعتصام حاشد في مكان بعينه. استمر قائد الكتيبة في رصد حركة النساء والأطفال بواسطة المنظار الحربي إلى أن بلغن وسط المدينة، وتوغلن في أزقتها وحواريها الجانبية. أخفض النقيب حسان المنظار، وأخذ يحدث نفسه كالآله:

«هل من المعقول أنهن يعددن العدة لهجوم مباغت؟ ولكن هل باستطاعتهن أن يهجمن علينا؟ كلا؛ يستحيل أن يفعلن ذلك، فإن فعلن، ورب العزة، لأسحقهن سحقاً بالدبابات.. لا أعتقد أن باستطاعتهن شن هجوم مباغت، ولكن لماذا أتين إلى بانياس؟ أمر يبعث على الحيرة والدهشة؛ حقاً لم أعد أفهم شيئاً مما يجري حولنا»

وصلت نساء بلدة البيضا إلى مدينة بانياس، واحتشدن في ساحتها الرئيسة، وهنا أوعزت إيمان لرفيقاتها أن يتفرقن وينتشرن في الأزقة؛ لإبلاغ نساء المدينة، ودعوتهم إلى الاعتصام أمام الطريق الدولي.

ثم هتفت إيمان بوجاء:

– أئمنى أن تبدأن حالاً في الانقسام إلى مجموعات صغيرة، بغية الوصول إلى بيوت المدينة كلها.

تفرقت النسوة إلى مجموعات صغيرة، وفقاً لاقتراح إيمان، وأخذن يترقن أبواب البيوت في أحياء القصور والمحطة ورأس النبع والقوز.

استقبلت نساء بانياس شقيقتاهن القادمات من بلدة البيضا بكل حفاوة وتقدير. استخدمت نساء البيضا ذات الحجة التي استخدمتها إيمان معهن؛ لإقناعهن

بالمشاركة الفاعلة في الاعتصام المزمع عقده أمام الطريق الدولي.
رحبت نساء بانياس بفكرة المشاركة في الاعتصام، ووافقن على قطع الطريق الدولي تضامناً مع سكان بلدتي البيضا وبيت جناد، وبعد مرور ساعتين على وصول نساء بلدة البيضا إلى مدينة بانياس، لبت نساء المدينة كلها النداء دعماً لنساء البيضا اللواتي جازفن بحياتهن لإيصال دعوتهن إلى بانياس.
وفي تمام الساعة الواحدة ظهراً، احتشدت آلاف النسوة في ساحة المدينة، بعد أن أبدين استعدادهن ورغبتهن الشديدة في الانطلاق إلى الطريق الدولي.
بلغت أعداد النساء اللواتي لبين النداء من بانياس وحدها، حوالي أربعة آلاف امرأة؛ احتشدن بأعدادهن الغفيرة في ساحة المدينة.
وقفت إيمان في منتصف الساحة، وهتفت بأعلى صوتها:
- أخواتي العزيزات: سنطلق الآن إلى الطريق الدولي؛ لإيصال صوت أولادنا وأزواجنا المعتقلين للعالم كله، فلنكن يداً واحدة، ولنسقط الخوف من قلوبنا.
رددت النسوة عفوياً ودون تفكير:
- توكلنا على الله.
غادرت النسوة ساحة المدينة بخطوات ثابتة، ثم انطلقن في قافلة بشرية طويلة إلى وجهتهن الأخيرة، دون أن يمسسهن خوف أو وجل.

أصيب الجنود بالذهول والصدمة من هول أعداد القافلة الراجلة، دون أن يعرف أحدهم السبب الذي دفع آلاف النسوة للخروج من بيوتهن إلى وجهة غير معلومة.
وهنا أردف قائد إحدى الدبابات الرابضة للنقيب حسان متسائلاً:
- سيدي! ما حكاية أولئك النسوة؟
انقبض وجه النقيب حسان، وأجاب متأففاً:
- لا أعرف؛ لقد بات الوضع شديد الغموض، ولا أحد يعرف ماذا يجري هناك.
سأل قائد الدبابة مستفهماً:

- هل تعتقد أنهنَّ في مظاهرة راجلة؟

رد حسان متجهماً:

- مظاهرة! لا اعتقد ذلك، فلو كن يردن التظاهر؛ لتظاهرن في بلدتهن، فما حجتهن

للتظاهر خارجها؟

زفر قائد الدبابة قائلاً:

- إنه لأمر محير حقاً وأدعى إلى العجب منه إلى القلق.

واصلت النسوة سيرهن المتند بين سفوح الهضاب والتلال التي أحاطت بانياس وقرأها بمنابر خلافة؛ جمعت بين سحر الطبيعة الباهر، وعراقة المكان الذي روي ثراه بالدم.

لحق الجنود بقافلة النساء السائرات، واقتفوا آثارهن خطوة بخطوة؛ لمعرفة الأسباب التي دفعتهن للخروج من المدينة إرواءً لفضول قائد الكتيبة بعد أن غزت الشكوك رأسه.

وطأت أقدام النسوة الطريق الدولي الرابط بين محافظة طرطوس ومدينة بانياس؛ كان الطريق بمثابة شريان الحياة الذي وصل المدينتين الساحليتين ببقية المدن السورية التي تقاطعت طرقاتها الحيوية معه.

رابطت النساء أمام الطريق الدولي؛ احتجاجاً على اعتقال النظام لأزواجهن وأولادهن، وما إن مضت الدقائق الأولى لاعتصامهن الحاشد، حتى هرعت آليات الجيش التي أرسلها النقيب حسان إلى الطريق الدولي؛ لبث الرعب والدعر في قلوبهن، بغية إثنائهن عن مواصلة الاعتصام، وإرغامهن على التراجع.

لم تكثرث النسوة لتهديدات الجيش، ولم تعر آلياته المدرعة أي اهتمام، بل زاد وجودها على الطريق الدولي من إصرارهن على الاستمرار في المطالبة بإطلاق سراح أزواجهن، والكشف عن مصيرهم.

في هذه الأثناء، تقدمت إيمان صفوف النساء المرابطات، وبدأت في ترديد الهتافات

الحماسة التي رددتها معها آلاف النسوة، ودوّت أصدائها عميقاً في آذان عناصر الجيش ومئات المواطنين؛ الذين ترحلوا من حافلاتهم التي اصطفت في طابور طويل على جانبي الطريق الدولي، وشرعوا في مشاهدة الاعتصام الحاشد.

هتفت إيمان بملء فمها:

«يا بيضا كلنا معك للموت»

«الموت ولا المذلة وعن سوريا ما نتخلي»

«الله سوريا حرة وبس»

«بالروح بالدم نفديك يا سوريا»

جلجلت هتافات النسوة في أرجاء المكان كله، وأرعدت كلماتهن المدوية قلوب الجنود، وألهمت جسارتهن مشاعر المواطنين الذين فغروا أفواههم مذهولين من شدة بأسهن، وقوة إرادتهن.

أثارت هتافات إيمان حقن قائد الكتيبة، وفجّرت هياجه الأعمى الذي عبر عنه من خلال تهديداته التي أرسلها عبر مضخم الصوت؛ قائلاً بانفعال:

- المرأة المحترمة لا تخرج من بيتها .. المرأة المحترمة لا تقطع الطريق الدولي لأسباب تافهة وحجج واهية؛ لديكن خمس دقائق فقط لإخلاء الطريق، وإلا فإنني سأضطر مرغماً لاستخدام القوة، وقد أعذر من أنذر.

ما إن أخفض النقيب حسان مضخم الصوت من يده اليمنى، حتى تصدّرت إيمان الصفوف مجدداً، وانتصبت قامتها المشوقة أمام قائد الكتيبة، كامتشاق الحسام أمام أعين الأعداء، وأخذت تهتف هتافاً قوياً؛ تردد صداه بين سفوح الهضاب ورؤوس التلال.

صدحت إيمان بصوت جهور:

«الجيش والشعب يد واحدة»

فوجئ النقيب حسان، وأصيب بالدهشة والذهول، أكثر مما بدا عليه في المرة الأولى.

استلهمت إيمان هتافها من هتافات الثوار المصريين في جمعة الغضب؛ واستذكرت في ذهنها اليقظ، لحظة انطلاق أليات الجيش المصري إلى ميدان التحرير عندما طوقتها أجساد المتظاهرين المصريين؛ الذين نجحوا من خلال هتافاتهم الحماسية في استدرا عطف الضباط والجنود، واستلهمهم إلى صفوف الثورة.

فات إيمان وآلاف النسوة اللواتي رددن هتافها، أن الجيش المصري الذي تعاطف مع ثورة الخامس والعشرين من يناير، ليس كالجيش السوري الذي سخره النظام؛ لقمع الضمير، ووأد الروح.

صَمَّ النقيب حسان أذنيه، وأغمض عينيه، فبدا وكأنه في عالم آخر؛ أثناء هتاف النسوة الذي استمر لأكثر من سبع دقائق، ونجحت النساء المربطات في كسر مهلته الزمنية التي توعدهم فيها بالويل والثبور وعظائم الأمور، إذا ما اسْتَمَرَزْنَ في قطع الطريق الدولي.

لم يجد قائد الكتيبة بدءاً من إطلاق النار في الهواء، لفض الاعتصام وإرعاب النساء وإرهاهن، وبث الذعر في قلوبهن.

أوعز النقيب حسان إلى جنوده بالاستعداد لإطلاق النار، وتسديد فوهات بنادقهم نحو الأفق، ثم صات بأعلى صوته:
- عسكري! نار.

فتح الجنود نيران بنادقهم الآلية التي لعل رصاصها الحارق في جوف السماء. أخذ أزيز الرصاص المتطاير في الهواء صوت النساء المعتصمات لبضع دقائق معدودة، وغطى دويه على هتافتهن دون أن يصيبهن بذعر أو يفت من عضدهن، بل زاد عزيمتهن قوة وإصراراً على مواصلة الاعتصام.

فجأة؛ تحدج صوت الرصاص، وبدأت مخازن الذخيرة بالنضوب شيئاً فشيئاً إلى أن انقطع الصوت بشكل نهائي.

حدّق الجنود في سحنة قائدهم لتلقف الأوامر العسكرية، قبل أن يعاودوا استبدال

مخازنهم الفارغة بمخازن ممتلئة، لكنهم لم يحصلوا على أي إشارة، بل ذهبوا عندما رأوه مطرقاً رأسه، وأخذ يذرع الطريق هائماً على وجهه لا يلوي على أحد. عاودت النسوة الهاتف مجدداً، واشتد وطيس حماسهن، أكثر مما كن عليه في اللحظات الأولى لاعتصامهن.

أنهى قائد الكتيبة تردده، وقرر الاتصال بإدارة المخابرات العسكرية؛ لوضعهم في صورة ما يحدث أمامه، وتبرئة ساحته من المسؤولية. انتزع النقيب حسان جهاز الهاتف المحمول من جيب بزته العسكرية، ثم هتف بصوت جهور:

— ألو .. السيد رئيس إدارة المخابرات العسكرية، أنا النقيب حسان قائد كتيبة المشاة في الفوج الثامن.

رد العقيد خليل، وهو ضابط رفيع المستوى في إدارة المخابرات العسكرية في محافظة طرطوس؛ ثم سأل بغطرسة:

— ماذا لديك؟

ابتل حسان ريقه، وقال بإذعان:

— احترامي سيدي! لقد رَصَدَ جنودنا اعتصام حاشد لأكثر من أربعة آلاف امرأة من سكان مدينة بانياس.

نهض العقيد خليل من خلف طاولة مكتبه الوثير وسأل باندهاش:

— أين يعتصمن؟

أجاب حسان بجدية:

— أمام الطريق الدولي.

سأل العقيد خليل بانفعال:

— وماذا يفعلن هناك؟

رد النقيب حسان بصوت مشبع بالغضب:

— إنهن يقطعن الطريق أمام حركة الحافلات.

سأل خليل مستفهماً:

- هل أنت متأكد من أعدادهن؟

قال حسان بثقة:

- نعم سيدي؛ إني متأكد من ذلك.

أردف العقيد متسائلاً:

- وما حجتهم في ذلك؟

رد حسان باشمزاز:

- يردن إطلاق سراح أزواجهن وأولادهن المعتقلين.

قال العقيد خليل متأففاً:

- سأتابع الموقف عن كثب؛ أكمل عملك معهن بأسلوب المناورة والمراوغة لحين

وصولي إلى بانياس.

رد حسان بإذعان:

- أمرك سيدي.

التفت النقيب حسان نحو حشود النساء اللواتي اعتصمن في الجهة الأخرى

المقابلة لمكان وقوفه؛ التقط المضخم الصوتي، وهتف بأعلى صوته الجهور:

- اصغين لقولي، اصغين وانظرن من فضلكن.

توقفت النسوة عن الهتاف، وأصخن أسماعهن، ثم حدقن في سحنة قائد الكتبية

الذي استكمل حديثه الانهزامي قائلاً:

- تكلمت قبل قليل مع إدارة المخابرات العسكرية بخصوص قضية أزواجكن

وأولادكن المعتقلين؛ لقد تعهد سيادة العقيد خليل في حلها بأقصى سرعة، وهو الآن

في طريقه إلى بانياس، ولكن ثمة شروط لا بد من مراعاتها.

سألت النسوة بفضول:

- ما هي شروطه؟

- ماذا يريد؟

تنحني النقيب حسان، وأردف قائلاً:

- الشرط الأول أن تفتح الطريق الدولي أمام حركة الحافلات؛ الشرط الثاني أن ترجع إلى بيوتكن حالاً دون تأخير أو إبطاء.
سألت إيمان بنبرة حادة:

- وما الذي يضمن لنا أنكم ستفرجون عن أولادنا وأزواجنا؟

شهق النقيب حسان، ثم أجاب جواباً مخاتلاً:

- إدارة المخابرات العسكرية هي الجهة الضامنة للإفراج عنهم؛ على أي حال، من ترجع إلى بيتها أولاً ستري زوجها وأولادها خلال الساعات القادمة، ومن لديها الرغبة في الماطلة؛ قسماً بشرفي العسكري لن ترى زوجها طيلة حياتها .. هيا لكن الآن حرية الاختيار، فاخترن بسرعة.

اقتربت النسوة من بعضهن البعض إلى أن تعاضدت أذرعهن، وتلاحمت أكتافهن، ثم بدأن يتهايمن ويتمتمن بكلمات تناثرت حروفها من أفواههن خوفاً وأرقاً على أزواجهن، وأبدن خلالها هواجسهن من أكاذيب المخابرات، ووشوشن لبعضهن بسيل من الأسئلة:

«هل يعقل أن كلامه صحيح؟»

«لا أعرف!»

«قد يكون كلامه عبارة عن مناورة لعينة لإضاعة الوقت وتبديده»

«اعتصامنا أمام الطريق الدولي خطوة مهمة جداً، ولكن الأهم اعتصامنا في بانياس؛ فلنرجع إلى بيوتنا، وننتظر تنفيذ مطالبنا، وإذا لم ينفذوها سنعاود الاعتصام في ساحة المدينة»

«فكرة معقولة»

حدقت النسوة المعتصمات بعضهن في أعين البعض، ثم أومئن رؤوسهن على مضض كإشارة منهن في الموافقة على الاقتراح الذي قدمه النقيب حسان، بعد أن انعدمت أمامهن جميع الخيارات، ولم يبقَ لديهن أي خيار آخر سوى القبول في العرض

المشروط.

في هذه الأثناء، دوى رنين جرس الهاتف المحمول؛ استلت سوسن هاتفها من جيب جلبابها الطويل، وبدأت في استقبال المكالمة.

كانت سوسن زوجةً لأحد وجهاء بانياس؛ تحدثت معه لبضع ثوانٍ، ثم أغلقت هاتفها، والتفت إلى النسوة اللواتي انتظرنها بصبر نافذ، ثم هتفت لهن بحماس:

- يا أخوات ..

قاطعتها إحدى السيدات، وسألته بتلهف:

- ما الخطب؟ هل هناك أي أخبار جديدة؟

هتفت سوسن بفرح غامر:

- أجل؛ لقد تكلم إلي زوجي عادل، وأبلغني أنه التقى العقيد خليل قبل قليل،

وقد وافق على جميع مطالبنا.

أردفت إيمان بارتياح:

- هذا يعني أن كلام الضابط الذي تحدث إلينا قبل قليل دقيق.

مطّت سوسن شفيتها السميكتين، وخمنت قائلة:

- اعتقد أن مدير المخابرات قد أرسل وفدًا تفاوضيًا إلى بانياس للبحث في مطالبنا.

وهنا سألت إحدى النساء بقلق بالغ:

- وما الضامن أن المخابرات ستطلق سراح أزواجنا وأولادنا؟

أجابت سوسن بثقة:

- لا تقلقن؛ لقد أكد لي زوجي أن جميع المعتقلين سيطلق سراحهم خلال

الساعات القادمة.

التقطت النسوة نفسًا عميقًا، ثم هتفن بارتياح:

- توكلن على الله يا أخوات.

- ونعم بالله.

غادرت النساء موقع الاعتصام، بعد أن أرغمن النظام على التفاوض معهن،

والاستجابة لمطالبهن.

صبيحة اليوم التالي؛ ظفرت النساء بإطلاق سراح أولادهن وأزواجهن؛ الذين كادوا أن يختفوا في زنازين النظام لولا اعتصامهن الحاشد. استجاب النظام لمطالب نساء بلدة البيضا، وأفرج عن أزواجهن وأولادهن، إلا أن تلك الاستجابة لم تكسر جبروته، وتفت من طغيانه الذي تجلى في استمرار حصاره لبانياس والقرى المحيطة بها؛ التي شحت مياهها وسبحت بيوتها في ظلام دامس دام لأكثر من عشرين يومًا.

عاود سكان بانياس التظاهر مرة أخرى في ساحة مدينتهم، تعبيرًا عن سخطهم وحنقهم الشديدين؛ بسبب أوضاعهم المزرية الناجمة عن الحصار الخانق، رغم التحذيرات والتهديدات التي أشاعها إعلام النظام في اجتياح المدينة بذريعة القضاء على الإرهابيين والمندسين.

استغل النظام حادثة مقتل عناصر المجموعة الثانية في كتيبة المشاة التي قادها الرقيب بلال، وزاد من جراء تلك الحادثة من حملات التصعيد ضد بلدات الساحل؛ انطلاقًا من مدينة بانياس التي لبت نداء الثورة مبكرًا، وتلقفت رايتها من درعا. هدف النظام من وراء حصاره العسكري إلى وقف امتداد جذوة الثورة، ومنع انتشارها في معاقله الأساسية بما فيها القرى الموالية؛ التي شكلت خزانًا بشريًا ضخماً لمليشيات الشبيحة.

(29)

صبيحة يوم الجمعة الموافق للتاسع والعشرين من شهر أبريل، هبت مدينة بانياس عن بكرة أبيها، ولَبَّ مواطنوها نداء جمعة الغضب؛ الذي أطلقه الناشطون على مواقع التواصل الاجتماعي.

انطلقت في ذلك اليوم؛ كبرى المظاهرات من السوق الرئيسي الكائن وسط المدينة، وامتدت بعد ذلك إلى مسجدي الرحمن وأبي بكر.

ردد المواطنون الغاضبون هتافات حماسية، وشعارات ثورية، ورفعوا لافتات دونوا عليها؛ أقوى عبارات التنديد والاستنكار بجرائم النظام والتي كان منها:

«إذا كان سلاحك النار والبارود .. فسلحنا الزهور والورود»

احتشد آلاف المواطنين في ساحة السوق الكائنة وسط مدينة بانياس، وحملوا في أيديهم باقات الزهور والرياحين، ثم لوحوا بها عاليًا لجنود الجيش وضباطه؛ الذين لم يرف لهم جفن وينبض فيهم عرق استجابة لندائهم الإنساني في إنهاء الحصار عن مدينتهم، ودعم تطلعاتهم في حياة حرة وآمنة.

اكتفى ضباط الجيش الذين كانوا يحاصرون مداخل بانياس ومخارجها في مراقبة المظاهرة العارمة، وأباحوا لأنفسهم المزيد من الذرائع لاستقدام قوات إضافية؛ بغية تعزيز سيطرتهم الكاملة على المدينة؛ استعدادًا لاقتحامها وإخماد جذوة الثورة في أرواح قاطنيها؛ الذين واصلوا ترديدهم للهِتافات الحماسية دون انقطاع.

سار المتظاهرون الغاضبون نحو موقع الدبابات والآليات العسكرية، ولوحوا للجنود والضباط بباقات الزهور، وهتفوا بملء أفواههم:

«الجيش والشعب يد واحدة»

«واحد .. واحد .. واحد .. الشعب السوري واحد»

وَجَمَ النقيب حسان، وامتنعت سحتته، واكفهر وجهه، واعتبر ذلك تحديًا لإرادته، وكسرًا لهيبته، رغم أن هتاف المواطنين كان لاستنهاض همم الجنود الذين حوّلهم النظام إلى أداة لقتلهم، وتدمير بيوتهم.

وقبل أن يختم المتظاهرون يومهم الثوري، ألقوا الزهور والورود على هياكل الدبابات والمدرعات الثقيلة؛ التي لم تبعد عنهم سوى بضعة أمتار قليلة.

رفع ذلك الموقف من عقيرة النقيب حسان، وأثار هياجه الأعمى الذي دفعه إلى البصاق في وجوه المتظاهرين من مسافة بعيدة، ثم تمتم قائلاً بغضب:

- تَبّاً لكم، ولثورتكم النحس .. تَبّاً للحرية التي تنادون بها.

دفعت جمعة الغضب التي تحدى فيها الأهالي الحصار المفروض عليهم؛ النقيب حسان إلى استقدام المزيد من التعزيزات العسكرية التي قام بزجها في المدخلين الشمالي والجنوبي المؤديين إلى بانياس؛ لإكمال الحصار وإحكامه عليها بشكل تام.

عشية يوم الأحد الموافق للأول من شهر مايو، استقبل العقيد خليل في مكتبه الكائن في مقر قيادة المخابرات العسكرية في محافظة طرطوس، قائد ميليشيات الشبيحة عباس ومساعدته أكثم، إضافة إلى رجلين آخرين من وجهاء بلدة السودا.

استهل العقيد خليل حديثه في الترحيب الحار بضيوفه، قائلاً بابتهاج:

- أهلاً وسهلاً بكم؛ أشكركم على حضوركم الكريم، وتلبيتكم دعوتي في

الوقت المناسب.

رد عباس بصوت جهور:

- سررنا بلقائك.

تنهد العقيد خليل عميقاً، ثم زفر قائلاً:

- أظنكم أصغيتم مؤخراً لأحدث هتافات كلاب الثورة.

هزّ عباس رأسه، وسأل مستنكرًا:

- نعم؛ وما الحديد فيها؟ بالنسبة لي؛ ليس هناك فرق كبير بين هتافاتهم الحقيرة ونباح الكلاب.

ازدرد خليل ريقه، وأردف قائلاً:

- لا شك في ذلك، أوافقك الرأي، ولكن الخطير في الأمر، أنهم يدعون إلى وحدة الشعب السوري.

وهنا تدخل الشيخ إبراهيم مختار بلدة السودا وسأل مستفهمًا:

- أين المشكلة في ذلك؟

رد العقيد خليل باستنكار:

- هل تقبل أن تضع يدك بيد هؤلاء الأنجاس؟

أجاب المختار إبراهيم بتؤدة:

- قطعاً لن أضع يدي في يدهم.

هتف خليل بانسراح:

- عظيم.

تدخل عباس؛ وسأل سؤالاً رمى من ورائه إغاظة العقيد خليل:

- صار لكم تضعون يداكم بيد هؤلاء الأنجاس منذ أربعين عامًا؛ فما الذي تغير اليوم؟

ابتل خليل ريقه وأجاب محاججًا:

- كل شيء قد تغير، والعالم يتغير من حولنا، ألا تلاحظ ذلك؟

رد عباس ردًا مقتضبًا أخفى ورائه بغضًا كبيرًا:

- بلى.

التقط العقيد خليل نفسًا عميقًا ثم أردف بحزم:

- أخوتي الأعزاء! ما كان في الأمس أصبح اليوم وراء ظهورنا؛ من الآن وصاعدًا، علينا أن ننحي خلافاتنا جانبًا، ونطمر عداواتنا، وننكر ذواتنا.

زفر عباس عميقًا، وقال موافقًا لكلام العقيد خليل:
- حسنًا.

أكمل خليل كلامه قائلاً بدهاء:

- يجب أن ننظر بعين ثاقبة إلى المستقبل، لنفترق بين الغث والسمين، ونميز الصديق من العدو؛ فمستقبل وجودنا في هذا البلد أصبح يتهدده الخطر، إذا لم نقف سوية ضد هؤلاء الأنجاس الذين يسعون من وراء ثورتهم إلى قلب الطاولة على رؤوسنا، وسحب البساط من تحت أقدامنا؛ بغية تجريدنا من امتيازات السلطة، وردّها إليهم كما كانت قبل وصولنا إليها، وإن حصل هذا الأمر - لا قدر الله - سنكون عبيدًا وخدمًا لهم إلى الأبد.

هتف المختار إبراهيم بانفعال:

- لن ينالوا إلا نعالنا.

صفّق العقيد خليل بكلتا يديه، وهتف بارتياح:

- صدقت أيها الشيخ الجليل، لكن الأقوال وحدها لا تساوي شيئًا دون أن يكون هناك أفعالًا.

رد إبراهيم بحماس:

- إننا مستعدون لفعل أي شيء ينقذنا من السقوط في براثنهم.

سأل عباس بعنجهية:

- حسنًا؛ ما هو المطلوب منا فعله؟

استل العقيد خليل سيجاره الكوبي الفاخر من درج المكتب؛ أشعل رأسه الجاف بالقداحة، ثم جذب نفسًا عميقًا، وأنشأ قائلاً بدهاء واحتيال:

- يجب أن تحرّضوا سكان القرى ضد الثورة.

قطّب عباس حاجبيه، وسأل مستفهمًا:

- كيف؟

نفث خليل الدخان الأبيض من بين شفثيه الداكنتين؛ وأخذ يتطلع إليه في صبر

وتأمل، بدا وكأنه يُقلب أفكاره الشيطانية في رأسه، ثم أردف قائلاً:
 - أنتم سوف تبدءون بزرع الرعب والخوف في قلوب أتباعكم، ونحن سوف
 نبدأ في افتعال الأزمات الأمنية بين القرى الموالية والمعارضة.
 سأل أكثرهم ببلاهة:

- عذراً سيدي؛ هلا أوضحت قليلاً؟
 زَمَّ العقيد خليل شفتيه، وقال بانزعاج مكبوت:
 - حسناً؛ لا بأس، المسألة بكل بساطة، عليكم أن تعقدوا اجتماعات دورية
 مكثفة مع أبناء قراكم لإنبائهم وإقناعهم، أن المتظاهرين الأنجاس سوف يقومون
 بذبح الرجال، وسبي النساء، واغتصاب الفتيات، بغية الانتقام لقتلاهم الذين
 قضوا في أحداث مدينة حماة في ثمانينات القرن الماضي.
 هتف الشيخ إبراهيم بحمية:

- إن كان الأمر كذلك، سأتولى بنفسى إدارة هذه اللقاءات وتنظيمها بشكل
 دائم.

أردف عباس بصوت غليظ:
 - سنعينكم في ذلك.
 عقب العقيد خليل قائلاً لعباس:
 - أرجو أن تبذل جهودك في تهيج الشباب، بغية تحريضهم على الانضمام إلى
 مجموعاتك المقاتلة، فإن نجحت في فعل ذلك، سنقوم بمدك بكميات كبيرة من
 الأسلحة والذخيرة.

انبسط وجه عباس وقال بابتهاج:
 - عظيم؛ لقد اتفقنا.

لم يغب عن ذهن النظام اللجوء إلى الشحن الطائفي؛ الذي برعت أجهزته
 الأمنية في إشاعته بين سكان القرى الموالية من خلال الضرب على الوتر الحساس

بين جميع المكونات الدينية والمذهبية، والتحريض ضد الثورة. سعى النظام من وراء الشحن الطائفي إلى وقف تمدد الثورة، وإنقاذ كيانه من الانهيار، من خلال حصر الطائفية بمئة معينة من الشعب السوري، وإلباسها رداء التطرف الإسلامي المتشع بسواد الإرهاب، وبث المخاوف بين مكونات المجتمع لتأليبها على الثورة، واستمالتها إلى جانبه عندما أظهر نفسه في وسائل الإعلام بموقع المدافع عنها.

بدأ النظام في تنفيذ مآربه الخبيثة، وتمرير مخططة الشيطاني بالنفخ في قربة الطائفية؛ اعتماداً على ميليشيات الشبيحة التي لعبت دوراً كبيراً في إشاعة الرعب في قراها وبلداتها، وملأت قلوب السكان بالخوف من الثورة، ثم قامت بتوزيع السلاح عليهم بتشجيع من النظام ودعّمه.

باءت مساعي النظام في وقف تمدد الثورة بالفشل الذريع، فرغم سعيه الدؤوب للتحريض الطائفي بين السوريين، وبإشراف مباشر من قادة الأجهزة الأمنية الذين وفدوا إلى القرى والبلدات حاملين معهم بذور الفتنة؛ إلا أن الوعي الثوري الذي عبرت عنه الجماهير الغاضبة في هتافات الوطن، عرّى ألابيه وكشف عوراته. ظهر الوعي الثوري عند الجماهير المنتفضة من خلال هتافات الصاخبة؛ التي دوت أصداؤها في أنحاء سوريا كلها:

«واحد .. واحد .. واحد .. الدم السوري واحد»

«واحد .. واحد .. واحد .. الشعب السوري واحد»

(30)

عشية يوم الاثنين الموافق للثاني من شهر مايو، أصدر النظام إيعازًا لوحداته العسكرية، وقواته الأمنية المراقبة على تخوم مدينة بانياس في البدء باقتحامها واعتقال مواطنيها؛ بذريعة القبض على المجموعات الإرهابية المسلحة.

قبل أن تبزغ شمس الأصيل، وتنشر نورها الساطع على مدينة بانياس؛ توغلت دبابات النظام في ساعات الفجر الأولى ليوم الثلاثاء الموافق للثالث من مايو إلى منطقة السوق، وانتشرت في الشارع العام الذي اعتاد الناشطون على ارتياد مقاهيه الشعبية؛ لتنظيم المظاهرات الحاشدة وتسييرها إلى بقية الأحياء.

أحكمت الآليات العسكرية الثقيلة حصارها الخانق على المدينة، وأقفلت جميع المداخل المؤدية إليها.

استفاق المواطنون على هدير محركات الدبابات التي اجتاحت السوق الرئيسي، وتمركزت وسطه.

تسمّر مئات المواطنين الذين أقاموا في منطقة السوق أمام نوافذ بيوتهم، ورمقوا بأعينهم الجاحظة من خلف الزجاج، انتشار عشرات الدبابات التي راحت تجوب الشارع العام، ذهابًا وإيابًا، بغية فرض سيطرتها المطلقة، وتحديد نقاط ارتكازها.

صُعق المواطنون، وأصيبوا بالذهول عندما شاهدوا الدبابات وسط السوق، فلم يتبادر إلى ذهنهم، نية النظام في اجتياح أحيائهم بواسطة الدبابات والآليات الثقيلة التي هبط منها الجنود وشرعوا في نصب الحواجز العسكرية، بمشاركة رجال الأمن والمخابرات.

في هذه الأثناء، نزل المواطنون من شققهم، وهرعوا إلى السوق لمواجهة الدبابات

بصدورهم العارية وأجسادهم الناحلة.

احتوى شارع السوق على بيوت المئات من الثوار والناشطين، وكان من أبرزهم الناشط موسى، وهو أحد أهم شباب الحي الذين شاركوا في تنظيم المظاهرات وتسييرها في مدينة بانياس.

غادر موسى شقته في ثياب النوم، دون أن يتسنى له تبديلها، وهبط سلم العمارة بخطوات متعجلة، ثم اتجه إلى الشارع.

وما إن وطأت قدماه أرض الشارع، حتى أخذ يصرخ بأعلى صوته:
- أين أنتم يا رجال؟ أين أنتم يا أهل بانياس؟ يا أهل النخوة والمروءة! استفيقوا من سباتكم، فدبابات النظام تملأ الشوارع.

أصغى طارق الذي كان يحشد الشبان في الطرف الآخر من السوق، لنداء رفيقه موسى، فما كان منه إلا أن رد عليه بأعلى لصوته:

- أخي موسى! إننا معك حتى الموت.

هرول موسى في اتجاه طارق، وعندما أدرك موقعه، هتف له بأنفاس لاهثة:

- يجب أن نتحرك بأقصى سرعة.

سأل طارق متلهفًا:

- إلى أين؟ هل لديك خطة بعينها؟

هزّ موسى رأسه، وأجاب باقتضاب:

- أجل.

سأل طارق بفضول:

- ما هي؟

التقط موسى أنفاسه المضطربة، وأردف قائلاً في اتجاه آخر بعيداً عن سؤال صاحبه:

- لقد غدر بنا أولاد الحرام على حين غرة، وتسلموا إلى السوق في غفلة منا، فلو

كانوا رجالاً بحق لما فعلوا ذلك في جنح الظلام.

سأل طارق باضطراب:

— أرجوك؛ إذا كانت لديك خطة بعينها، قل لي من فضلك، ماذا يجب أن نفعل الآن؟

تنهد موسى تنهيدة طويلة، والتقط أنفاسه، ثم قال ببداهة:

— يجب أن نرسل أربعة شبان على الفور؛ الشبان الأول إلى حيي القصور والقوز، والشاب الثاني إلى حيي الميدان والمحطة، والشاب الثالث إلى حيي القبياء، أما الشاب الرابع إلى منطقتي رأس النبع والكورنيش.

سأل طارق بصبر نافذ:

— لماذا؟

أجاب موسى برزانة:

— كي يبلغوا أهالي الأحياء، بأن يتوخوا حذرهم الشديد من اقتحام الدبابات، وكي لا يقعوا في ذات الفخ الذي وقعنا فيه اليوم.

حدّق طارق في أعين الشبان الذين وقفوا بجواره، ثم أردف لهم قائلاً:

— هيا يا رجال؛ توكلوا على الله.

انطلق الشبان الأربعة إلى الأحياء الرئيسة التي حددها موسى، بغية إخطار سكانها بالفاجعة التي حلت بمنطقة السوق، فيما بقي ثلاثة شبان آخرين بصحبة موسى وطارق.

حمّل موسى في عيون رفاقه، وتفرّس وجوههم لهنيهة، بدا وكأنه أراد أن يقول لهم شيئاً بعينه، ثم عدل عن رأيه قائلاً في حزم:

— سأنتقل الآن.

سأل الشبان بصوت واحد:

— إلى أين؟

أجاب موسى بإصرار:

- إلى مواجهة «أولاد الحرام»

وجهت وجوه الشبان، وانعقدت ألسنتهم عن الكلام؛ وهنا هتف موسى قبل أن يشق أولى خطواته، وقال بأنفة وإباء:

- لن أشرح لكم لماذا أنا ذاهب إلى مواجهة المجرمين؛ فإن فعلت، فإنكم ستعرضون لطريقي؛ بعد قليل، ستعرفون كل شيء، فلا تقلقوا.

في هذه الأثناء، شرع الجنود في نصب الحواجز على امتداد شارع السوق؛ لشل حركته، وحظر مرور الحافلات فيه، وإرغام السكان على ملازمة بيوتهم، ومنعهم من الخروج إلى أعمالهم.

كانت الحواجز التي نصبها الجنود في شارع السوق، عبارة عن كائنات أمنية؛ حوى كل كمين على خمسة جنود مدججين بالسلاح، قادمهم ضابط صف برتبة رقيب. انتشرت الدبابات وناقلات الجند بين الكائنات؛ لتوفير الحماية لعناصر الحواجز، وفرض وجودها بالقوة المسلحة.

خطا موسى بضع خطوات واثقة نحو إحدى الدبابات التي ربطت بمحاذاة الحاجز الرئيسي الكائن في مقدمة السوق.

بدت خطوات موسى كخطوات الليث المصور، ومضى شائحاً في مشيه الثابت كشموخ النسر في أعالي الجبال.

أعدم موسى الخوف في ثنايا قلبه، وفعل رفاقه الأربعة الذين اقتفوا آثار خطواته الأمر عينه.

سطرت خطوات موسى؛ لحظة جديدة في مسار الثورة، بدت كتلك اللحظات التي سطرها ثوار مدينة الإسكندرية والسويس، وميدان التحرير في القاهرة؛ عندما تصدوا للحِجَال والمصفحات الأمنية بصدورهم العارية، وهي نفس اللحظات التي تساوت فيها موازين الحياة والموت في قلب موسى.

أدركت قدما موسى الدبابة التي لم يعد بينه وبينها، سوى بضعة أمتار قليلة؛

وجّه قائد الدبابة مدفعها الرشاش، وسدد فوهة قاذفها نحو موسى لزرع الرعب في قلبه.

لم يأبه موسى لتهديدات قائد الدبابة، بل رماه بنظرة حادة؛ بدت أحد من نصل السيوف، وأقصى من نتوء الصخور؛ ثم أعقبها بنظرة غاضبة تطاير شررها مرعدًا في قلب قائد الدبابة الذي أدار محركها الجبار، وتقهر مدبرًا بضعة أمتار.

سار موسى بضع خطوات نحو موقع الدبابة المندحرة، وانتصبت قامته المصقولة بالصلابة والجساسة أمام هيكلها، وتسمّر خلفه رفاقه الأربعة الذين رصّوا صفوفهم كجذوع الأشجار المنغرس في باطن الأرض، دون أن يتزحزحوا قيد أنملة.

سدد قائد الدبابة فوهة مدفعها الرشاش نحو الأفق، وفتح نيرانها الحارقة بشكل جنوني لبث الذعر في أوصال الشبان الأربعة، إلا أن قلوبهم كانت أصلب من الرصاص المنهمر، وأحى من البارود المشتعل.

وصل الشبان الأربعة الذين ابتعثهم طارق وموسى إلى أحياء المدينة، وأبلغوا سكانها بالاجتياح الغادر الذي تعرض له حي السوق.

بدأ السكان في تحصين أحيائهم بالسواتر الترابية، ونصبوا الحواجز الإسمنتية والمعدنية، وجلبوا الإطارات البلاستيكية التي كوموها أمام مداخل الأزقة كلها؛ تحسبًا لأي اجتياح مباغت، ومنعًا لتقدم آليات الجيش داخل أحيائهم.

كانت الحواجز التي أقامها جيش النظام في منطقة السوق، إعلانًا رسميًا للحرب ضد الثورة، فيما كانت أكياس الرمل، والبراميل المعدنية، والإطارات البلاستيكية التي استخدمها المواطنون لحماية أحيائهم من اجتياح الجيش وقوات الأمن، ضربًا من ضروب المقاومة السلمية، التي عبر عنها موسى من خلال انتصابه الشامخ أمام الدبابات.

واصل موسى ورفاقه الأربعة صمودهم أمام الدبابات -التي وقف قادتها عاجزون عن فعل أي شيء- لثنيهم ودفعهم إلى التراجع والاستسلام.

لم يجد قادة الدبابات بدءاً من اللجوء إلى وسائل الترهيب؛ التي لم تجد نفعاً مع موسى ورفاقه، ما اضطرهم إلى استخدام أسلوب القتل المباشر، تحت غطاء مواجهة الإرهابيين والمهندسين الذي أباحه النظام لجنوده وضباطه، بأن يفعلوا ما يحلو لهم من قتل واغتصاب واعتقال وتنكيل لكرامة المواطنين؛ بما يحقق هدفه الأخير المتمثل في إسقاط الثورة، من خلال إشاعة أجواء القتل، عبر تصدير مشهد الدم.

في هذه الأثناء، حُمِّل جنود الحاجز الذين رابطوا بالقرب من الدبابات الرابضة بخطوات موسى في عيون ذاهلة، وأخذوا يصرخون بملء أشداقهم:

«ابتعد عن الدبابة يا حمار»

«اغرب عن وجهي»

«أرجع إلى الخلف يا بني آدم»

«تالله، لأفرمك فرم القطط والكلاب إن لم تبتعد من هنا»

لم يأبه موسى لعويلهم ولا لاستفزازهم، بل ازداد إصراراً على مواجهة جبروتهم، وتحدي دباباتهم المصفحة التي دلفت إلى المكان الخطأ، وأنشأ قائلاً في حزم:

– اسحبوا دباباتكم من شوارعنا؛ اسحبوها من أرضنا، فهذه الدبابات وجدت لتكون على حدود وطننا، وليس في أحيائنا للتبشير بقتلنا واحتلال مدننا وبلداتنا.

أمام عناد موسى وإصراره المتوثب، كسرت كلماته الأمثلة الشعبية القائلة: إن العين لا تستطيع أن تواجه المخرز.

وجه قائد الدبابة مدفعها الرشاش نحو صدر موسى الذي بدا أعزلاً من أي سلاح إلا من قميصه الرث، وقلبه الصلد الذي بث الرعب، وأثار الهياج في نفوس الجنود.

أدرك موسى بعينه المتلاشتين، نية قائد الدبابة ونوازه الشريرة في إفلات العنان لرشاشه الآلي ليفتك بلحمه الآدمي.

تماسك موسى، وازداد جأشه رباطاً استعداداً لاستقبال الموت بروح مطمئنة ووثقة باستمرار شعلة الثورة، واتقاد جذوتها من بعده.

وقف طارق بصحبة رفيقيه، خلف ظل موسى المنعكس على الأرض؛ لمؤازرته في الصمود أمام جحافل الجنود الذين كسروا عن أنيابهم، واستعدوا للهجوم. وما إن أطبق موسى جفنيه، حتى أفلت قائد الدبابة العنان لرشاشه الذي انهمرت رصاصاته الغادرة كشهب النار، واستقرت واحدة تلو الأخرى في الصدر الأعزل الشامخ.

سقط موسى مضرجاً بدمائه القانية، وفاضت روحه الثائرة إلى سماءات المجد، لتخلد مع الأرواح السامية التي قامت قيامتها، منذ أن اندلعت أولى شرارات الثورة. سيطر الجنون والهياج الأعمى على وجدان قائد الدبابة؛ الذي سعى من خلال حماقته الرعناء إلى إثبات رجولته بين جنود الجيش، وإرضاء ذاته المريضة التي لم ترتو غريزتها العدوانية عندما شاهدت ضحيتها المعمدة بالدم.

واصل قائد الدبابة اندفاعه الأهوج، وفتح جحيم نيرانه على كل من ظهر أمامه من المواطنين العزل، دون أن يرق قلبه أو ينكسر وجدانه.

واصلت الرصاصات الطائشة -التي فتكت بجسد موسى، واخترقت كبريائه الشامخ، كخرق القنابل لجدران القلاع الحصينة- طريقها إلى أجساد الشبان الثلاثة الذين سقطوا واحداً تلو الآخر مضرجين بدمائهم الزكية، لتسبح أرواحهم مع روح موسى، وتهميم وإياها في سماءات العلا.

تدثرت بانياس وشاحها الأسود، حزناً وكمداً على رحيل موسى ورفاقه، واستنشق أبناءها الأحياء نسيم الحرية الذي فاح عيره الزاهي من أجساد ثوارها؛ الذين ترجلوا عن الثورة برصاص الطغيان الذي أسال دمائهم القانية التي روت عطش الأرض، وأطفأت ظمأ الروح التواق للتححرر من قيود القهر والاستبداد.

ظن النظام أن حصار المدينة من خلال قطع الماء، والكهرباء، والاتصالات الهاتفية عنها، ومنع إدخال المواد الغذائية إليها، سيدفع سكانها للرضوخ والركوع، أمام أحذية الضباط والجنود، طلباً للخبز، والماء، والكهرباء، عوضاً عن المطالبة في

الحرية والكرامة.

كانت بانياس على موعد جديد مع المظاهرات، رغم الحصار العسكري الخانق لمنطقة السوق، وانتشار الحواجز الأمنية على طول شارع العام. ظهر يوم الجمعة الموافق للسادس من مايو، انطلقت المظاهرات الحاشدة في أنحاء سوريا كافة، تضامناً مع بانياس وبلداتها المحاصرة، باسم جمعة التحدي. ظهر التحدي جلياً في هذا اليوم العصيب، بين النظام المدجج بالأسلحة والمليشيات، ومدينة بانياس المحاصرة بدباباته وحواجزه وكمائنه الأمنية التي قطعت أوصالها.

لم تتأخر بانياس عن اللحاق بركب المظاهرات؛ التي انطلقت منذ ساعات الفجر الأولى في مدينتي حمص ودرعا، لتتبعها بعد ذلك بقية المدن السورية مع سطوع أشعة الشمس، واتساع قرصها الملتهب في الدفء والحماس. أنشد المتظاهرون نشيد الحرية من أقصى بقعة في شمال سوريا إلى أقصى بقعة في جنوبها، ولبَّ ثوارها نداء التضامن مع بانياس وريفها المحاصر، وهزجت الحناجر أقوى الأهازيج الحماسية:

«يا بانياس كلنا معك للموت»

انسابت أناشيد الثورة التي ردها المتظاهرون إلى مدينة بانياس، ودوّت حروفها العذبة، وكلماتها الرقيقة عالياً في سماء المدينة المحاصرة. لبَّ أبناء بانياس نداء الثورة، وهدرت حناجرهم بهتافاتها التي انطلقت من أحياء القصور والمحطة والقوز، رغم انتشار الدبابات في منطقة السوق، وحصارها لأطراف المدينة التي جثمت فوق صدرها الشامخ، كما تجثم الغربان فوق رؤوس الجبال.

احتشد الآلاف من أبناء بانياس في الأحياء الثلاثة، واشربأت أعناقهم نحو

السماء، وارتفعت أذرعهم عاليًا، وصَّروا قبضاتهم، وأخذوا يرددون هتافات الثورة بعزم وإصرار:

«الشعب يريد إسقاط النظام»
«بالروح بالدم نفديك يا سوريا»
«الله سوريا حرة وبس»

جلجلت هتافات الثوار في مسامع ضباط النظام وأرعدت في قلوبهم، وجعلتهم يحسبون خطواتهم بحذر شديد، قبل انقضاضهم على المدينة التي حاصروها من الجهات كلها، كما فعلوا مع مدينتي درعا وحمص.

ازداد هياج عباس عندما تناهت لأذنيه أناشيد الثورة وهتافاتها المدوية؛ التي انسابت من أحياء بانياس الراححة تحت جور الحصار إلى بلدة السودا.

تسمّر عباس فوق سطح بيته الذي أطلت واجهته على حي المحطة الذي ظهر مكتظًا بالمتظاهرين؛ وكان محاطًا برهط من عناصر الشبيحة، وأخذ يحدق في حشود المتظاهرين بعينيه الغائرتين اللتين طفرتا بالأحقاد والضغائن.

تنخّم عباس ما في جوفه وخيشومه من مخاط ولعاب، وظل يقذفها بقرف واشمئزاز عبر الهواء الطلق في اتجاه المتظاهرين الغاضبين؛ كلما تناهت هتافتهم لأذنيه الملتحمتين.

لم يطق سماع المزيد من الهتافات، فما كان منه إلا أن أطلق سيلاً عارماً من الشتائم المقدعة للمتظاهرين؛ قائلاً بغضب:

- تبا لكم يا أولاد القحبة؛ قسماً بشر في لأضعنّ كرامتي أسفل نعلي ما لم أدهس على رؤوسكم العفنة، مثلما دهست على رؤوس الكلاب في بلدة البيضا.

هتف أكثم بصوت خفيض:

- هدى من روعك.

أردف عباس حانقاً:

- من أين لي أن أهدأ؟ ألا تسمع عوائهم؟ لقد صدعوا رؤوسنا بنهيقهم النشاز، كالحمير السارحة.

ربت أكنثم على كتف عباس، وقال بحماس:

- لا فض فوق، لقد أبدعت الوصف؛ فهم بحق رهط من الحمير السارحة.

كزَّ عباس على أسنانه المصفرة بفعل التدخين، وقال متجهماً:

- سألقنهم درساً قاسياً لن ينسوه.

هتف أكنثم مملئاً:

- رجالنا دائماً مستعدون، لتنفيذ أصعب المهام وأشقها على الإطلاق، وهم تحت أمرتك في أي وقت وحين.

استل أكنثم لفافتي تبغ؛ وضع اللفافة الأولى بين شفتيه، ودفع اللفافة الثانية نحو عباس الذي بدا شديد الاضطراب والهياج.

في هذه الأثناء، وصل النقيب حسان قائد كتيبة المشاة إلى منطقة السوق، قادماً من نقطة تمر كزه الواقعة على الطريق الدولي الرابط بين مدينة بانياس ومحافظة طرطوس. بدا الإحباط مرئساً على سحنة الضابط الشاب، فيما هرعت عناصر الحاجز نحوه، وشرعت في تأدية التحية العسكرية له:

- احترامي سيدي!

هتف حسان بغضب وهياج:

- لا أفهم؛ كيف استطاعت الكلاب أن تخرج في مظاهرة أمام أعيننا؟

وجمت وجوه الجنود، وأطرقوا رؤوسهم باستكانة أمام نظرات الضابط المهتاج، دون أن يجروء أحدهم على الكلام.

سأل النقيب حسان الجنود بانفعال:

- هل تستطيعون أن تقولوا لي؛ ماذا تفعلون هنا؟

تجشم أحد المجندين عناء الرد، وقال بارتباك:

- سيدي! لقد تم تكليفنا بالسيطرة على منطقة السوق كاملة، وحتى الآن، لم يجرؤ أحد على الخروج من بيته.

ذرع النقيب حسان شارع السوق جيئةً وذهاباً؛ مطرقاً رأسه كالقائد المنحدر الذي فقد جيشه وعتاده أمام أوهم الأعداء.

قرع اتصال هاتفي طارئ جرس الهاتف المحمول؛ تسمّر حسان في مكانه، وحدث في شاشة الهاتف لهنيهة، ثم انتصب باستعداد، وأجاب على المكالمات قائلاً باحتيال:

- احترامي سيادة العميد! .. الأوضاع تحت السيطرة التامة، وخاصة في منطقة السوق .. نعم سيدي؛ لقد خرجت مظاهرات محدودة .. أسف سيدي؛ لم نكن نتوقع البتة تغلغل المندسين إلى صفوف المتظاهرين الأوغاد .. أمرك سيدي.

ارتسمت ابتسامة خفيفة على سحنة النقيب حسان؛ أزالته معالم القلق والخوف اللذين سيطرا عليه قبل استقباله للاتصال.

التفت حسان نحو الجنود، وأوعز لهم بصرامة:

- عسكري! انتباه، لقد صدرت للتو أوامر وتعليمات جديدة من قيادة الأركان تتعلق بمدينة بانياس؛ عليكم أن تكونوا مستعدين لاجتياحها اجتياحاً كاملاً خلال الساعات القادمة؛ هيا استعدوا جيداً، فأماننا عمل شاق للقضاء على المندسين والإرهابيين قضاءً مبرماً.

ردد الجنود بصوت واحد:

- أمرك سيدي.

قبل أن يهّم النقيب حسان في الذهاب إلى مقر تركز الدبابات والمدركات العسكرية الكائن في مداخل مدينة بانياس؛ أجال بصره الثاقب في لجة الأحياء المجاورة، وغمغم قائلاً:

- اقترّب موعدنا يا كلاب الثورة؛ تريدون حرية أليس كذلك؟ حسناً، سنديقكم طعمها بنكهة الرصاص والبارود.

انبسطت أسارير النقيب حسان، بعد أن تلقى الأوامر في اجتياح المدينة من قيادة الأركان العسكرية؛ التي أبلغته عبر العميد سهيل أن لا يتهاون أبداً مع المواطنين، وأن يواصل تقطيع أوصال المدينة والقرى المحيطة بها.

قبيل غروب الشمس خلف الأفق؛ أرسل النظام عشرات الدبابات والآليات المدرعة إلى أطراف بانياس، كجزء من خطته العسكرية الرامية لاجتياح المدينة. في هذه الأثناء؛ بدا الطريق الدولي مكتظاً بعربات النقل الكبيرة التي حملت على متونها عشرات الدبابات والآليات المدرعة.

واصلت عربات النقل طريقها إلى بانياس، وسط ذهول واندهاش سكان القرى المجاورة الذين أخذوا يسترقون النظر من شرفات بيوتهم الريفية المطلة على الطريق الدولي، ودارت في خلداهم عشرات الأسئلة التي لم يعثروا على جواب لها والتي كان منها:

«يا إلهي! أين تمضي هذه الدبابات؟»

«هل يعقل أنها متجهة إلى بانياس؟»

«يا إلهي! لقد مرّ حتى الآن أكثر من خمسة آلاف جندي .. إلى أين يريدون الذهاب بهم؟»

«على ما يبدو أنهم سوف يبدؤون في احتلال بانياس»

تدثرت السماء وشاحها الأسود، وأرخت الليل البهيم سدوله على بانياس؛ التي غرقت بيوتها وشوارعها في دياجير الظلام، بسبب انقطاع الكهرباء قبل بضعة أيام من بدء الاجتياح.

استمر وصول الحافلات العسكرية الضخمة؛ التي حطت رحالها في أطراف المدينة مع بدء سريان الظلام الدامس، معززة بآلاف الجنود، وعشرات الضباط من مختلف الرتب الذين خيموا في وحدات عسكرية صغيرة، أنشئت لهم بشكل طارئ فوق هضاب المدينة.

في تمام الساعة العاشرة مساءً؛ تداعى عشرات الضباط وصف الضباط إلى الاجتماع الطارئ الذي دعا إليه العميد سهيل، قائد لواء المشاة في المنطقة الساحلية. دلف العميد سهيل إلى حجرة عسكرية صنعت جدرانها بشكل مسبق من الصفائح المعدنية؛ بدت الحجرة التي خصصت لعقد الاجتماعات، ومييت الضابط المشرف على عملية الاجتياح كمقصورة القطارات البخارية القديمة.

احتوت الحجرة على طاولة خشبية مستطيلة اصطفت إلى جوارها بضعة كراسٍ معدنية قديمة، واعتلى سقفها أربعة مصابيح ضوئية استمدت طاقتها الحرارية من المدخنة الكهربائية.

جلس العميد سهيل على كرسيه الوثير الذي انتصبت أذرعه المعدنية في مقدمة الحجرة أمام الطاولة، وإلى جواره جلس عباس وأكثم، فيما جلس النقيب حسان إلى يسارهما، والرائد هلال إلى يمين العميد سهيل.

حضر الاجتماع خمسة ضباط؛ تراوحت رتبهم بين رتبتي الملازم والرائد، وثمانية ضباط صف؛ تراوحت رتبهم بين الرقيب والمساعد.

افتتح العميد سهيل الاجتماع مرحباً بالضباط، وقال بصوت خشن:

- عمتم مساءً؛ أتمنى أن تكونوا بخير.

ردد الضباط بصوت واحد:

- عمت مساءً سيدي.

ابتل العميد سهيل ريقه، ونشق نفساً عميقاً، ثم زفر قائلاً:

- نحن هنا اليوم لإنقاذ الوطن وتخليصه من عقدة المؤامرة المدبرة من القوى الكونية.. حضرة الضباط! إن وطننا الغالي يتعرض الآن لخطر داهم من الإرهابيين والمندسين الذين يسمون أنفسهم ثواراً، ودفاعنا عن تراب الوطن واجب مقدس، لا يقل قداسة عن حبنا وإخلاصنا لسيادة الرئيس بشار؛ لذا يجب أن يكون دفاعنا عن الوطن مرهوناً بدفاعنا عن قائده المفدى.

وهنا بادر النقيب حسان بالتصفيق الحار؛ تبعه بقية الضباط الذين صفقوا لبرهة قصيرة من الزمن.

أردف العميد سهيل قائلاً في غطرسة:

- لن أطيل كثيراً؛ أعلم أن هناك مهام كثيرة تنتظركم في الصباح الباكر؛ لذا سأعطيكم بعض التعليمات المتعلقة بخطة الاقتحام التي ستنفذونها مع طلوع الفجر.
رد الرقيب سعيد بعفوية:

- إن شاء الله.

حدّق العميد سهيل في عيني الرقيب سعيد، وأردف له بانزعاج:

- مَنْ أذن لك في الكلام؟

أطرق سعيد رأسه، وقال بصوت خفيض منكسر:

- عذراً سيدي.

كان سعيد ضابط صف برتبة رقيب، تخصص خلال خدمته الإلزامية في الجيش بصيانة الدبابات والآليات المدرعة، ولم تكن مشاركته في الاجتماع -رغم صغر رتبته العسكرية- تقل أهمية عن مشاركة أي ضابط آخر، لأهمية دوره في توفير الدعم الفني لآليات الجيش.

تنحى العميد سهيل، ثم أكمل حديثه قائلاً بعنجهية:

- سنقتحم بانياس من ثلاثة محاور؛ اعتقد أن خطة الاقتحام أصبحت واضحة لكم، وبما أنني المسئول عن العملية برمتها أمام قيادة الأركان، فلا أريد أي خطأ أو تهاون في التنفيذ؛ أريد فرض الأمن والنظام بالقوة المسلحة ورغم أنف الجميع؛ كما أريد تطهير البيوت من الناشطين؛ وأريد أيضاً أن أرى بانياس، والمرقب، والبيضا، وبيت جناد، وسهم البحر، والباصية، والبساتين، والعديمة نظيفة تماماً من المتظاهرين؛ أخيراً أريد أن أسمع هتافات السكان وهي تحيي السيد الرئيس.

رد الضباط بصوت واحد:

- أمرك سيدي.

خَلَدَ الضباط وصف الضباط إلى النوم في الخيام العسكرية التي أُشيدت على عجل، وفي تمام الساعة الثالثة والنصف من فجر يوم السبت الموافق للسابع من مايو، دوى طنين جرس الإنذار في أرجاء المخيم كله.

استفاق الجنود والضباط عن بكرة أبيهم، وهرعوا إلى الحمامات التي أقامها الجنود في العراء إلى جوار المخيم، ثم توجهوا بعد ذلك إلى المغاسل التي كانت عبارة عن براميل معدنية، امتلأت أجوافها العميقة بالماء، وانتهت جدرانها السفلية المستديرة بصنبور معدني صغير لدلق الماء وتمريه إلى الخارج.

ارتدى الضباط بزاتهم العسكرية بعجالة، ثم انطلقوا بأقصى سرعة إلى ساحة المخيم، واصطفوا مع الجنود بانضباط وانتظام إلى أن أصبحوا في حالة تأهب تام استعدادًا لتنفيذ أي إيعاز عسكري.

دلف العميد سهيل إلى ساحة المخيم بثياب النوم؛ متعلًا في قدميه قبقابًا بلاستيكيًا.

شرع العميد في تفقد الصفوف، ثم تجوّل بخطوات متتدة، بين أنساق الضباط والجنود، وعندما أصبح في مواجهة النقيب حسان، سألته بصوت جهور:

- هل أنتم مستعدون للتحرك؟

أمال حسان رأسه نحو قائده، وهمس في أذنه قائلاً:

- أجل سيدي؛ إننا رهن اشارتك.

رد العميد سهيل بانشرائح:

- عظيم؛ من الآن وصاعداً، ستكون ذراعي الضاربة.

أردف حسان ممالئاً:

- شكرًا سيدي؛ أفديك بدمي وروحي.

استدار سهيل نحو الجنود والضباط، وهتف بأعلى صوته:

- انتباه! حضرة الضباط وصف الضباط، سنبداً الآن في تنفيذ الخطة (ب)

فاستعدوا للتحرك.

رد الضباط وصف الضباط بصوت واحد:

- مستعدون سيدي.

تشاءب العميد سهيل، وقبل أن يشرع في إشعال لفافة التبغ التي استلها من علبة السجائر ووضعها بين شفثيه الرفيعتين، أصدر آخر إيعاز عسكري للضباط والجنود قبل انطلاقهم إلى بانياس؛ قائلاً بصوت مشبع بالنعاس:

- عسكري! .. نفذ.

استقل الضباط حافلاتهم العسكرية؛ فيما استقل صف الضباط والجنود الآليات المدرعة والدبابات، وانطلقوا جميعاً إلى مدينة بانياس. أدار الرقباء محركات الدبابات التي دوى هديرها عاليًا، وانقسمت إلى ثلاثة أرتال.

ضم الرتل الأول؛ أكثر من خمس عشرة دبابة اتجهت إلى أحياء القصور والمحطة والقوز، فيما انطلق الرتل الثاني إلى حيي الميدان والقبياء معززًا بثلاث عشرة دبابة، أما الرتل الثالث فقد ضمَّ أربع عشرة دبابة اتجهت إلى حي رأس النبع. في الوقت عينه؛ اتجهت أكثر من خمس عشرة دبابة، وعشرين آلية مدرعة إلى بلدات البيضا، وقلعة المرقب، والباصية، والبساتين، بغية محاصرتها وعزلها عن المناطق المحيطة بها.

قاد النقيب حسان آليته المدرعة لاجتياح بلدة قلعة المرقب، ذات الموقع الجغرافي الوعر، لارتفاعها عن سطح البحر، وكونها الشريان النابض لقلب مدينة بانياس.

هبط الفجر على مدينة بانياس حزينًا كثيبًا بلونه الشاحب، وهوائه الملوث برائحة البارود، ولم يتوقع المتظاهرون الذين هتفوا للجيش قبل بضعة أيام أن يغدر بهم بأعداده المهولة من الجنود والآليات التي طوقت أحياءهم من الجهات كلها،

وكادت أن تقطع عنها الهواء، بعد أن قطع عنها النظام الماء والكهرباء والاتصالات. كان الرقيب سعيد ضمن تشكيلات الرتل الأول؛ الذي قاده الملازم أول حسين جنبًا إلى جنب مع عباس الذي قام بتوزيع عناصر ميليشياته وأدجها بين الوحدات العسكرية، ليظفر بحصّة الأسد من نهب بيوت المواطنين بعد انتهاء عملية الاجتياح. ولجت الدبابات إلى شوارع المدينة، وتوغلت في أحيائها الجانبية وفقًا للخطة (ب) التي كانت استكمالًا للخطة (أ) التي جرى تنفيذها في تاريخ الثالث من مايو في منطقة السوق.

ترجل الجنود من المدرعات والناقلات المصفحة، وبدؤوا في إطلاق الرصاص الغزير في الهواء؛ لزرع الرعب في قلوب المواطنين الذين كانوا مرابطين قرب الحواجز البدائية التي أقاموها من البراميل المعدنية، والإطارات البلاستيكية دفاعًا عن أحيائهم من هجمات ميليشيات الشبيحة.

نجح الجنود في فرض وجودهم بالقوة المسلحة، وتمكنوا من إبعاد المواطنين وإزالة جميع حواجزهم البسيطة التي وضعوها في الأزقة الضيقة، وأنشئوا بدلًا عنها الحواجز العسكرية المدعمة بالدبابات والآليات الثقيلة.

هرع ثوار بانياس الذين جفا النوم جفونهم إلى شوارع المدينة لمواجهة دبابات الجيش والتصدي لآلياته المدرعة، بعد أن تحققوا من نوايا النظام في اجتياح مدينتهم. استلقى عشرات الثوار أرضًا، وانبطحوا على بطونهم وظهورهم أمام الدبابات السائرة بغية وقف تغلغلها إلى الشوارع الفرعية، ثم هتفوا لبعضهم البعض:

«انبطحوا أرضًا.. انبطحوا يا شباب! إياكم أن تحافوا»

«ورب الكعبة لن يدخل الجيش إلى بانياس إلا على جثتنا»

«نحن هنا للموت بكرامة، وليس للانزمام»

«إذا أرادوا أن يدهسوننا بجنازير الدبابات فليأتوا إلينا حالًا»

«نحن لسنا إرهابيين.. نحن أناس مسالمون، وسنبقى كذلك حتى لو قتلونا»

واحدًا تلو الآخر»

ربضت الدبابات في مواقعها، دون أن تتزحزح قيد أنملة، وسط ذهول قادتها وانبهارهم من جبروت ثوار بانياس الذين فاجئوهم، وقصّوا مضجعهم. اعترت الدهشة وجوه قادة الدبابات، وعقدت ألسنتهم عن الكلام لبرهة قصيرة من الزمن، دون أن يكون باستطاعتهم أن يفعلوا أي شيء، سوى انجاز مهمتهم مهما بلغت الأثمان.

في هذه الأثناء، هتف عباس لقائد فصيلة الدبابات الملازم أول حسين، أن يواصل زحفه نحو حي المحطة، حتى لو اقتضى الأمر المرور فوق جثث الثوار:

- ماذا تفعل لديك؟

رد الملازم حسين ببلاهة:

- لا شيء.

أردف عباس بغضب متأجج:

- أرى أن تسحق الخونة بجنائزير الدبابات خير لك من أن تبقى مكتوف اليدين. أوقعت كلمات عباس الملازم أول حسين في لجة الحيرة، وجعلته أكثر ارتباكًا في اتخاذ القرار الحاسم، فلا هو قادر على الإيعاز لقادة الدبابات كي يواصلوا سيرهم فوق أجساد الثوار، وفي الوقت عينه؛ لم تكن لديه أي خيارات أخرى لمفاوضتهم أو مهادنتهم، بعيدًا عن تلبية رغبات عباس التي بدت له شديدة الانتقام؛ بعد أن قدح شررها من عينيه الغائرتين.

شرّد الملازم أول حسين لهنيهة، قفزت خلالها فكرة لذهنه المشوش، بددت ارتبাকে أمام عباس، وطردت الحيرة من روحه.

أوعز حسين لجنوده بإطلاق الرصاص الحي في الهواء، بغية تفريق الثوار؛ شرع الجنود في تنفيذ الإيعاز العسكري، وبدؤوا في إطلاق الرصاص في الهواء لأكثر من دقيقتين، حتى أفرغوا مخازن بنادقهم من الذخيرة؛ دون أن تتزحزح أجساد الثوار عن الأرض شبرًا واحدًا.

تجهّم وجه عباس في عبوس، كتجهّم السماء بالسحب الداكنة، واشتد حنقه وهياجه على الثوار؛ الذين نجحوا لبضع دقائق في كسر غروره وتحطيم جبروته. وهنا نفذ صبر عباس، وضاق ذرعاً من تلكؤ الملائم أول حسين في تنفيذ رغباته؛ فما كان منه إلا أن التفت نحوه وأردف له باحتداد شديد:

- لم آتِ إلى هنا للفرجة، كما لم آتِ لألهموا وألعب مع هؤلاء المتظاهرين الأرذال المنبطحين على بطونهم، لقد جئت لأسحقهم وأفرمهم بجنازير الدبابات. لاذ الملائم حسين بالصمت، ولم يبد رأيه في التعليق أو الاعتراض على ما ذكره عباس؛ الذي استدار بحركة سريعة نحو أزالامه، ثم رفع يده اليمنى إلى الأعلى وأخفضها سريعاً إلى الأسفل قائلاً بهياج:

- يا رجال! .. حتى الآن لم تفهم كلاب بانياس التي صدعت رؤوسنا في العواء والنباح على حضرة الملائم حسين، ولا هو قادر على إفهامها ما نريد. أطلق عباس ابتسامة صفراء؛ ارتسمت معالمها على شفتيه الشخيتين اللتين كشفتنا عن أسنانه المهلهلة، ثم أكمل حديثه بسخرية مريرة:

- دعونا أولاً نشرح لحضرة الملائم، كيف أننا سنجعل الكلاب تفهم في لغة النار والبارود.

انقضت عناصر الشيعة كالثيران الهائجة في غابات الأدغال، واندفعت بأبدانها الضخمة نحو الثوار المستلقين على بطونهم، وأثناء اندفاعها الشرس، أفلتت العنان لبنادقها، فانهمر الرصاص من فوهات كحمم البركان. خرق الرصاص المنهمر أجساد الثوار؛ الذين قضوا على الفور بين قتيل وجريح، وارتوت شوارع المدينة بدمائهم القانية. دوّى أنين الجرحى في عنان السماء، وارتقت شهقات القتلى إلى علياء المجد، وسكنت أرواحهم في دوحة الأحرار.

خاضت ميليشيات الشيعة في برك الدماء القانية التي نزت من أبدان الجرحى والقتلى، ودهست بنعالها الملوثة أجسادهم المسجاة، ثم مضت في طريقها إلى بيوت

الحي لنهبها وسلبها والاعتداء على قاطنيها.

ظفرت دمة حارقة من مقلتي الرقيب سعيد؛ الذي اهتز كيانه لهول الفاجعة التي حلت بسكان الحي، وسرت قشعريرة في جسده، واختلجت أطرافه، ونشجت روحه، ثم قال بألم مكبوت في وجدانه:

- تبًا لكم أيها الزناة .. وحسرتاه يا شباب سوريا، فأنتم زهور نضرة في غابة الوحوش! رحمكم الله وغفر لكم.

حذق الملازم حسين في سحنة الرقيب سعيد، فوجده غارقًا في البكاء، ثم سألته في اندهاش:

- ما دهاك؟

كفكف سعيد دموعه المنسكبة من مقلتيه، وقال بارتباك:

- عذرًا سيدي! لا شيء؛ لا شيء، ليس هناك ما يبعث على القلق.

هزّ حسين رأسه بغير اقتناع، وتنهّد قائلاً:

- حسنًا، أريدكم أن تنصبوا حاجزين آخرين على امتداد هذا الشارع؛ الحاجز الأول في مقدمته، والحاجز الثاني في مؤخرته.

رد سعيد بصوت خفيض:

- حسنًا.

أردف حسين بصوت جهور:

- سعيد! أنت المسئول عن هذا الحي.

رد سعيد بانكسار:

- أمرك سيدي.

غادر الملازم أول حسين حي المحطة، وانطلق إلى حي القصور، برفقة عشر

دبابات، فيما انتشرت خمس دبابات أخريات في حي المحطة.

انتشر الجنود في الحي كله؛ وأحكموا سيطرتهم على مداخله ومخارجه المتصلة مع

الأحياء المجاورة، وأقاموا عشرات الحواجز والكمائن العسكرية.
في هذه الأثناء، هرع سكان حي المحطة إلى الشارع، وأخذوا يقتربون خطوة تلو الأخرى من جثث قتلاهم، ثم شرعوا في انتشالها من الأرض بحذر شديد؛ خوفًا من ردة فعل الجنود تجاههم.

رمق الرقيب سعيد بعينيه الغارقتين في الحزن، وجوه الأهالي المتلهفة لاحتضان أولادهم الجرحى وإنقاذهم من براثن الموت.

نادى سعيد بأعلى صوته الممتزج بالأسى، وهتف للأهالي قائلاً:

- تعالوا؛ اقتربوا؛ لا تخافوا.

اقترب الأهالي من أجساد أنثاهم المعمدين بالدم، وبدؤوا في نقل جثث القتلى والجرحى مستعينين بسواعدهم، وأكتافهم القوية، وأخذوا يرددون على مسامع الجنود:

«لا حول ولا قوة إلا بالله .. حسبي الله من الظالمين .. الله يرحمكم ويتقبلكم»

ربت رجل من سكان المدينة على كتف أحد الجرحى، وهتف له مواشياً:

- كن قوياً يا بني، فدمك لن يضيع هدراً؛ بإذن الله.

رد الشاب الجريح بصوت يخنقه الألم:

- أرواحنا فداء للوطن.

وهنا تدخل أحد الرجال وقال بحمية:

- يا إخوان! دعونا نسعفهم إلى مستشفى الجمعية.

وافق الأهالي على اقتراحه ورددوا قائلين:

- حسناً؛ لننقلهم أولاً إلى الحافلات.

- أسرعوا يا رجال، فأجسادهم بدأت تنضب من الدماء.

- توكلوا على الله.

سقط ميليشيات الشبيحة بزعامة عباس ومساعدته أكثر من 300 مواطن،

بذريعة تقصي آثار الإرهابيين والمندسين، وشرعت في نهب البيوت تحت سمع وأنظار ضباط الجيش؛ الذين صموا آذانهم، واعصبوا أعينهم عن رؤية هجماتها العنيفة التي شنتها في وضح النهار.

انقضت ميليشيات الشبيحة، كالضباع الضارية على نساء المدينة اللواتي رابطن في بيوتهن.

هددت عناصر الشبيحة النساء بقوة السلاح، وأرغمتهن على خلع حليهن ومجوهراتهن أمام أعين رجالهن وأولادهن.

كالعباس لنساء المدينة، سيلاً هائلاً من الألفاظ المشينة التي اختزنها في جوفه، وأطلقها لسانه الغليظ بدأب واستمرار، بعد أن أفهم أزلامه أن التفوه بالسباب والشتم، ضرب من الرجولة.

فرض الجيش سيطرته الكاملة على مدينة بانياس برًا وبحرًا من خلال قوات المشاة والزوارق الحربية؛ التي رست قبالة شواطئها، وفرضت حصارها الخانق على شارع الكورنيش البحري.

بينما اعتقلت قوات الأمن أكثر من مئتي مواطن، اقتادتهم جميعاً إلى فرع الأمن السياسي الذي تولى نقلهم تبعاً إلى المقر الرئيسي في محافظة طرطوس، ومن ثم إلى دمشق للتحقيق معهم وإرغامهم من خلال عمليات التعذيب الوحشية، على الاعتراف بأفعال لم يرتكبوها قط.

صبيحة اليوم التالي، سطعت شمس الصباح، وانكسرت أشعتها الدافئة على المدينة المستباحة، فيما شرعت جحافل كتية الدبابات الثانية بقيادة النقيب حسان في الانقضاض على بلدة قلعة المرقب، ذات الطبيعة الجبلية الساحرة، لغناها الوافر بالأشجار الباسقة، والغطاء النباتي الكثيف.

استقرت بلدة المرقب، شرق مدينة بانياس بمسافة لا تزيد في مجملها على خمسة كيلومترات، وانتصبت أبنيته القديمة فوق قمة جبلية شاهقة، زاد ارتفاعها عن

أكثر من ثلاثمائة وخمسين مترًا عن مستوى سطح البحر الأبيض المتوسط.
حوت البلدة القديمة قلعة تاريخية، بينت أسوارها الشاهقة في العصر العباسي،
عام ألف واثنين وستين للميلاد على يد الحاكم هارون الرشيد.
توغلت الدبابات في أطراف البلدة، وسط ذهول الأهالي وتحيرهم، فيما توزعت
الآليات المدرعة داخل الأحياء؛ تنفيذًا لخطة العميد سهيل، قائد عملية الاجتياح.
شرع الجنود بالانتشار السريع في شوارع البلدة، بعد أن أضحت معزولة بشكل
كامل عن محيطها الخارجي، وقاموا بنصب الحواجز والكمائن، واعتقلوا أكثر من
مائة وخمسين شابًا ورجلًا من مواطنيها، وفقًا لتعليمات النقيب حسان الذي أسند
جذعه إلى هيكل الحافلة، وطفق يراقب سير العملية التي تمت بصمت مريب، ودون
مقاومة.

وحالما فرغ جنود الجيش من أداء مهمتهم؛ سطت عناصر الأمن السياسي
والمخابرات العسكرية على أزقة البلدة، وشرعت في مدهامة البيوت، واعتقلت
الشبان والرجال بشكل عشوائي ودون تفريق.
تداعت نساء البلدة اللواتي شاهدن بأعينهن الجاحظة وحشية رجال المخابرات؛
الذين سطوا على بيوتهن، وشرعوا في العبث بأمتهن، واقتياد أزواجهن وأولادهن
إلى جهة غير معلومة.

كانت زينب واحدة من أشجع نساء البلدة، وأشدهن حزمًا وصرامة مع جنود
الجيش ورجال المخابرات؛ الذين اجتاحوا بيتها بحثًا عن زوجها، رغم أنه كان قابعًا
في سجون النظام.

حازت زينب لسانًا حازمًا، بدا في حديثه وشدهته كنصل السيف، ونطق جوفها
بكلمات أشد عتوًا من هجيج الريح، عندما داهم بيتها خمسة جنود مسلحين، كان في
رفقتهم عنصرين آخرين من عناصر المخابرات العسكرية.

انتصبت زينب في منتصف صالة البيت، وهتفت للجنود بحزم:

— ماذا تفعلون هنا؟ لا يوجد أحد في البيت.

سأل أحد الجنود باسمئزاز:

- أين زوجك الإرهابي؟

ردت زينب بغضب:

- إنه في سجونكم.

سأل الجندي بعنجهية:

- أين؟

زفرت زينب بانزعاج، وأجابت بغیظ مكبوت:

- قلت إنه في سجونكم.

ابتل الجندي ريقه، وحدّق في عيني زينب بغضب متقد، ثم سأها بنبرة حادة:

- منذ متى؟

ردت زينب بصوت جهور:

- منذ قرابة الشهر.

سأل الجندي نفسه كالأبله:

- هل هذا معقول؟ هذا يعني أن زوجك إرهابي خطير.

انفجرت زينب غیظاً، وقالت بحنق شديد:

- اخرج من البيت.

سأل الجندي ببرود متعمد:

- لماذا أنت غاضبة؟

هتفت زينب بانفعال:

- لن أكرر كلامي مرة أخرى .. أخرج أنت ومن معك حالاً.

سأل جندي آخر باستفزاز متعمد:

- وإن لم نخرج من البيت، ماذا سيحدث؟

التقطت زينب أنفاسها، وزفرت بغضب:

- هاأنذا أتكلّم معكم بلسان عربي فصیح.

هتف الجندي غاضباً، ثم انصرف مغادراً، بعد أن تجرع مرارة الهزيمة:
- أفّ منك ومن لسانك السليط.

استاءت زينب استياءً شديداً عبرت عنه كلماتها الغاضبة، جراء اقتحام الجنود لبيتها بطريقة وحشية لا تنتمي للإنسانية بصلّة، وساءها أيضاً، اعتقال عناصر المخابرات للرجال والشبان دون أسباب واضحة وحجج مقنعة.
ارتأت زينب أنه لا بد لها من القيام بأي عمل، للرد على همجية رجال المخابرات وإيصال رسالة قوية لقادتهم، مفادها أن نساء بانياس، ومن خلفهن نساء سوريا، قادرات على كسر جبروت النظام؛ الذي لم يحترم كرامتهن عند اعتقاله لأزواجهن، كما لم يحترم كبريائهن، عندما دَسَّ جنوده بنعالهم الملطخة بالدم عتبات بيوتهن، وعبثوا خراباً في محتوياتها، ونبش أسرارها.

انطلقت زينب إلى صديقتها حسناء وكريمة، وأبلغتهن بخطتها التي نوت تنفيذها للرد على طغيان النظام، وهي خطة مستوحاة من خطة إيمان؛ عندما حثت نساء بلدة البيضا ومدينة بانياس على الاعتصام أمام الطريق الدولي، للضغط على النظام، وإرغامه على إطلاق سراح أزواجهن المعتقلين.
هتفت زينب إلى صديقتها بلهجة حازمة:
- نحن لسنا أقل عزماً وثباتاً من أخواتنا في البيضا؛ يجب أن نفعل شيئاً لأولادنا ورجالنا، ولا بد لنا من التحرك بأقصى سرعة.

سألت حسناء مستفسرة:

- بكل تأكيد؛ لسنا أقل منهن شأناً، ولكن ماذا باستطاعتنا أن نفعل؟

هتفت زينب بحزم:

- ليس أمامنا من خيار آخر، سوى أن نقطع الطريق الدولي مرة أخرى.

عقبت كريمة بتؤدة:

- كما فعلن نساء البيضا وبانياس.

أردفت زينب بحماس:
- بالضبط؛ فهذا أقصى ما نستطيع فعله لأجل أزواجنا وأولادنا.
علقت حسناء بتردد:
- لا أدري إن كانت أخواتنا يوافقننا الرأي لإنجاح هذه الخطة في تنفيذ أهدافها أم لا.

أردفت زينب قائلة لحسناء باطمئنان:
- سيوافقننا، لا تقلقي؛ أرجو أن تساعدني في إقناعهن أولاً.
ردت حسناء بثقة واعتداد:
- سنكون يدًا واحدة.
هتفت كريمة برجاء:
- إن شاء الله

انطلقت حسناء وكريمة في اتجاهين مختلفين، وبدأتا في الولوج إلى بيوت البلدة لإقناع النسوة في الاعتصام أمام الطريق الدولي، فيما انطلقت زينب في اتجاه آخر، وفعلت الشيء عينه.
بعد انقضاء ساعتين على افتراقهن، التقين مجددًا في ساحة البلدة.
نجحت كل واحدة منهن، بجلب أكثر من أربعين امرأة من سكان البلدة.
هتفت زينب للنساء اللواتي احتشدن بالقرب من ساحة البلدة:
- أخواتي العزيزات! يجب أن ننطلق بأقصى سرعة، قبل أن تهجم علينا كلاب الأمن وقطعان الشبيحة.
استجابت النساء لنداء زينب، وهتفت إحداهن بصوت جهور:
- توكلنا على الله.

خطت النساء أولى خطواتهن الواثقة نحو الطريق الدولي، وأثناء سيرهن السريع تهايمن بأحاديث جانبية عبّرن فيها عن قلقهن العميق لحال أزواجهن المعتقلين:

«كان الله بعوننا»

«تالله، لن نرجع إلى بيوتنا، ما لم يعيدوا لنا أولادنا ورجالنا المخطوفين»

«أنت على حق، فجنود الجيش، لا يفهمون إلا في العين المحمرة»

«أما عناصر الأمن فلا تفهم إلا بنعالنا»

«منذ متى كانت الحمير تفهم؟»

«تباً لهم جميعاً»

«يا للعار؛ هل هناك جيش في العالم ينكل بشعبه كما يفعل جيشنا؟»

«لو كان هذا الجيش الخميس جيش احتلال أجنبي، لما نكل بنا كل هذا التنكيل»

«إنه ليس جيشنا»

«لو كان لديهم ضمير؛ لخرجوا من أنفسهم، وحفظوا ماء وجوههم الكالحة،

ولكن هيهات»

«تباً لهم»

اتكأ النقيب حسان على هيكل حافلته الحربية، وأخذ يتابع بواسطة المنظار سير عملية تطويق بلدة المرقب، وإحكام الحصار عليها.

وهنا أقبل إليه أحد الجنود مهرولاً، وهتف له بأنفاس متقطعة:

– احترامي سيدي .. سيدي! سيدي.

سأل النقيب حسان باندهاش:

– ما دهاك؟

قال الجندي لاهثاً:

– سيدي! رصدنا قبل قليل، نساء البلدة.

قاطع حسان كلام الجندي، وسأله باهتمام:

– أين؟

التقط الجندي نفساً عميقاً، وقال بتؤدة:

- قرب الطريق الدولي.

فغر حسان عينيه، وسأل باندهاش:

- ماذا؟

طأطأ الجندي رأسه، وقال بصوت خفيض:

- عذراً سيدي.

وبَّخ النقيب حسان الجندي، وصرخ في وجهه قائلاً بغضب:

- اغرب عن وجهي؛ تباً لك ولأخبارك السيئة التي تبدو كوجهك الأسود.

أطرق الجندي رأسه؛ أدى التحية العسكرية لقائده، ثم استدار للخلف، وقبل أن يخطو مغادراً، صات النقيب بصوت جهور:

- عسكري! أبلغ قائد فصيلتك أن يهيئ نفسه ويستعد جيداً، لأنني سأقصده بعد قليل.. هيا بسرعة.

رد الجندي بطاعة:

- أمرك سيدي.

استقل النقيب حسان حافلته، وانطلق مسرعاً في اتجاه الطريق الدولي.

وطأت أقدام النسوة الطريق الدولي الذي بدا شديد الوعورة والانحدار، وربضن في إحدى نقاطه الشاهقة لبرهة قصيرة من الزمن.

أحاطت القمم الجبلية الشاهقة الطريق الدولي، فيما سورته الأشجار الكثيفة من الجهات كلها.

ترجل عشرات المواطنين من حافلاتهم التي كانوا يستقلونها، وتسمروا مندeshين أمام صلاية الجدار البشري الذي أشادته النساء المرباطات بأجسادهن المتلاحمة.

في هذه الأثناء، وصل جنود كتبية المشاة إلى مقدمة الطريق الدولي بقيادة النقيب حسان، ثم بدؤوا انتشارهم السريع في أطرافه إلى أن أصبحوا قبالة النساء المعتصمات اللواتي رابطن في أقصى نقاطه الشاهقة.

ترجل النقيب حسان من حافلته، وخطا بضع خطوات نحو جنود الكتيبة الذين وقفوا باستعداد لحظة وصوله إليهم، ثم استدار نحو النسوة.
قدحت من عينيه الجاحظتين شظايا الحقد الدفين والبغض العميق، ثم غمغم قائلاً:

- أيتها العاهرات! تبّاً لكنّ، قسمًا بشرفي العسكري، إن المومس عندها من الشرف ما يفيض عن ثورتكن العفنة.

أزبد حسان بأعلى صوته، وخاطب النساء عبر مضخم الصوت؛ قائلاً في هياج:
- أيتها العاهرات الفاجرات! ارجعن إلى بيوتكن؛ أليس لديكن أي خجل أو حياء؟ أليس لديكن ذرة إحساس؟ ألم تعرفن بعد ما حدث في بانياس؟ أنتن تقطعن الطريق للثرثرة والهراء الفارغ؛ هيا لديكن خمس دقائق فقط لإخلاء الطريق، وإلا فإنني مضطر لاستخدام القوة.

أخرج حسان علبة السجائر من جيب بزته العسكرية، واستل منها لفافة تبغ؛ أشعلها بتؤدة بواسطة عود النقاب، وجذب نفساً عميقاً احتبس خلاله الدخان في رئتيه المنقبضتين، ونفثه بعد ذلك دفعة واحدة كما تنفث الأفعى سموماً، ثم رفع يده اليسرى التي غطتها سحب الدخان المنبعثة من بين شفتيه، وحدّق في الساعة الملتفة حول معصمه.

أوماً رأسه بحركة بلهاء، ثم أفرغ ما في جوفه من كلمات بدت كالقيء؛ وقال في هياج:

- أيتها العاهرات! تالله لأمرغن في الأرض تمرغاً، ولأسحلكن سحل الكلاب.

التفت النقيب حسان نحو الجنود، وأوعز لهم بصوت جهور:

- عسكري! انتباه.

انتصب الجنود كانتصاب السيف في يد الفارس؛ حبسوا أنفاسهم، وأطرقوا رؤوسهم أرضاً، وفجأة دوى صوت النقيب في آذانهم كأزيز الرصاص:

- نحو الهدف سدد.

استدار الجنود في حركة سريعة مباغته نحو الطريق الدولي، واستقبلوا بأعينهم الشاخصة أبدان النساء المعتصمات؛ ذخروا بنادقهم الآلية، ووضعوا أصابعهم على الزناد، ثم صوبوا فوهاتهما نحو الهدف الذي حدده لهم الضابط المغتاض.

جذب حسان نفساً عميقاً من لفافته المشتعلة؛ زفر دخانها الأبيض في الهواء الطلق؛ قطب حاجبيه الكثين، وهز رأسه بغضب، ثم صرخ بصوته الأجش:

- عسكري! نار.

ضغط الجنود على زناد بنادقهم دون تردد، فانهمرت على الفور الطلقات الحارقة من فوهات بنادقهم، وقعقع صدها في الأجواء.

ارتعدت قلوب النساء من سيل الرصاص المنهمر؛ أولين الأدبار بذعر، وتفرقن في الأرجاء، ثم توغلن في جانبي الطريق هرباً من الرصاص المصوب عليهن.

كان الرصاص المتطاير أسرع في اختراق أبدان النساء من هروبهن المفاجئ الذي لم يتشلهن من أنياب الموت.

في هذه الأثناء، استقرت إحدى الرصاصات الطائشة في صدر زينب، فأردتها قتيلة.

سقطت زينب مضرجة بدمائها، وملاً مسكها الفواح أجواء الطبيعة الساحرة، وفوّعها بعبير الكرامة، وارتوت الأرض الظامئة من دماؤها القانية.

طوقت النساء جسدها المسجي، وتحلقن حولها، وشاهدنها وقد بدأت تلفظ أنفسها الأخيرة، وهي تتمتم قائلة:

- أرجو أن تسامحوني، الله ..

فاضت روح زينب إلى علياء المجد، وخلدت في دوحة الأحرار مع رفاقها الذين رووا سوريا بدمائهم الزكية لتحيا حرة دون خوف، وليحيا من سيأتي بعدهم كريماً عزيز النفس.

رددت النساء اللواتي تحلقن حول جثة زينب:

«لا حول ولا قوة إلا بالله»

«اللهم انتقم من الظالمين»

«أختي زينب! لماذا رحلتِ باكراً؟»

«كيف سنمضي في الدرب من دونك؟»

«كيف سنكمل المشوار من بعدك»

استمر الجنود في إطلاق الرصاص من فوهات بنادقهم بلا انقطاع.
خرق الرصاص المصبوب أجساد ثلاث نساء أخريات، كن قد تقدمن صفوف رفيقاتهن، قبل أن تحترق الرصاصات الحارقة أبدانهن الغضة.
تضرجت النساء القتيلات بدمائهن القانية، وفاضت أرواحهن من أجسادهن المشجوجة بالرصاص.

أحاطت النساء برفيقاتهن القتيلات، وبدأن في النواح حزناً وكمداً على رحيلهن.
في هذه الأثناء، وسط نواح النساء، وأسفنهن الشديد على سقوط رفيقاتهن، انتصبت حسناء بكل شموخ وإباء، وصرخت بأعلى صوتها؛ الذي أرعده في الأجواء كأزيز الرصاص، ثم قالت في غضب وهياج:

– لعنكم الله أيها المجرمون القتلة، تالله لن تمر جرائمكم دون عقاب، ولن تذهب دماء أخواتنا الشهيديات هدرًا؛ عاشت سوريا حرة أبية، عاشت سوريا من دون الأسد؛ عاشت سوريا ويسقط الأسد.

وما إن بدأت جموع النساء في الافتراق والابتعاد عن الطريق الدولي، حتى أوعز النقيب حسان لجنود كتيبته أن يوقفوا إطلاق النار، وأن يبدؤوا في الانسحاب إلى مواقعهم في بلدة المرقب.

(31)

أكمل الجيش حصار مدينة بانياس، وفرض سيطرته الكاملة على أحيائها الرئيسة، فيما شرع المواطنون في نقل جرحاهم الذين أصيبوا برصاص ميليشيات الشبيحة، أثناء تصديهم للدبابات والمدرعات بأجسادهم العارية. أودع المواطنون جرحاهم في مستشفى الجمعية الكائن وسط المدينة، وهو مستشفى خيري، أداره ثلة من الأطباء المتطوعين.

قدم المستشفى الميداني في إمكانياته المتواضعة، وخدماته الطبية المحدودة؛ العلاج المجاني للمواطنين قبل اندلاع الاحتجاجات وأثنائها.

استقبلت غرف المستشفى الصغيرة العديد من الجرحى؛ الذين سقطوا برصاص عناصر المخابرات والشبيحة، بعد أن تعذر نقلهم إلى مستشفيات النظام، حيث كان الوصول إليها محفوفًا بالمخاطر والقتل العمد من عناصر الكادر الطبي التي تواطأت مع أضرار النظام، وشرعت في تعذيب الجرحى وتصفيتهم جسدًا، واقتلعت أشلائهم البشرية التي استخدمت بعضها في العمليات الجراحية، وباعت بعضها الآخر لشبكات المافيا.

في هذه الأثناء، ترجل الرائد عصام من حافلته، وكان بصحبته حافلتين أمنيتين آخرين امتلأتا برجال المخابرات المدججين بأحدث أنواع الأسلحة الروسية. وطأت قدما الرائد عصام أرض حي المحطة الذي استباحته ميليشيات الشبيحة قبل بضع ساعات.

كان عصام قد اتفق مع عباس على دخول الحي، بعد انتهاء العملية العسكرية التي نفذها جنود الجيش بمؤازرة ميليشيات الشبيحة.

- هتف عصام لعباس الذي كان بمحاذاة إحدى الدبابات الرابضة في الحي:
- جزاك الله كل خير أخي أبا علي؛ لقد أبلى رجالك اليوم بلاءً حسنًا.
- رد عباس بابتسامة صفراء، وقال بغرور:
- شكرًا لك؛ رجالي هم الجنود الأكثر وفاءً لهذا الوطن، ولقائده العظيم السيد الرئيس بشار.
- أردف الرائد عصام، وقال برجاء:
- أخي العزيز! من فضلك، إن سمحت لنا.
- وهنا قاطع عباس عصام، وقال بضيق:
- قل ما تريد.
- ابتل عصام ريقه، والتقط نفسًا عميقًا، ثم أردف قائلاً:
- لقد قمت بتكليف مجموعتنا المسلحة بمداهمة مستشفى الجمعية، بعد أن تأكدنا من استقبال إدارته للعديد من الجرحى الذين أصيبوا في المظاهرات.
- فهم عباس نية عصام، وقال بغطرسة:
- حسنًا؛ إذا كنت تريد مؤازرتنا، فلا بأس؛ بإمكاننا مساعدتك.
- رد الرائد عصام بارتياح:
- دمت ذخراً لهذا الوطن.
- حدّق عباس في عيني مساعده أكنثم، وأوعز له بحزم:
- اجمع الرجال وانطلق بهم إلى المستشفى.
- رد أكنثم بحماس:
- حالاً.
- تدخل الرائد عصام، وقال على مضض:
- أؤمن نخوتكم وشهامتكم، ولكن عندي طلب صغير، أرجو تلييته إذا أمكن.
- هزّ عباس رأسه، وسأل مستفسراً:
- ما هو طلبك؟

رد عصام بحقد دفين:

- بعد أن تدهموا المستشفى، أرجو أن تلقوا القبض على الجرحى.

قال عباس متجهماً:

- سنفعل ذلك.

ابتل عصام ريقه وأردف مكملاً.

- أتمنى أن تسحلوهم من ثيابهم، وتشدوهم من أذانهم كالأرانب الجرباء، ثم

تطوفوا بهم في القرى والبلدات كلها، ليكونوا عبرة لكلاّب الثورة.

مطّ عباس شفّتيه، وسأل باهتمام:

- من أين أتيت بهذه الفكرة الشيطانية؟

قهقهه الرائد عصام بملء شذقيه، دون أن يرد على سؤال عباس، ثم استقل حافلته،

وانطلق إلى مستشفى الجمعية.

لحقت عناصر المجموعتين الأمتين المسلحتين بقائدها، وسارت خلف حافلته،

فيما انطلق عباس وأكثم بحافلتها التي تبعتها حافلات أخرى ضمت بضعة عناصر

من ميليشيات الشيعة.

شقت الحافلات الخمس طريقها السريع نحو المستشفى، وبدت شوارع المدينة

من خلال نوافذها الزجاجية السميكة خالية من المارة؛ فلم يجرؤ أحد من السكان على

السير في الأزقة خوفاً من نيران الرماة الذين تركزوا فوق أسطح المباني.

أغلق تجار المدينة محلاتهم كلها، نزولاً عند رغبة ضباط الأمن، وبدأ الجنود في

الانتشار أمام الحواجز المعدنية، والكمائن الرملية التي كانوا قد أنشئوها في معظم

الأحياء.

في هذه الأثناء، وصلت حافلة الرائد عصام إلى مستشفى الجمعية الخيرية.

ترجل عصام من حافلته، ثم التفت نحو حافلة عباس، وأوماً له بيده؛ تلقف

عباس إشارة عصام فترجل من حافلته، وبدأ في توجيه عناصره التي لحقت به.

اصطف رجال المجموعتين الأمنيتين أمام مبنى المستشفى، وفقاً لتوجيهات قائدهم الذي خطا نحوهم بضع خطوات، ثم هتف لهم بصوت جهور:
- يا رجال! سنبداً الآن في عملية تطهير بانياس من درن الإرهابيين؛ فبعد أن نجح الجيش في أداء مهمته، جاء دورنا لك أو كارهم.

التفت الرائد عصام نحو مبنى المستشفى، ثم أشار بيده قائلاً:
- هذا هو مبنى المستشفى الذي يتخندق فيه الإرهابيون والمندسون، إنه أخطر موقع على الإطلاق؛ علينا تنظيفه منهم، واعتقال مَنْ في داخله جميعاً سواء كانوا جرحى أو ممرضين أو حتى أطباء، طالما أنهم سولوا لأنفسهم الجشعة في التآمر على الوطن وعلى السيد الرئيس.

تسللت عناصر المجموعتين الأمنيتين إلى مبنى المستشفى، واقتحمت بوابته الرئيسية، تحت حراب البنادق.

شرعت عناصر المجموعة الأمنية الأولى في اعتقال أفراد الكادر الطبي؛ المؤلف من الطبيب محمد، وثلاثة ممرضين آخرين، وأخذت في ضربهم ضرباً مبرحاً بأعقاب البنادق.

سأل أحد أفراد الكادر الطبي مستفسراً:

- لماذا أنتم هنا؟ ما الخطب؟

رد عليه أحد رجال المخابرات العسكرية؛ قائلاً في هياج:

- صه أيها القرد.

سدّد عنصر المخابرات لكمة قوية إلى صدغ الممرض، وزجره بغضب:

- أغلق فمك التتن؛ إياك أن تتفوه بكلمة واحدة؛ يا عديم الشرف والأخلاق.

اقتادت عناصر المخابرات أربعة ممرضين من أفراد الطاقم الطبي، فيا واصلت بقية العناصر مدهامتها للمستشفى.

دلفت العناصر إلى إحدى الغرف الداخلية التي انتهت رواقها بغرفة صغيرة مظلمة؛ أضاءت العناصر مصابيح هواتفها المحمولة التي بددت ظلمة الحجرة

المعزولة، وانعكست أشعتها المبهرة على الجثث المسجاة.
عثرت عناصر الأمن على ثلاث جثث، قضى أصحابها نجبهم برصاص ميليشيات
الشبيحة، أثناء اجتياحها لحي المحطة.

استلقت الجثث الثلاث التي مزقتها الرصاص الحارق على أرض الحجرة؛ التي
بدت أشبه بالمشرحة الطبية.

هتف أحد العناصر لرفيقه:

- ربيع! هلم إلى بسرعة.

ولج ربيع إلى المشرحة، ورمق بعينه الجاحظتين القتل الثلاثة، ثم رماه بمنظرة
حاقدة تطايرت منها الشحنة والبغضاء، ودمدم قائلاً:

- أيها الأوباش! سحقاً لكم .. انظر إلى وجوههم اللعينة، إنهم رهط من الكلاب
الصريرة .. أيها الأوغاد! أتمنى لكم الخلود في قعر جهنم التي ستسحق عظامكم،
وستشوي جلودكم؛ تالله لو كنتم أحياء لسلخت جلودكم كما يفعل الجزار مع الشاة
الذبيحة.

اقتادت عناصر المخابرات أفراد الكادر الطبي، وانطلقت بهم من ردهات
المستشفى إلى موقع الرائد عصام وشريكه عباس اللذين كانا يقفان في الشارع بجوار
حافليتهما.

سدد رجال الأمن العديد من اللكمات والركلات للطبيب محمد والمرضى
الأربعة طيلة فترة اقتيادهم، ثم قذفوهم بوابل من الشئات المذعة:

«سر أيها العاهر»

«أيها القرد؛ هل مازلت تريد حرية؟»

«سأحطم رأسك التني في فرع المخابرات»

«الآن لم يعد يعجبكم السيد الرئيس .. يا أولاد القحبة؛ يا عملاء الصهيونية»

دلفت عناصر المجموعة الأمنية الثانية إلى غرفة الطوارئ التي خصصت لاستقبال

الجرحى والحالات الحرجة.

أبصرت العناصر بأعينها الجاحظة أربعة جرحى، كانوا قد أصيبوا برصاص ميليشيات الشبيحة، خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية.

استلقى الجرحى الأربعة، فوق الأسرة المعدنية التي وضعت في مقدمة غرفة الطوارئ، وكان وضعهم الصحي في حالة يرثى لها، فلم يمض وقت طويل على رقدوهم في المستشفى الميداني.

استدعت حالتهم الحرجة نقلهم إلى المستشفى العام، لكن خوف الأهالي من غدر عناصر الكوادر الطبية العاملة في مستشفيات النظام، دفعهم لنقل جرحاهم إلى المستشفيات الميدانية ذات الإمكانيات المتواضعة.

سددت عناصر المخابرات لكلمات قوية للجرحى، استقر معظمها في وجوههم، ثم اعتقلتهم وهجتهم بألفاظ نابية، أثناء اقتيادها لهم إلى موقع الرائد عصام:

«يا كلاب! .. يا قوادين! .. ماذا تفعلون هنا؟»

أردف عنصر آخر قائلاً بغضب:

«إنهم جاءوا للهو واللعب»

«أيها البغال! لم يعد أمامكم من سبيل آخر سوى النوم في الفنادق الفاخرة»

عاثت عناصر المجموعتين الأمنيّتين في محتويات المستشفى خراباً، وحطمت المعدات الطبية، ومزقت السجلات، وأتلفت العقاقير، وعندما فرغت من حملتها الشرسة أقفلت عائدة إلى حافلاتها.

طأطأ المعتقلون رؤوسهم بانكسار، ووجعت وجوههم، ووجلّت قلوبهم، وجحظت أحداقهم، وشخصت أبصارهم، وأرهفوا أسماعهم، وأصغوا بإنصات شديد، للحديث الدائر بين الرائد عصام وعباس.

تسحى القتل الثلاثة على ظهورهم وبطونهم، بعد أن قذفت عناصر المخابرات جثثهم أرضاً.

أوعز الرائد عصام لعناصره قائلاً في حزم:

- انقلبوا الكلاب النافقة إلى مشرحة المستشفى الوطني.
حدّق عصام في أفراد الكادر الطبي، وقال لهم متجهماً:
- أما الكلاب التي لازالت تعوي؛ أريد أن أسمع عوائثها في الملعب البلدي .. هيا
انقلبوهم.
خطا عباس ثلاث خطوات نحو الجرحى الأربعة، وحدق في أعينهم المنكسرة،
وقال بانتقام:
- أخني عصام! هل تعلم أن الكلب الجريح، أخطر بكثير من الكلب السليم.
قهقهه الرائد عصام وسأل هازئاً:
- كلا؛ لا علم لي في ذلك، لماذا يا ترى؟
أخرج عباس علبه السجائر من جيبه؛ قدم لفافة للرائد عصام، ثم أشعل اللفافتين
بواسطة عود الثقاب؛ جذب نفساً عميقاً، وزفر قائلاً بخبث:
- لأنك إن لم تهرس الكلب الجريح هرساً ساحقاً، فمن الممكن أن يعود أشرس مما
كان عليه، بعد أن تبرأ جراحه، وقد يفترسك في أي لحظة وحين.
عقب الرائد عصام ملاطفاً:
- لا فض فوك، ما قلته أؤمن من الجواهر واللالئ.
علق أكثم ممالئاً:
- قائدنا عباس لا ينطق إلا ذهباً وأماساً.
جذب عباس أحد الجرحى من منكبيه، ثم دفعه بعنف وعصبية؛ سقط الجريح
أرضاً محاطاً بآلامه وأوجاعه.
دمدم عباس محتدّاً:
- إن هذه الكلاب المسعورة هي من نصيبنا اليوم، وسنكوي جراحها أمام أهالي
القرى.
التفت عباس إلى أزلامه، ونادهم قائلاً:
- أقبّلوا يا رجال! احملوا هؤلاء الكلاب إلى الحافلات، لقد صار لزاماً علينا

التحرك بأقصى سرعة.

اقتادت عناصر الشبيحة الجرحى إلى الحافلات الرابضة، وألقتهم في صناديقها المعدنية بعنف مفرط، فيما زجت أفراد الكادر الطبي وجثث القتلى في حافلتين أخريين، ثم انطلقت بهم إلى قرية السودا.

انطلقت الحافلة الأولى التي أقلت أفراد الكادر الطبي إلى الملعب البلدي، الذي تحول مضماره الرحيب إلى معسكر اعتقال، بينما انطلقت الحافلة الثانية التي حَمَلَت جثث القتلى إلى مستشفى النظام.

كان الأطباء في مستشفيات النظام على نفس الدرجة من الإحرام التي بلغها ضباط المخابرات وقادة الميليشيات المسلحة، بل كانوا يساوونهم في الانحطاط الأخلاقي من خلال ابتزازهم لذوي القتلى، وإذلالهم بدفع الأموال والرشاوى، مقابل استلامهم لجثث أبنائهم.

وظهر التعاون بين الأطباء وضباط المخابرات في أبشع صوره؛ عندما تورطوا سوياً في انتزاع أشلاء القتلى، واشتركوها في بيعها وتوريدها لشبكات المافيا. ازدادت حالة الجرحى الذين رُجَّح بهم في حافلات الشبيحة سوءاً، ولم يسلم أفراد الكادر الطبي الذين أودعوا في حافلة نقل صغيرة من اعتداءات عناصر المخابرات، وتحرشها المفرط، وضربها المبرح لهم طوال الطريق، وظلت تهجيههم بأقذر الألفاظ المقذعة التي نمت عن ألسنتها السليطة:

«أيها القرد! أما زلت تريد إسقاط النظام؟ تباً لك يابن الزانية»

في هذه الأثناء، ركل أحد رجال المخابرات وجه أحد الممرضين بحذائه العسكري، وقام بسحق رأسه في زجاج الحافلة عدة مرات إلى أن فقد الممرض صوابه، وغرق في غيبوبة عميقة، فيما قام عنصر آخر في شد شعر الطبيب محمد بعنف مفرط، وخدش وجهه بأظافره الحادة التي بدت حداثتها كأنياب الضبع المتوحش.

وصلت حافلات الشبيحة إلى ساحة قرية السودا؛ ترجل عباس وأكثم من حافلتها وتبعهما عناصر الشبيحة التي قامت بإخراج الجرحى من صندوق الحافلة، ثم دفعتهم أرضاً، ودهست رؤوسهم بنعالها.

انتصب عباس مزهواً، ومشى بخيلاء وسط ساحة القرية كالطاووس الهندي، وطاف حول الجرحى، ثم حدق فيهم بعينه الغائرتين اللتين طفحتا حقداً، وقدحتا بغضاً، وصرخ بصوته الأَجَش قائلاً:

- يا أهالي القرية! تعالوا وشاهدوا بأَم أعينكم حشود الإرهابيين .. هيا تعالوا.
توافد سكان القرية إلى الساحة، وتقاطروا كباراً وصغاراً، نساءً ورجالاً من كل حذب وصوب؛ رمق السكان الجرحى، وأصموهم بنظرة ازدراء واحتقار، وبصقوا في وجوههم، ثم تمتموا قائلين:

«أيها القرد؛ تباً لك»

«رهط من كلاب الثورة اللعينة»

«إنها ثورة القحاب»

«لقد دمرتم البلاد، وأرهبتم العباد لأجل الحرية التي صدعتم رؤوسنا بها»

«لا نريد حرية؛ نريد أن نسحق رؤوسكم»

أكمل عباس حديثه مع سكان القرية، وأردف قائلاً في صوت جمهور مشيع بالغضب:

- أصغوا إلي من فضلكم؛ هل تعلمون أن هذه الكلاب الجريحة هي أخطر بكثير من الكلاب السليمة؟ أتعرفون لماذا؟ لأنها حرضت الناس في بانياس على إسقاط الدولة، بذريعة الحرية، وكذبت عليهم بحجة الكرامة؛ هؤلاء القروء يستحقون القتل والذبح كالنعايج.

ردد سكان القرية، بسخط وهياج:

«تالله لنذبحهم ونغبّ من دمائهم»

«سنمرغ أنوفهم في التراب»

انقض سكان القرية كالذئاب الضارية على الجرحى الذين وقفوا في منتصف الساحة واطرقوا رؤوسهم بانكسار، وشرعوا في ضربهم بالنعال والأحزمة الجلدية، ثم بصقوا عليهم، وكالوا لهم أحط الشتائم والعبارات السوقية: «يا كلاب .. يا قروود .. يا أولاد العاهرة .. يا أولاد الزانية .. يا أولاد القحبة .. تبا لكم، تبا للحرية، تبا للثورة التي تنادون بها»

صمد الجرحى لبرهة قصيرة من الزمن، وكابروا على ذواتهم، رغم الضرب المبرح الذي فتك في أجسادهم المشخنة بالجراح.

أكمل السكان ضربهم للجرحى بعنف مفرط، وعندما وجدوا أن ضربهم بالنعال والأحزمة الجلدية لم يعد يجدي نفعاً لسحقهم، استعانوا بالقضبان الحديدية، والأدوات المعدنية الحادة، ثم قذفوهم بالحجارة الصلبة.

نزفت الدماء بغزارة شديدة من أجساد الجرحى، وسالت على أرض القرية، بعد أن اتسعت رقعة جراحهم، وبلغت آلامهم معابر أرواحهم، وتعالى أنين عذاباتهم، دون أن تكسر أوجاعهم المتراكمة، جبروت قلوب السكان، وتصهر عناقيد غضبهم. لفظ الجرحى أنفاسهم الأخيرة على وقع الضربات المتتالية التي سددها لهم السكان الناقمون، وفاضت أرواحهم الحرة إلى علياء المجد، بعد أن استبسلت أجسادهم العارية في التصدي لدبابات النظام، ورصاص الشبيحة، وحراب سكان القرى الموالية.

هتف عباس بأعلى صوته:

- جزاكم الله كل خير؛ لقد أوفيتم هذه الكلاب النجسة ما تستحق من عقاب زاجر.

وهنا حدّق عباس في الجثث المسجاة، وأشار بإصبعه نحوها، ثم أردف مكماً: - دعونا الآن نبدأ في سحل هذه الجثث اللعينة إلى القرى المجاورة؛ هيا يا رجال! ابدؤوا عملكم.

جلبت عناصر الشبيحة حبلاً ثخيناً، وأوثقته إيثاقاً متيناً في أشلاء القتلى الأربعة،

ثم قامت بعقده في مؤخرة دراجاتها النارية.

امتطت العناصر دراجاتها، وأدارت محركاتها، ثم انطلقت سائرة في رحاب الطريق الجبلي المتعرج.

تدلّت أجساد القتلى من مؤخرة الدراجات السائرة، فاحتكت أشلاؤها الممزعة بطبقات الإسفلت الخشنة، وتمزقت ثيابها الملطخة بالدماء.

سارت حافلة عباس خلف الدراجات النارية بمسافة قصيرة، ولم تفارق عينيه المتعطشين للدماء الأجساد المتدلية التي روى سحلها شهوته المسكونة في القتل.

بعد انقضاء سبع دقائق، ولجت دراجات الشبيحة إلى إحدى القرى المجاورة، واتجهت إلى ساحتها الرئيسية.

وقبل أن تحط حافلة عباس رحالها في القرية؛ أطلق تنهيدة عميقة من روحه المهووسة بغزيرة القتل والإجرام، وارتسمت ابتسامة صفراء على وجهه الدميم، وأخذ يهذي كالسكران، وقال في لهو:

- تالله لأجعلن لحومكم طعاماً للقطط الشريدة.

قهقهه عباس بهستيريا، وأردف مكماً بسخرية:

- أي قطط هذه التي ستلتهم لحومكم التتنة؟

أبطن أكتف الذي كان يقود الحافلة تهكمه من الكلمات العابثة التي تفوه بها قائده، وقال بتملق:

- كلنا فدائك أيها الزعيم.

ولجت دراجات الشبيحة إلى ساحة القرية التي هرع سكانها فاغرين أعينهم التي رمقت لتوها أجساد القتلى.

ترجلت عناصر الشبيحة من دراجاتها، ثم قامت بحل وثاق القتلى الذين تهشمت أطرافهم، وانسلخت جلودهم حتى بان عظامهم.

هتف عباس لسكان القرية بصوت جهور:

- إخواني الأعزاء! أهالي قرية السودا يقرئونكم السلام، وقد أرسلوا لكم معنا رهطاً من قروء الثورة اللعينة، أتمنى أن ترحبوا به بطريقتكم الخاصة.

دمدم أهالي القرية، ورددوا بغضب:

«لن نقصر في ضيافة القروء»

«كلاب الثورة»

«زناة الحرية»

«يقولون إنهم يريدون إسقاط النظام»

«سنفقأ أعينهم، ونبتز قضبانهم»

«بل سندق الخازوق في أدبارهم»

انقض أهالي القرية على جثث الشبان القتلى، وأخذوا يضربونها بالعصي ويدهسونها بالنعال، وأفرغوا ما اختزنه أجوافهم من ضغائن وغرائز عدوانية، وأغرقوها بسيل من البصاق، ثم غمغمو قائلين في حضرة الأجساد المسجاة:

«يا أولاد العاهرة .. يا خونة .. يا قردة .. يا كلاب»

«تالله لو كنتم أحياء، لقطعنا لحمكم إرباً، وأجلسناكم على الخازوق»

«إنهم عديمو الشرف والأخلاق»

وهنا استل أحد شبان القرية موسى الحاد من جيب سرواله، وخطا نحو الجثث المسحوقة، وأخذ في بتر أعضائها الذكورية، ثم صرخ في هياج:

- أحضروا الخازوق بسرعة.

قاطعته سيدة في منتصف الأربعينات من عمرها، انتصبت قامتها المشوقة وسط جموع السكان، وهتفت بأعلى صوتها:

- مهلاً .. مهلاً.

حدّق عباس في عيني السيدة، وسألها بفضول:

- ما الخطب؟

ردت السيدة بحلق شديد:

- هل سألتهم أنفسهم، ما الذي يمكن أن يحدث لأبنائنا غدًا بعد تنكيلكم الشنيع
لجثث هؤلاء القتلى؟
- أجاب أكثم في بلاهة وبرود:
- لن يحدث شيئًا على الإطلاق.
- هتفت السيدة بغضب:
- أيها الأغبياء؛ أبنائنا الأحياء قد يلقون نفس المصير الأسود الذي لاقاه هؤلاء
الصرعى على أيديكم.
- رد أحد سكان القرية بصوت جهور:
- أبعد الله الشر عن قلوب أبنائنا، وجعلهم ذخراً للوطن ولقائدنا المفدى السيد
الرئيس بشار الأسد.
- عقبت السيدة في حزم:
- إن لم ننأ بأنفسنا عن هذا الهراء، فإن الكارثة ستحل علينا لا محالة.
- قطب عباس حاجبيه، ورد بغضب:
- كفى ثثرة.
- أردف أكثم مؤيدًا لكلام قائده:
- الكلاب تعوي والقافلة تسير.
- ردت السيدة بانفعال:
- إنها تسير نحو حتفنا جميعًا.

الجزء الخامس

(32)

في مطلع شهر يونيو عام ألفين وأحد عشر للميلاد تصلَّب عود الثورة، واستعر أواروها، واشتد وطيسها باشتداد وتيرة المظاهرات السلمية؛ التي عمت أرجاء المدن السورية كافة؛ كردة فعل على قمع النظام للمتظاهرين السلميين.

حطم السوريون خلال الأسابيع الأولى من انطلاق الاحتجاجات جدران الخوف التي بناها نظام الأسد؛ منذ تاريخ انقلابه المشؤم على رفاقه البعثيين والعسكريين في مطلع سبعينيات القرن الماضي.

واصل الثوار والناشطون مظاهراتهم السلمية غير آبهين بعمليات القتل والاعتقال والخطف؛ التي طالت عشرات الآلاف منهم خلال الأشهر الستة الأولى من عمر الثورة.

كانت الحاجة إلى الميادين العامة، والساحات الرئيسة؛ للتجمع والتجمهر إحدى أبرز الصعوبات التي واجهت الثوار منذ بداية الاحتجاجات في مدينة درعا؛ إذ لم يغب عن ذهن النظام ما جرى في الساحات والميادين العامة في تونس، والقاهرة، وصنعاء، وبنغازي.

فقد نجح النظام في حرمان الثوار من الوصول إلى الميادين العامة؛ عندما شنت ميليشيات الشبيحة -وبإيعاز مباشر منه- هجماتها الساحقة على الساحات الرئيسة في المدن الثائرة؛ كما حدث في درعا البلد، وحمص، فكان البديل عن ذلك لجوء الثوار والناشطين إلى المساجد التي اتخذوا منها نقاط التقاء وانطلاق.

كان الثوار يهدفون من وراء اعتصامهم في الساحات والميادين إلى الضغط على النظام؛ بغية إحراجه أمام الرأي العام الدولي، ودحض افتراءاته ومزاعمه حول وجود جماعات إرهابية مسلحة في صفوف المتظاهرين.

لم يغب عن بال الثوار والناشطين في مدينة حماة -الواقعة وسط سوريا، بين مدينتي حلب شمالاً ودمشق جنوباً- حتمية الاستعداد والتأهب لرفع راية الثورة؛ نيابة عن بقية المدن الثائرة.

تجرعت مدينة حماة في مطلع ثمانينيات القرن الماضي مرارة الإجماع؛ إثر اندلاع الصراع الطائفي بين تنظيم الطليعة التابع لجماعة الإخوان المسلمين؛ التي كانت قد فرضت سيطرتها على المدينة، واتخذت منها معقلاً لمزاولة نشاطاتها السياسية والدعوية، وبين نظام الأسد الذي قاده جنونه الأعمى، وشره العميق للسلطة إلى تدمير المدينة فوق رؤوس قاطنيها، ومسح كل معالمها التاريخية والثقافية؛ ما تسبب في سقوط الآلاف بين قتيل وجريح.

كانت ساحة العاصي -الكائنة وسط مدينة حماة، والمحاذية لمجرى نهر العاصي- أحد أهم الساحات التي شهدت انطلاق أولى المظاهرات السلمية في مطلع شهر أبريل.

في تاريخ الثالث من يونيو؛ المصادف لجمعة أطفال الحرية التي دعا لها الثوار تضامناً مع أطفال الثورة؛ كـ«حمزة الخطيب»، و«ثامر الشرعي» اللذين مزق النظام أشلاءهما الغضة بتعذيبه الوحشي.

ارتكبت ميليشيات الشبيحة في ذلك اليوم الأليم مجزرة مروعة؛ أثناء استهدافها لجموع المتظاهرين السلميين المتجمهرين في ساحة العاصي.

امتزجت مياه نهر العاصي بدماء القتلى، ورويت شوارع المدينة بدماء أبنائها الذين قضوا نحبهم.

اعتزم الثوار الثأر والانتقام لجميع رفاقهم؛ الذين ترجلوا عن الثورة كترجل الفارس عن صهوة جواده.

لم يكن أمام الثوار من سبيل للثأر سوى الحشد لمظاهرة مليونية؛ أسوة بالمظاهرات المليونية الحاشدة التي شهدتها ساحات الاعتصام في القاهرة، وتونس،

وصنعاء، وبنغازي.

تداعى ثوار مدينة حماة -عشية الجمعة الدامية- للاجتماع في مقر التنسيقية الخاصة بهم؛ والكائن في حي الحاضر، وسط المدينة.

انتشرت التنسيقيات والمجالس الثورية في الأشهر الأولى من انطلاق الثورة كانتشار النار في الهشيم، وكان الغرض من إنشائها تنسيق الجهود بين الناشطين؛ لتنظيم فعاليات الثورة، والحشد للمظاهرات السلمية.

اضطر العديد من الناشطين العاملين في صفوف التنسيقيات الثورية إلى التخفي بأسماء مستعارة؛ كيلا يكونوا أهدافاً مكشوفة للنظام الأمني الذي دأب على ملاحقتهم، واقتفاء أثرهم؛ بغية اختطافهم واغتيالهم.

كان مقر التنسيقية عبارة عن بنائين سكنيين؛ أحدهما شقة، والآخر بيت أرضي. وكان محظوراً على أعضاء التنسيقية الكشف عن مواقعهم، والإفصاح عن هوياتهم الشخصية أمام أبناء المدينة.

كان عبد الرحمن أحد أبرز شبان التنسيقية وأكثرهم نشاطاً، وازب الناشط عبد الرحمن على البقاء في التنسيقية طيلة الأيام التي أعقبت أدراج النظام لاسمه على لوائح المطلوبين لجهاز المخابرات، فاتخذ من مقرها مكاناً للعمل والمبيت. عمل عبد الرحمن مستشاراً سياسياً لتنسيقية الثورة، وكان أكبر أعضائها سناً؛ ما جعله محل احترام رفاقه الذين اجمعوا على توليه إدارة شؤون التنسيقية بواسطة أسلوب المداورة فيما بينهم، مرة واحدة كل أربعة أشهر.

كان عبد الرحمن في التاسعة والثلاثين من عمره، فرغم تقلب مزاجه إلا أن كان شديد الفطنة، حاد الذاكرة، واسع المعرفة، طليق اللسان، بليغ المنطق، اكتسب إماماً واسعاً بالشأن العام، منذ أن انتسب إلى الحزب الشيوعي في مرحلة مبكرة من حياته، وقرأ العديد من الكتب الروسية المترجمة إلى اللغة العربية التي كان قد اقتنى معظمها بسعر بخس من الباعة الجائلين؛ الذين كانوا يعرضون بضاعتهم من الكتب السوفيتية العتيقة على الأرصفة المتاخمة لحي الحاضر وساحة العاصي، فأودع

معظمها في مكتبة البيت، أثناء دراسته لمرحلة الثانوية العامة. أبدى عبد الرحمن تأثراً عميقاً بشخصيتي كارل ماركس وفلاديمير لينين، وكان يرى فيها رمز الخلاص البشري من عبودية رأس المال والقيود اللاهوتية. في مطلع عام ألف وتسعمائة وثلاثة وتسعين، سافر عبد الرحمن إلى أوكرانيا لدراسة الطب البشري في جامعة كييف، مدفوعاً برغبة جامحة في الوقوف على أطلال الحقبة الشيوعية، رغم خيبة الأمل الكبيرة التي تجرع مرارتها أثناء سقوط الاتحاد السوفيتي قبل عامين من سفره، إلا أنه ظل يعيش الأمل باستمرار الثورة الاشتراكية، واتساع رقعتها الجغرافية، منذ أن أوقد ماركس جذوتها قبل عشرات العقود.

في كييف الراححة لتوها تحت وطأة الانهيار الاقتصادي، وشتيوع الفساد المالي والإداري، وقع عبد الرحمن ضحية استغلال فتاة روسية جميلة؛ عندما قامت وتبدير من رفاقها في التردد على شقته، ونجحت في استمالته إليها، بعد أن أفضت معه ليال ماجنة، ثم استدرجته وفق خطة محكمة إلى حفلة صاخبة بصحبة رفاقها الجامعيين؛ الذين تبين لاحقاً أن معظمهم كانوا أعضاء في شبكة المافيا التي عملت على اصطيد الطلبة الأجانب بغية استلاب أموالهم.

استسلم عبد الرحمن لمطالب عناصر المافيا الأوكرانية منذ اللحظة الأولى، ونفذ جميع رغباتها، ودفع لها كل ما بحوزته من مال، وعندما رفض التعاقد معها بحجة حمايتها له، تلقى طعنة حادة في بطنه أسقطته أرضاً، وكادت أن تنهي حياته، كما حصل لاثنتين من رفاقه الذين سبقوه بأيام قليلة، بعد أن أبدوا مقاومة شرسة انتهت بمقتلهم على أيدي عناصر المافيا.

أقفل عبد الرحمن عائداً إلى سوريا بمعونة أفراد الجالية السورية؛ الذين أبدوا تعاطفهم الشديد مع حالته الصحية المزرية، وخلال وقت قصير جمعوا له مبلغاً صغيراً من المال لتمكينه من شراء تذكرة الطائرة العائدة إلى سوريا.

رجع عبد الرحمن إلى سوريا محاطاً بخيبة أمل كبيرة، ومنذ ذلك الحين، دفن

عقيدته الشيعية في حفرة عميقة، بعد أن كان قد تغوط عليها بفعل ما حدث معه.

في تمام الساعة الثامنة مساءً، كان إبراهيم -وهو أحد شبان التنسيقية- من أوائل الواصلين إلى مقر التنسيقية، بعد أن كان عبد الرحمن قد أرسل في طلب رفاقه الأعضاء للاجتماع معهم، بغية تدارك الأوضاع الخطيرة التي آلت إليها أحوال الثورة في مدينة حماة.

كانت التنسيقية عبارة عن قاعتين كبيرتين؛ ضمت القاعة الأولى منها عشرات الكراسي البلاستيكية التي اصطفت أذرعها بانتظام واتساق، فيما حوت القاعة الثانية بضع طاولات مكتبية؛ حملت أسطحها الخشبية مجموعة متنوعة من الحواسيب الإلكترونية، وأجهزة الاتصال الهاتفية.

جلس الشاب إبراهيم في القاعة الأولى بجوار عبد الرحمن الذي سأله بحزن

مرير:

- كم شهيد لدينا حتى الآن؟

ارتسمت ملامح الحزن والأسى على وجه إبراهيم، وقال آسفًا:

- لقد أحصينا حتى الآن أكثر من خمسين شهيدًا.

رد عبد الرحمن بقهر وحرقة:

- لا حول ولا قوة إلا بالله؛ ألا لعنة الله على كل الظالمين.

فقال إبراهيم في حزن شديد:

- آمين.

قبل أن يسأل عبد الرحمن مرة أخرى؛ ولج إلى القاعة الشاب أكرم؛ الذي أدى

التحية المسائية، وانضم إلى رفيقيه الجالسين.

كان أكرم أحد الناشطين المتخصصين في مجال الحوسبة، وتصميم الإعلانات،

وإخراج المنشورات، والمصقات الإلكترونية.

امتلك كل عضو من أعضاء التنسيقية مفتاحًا معدنيًا، كان كل منهم يستخدمه

- بصمت وسرية تامة أثناء الدخول إلى المقر؛ لأن قرع الباب كان ممنوعاً؛ حتى لا تثار الشبهات من حولهم؛ حفاظاً على حياتهم وعلى سرية نشاطهم الثوري.
- قبل أن يبدأ أكرم في الحديث سأله عبد الرحمن بلهفة:
- لماذا تأخرت؟ أين بقية الشباب؟
- أجاب أكرم بأنفاس متقطعة:
- الأوضاع أصبحت أكثر سوءاً من ذي قبل.
- فغر عبد الرحمن عينيه، وسأل مندهشاً:
- لماذا؟ اللهم اجعله خيراً.
- رد أكرم بألم مرير:
- لقد امتلأت الشوارع والأزقة بالجرحي.
- سأل عبد الرحمن بحرقة:
- كم عدد الجرحي تقريباً؟
- زّم أكرم شفثيه وأغمض جفنيه، وقال بألم:
- لقد أحصينا حتى الآن أكثر من خمسمائة جريح.
- ضرب عبد الرحمن جبينه العريض بباطن كفه اليمنى بشكل تلقائي من هول الصدمة، وهتف بذهول:
- يا إلهي! قصف الله روحك يا بشار.
- سأل إبراهيم أكرم:
- هل أسعفتم الجرحي؟
- رد أكرم متحسراً:
- أجل، شبابنا قاموا بإسعافهم.
- سأل عبد الرحمن باهتمام:
- أين أودعتموهم؟
- رد أكرم باقتضاب:

- في البيوت.
سأل عبد الرحمن مستنكراً:
- لماذا لم تودعهم المستشفيات؟
حبس أكرم أنفاسه داخل صدره لبرهة قصيرة قبل أن يجيب على سؤال زميله،
ثم زفر قائلاً:
- مع الأسف، كل المستشفيات أصبحت محاصرة من قبل قوات الأمن
والشبيحة.
هتف إبراهيم متعجباً:
- حتى مستشفى الحوراني؟!
هزّ أكرم رأسه، وقال بانزعاج:
- لم تعد المستشفيات مكاناً آمناً للجرحى.
عقب عبد الرحمن مؤيداً للكلام أكرم:
- أنت على حق، لقد تحولت المستشفيات إلى مسالخ بشرية.
في هذه الأثناء دلف خمسة ناشطين آخرين إلى مقر التنسيق، وانضموا إلى
الاجتماع الذي مضى على عقده بضع دقائق.
انضم الناشطون الوالجون إلى رفاقهم المجتمعين، وجلسوا معهم في القاعة
الأولى.
افتتح عبد الرحمن الحديث مع رفاقه المنضمين لتوهم بقراءة سورة الفاتحة حداداً
على أرواح المتظاهرين الذين سقطوا برصاص أجهزة الأمن، وزبانية النظام.
بعد أن فرغ الناشطون من قراءة الفاتحة هتف عبد الرحمن لرفاقه قائلاً:
- يا رجال! لقد دفعت مدينتنا اليوم ثمناً غالياً من دماء أبنائها، وكلنا يعلم
أن الحرية ثمنها باهظ، ودونها الكثير من التضحيات الجسام. بدأنا السير في طريق
الحرية مع إخوتنا في حمص ودرعا، وسنكمله معهم حتى النهاية.
عقب إبراهيم مؤيداً بحماس:

- صدقت، فمن بعد هذا اليوم الأليم لا يمكن أن نسمح لأنفسنا بالانكسار أو التراجع عن مواصلة السير في طريق الخلاص من أغلال القهر والعبودية. أردف أكرم بحزم قائلاً:

- التراجع خيانة لدماء الشهداء، والجرحى، والمعتقلين. قال سليم؛ وهو أحد الناشطين الخمسة الذين انضموا إلى الاجتماع قبيل بضع دقائق:

- لا شك أن كلماتكم رائعة، وكل حرف فيها يشع أملاً، وقوة، وشهامة، ويشحذ هممنا لإكمال المسيرة الثورية حتى النهاية، ومهما كانت العواقب، لكن ثمة تساؤلان يدوران في خلدي الآن: ما هي خطواتنا القادمة؟ وماذا في استطاعتنا أن نفعل؟

أجاب ضياء -أحد الناشطين الحاضرين- بحمية وحماس:

- يجب أن نتقم لدماء الشهداء.

سأل أكرم مستفهماً:

- كيف سنتقم؟ وبأي طريقة؟.. بالسلاح مثلاً. رد ضياء برزامة:

- كلا ليس بالسلاح، انتقامنا سيكون من خلال توسيع دائرة المظاهرات، وتكثيفها على مدار أيام الأسبوع.

أردف أكرم مستفهماً:

- ما الجدوى من وراء ذلك؟

زفر ضياء بعمق، وقال بحصافة:

- لا بد من إرهاب النظام عبر المظاهرات؛ فنظام متوحش كهذا لا نستطيع مواجهته بالسلاح؛ لأننا إذا حملنا السلاح بأيدينا فمن الممكن أن يتخذ من ذلك ذريعة لإبادتنا كما فعل مع أقاربنا في مطلع الثمانينيات من القرن الماضي عندما دمر المدينة، وأباد سكانها عن بكرة أبيهم؛ إذ قتل من سكانها أكثر من عشرين ألفاً؛

لذلك ليس أمامنا اليوم سوى المظاهرات، وهي سلاحنا الوحيد.

عقب عبد الرحمن بهدوء:

- أخي ضياء! اقترحك رائع، وسأعتبره إحدى أهم أولوياتنا في الأيام القادمة، ولكن علينا ألا ننسى فاجعتنا الكبرى التي منينا بها اليوم، ينبغي أن نتداركها بأقصى سرعة كي لا نفقد ثقة الأهالي فينا.

سأل إبراهيم رفيقه عبد الرحمن:

- ماذا تقترح أن نفعل؟

أجاب عبد الرحمن برجاحة:

- يمكن تقسيم العمل إلى مجموعة خطوات؛ الخطوة الأولى: أن ندعو لإضراب عام، وعصيان مدني في جميع أنحاء حماة، والخطوة الثانية: أن نبلغ الأهالي بضرورة إقفال محلاتهم التجارية، والخطوة الثالثة: أن نحث الطلاب على البقاء في البيوت؛ احتجاجاً على جرائم قتل المتظاهرين السلميين في ساحة العاصي.

عقب سليم بارتياح:

- خطوات رائعة وعظيمة.

نظر عبد الرحمن لأكرم، وقال له:

- أتمنى أن تبدأ في طباعة المنشورات الخاصة بالعصيان والإضراب.

رد أكرم بحماس:

- حسناً سأبدأ حالاً.

أكمل عبد الرحمن حديثه قائلاً:

- أتمنى أيضاً تعميم الدعوة في جميع صفحاتنا، وصفحات شركائنا على مواقع

التواصل الاجتماعي.

أجاب أكرم بثقة:

- لا تقلق، سأعد حملة إعلامية قوية.

عقب عبد الرحمن بتؤدة:

- بارك الله فيك، ويسر أمرك، نطمح أن تكون الحملة الإعلامية بعنوان «سبت نصره حماة».

رد أكرم برزانة:

- بعد ساعة من الآن ستكون الحملة الإعلامية حاضرة على جميع مواقعنا الإلكترونية، ومن خلالها سيكون بمقدور بقية الزملاء البدء في توزيع المنشورات على الأهالي.

قال عبد الرحمن مخاطباً رفاقه بشكل عام:

- يا رجال! إذا كان لديكم أي ملاحظات قيمة أرجو أن تمدونا بها، فرأيي قد يحتمل الخطأ، وقد يحتمل الصواب.

رد سليم مجاملاً:

- بل رأيك شديد لا يحتمل الخطأ.

أردف ضياء مؤيداً:

- توكلنا على الله.

هتف عبد الرحمن بتؤدة:

- أرجو ألا تنسوا موعد التشيع غداً، يجب أن تكون مراسم تشييع الشهداء محط أنظار العالم بأسره.

رد إبراهيم بثقة:

- لا تقلق، فشبابنا رتبوا كل شيء، وأعدوا العدة ليوم مهيب.

هزّ عبد الرحمن رأسه، وأردف قائلاً:

- أجل، نريد تشييعاً ضخماً، ومظاهرة حاشدة تليق بشهادتنا.

عقب أكرم مُطمئناً:

- لا تقلقوا، كل الأمور تسير على ما يرام.

بعد مضي ساعة على انتهاء الاجتماع؛ شكل أعضاء التنسيقية خلية عمل،

وانطلقوا إلى شوارع المدينة، وبدءوا في توزيع المنشورات على الأهالي القابعين في البيوت، وعلى المواطنين الموجودين في الشارع، ثم قاموا بالصاقها على واجهات المحلات، وعلى الأعمدة والجدران الموجودة في الطرقات العامة، والأزقة الضيقة. لَفَعَ الناشطون رؤوسهم بأوشحة مرقطة باللونين الأحمر والأبيض، ولثموا وجوههم بها؛ حفاظًا على سرية تحركاتهم، وتسترًا من أعين المخبرين.

دعت المنشورات إلى الإضراب العام عن العمل؛ بدءًا من لحظة توزيعها، وحتى إشعار آخر؛ بغية شل حركة الاقتصاد، وإرباك النظام؛ استنكارًا لجرائمه البشعة التي ارتكبها في ساحة العاصي بوسط حماة، وردًا عليه.

استجاب أهالي المدينة الغاضبين لدعوات الإضراب على الفور، وشرعوا في إغلاق محلاتهم التجارية.

صبيحة يوم السبت الموافق للرابع من يونيو؛ بدت المدينة خاوية على عروشها بعد أن توقفت فيها الحركة بشكل تام.

أرغم الإضراب العام نظام الأسد على سحب عناصر شرطة المرور من النقاط الرئيسية في المدينة؛ بعد أن توقفت حركة السير، وربضت جميع الحافلات في محطاتها.

ظهيرة اليوم عينه؛ احتشد الأهالي في ساحة المسجد الكبير بحماة لتأدية صلاة الجنازة على قتلاهم الذين سقطوا برصاص أجهزة الأمن في ساحة العاصي، ومحيط البلدة القديمة؛ قبل يوم واحد من تظاهرتهم في جمعة أطفال الحرية.

رفع الأهالي نعوش القتلى بعد انتهاء الشعائر الجنائزية، وانطلقوا بها إلى مقبرة الصفا الكائنة في شمال شرق المدينة.

أثناء السير في الطريق الموصل إلى المقبرة، انضم إلى الجنازة عشرات الآلاف من المواطنين الغاضبين، وتناوبوا فيما بينهم على حمل النعوش التي ضحى أصحابها بأرواحهم، وتصدوا بصدورهم العارية لرصاص القمع والاستبداد؛ نيلًا للحرية، واستردادًا للكرامة.

ردد المشيعون أقوى الهتافات المنددة بجرائم النظام، وصدحت حناجرهم
بشعارات الثورة التي دوت عاليًا في الأجواء وسط زغاريد النساء اللواتي بدَوْنَ كما
لو كن في فرح غامر، وكان من ضمن هذه الهتافات:

«الشعب يريد إسقاط النظام»

«بالروح بالدم نفديك يا شهيد»

«الله سوريا حرية ويس»

«على الجنة رايمين شهداء بالملايين»

انقلبت الجنازة إلى مظاهرة عارمة؛ جابت الشوارع والأزقة، وعند اقتراب
المتظاهرين من جسر المزارب الممتد بمحاذاة الطريق الدولي بين مدينتي دمشق
وحلب؛ قطع المشيعون الطريق تعبيرًا عن سخطهم وغضبهم من جرائم النظام؛ ما
أدى إلى شل حركة السير؛ والتي أسفرت عن تكدس مئات الحافلات على جانبي
الطريق.

شيع المتظاهرون قتلهم إلى المثنى الأخير، وواروهم الثرى في مقبرة الصفا
تحت سمع النظام، وأنظار جواسيسه الذين اندسوا بين صفوف المشيعين كالأفاعي
الرقطاء، وشرعوا يحسون نبض المتظاهرين، وغضب المشيعين.

(33)

بعد مرور الشهر الأول على اندلاع الاحتجاجات؛ اتسعت دائرة المظاهرات، وامتد نطاقها إلى جميع الأراضي السورية.

في هذه الأثناء أصدر النظام تعليماته الصارمة لقادة الفروع الأمنية، ورؤساء شُعَب المخابرات بالعمل على توسيع قاعدة المخبرين، والجواسيس، والعملاء لتشمل المدن والمحافظات السورية كلها.

فرغم امتلاك النظام لجيش هائل من المخبرين والعملاء قبل انطلاق الثورة، إلا أن فشل أجهزته الأمنية في تعقب جميع الناشطين، وجنوحه المفرط إلى استخدام القوة الغاشمة ضدهم حثّم عليه تجنيد المزيد من الجواسيس والعملاء.

زرع النظام جواسيسه في صفوف المتظاهرين، وانحصرت مهمتهم في كشف هوية الناشطين، وتدبيح التقارير ضدهم، ومن ثم إرسالها إلى ضباط الأمن والمخابرات. حصل الجواسيس على بعض الفتات مقابل عملهم المشين؛ كالمكافآت المالية، والتقريب من ضباط الأمن؛ بغية تسيير مصالحهم الشخصية في دوائر النظام.

انتمى جواسيس الأمن والمخابرات إلى ذواتهم المهووسة بحب السلطة؛ رغم إدراكهم المسبق أنهم مجرد أدوات بيد النظام، غير أن شرهم المزمّن للعق أحذية الطغاة إرضاءً لذواتهم المصابة بداء الاستبداد والعبودية جعلهم يعانون من عقد نفسية مستديمة، ولم يكن أمامهم من خيار آخر لإشباع تلك العقد سوى التقرب من السلطة القمعية، وتقديم قرايين الطاعة والولاء لها مقابل قبولها لهم كعملاء ومخبرين.

كانت نرجس واحدة من عشرات العملاء الذين نجح النظام في تجنيدهم،

واستخدامهم في عمليات التجسس التي كانت تهدف إلى الكشف عن هويات المتظاهرين، واصطياد الناشطين من خلال إيقاعهم في علاقات غرامية مشبوهة. ارتبطت نرجس بجهاز المخابرات العامة؛ الذي اصطُح على تسميته بـ«أمن الدولة» من خلال صديقتها هيام؛ والتي نجحت في تجنيدها لصالح أحد أبناء عمومته، فارتبطت معه بعلاقة جنسية سرية، وعملت في الوقت عينه ضمن صفوف جهاز المخابرات.

دأبت نرجس على زيارة بيت صديقتها هيام من حين لآخر، وفي أحد اللقاءات العاصفة؛ وبينما كانت الفتاتان تشاهدان جهاز التلفاز الذي عرضت شاشته الفضية إحدى المظاهرات الحاشدة في حمص بادأت هيام صديقتها نرجس بالحديث قائلة باستياء:

- لقد دمرُوا البلد، تَبَّاهُم.

سألت نرجس بحذر:

- مَنْ هُمْ؟

ردت هيام بانفعال:

- الكلاب الذين يصفون أنفسهم بالثوار.

شهقت نرجس بعمق، وزفرت قائلة:

- أنت على حق.

حدقت هيام في عيني صديقتها، ثم أشارت بيدها نحو التلفاز، وسألت بخبث

ودهاء:

- ما رأيك بهم؟

أجابت نرجس بملائة:

- فليذهبوا جميعًا إلى الجحيم.

فقالَت هيام دون تفكير:

- آمين.

- ثم أردفت هيام بحزم قائلة:
- يجب أن نحافظ على بلدنا قبل أن نفقده.
ردت نرجس باقتضاب:
- صحيح.
عقبت هيام بإصرار:
- الكلام لا يفيد، ينبغي أن نفعل شيئاً لبلدنا.
سألت نرجس باهتمام:
- ما الذي يمكننا فعله في رأيك؟
أجابت هيام بصرامة:
- باستطاعتنا فعل أشياء كثيرة ضد هؤلاء الكلاب.
قالت نرجس ببرود:
- في الواقع لا أعرف ماذا يمكن أن نفعل، ليس لدي أي فكرة.
أردفت هيام بدهاء قائلة:
- حسنًا، لا بأس، سأقول لك ماذا يمكننا أن نفعل لإنقاذ البلد.
فقالت نرجس بفضول:
- قولي من فضلك.
سألت هيام باحتيال:
- هل أنت مع، أم ضد فكرة تأديب الكلاب الذين يسمون أنفسهم ثوارًا؟
ابتلعت نرجس ريقها، وقالت بلا تردد:
- طبعًا مع تأديبهم، بكل تأكيد.
ردت هيام بارتياح:
- عظيم، أصغي إلي إذن.
فقالت نرجس باهتمام:
- حسنًا.

مسدت هيام خصلات شعرها المجعد بكفها اليمنى، وقالت بتباهٍ:

- ابن عمي هيثم.

سألت نرجس بفضول:

- ما به؟

زمت هيام شفتيها، وأردفت قائلة باستياء:

- دعيني أكمل من فضلك.

ردت نرجس معذرة:

- أرجو المعذرة، تفضلي.

شهقت هيام بعمق، ثم زفرت أنفاسها بتؤدة، وقالت بافتخار:

- هيثم يعمل الآن مع العقيد أديب؛ وهو من أهم الضباط في فرع أمن الدولة،

أعتقد أنك لا تعرفينه، لا مشكلة في ذلك، المهم في الأمر أن العقيد أديب طلب من

هيثم أن يساعده في جمع أخبار الكلاب لحظة بلحظة، مقابل...

قاطعت نرجس صديقتها، وسألتها بشغف:

- مقابل ماذا؟

أكملت هيام حديثها بتؤدة:

- واضح أنك في عجلة من أمرك، لا بأس، على أي حال العقيد أديب أبلغ هيثم

أن من يخدم وطنه بوفاء وإخلاص فستكافئه الدولة براتب شهري مجزي، وسوف

تمنحه رخصة لحمل السلاح، وامتيازات أخرى مهمة.

استدركت نرجس على هيام كلامها؛ قائلة:

- هذا يعني أن عملنا سيكون مع المخابرات.

ردت هيام ساخرة:

- كلا، بل مع فوج الإطفاء.

سألت نرجس باستنكار:

- لماذا تسخرين مني؟

- أردفت هيام قائلة بجدية دون أن تعلق على سؤال صديقتها:
- طبعًا سنعمل مع المخبرات، إذا لم يكن لديك أي اعتراض.
- صمتت نرجس لبرهة قصيرة دون أن تعقب على كلام صديقتها التي كسرت صمتها، وقالت بدهاء:
- أرى أنك غارقة في التفكير، أعتقد أن المسألة بسيطة، ولا تحتاج إلى تأمل عميق.
- ردت نرجس بارتباك:
- كلا، لا أفكر في أي شيء، ولكن لدي بعض المخاوف والشكوك.
- سألت هيام بفضول:
- ممن أنت خائفة؟
- أجابت نرجس بتردد:
- أخشى ألا يوافق أهلي.
- ربت هيام على كتف نرجس، وأردفت قائلة باستهزاء:
- يا لك من فتاة ذكية! ذكاؤك يقطر من عقلك، كما يقطر العسل من خلية النحل، أنسيت أن عملنا سيكون سرّيًا للغاية؟ ومع العقيد أديب بالتحديد؟
- لا تقلقي، لن يكون بمقدور أهلك ولا حتى الجن أن يعرفوا شيئًا عن عملنا؛ لأنه عمل سري خاص، لن يعرف به أحد سوانا.
- التقطت نرجس أنفاسها، وتنهدت بعمق قائلة:
- هكذا إذن! الحمد لله، الآن اطمأنت روحي.
- وشوشت هيام صاحبته بكلمات مثيرة قائمة:
- غدًا سأجعلك تلتقين بأشجع الضباط وأكثرهم جمالًا.
- فغرت نرجس عينيها مندهشة دون أن تعلق على كلام صديقتها التي غمزت لها بطرف عيناها، ثم أردفت بصوت ناعم مبحوح بغية إغرائها، ودغدغت مشاعرهما قائلة:
- قد تعثرين على خليلك من خلال هذا العمل.

قهقهت نرجس، وقالت بفرح وامتنان:
- طالما أن لديك خليلاً؛ فمن غير المعقول أن تتركيني وحيدة بلا خليل.
قهقهت الفتاتان، وغرقنا في نوبة من الضحك العميق.

عانى الناشطون معاناة شديدة من اختراق العملاء والجواسيس لصفحاتهم على مواقع التواصل الاجتماعي، وتغلغلهم بين صفوف الثوار؛ وهو ما جعلهم أكثر حذرًا في تناقل الأخبار، والتواصل فيما بينهم.
اختار النظام شبكات عملائه وجواسيسه بعناية فائقة، وركز في اختياراته على العنصر الأنثوي.

لعبت الفتيات المجندات دورًا مهمًا في اصطيد الناشطين والثوار؛ حيث قمن بإيقاع الكثير منهم في شرك المخابرات عبر إثارتهم لمشاعرهم، ودغدغتهن لغرائزهم الجنسية.

سقط بعض الناشطين والثوار في الفخاخ التي نصبت لهم من عملاء النظام؛ لضعف إرادتهم، وعجزهم عن مقاومة الإغراءات، وارتمائهم في أحضان الوهم؛ الذي ظنوا أنه الحب الدافئ في زمن الثورة؛ دون أن يعرفوا أنه السقوط في قعر الهاوية.
بعد مضي ثلاثة أيام على اللقاء الحاسم الذي ضم الفتاتين؛ اتصل هيثم بابتنة عمه هيام، وأبلغها أن تبلغ صديقتها نرجس بضرورة الاستعداد للقاء العقيد أديب؛ المسئول الأمني الرفيع عن تجنيد شبكات العملاء الجدد في المنطقة الوسطى؛ والتي شملت محافظتي حمص وحماة.

اتصلت هيام بصديقتها نرجس، وأخبرتها بموعد اللقاء؛ والذي كان ظهيرة يوم الثلاثاء، الموافق للتاسع عشر من شهر أبريل.

(34)

ظهرت يوم الثلاثاء الموافق للتاسع عشر من شهر أبريل؛ انطلقت نرجس من بيتها الكائن في حي باب قبلي، فاستقلت حافلة الأجرة من أمام ناصية الشارع العام، ثم توجهت على الفور إلى مسجد النوري المجاور لجسر الكيلانية وسط مدينة حماة. جابت الحافلة شوارع المدينة، وسلكت عجالاتها الأزقة منتقلة من زقاق إلى آخر؛ حتى وصلت إلى وجهتها الأخيرة.

ترجلت نرجس من الحافلة بعد أن دفعت للسائق تعريفة الركوب. تسمرت هيام بقامتها المشوقة عند ناصية المسجد؛ وقد بدت عليها علامات الاضطراب والملل؛ جراء انتظارها الطويل؛ فلم يكن لديها أي شيء تفعله سوى الانتظار بصمت.

حدقت الفتاة في ساعة يدها، ثم قطبت حاجبيها الرفيعين، وتأففت بانزعاج. رفعت هيام رأسها بحركة خاطفة، وجالت ببصرها في أرجاء المكان، وفي هذه الأثناء رمقت عيناها الدائريتان طيف نرجس التي كانت تقف على الجانب الآخر من الشارع الهادئ، فهتفت بها على الفور قائلة:

- نرجس، هلمي إلي.

نما صوت هيام الشجي إلى مسامع نرجس التي تفرست بعينيها الجاحظتين أطراف المكان بحثاً عن مصدر الصوت؛ إلى أن أدركت موقع هيام.

سارت نرجس بضع خطوات متعجلة نحو هيام، وعندما وصلت إليها، قالت هيام مؤنبية لنرجس، قبل أن تلتقط الأخيرة أنفاسها:

- لقد تأخرت كثيراً، أين كنت؟

ردت نرجس بصوت متهدج:

- أرجو المَعذرة، لم أستطع الخروج من البيت في الوقت المحدد؛ لثلا أثير الشبهات من حولي.

مطّت هيام فمها باستهجان، وأردفت بامتعاض مبطن قائلة:

- إذا كانت هذه هي البداية فكيف سيكون حال ما هو قادم؟!

ردت نرجس بانزعاج:

- كفكاف نقدًا وتصيّدًا بالماء العكر.

أسدلت هيام جفنيها الرقيقين وقالت باقتضاب:

- حسنًا.

في هذه الأثناء؛ ربضت حافلة عند ناصية المسجد، كانت هيام ترقب وصول هذه الحافلة بصبر نافذ؛ ترجل هيثم من الحافلة الرابضة، وخطا بضع خطوات في اتجاه الفتاتين الواقفتين في الطرف الآخر من الشارع.

هتفت هيام لنرجس بارتياح قائلة:

- لقد وصل هيثم، هيا بنا.

هرعت الفتاتان إلى الحافلة، وعندما أدركتا هيثم في منتصف الطريق، هتفت إليه هيام بشوق غامر قائلة:

- طاب يومك، كيفك حالك؟.. لقد اشتقت إليك كثيرًا.

تظاهر هيثم الحياء أمام نظرات نرجس، وقال لهيام ملاطفًا:

- الحمد لله بخير، وأنا كذلك اشتقت إليك كثيرًا.

أشارت هيام بيدها نحو نرجس، وقالت لخليلها:

- صديقتي نرجس التي كنت قد أخبرتك عنها.

فغر هيثم فمه الكبير كاشفًا عن أسنانه الصفراء، ورسم ابتسامة زائفة على وجهه الدميم، ثم ردد قائلاً:

- أهلاً وسهلاً سررت بمعرفتك.

ردت نرجس بلطف:

- وأنا كذلك سررت بلفائك.

ألقي هيثم نظرة عابرة إلى ساعة يده، وأردف قائلاً:

- أرجو ألا تتأخر كثيراً عن موعد الاجتماع مع سيادة العقيد، هل أنتما مستعدتان

للانطلاق؟

قالت الفتاتان بصوت واحد:

- نعم مستعدتان.

قال هيثم باطمئنان:

- ممتاز، اتبعاني من فضلكما.

استقلت الفتاتان الحافلة بصحبة هيثم، ومضتا إلى وجهة مجهولة، توغلت الحافلة في شوارع المدينة وأزقتها؛ إلى أن وصلت عجلاتها إلى فرع الأمن السياسي.

كان فرع الأمن السياسي واحداً من أهم فروع المخابرات التي اعتمد عليها النظام في رصد نشاطات الثوار، وتعقب تحركاتهم.

ترجلت الفتاتان من الحافلة، ثم دلفتا إلى بناء مكون من ثلاثة طوابق.

أحاطت الكائن، وأبراج المراقبة بمدخل البناء ومخارجه، واحتلت واجهته الأمامية لوحتان ضوئيتان كبيرتان كتب عليهما:

«نهج الأسد باق للأبد»

«قائدنا بشار الأسد»

صعدت الفتاتان درجات السلم الحجري متجهتين إلى الطابق الأول، ثم ولجتا بصحبة هيثم إلى مكتب العقيد أديب.

أدى هيثم التحية العسكرية لقائده؛ الذي كان منشغلاً في الكتابة على حاسوبه، وقال له:

- احترامي سيدي.

حدّق العقيد أديب من أسفل نظارته الطبية التي ترحلق إطارها إلى أن وصل إلى أرنبة أنفه في الوافدين إليه، ثم همّ واقفاً واتجه نحو الفتاتين.

كان العقيد أديب ضابطاً مهووساً في قراءة كتب التاريخ الإسلامي، والتنقيب في صراعاته الدامية بين مختلف الممل والنحل، ومن ثم إسقاطها على الواقع الراهن.

عكست قراءاته المشوهة لكتب التراث الإسلامي، فهمه الخاطي لجوهر الصراع بين المذاهب الإسلامية، وأسهمت في بناء شخصيته العنيفة التي انحازت انحيازاً مطلقاً لخيار الثأر والانتقام من عوام السوريين؛ الذين رأى فيهم الشر المطلق الذي تسبب قبل ألف وأربعمائة عام في ترجيح كفة الحكم لصالح الأسرة الأموية، وقبل ذلك في فتح أبواب دمشق للغزاة العرب القادمين من شبه الجزيرة العربية.

تخلّى أديب عن زوجته بسبب صراعه المرير مع عائلتها المحافظة؛ تاركاً وراءه ثلاثة أولاد لم يراهم في حياته قط، ولا يعرف عنهم شيئاً منذ انفصاله الأخير عن والدتهم.

ومنذ ذلك الحين؛ امتلأ قلبه بالحق والكراهية على عائلة زوجته التي رأى فيها الوجه الآخر لصورة الإسلام المنحرف، ولا سيما عندما منعت من رؤية أولاده الصغار، وظل يجلد ذاته على زواجه الخاطي من امرأة مسلمة.

انتسب أديب لعائلة مسلمة ذات جذور مسيحية أرمنية، حيث اضطرت جدته لتغيير دينها في مطلع القرن العشرين، عندما فرت هاربة مع أفراد عائلتها من أرمينيا، واستقرت في بلدة كسب المتاخمة للحدود السورية التركية.

فقدت جدته عائلتها أثناء سيرها في منطقة جبلية نائية في ريف ديار بكر، والتحقّت الشابة اليافعة بعد ذلك بعائلات أرمنية وسريانية نازحة اقتادتها معها إلى اقليم لواء إسكندرون، ومن ثم إلى جبل التركمان الكائن في أقصى شمال غرب سوريا.

تزوجت الشابة الأرمنية بشاب مسلم من سكان قرية البهلولة المحيطة ببلدة كسب، فرغم انخراط أفراد عائلته في الإسلام، ظل أديب يعتبر نفسه ليس مسلماً، فالدين بالنسبة له ليس مجرد عقيدة إيمانية؛ ينتسب لها المرء عندما يمتلك اليقين الكامل بها، بل هو هوية عرقية تحددها الأم، وتنقلها بالدم من جيل لآخر.

رسم العقيد أديب ابتسامة صفراء على وجهه الكالح، وصافح الفتاتين بحرارة، ثم طلب منهما الجلوس على الأريكة قائلاً:

- أرجو أن تفضلا بالجلوس.

سبق وصول الفتاتين هيام ونرجس إلى مكتب العقيد وصول فتاتين أخريين جلستا على الكرسيين الخشبيين المواجهين لطاولة الضابط.

جلست الفتاتان الوافدتان للتو على الأريكة اللدنة، وأصغتا بإنصات شديد لتوجيهات العقيد؛ الذي استهل حديثه إلى الفتات الأربع بشرح مسهب لنظرية المؤامرة الكونية المزعومة.

ثم أردف العقيد قائلاً:

- وطننا اليوم يتعرض لأخطر مؤامرة كونية من قوى الشر العالمية، إنهم يريدون أن يدمروا بلدنا سوريا؛ ليعيدوا استعمارنا من جديد، يجب ألا نسمح لهم بذلك، ولا خيار أمامنا الآن سوى التصدي لمخططاتهم التوسعية بكل قوة، وهذا الخيار الحاسم يستدعي منا ضربهم بيد من حديد؛ لقطع دابر المؤامرة المتمثل في العصابات الإرهابية المسلحة. تفرس العقيد وجوه الفتات الأربع، وقال باحتيال:

- نريد منكن أن تساعدن وطنكن، وقيادتكن في الكشف عن مواقع العصابات الإرهابية.

بإمكاننا كضباط وعناصر أمن أن نكشف عن مواقعهم، ولكننا لن نتصر على الإرهابيين ولن نقبر المؤامرة دون الاستعانة بجهودكن الجبارة.

قالت نرجس بحماس:

- سيدي العقيد! نحن أبناء هذه الأرض، ولدينا الاستعداد الكامل لفعل أي شيء دفاعاً عنها، وهذه ليست منة، بل هو واجب محتوم علينا.

عقبت هيام بحمية:

- سيدي العقيد! كلنا فداء الوطن.

أخرج العقيد أديب علبة السجائر من جيب قميصه، واستل لفافة لنفسه، ثم دفع

العلبة نحو الفتاتين قائلاً:

- أرجو أن تنفضلا.

أوقعت حركة العقيد نرجس في حرج شديد، فحدقت الأخيرة في عيني صديقتهما لاستطلاع رأيها، وهنا غمزت هيام بطرف عينها اليسرى لنرجس إيماء منها بالموافقة، وتناولت بسرعة لفافة من العلبة، فتلقفت نرجس الإشارة من هيام، والتقطت هي الأخرى لفافة منتصبة من علبة السجائر.

أشعل العقيد لفافتي الفتاتين بقداحته الأنيقة، ثم سحب نفساً عميقاً من لفافته المشتعلة، وأردف قائلاً بارتياح:

- حتى الآن، نحن متفوقون على الخطوط العريضة للعمل، أليس كذلك؟

نفثت نرجس سحب الدخان من بين شفطتيها المكتنزتين، وقالت موافقة:

- نعم سيدي.

شهق العقيد شهقة عميقة، ثم زفر قائلاً:

- عظيم، سنبدأ الآن الخوض في تفاصيل العمل.

عقبت هيام باهتمام:

- تفضل سيدي.

جذب الضابط نفساً عميقاً من لفافته التي أوشكت على الانتهاء، ونفث سحب الدخان الأبيض المحتبس في رئتيه، ثم قال برزانة وتؤدة:

- أهم ما في عملنا يتمثل في التحلي بالقوة والجرأة؛ فالعمل بسلك الأمن يبدو أحياناً أصعب من القتال على الجبهات، والخطأ في عملنا من الصعب تصحيحه وتعديله، ودونه الباهظ من الأثمان؛ فعلى سبيل المثال معلومة بسيطة قد تؤدي أحياناً في الوصول إلى كنز وفير من الأسرار، وقد تكون كلمة السر أو المفتاح لقضية غامضة؛ لذلك أريد منكم ألا تستخفون بأي معلومة؛ مهما كان نوعها أو مصدرها.

ردت نرجس بإذعان:

- حاضر سيدي.

أكمل العقيد أديب كلامه قائلاً:

- كما أن امتلاك عناصرنا للقوة البدنية شرط أساسي في عملنا الأمني؛ ولذا اعتباراً من صباح الغد سيتولى الملازم صفوان تدريبك، وإعدادك، وتأهيلك تأهيلاً عسكرياً لمدة خمسة عشر يوماً؛ ستتعلمن خلالها كيف تستخدمن السلاح الخفيف في الدفاع عن أنفسكن، وفي الوقت عينه ستخضعن لدورة أمنية مكثفة؛ بغية تدريبك على اختراق صفحات المهندسين والإرهابيين على شبكة الإنترنت.

عقبت هيام:

- حسناً سيدي.

أردف العقيد أديب قائلاً بحزم:

- يجب أن تعرفن أيضاً أن عملكن لا يقتصر فقط على نقل المعلومات، واختراق صفحات المهندسين.

سألت نرجس بفضول:

- ماذا هناك أيضاً سيدي؟

قال العقيد بدهاء:

- في بعض الأحيان قد أطلب منكن إقامة علاقات حميمة مع بعض المهندسين الذين يهمننا أمرهم؛ سواء على مواقع التواصل الاجتماعي، أو على أرض الواقع؛ لإيقاعهم في شركنا، ومن ثم فضحهم على رءوس الأشهاد.

أطرقت الفتاتان هيام ونرجس في صمت طويل، دون أن تنبسا ببنت شفة.

حدق العقيد في عيني الفتاتين المطرقتين وسألها مستفسراً:

- ما بكن؟ هل عندكما أي اعتراض؟

أجابت هيام على الفور:

- لا شيء سيدي، أنا موافقة، وليس عندي أي تحفظ على تفاصيل العمل.

أدركت نرجس في سريرتها أن الصمت سيوقعها في ورطة كبيرة أمام نظرات الضابط؛ فلم يكن أمامها من سبيل آخر للمناورة والمخاطلة سوى التزلف والتملق؛

فقالت:

- ليس هناك شيء في الدنيا أغلى من الوطن، كلنا فداؤه، وأرواحنا ودمائنا ترخص في سبيله.

ضغط العقيد على زر الهاتف، وقال بصوت جهور:

- احضر لنا القهوة.

نهض العقيد من وراء مكتبه، فظهرت بنيته الضخمة كالكتلة الصماء، واتجه نحو الفتاتين الجالستين على الكرسيين الخشبيين، ثم التفت إلى الفتاتين الجالستين على الأريكة، وقال لهن بابتسامة صفراء:

- أهلاً وسهلاً بجنودنا المجاهدين.

صبيحة اليوم التالي حضرت الفتاتان إلى مقر الأمن السياسي، وكان في انتظارهما بجوار مكتب الاستعلامات الكائن في مدخل المبنى الملازم أول صفوان؛ وهو شاب في مطلع العشرينيات من عمره.

فاجأ صفوان الفتاتين اللتين أخذتا تسألان عنه لحظة ولوجهما إلى مكتب الاستعلامات؛ إذ بادرهاما بالتحية قائلاً:

- أهلاً وسهلاً بالفتاتين الجميلتين، لقد سررت بلقائكما.

سألت هيام باسمه:

- هل أنت الملازم أول صفوان؟

فأجاب صفوان بسرور:

- نعم، أرجو أن تتبعاني.

اقتاد صفوان الفتاتين إلى الفناء الخلفي للمقر؛ والذي لم يكن يبعد عن مكتب الاستعلامات سوى بضعة أمتار قليلة، احتوى الفناء على قاعة فسيحة بدت ملاصقة لمبنى المقر.

كانت القاعة أشبه بالصالة الرياضية وحقل الرمي؛ حيث لجأ النظام إلى استخدامها

-كغيرها من القاعات الملحقة بفروعه الأمنية- لتدريب العملاء الجدد، وتأهيل المخبرين لممارسة عمليات التجسس بدقة وحرفية.

عمد ضباط النظام إلى تدريب العملاء والمخبرين بشكل فردي ومنفصل بعضهم عن البعض، ولم يكن مسموحاً للعميل أن يتعرف على رفاقه الآخرين إلا في أضيق الحدود؛ كما هو الحال بين نرجس وهيام.

كما لم يكن مسموحاً للعملاء والمخبرين أن يتعرفوا على جميع الضباط الأمنيين؛ إذ لم يكن متاحاً لهم سوى التعرف على الضباط المشرف على عمليات التدريب؛ والذي عادة ما يحمل أدنى رتبة بين صفوف الضباط، وفي الوقت عينه يكون حلقة الوصل بين العميل وبقية الضباط السريين.

كانت خلايا المخبرين منفصلة بعضها عن البعض، ما جعل المخبر أكثر تشككاً فيمن حوله من الناس، وأشد حرصاً على تأدية مهمته الأمنية.

قدّم صفوان للفتاتين حذاءين رياضيين، فانتعلت الفتاتان الحذاءين، ثم وقفتا قبالة في استعداد.

كانت عينا الملازم تنظران نحو عيني نرجس بطريقة مثيرة، وأخذ يبادلها الابتسامات، والنظرات المفعمة بالشهوة الجنسية.

أدركت هيام بنباهتها الحادة الابتسامات والنظرات بين صفوان ونرجس، فأزاحت الفتاة نظرها في اتجاه آخر، وتعاملت مع الموقف الطارئ بشكل اعتيادي؛ دون أن تشعر بالغيرة الجاححة من جنوح شهوة الملازم نحو صديقتها.

أدت الفتاتان بعض التمرينات الرياضية بموجب توجيهات المدرب صفوان، وبعد أن فرغت من الجولة الرياضية؛ اقتادهما الملازم إلى حقل الرمي.

استل صفوان مسدسه الحربي من غمده الجلدي الموجود في حزام يحيط بجذعه الرشيق، وأخذ يشرح للفتاتين كيفية استخدام المسدس، وطريقة فكه وتركيبه، وأسباب استخدامه في العمل الأمني قائلاً:

- هذا المسدس كما تريان سلاح فردي خفيف، وهو السلاح الذي دأب الضباط

والعناصر على استخدامه، وقبل أن نشرع في التدريب على استخدامه والتعامل معه يجب أن نسأل أنفسنا أولاً: لماذا ينبغي علينا حمله؟ ومتى يمكننا استخدامه؟

حدق الملازم في عيني نرجس، وسألها بإصرار:

- في رأيك ما الجدوى من حملنا لهذا المسدس؟

ردت نرجس بتؤدة:

- للدفاع عن أنفسنا.

طرح صفوان السؤال عينه على هيام، فأجابت باستفاضة قائلة:

- لنحمي أنفسنا من أي هجوم غير متوقع؛ يمكن أن يشنه المندسون والإرهابيون علينا.

هزّ صفوان رأسه موافقاً، وقال بهدوء:

- جوابكما منطقي ومعقول، وأود في هذا الصدد أن أضيف شيئاً مهماً على ما سبق ذكره.

رفع صفوان المسدس الحربي، ولوح به إلى الأعلى قائلاً:

- ليس بمقدور أي مواطن في البلد أن يحمل هذا المسدس؛ رغم صغر حجمه؛ فحامله هو ابن الدولة الشرعي الذي تدافع عنه إذا أصابه أي مكروه، وفي المقابل ينبغي على حامله أن يكون مستعداً للدفاع عن النظام إذا تعرض لحرب أو مؤامرة عالمية. ثمّة شيء آخر ينبغي أن تعرفاه أيضاً؛ وهو أن حامل هذا المسدس شخص مميز عن باقي المواطنين بالطبع.

بدأ الملازم صفوان بعد ذلك بشرح عملية فك وتركيب قطع المسدس، وكرر هذه العملية مرتين متتاليتين أمام الفتاتين اللتين كانتا تراقبانه باهتمام شديد، وبعد أن فرغ من ذلك نظر إلى الفتاتين قائلاً:

- نرجس! ستبدئين الآن في فك المسدس، أما هيام فستولى إعادة تركيبه بعد ذلك. نفذت الفتاتان ما طلبه الملازم، ونجحتا في زمن قصير في إتمام عملية الفك والتركيب.

بعد ذلك أخرج الملازم مسدسين حربيين من أحد الأدراج المعدنية المجاورة لحقل الرمي.

قدّم صفوان للفتاتين مسدسين حربيين من نوع ماكروف، وطلب منهما التسديد نحو الهدف؛ والذي كان عبارة عن هيكل خشبي على هيئة إنسان. أطلقت هيام النار على الهيكل الخاص برواقها، فيما ترددت نرجس في الضغط على الزناد؛ الأمر الذي لفت نظر صفوان. فسأل صفوان نرجس متعجباً:

- لماذا لم تطلقي رصاصاتك نحو الهدف؟

ردت نرجس بخجل:

- إنني خائفة.

قال صفوان باندعاش:

- خائفة! لم الخوف؟ يجب أن يكون قلبك قوياً كالرصاصة.

ثم أطبق صفوان كفيه القويتين على قبضتي نرجس اللتين أمسكتا بمقبض المسدس، وهمس في أذنها برومانسية مخاتلة:

- هيا سددي نحو الهدف دون خوف أو ارتباك.

ضغطت نرجس على الزناد بحماس متقدبته صفوان في روحها بكلماته، فاندفعت الطلقة الأولى نحو الهدف دون أن نصيبه، ثم تلتها الطلقة الثانية، فالثالثة.

استمرت الفتاة في الإطلاق إلى أن أفرغت مخزن الرصاص تماماً.

اقتاد الضابط الفتاتين إلى موقع السبورة، وطلب منهما الجلوس، فجلست الفتاتان على كرسيين خشبيين قديمين، وبدأ صفوان يشرح لهما طرق التجسس البدائية من خلال الإنصات بالأذن لأي حديث جانبي، وتحليل كلماته وعباراته الملمغة، وفك الغازه وطلاسمه المبهمة.

التصقت عينا صفوان لمدة تتجاوز العشرين دقيقة بجسد نرجس؛ الذي أثار شهوته الجنسية، وأضرع نيران الهوى في وجدانه، وقد أدركت نرجس بعقلها الباطن،

وإحساسها الأثوي المرفف الميل الجامح الذي أظهره صفوان نحوها.
امتلاّت روح نرجس بالسعادة والبهجة بعد أن أكسبتها نظرات الضابط الثقة
الكاملة بكيانها.

أثناء انصراف الفتاتين إلى بيتها لكزت هيام صديقتها نرجس، وأخذت تدغدغ
مشاعرها؛ بغية استثارة عواطفها نحو صفوان الذي لم يخفِ اشتهاه الجامح لجسدها
الفتان؛ كاشتهاه الذئب للحمل الوديع.

سألت هيام بدهاء:

- ما رأيك بصفوان؟

أجابت نرجس بارتباك واضطراب:

- صفوان! آه، نعم، إنه رجل عاقل.

أردفت هيام باحتيال قائلة:

- رجل عاقل! أرجو ألا تصنعي الغباء، فعينك اليوم تسردان قصة رومانسية من

أروع قصص العشق.

ردت نرجس برزانة:

- أرجو ألا تسيئي الفهم.

ربت هيام على كتف نرجس، وأردفت قائلة:

- أفهمك جيداً، أرجو أن تكفي عن مراوغي، فعينا صفوان كانتا تتضوران جوعاً

وعطشاً طوال الوقت لجسدك الفتان.

قالت نرجس باندهاش مصطنع:

- لي أنا؟!

هزّت هيام رأسها، وأردفت قائلة بفطنة:

- أجل لك أنت، أرجو أن تفهميني جيداً الآن؛ صفوان هو فرصتك الوحيدة

لتحقيق كل أحلامك، استغلي هذه الفرصة، ولا تضيعيها من يديك أبداً؛ صفوان لا

زال شاباً صغيراً، وهو متعطش إليك كثيراً.

سألت نرجس باستنكار مصطنع:

– مَنْ قال ذلك؟ كيف عرفت؟

تأففت هيام قائلة:

– لقد وقع في شباكك منذ النظرة الأولى.

فقالت نرجس متصنعة للخجل:

– حسناً، ما الذي ينبغي علي فعله الآن؟

التقطت هيام نفساً عميقاً، وأردفت قائلة بدهاء:

– عليك أن تبرعي في اللعب معه، اجعليه يستنشق عطرِكَ دون أن يدوق رحيقكَ،

وعندما تشعرين أنه قد أصبح كالحاتم في إصبعك أشربه من ينبوعك الدافق على قدر المحبة؛ لترتوي أنتِ، ويرتوي هو أيضاً.

قالت نرجس بسعادة مضمرة:

– أنتِ امرأة لا تقيمين وزناً للخجل والحياء.

قهقهت هيام، وأردفت قائلة:

– في الحب لا يوجد خجل أو حياء؛ فالواقع شيء، والرومانسية شيء آخر، دعك

من قصص الحب التي تقرئينها بلا جدوى؛ فتلك القصص المملة تخوض في عالم الإثارة، ولا تعكس الواقع كما هو، الحب الحقيقي هو ما أفعله مع خليلي هيثم برضا وقناعة.

ردت نرجس بهدوء:

– حسناً، سأنظر في هذا الأمر.

قالت هيام بإلحاح:

– ها قد نصحتك، وقد قيل قديماً: «كانت النصيحة بِجَمَلٍ».

نجحت هيام بدهائها الأنثوي، وشبقها الجنسي المتحرر من القيود والتقاليد في إذابة

الجليد المتراكم بين نرجس والملازم أول صفوان؛ عندما أسرَّت إلى نرجس بإعجاب صفوان المفرط بأنوثتها الساحرة، وميله الجامح تجاهها.



صبيحة اليوم التالي؛ انقشعت سحب الضباب الكثيف بين صفوان ونرجس، وأصبح الطريق بين العاشقين أكثر رحابةً وانفراجاً مما كانت عليه الحال في اليوم الأول. بعد أن فرغت الفتاتان من تمارينهما الرياضية، وتدريباتها على استخدام السلاح؛ اقتادهما صفوان إلى غرفة المعلومات الكائنة في الطابق الأرضي.

أجلس صفوان الفتاتين أمام حاسبين آليين، وطلب منهما إنشاء صفحات وهمية بأسماء مستعارة على مواقع التواصل الاجتماعي؛ لمراقبة الناشطين، واختراق صفحاتهم الخاصة؛ بغية إيقاعهم في فخ المخابرات.

أنشأت الفتاتان صفحتين مزيفتين على موقع الفيس بوك، باسم: «عير الشام»، و«ياسمين الحرة».

كرر صفوان طلبه من الفتاتين بإنشاء حسابين خاصين على موقع الاتصالات المجانية «سكايب»؛ والذي كان من أكثر شبكات الاتصال استخداماً من قبل الناشطين السوريين؛ وذلك للحفاظ على أمنهم الشخصي. أردف صفوان بعد ذلك للفتاتين قائلاً:

- عملنا اليوم سوف ينقسم إلى قسمين أساسيين: القسم الأول ميداني؛ وسيقتصر على العمل في الشارع، أما القسم الثاني فهو مكتبي في البيت؛ وسيقتصر على استخدام جهاز الحاسوب، وفي كلا العاملين يجب أن تنتظرا التعليمات قبل التنفيذ.

سألت هيام باهتمام:

- ممن سنحصل على التعليمات؟

رد الملازم صفوان بثقة:

- أنا وزملائي الضباط سنبلغكم بالتعليمات أولاً بأول، سيكون اتصالكم الدائم والمباشر بي؛ لأنني المسؤول عن أمنكم، وحمايتكم، وسلامتكم الشخصية، وصرف مكافآتكم سيتم أيضاً من خلالي، وفي المقابل أنتما ممنوعتان منعاً باتاً من التواصل مع غيري من ضباط الأمن.

أومأت الفتاتان برأسيهما كدلالة على موافقتها على تعليمات الملازم أول؛ الذي أكمل توجيهاته قائلاً:

- هيام! سيقتصر عملك على جمع المعلومات من الشارع، والتغلغل بين صفوف الناشطين.

فسألت نرجس مستفسرة:

- وماذا عني أنا؟

غاص صفوان بحدقيه السوداوين في عيني نرجس، وهتف قائلاً:

- عملك في الفترة الراهنة سيكون أغلبه من داخل البيت، سأزودك بحسابات بعض الناشطين على مواقع التواصل الاجتماعي؛ لاصطيادهم بحنكة وذكاء. سألت نرجس بشغف:

- كيف يمكنني فعل ذلك؟

أجاب صفوان بخبث ودهاء:

- أولاً: عليك أن تتابعهم لحظة بلحظة، ثانيًا: عليك أن تتفاعلي مع منشوراتهم لاكتساب ثقتهم، وإذا نجحت في تحقيق هذين الأمرين سيكون في مقدورك بدء التواصل معهم بطريقة ذكية، والعمل ضمن مجموعاتهم السرية بحذر شديد طبعًا؛ كيلا يفتضح أمرك؛ فالحفاظ على تخفيك شيء مهم جدا، يجب أن تبذلي كل طاقتك من أجله؛ حتى لو استدعى الأمر أن تغري بعض أصحاب هذه الصفحات بالكلام اللطيف.

ردت نرجس بارتياح:

- حسنًا فهمت الآن كل شيء.

في اليوم الخامس وقبل وصول الفتاتين إلى مقر الأمن السياسي؛ رتب صفوان -وبشكل مسبق مع هيثم- الحصة التدريبية لصالح اختلاؤه بنرجس، مقابل اختلاء هيثم بهيام.

عرف الملازم أول صفوان بالعلاقة الحميمة بين هيام وابن عمها بعد أن أفشى له هيثم بكل أسرارهِ الدفينة؛ لكسب ثقته ووده.

وصلت الفتاتان إلى مقر الأمن السياسي في تمام الساعة العاشرة صباحاً، ثم دلفتا إلى قاعة التدريب.

كان صفوان وهيثم في انتظار وصول الفتاتين اللتين ما إن دخلتا حتى ألقتا التحية الصباحية على الرجلين الواقفين في منتصف القاعة.

قال الملازم أول صفوان لهيام بتؤدة:

- سيقوم هيثم الآن باطلاعك على أهم المواقع المستهدفة في المدينة.

والتفت صفوان نحو هيثم، وغمز إليه بطرف عينه قائلاً:

- هيا انطلق أنت وهيام في جولتكم الميدانية.

رد هيثم بأسماً:

- أمرك سيدي.

اقتاد هيثم عشيقته إلى خارج القاعة؛ فيما بقي صفوان مع نرجس التي بادرت به بابتسامة عريضة؛ كشفت من خلالها عن أسنانها البيضاء؛ التي بدت كاللؤلؤ المكنون.

سأل صفوان نرجس متودِّداً:

- كيف تسير الأمور معك في البيت؟

فردت نرجس بصوت ناعم:

- كل شيء يسير على ما يرام.

عقب صفوان ملاطفاً:

- آثرت إبقاءك في البيت حفاظاً على سلامتك من أذى الإرهابيين المحتمل حدوثه

في الشارع.

سألت نرجس بغنج ودلال:

- لماذا؟

أجاب صفوان مداوراً:

- لأنني أخاف عليك كثيرًا.

سألت نرجس بفضول:

- ممن؟

كرر صفوان جوابه بدهاء واحتيال قائلاً:

- من المجرمين والإرهابيين، أخشى أن يتأذى كل هذا الجمال الباهر الذي تحملينه

في ثنايا روحك وجسدك الفاتن؛ فأنت تمتلكين سلاحًا فتاكًا، ينبغي أن تحافظي عليه.

سألت نرجس بتلهف:

- وما هو هذا السلاح؟

أجاب صفوان مراوغًا:

- جمالك، وعبيرك، وفتنتك.

أطرقت نرجس رأسها خجلاً، وفي حركة مباغتة مدّ صفوان كف يده اليمنى إلى

جيدها، ورفع رأسها إلى الأعلى، ثم حدّق في عينيها النجلاءين، وهمس في أذنيها قائلاً:

- يا لجمال عينيك إنهما كشرقة القمر، ويا لروعة وجنتيك إنهما مثل فرط الرمان، ويا

للذة شفتيك إنهما ألد من الشهد.

أمال صفوان جذعه الممشوق نحو قدها، واندفع وجهه المتهلل بنشوة الحب نحو

وجهها الباسم؛ استسلمت نرجس لكلبات صفوان الآسرة، دون أن تبدي أي مقاومة.

ازداد هياج صفوان، واشتد شبقه، عندما لفحت أنفاسها الحارة وجهه، وأضرمت

بعبير سحر جسدها الفاتن نيران شهواته المفرطة، وأثارت غرائزه الجاحمة.

هصر صفوان بقبضته اليسرى قدها المياس، وأخذ يلثم شفتيها المكتنزتين بعنف

مثير، كلثم التائه لقطرات الماء الشحيحة في القفار، ثم أمطر وجنتيها بوابل من القبلات

الدافئة، وهمس في أذنيها بصوت مبحوح مشبع باللذة:

- لقد أذابني قلبك وصهرني حبك.

سألت نرجس بأنفاس مضطربة:

- هل تحبني؟

رد صفوان باحتيال:

- أحبك حباً لا حدود له، وأموت في سبيلك.

همست نرجس بصوت ناعم:

- وأنا كذلك.

بعد أن أطفأ صفوان ظمأه الشديد من رحيق شفتيها الشهيتين، شرع في تقبيل وجنتيها المكتنزتين كزهر الرمان، ثم مرَّ بشفتيه الرقيقتين جيدها السامق كمرث الرضيع لنهد أمه.

تصاعدت أنفاس نرجس شهيقاً وزفيراً، واشتدت آهاتها المنبعثة من ثنايا جوفها، عندما لامست أنامل صفوان حواف جسدها العامر فاضطربت أشلائها، وارتعشت أطرافها.

أسكرت شفتاها المرسوميتين بأنامل ماسية، عقل صفوان وأفقدته صوابه، دون أن يكون باستطاعته إبداء أي نوع من أنواع المقاومة، واستسلمت روحها لعاصفة الحب وكادت أن تفقد صوابها، ثم ما لبثت أن همهمت لخليلها شاكية عذابات الهوى:

- لقد سحررتني نظراتك، وأسكرتني كلماتك.

هتف صفوان باستمتاع وتلذذ:

- يا للروعة همساتك، إنها تقطر عسلاً من بين شفتيك الجميلتين.

ألهبت حرارة روحها روحه المتهيجة، فانصهرت الروحان في لجة الحب، كانصهار المعادن في البوتقة، والتحمنا كالتحام الغمام المتناثر في صفحة السماء. قهقهت نرجس وسألت بمرح عندما استفاقت من نشوة الحب:

- ماذا عن العمل؟

أجاب صفوان مداوراً:

- العمل شيء، والحب شيء آخر، ولحسن حظنا، سنمضي أجمل أيام حياتنا في الحب

والعمل.

عقبت نرجس بسعادة:

- بكل تأكيد.

بعد انتهاء دورة التأهيل والتدريب، شرعت نرجس وهيام في مزاولة مهامهما الأمنية، وبدأتا في التجسس على صفحات الناشطين، والتواصل معهم عبر الرسائل الإلكترونية، والمكالمات الصوتية، بغية إغرائهم واستثارة نوازعهم الجنسية.

نجحت الفتاتان في اصطیاد عشرات الناشطين الذين سقطوا في شركهما، خلال شهري مايو ويونيو لعام ألفين وأحد عشر، واتسع نطاق عملهما التجسسي في النصف الثاني من العام نفسه، تزامناً مع اتساع نطاق المظاهرات السلمية في مدينة حماة وريفها. اضطرت نرجس في كثير من الأحيان للنزول إلى الشارع، لمقابلة ضحاياها من الناشطين المستهدفين الذين كانوا في البدء يرفضون الكشف عن هوياتهم الأصلية، قبل أن يميّطوا اللثام عن شخصياتهم أمام إصرارها وإلحاحها.

اعتادت نرجس على إبلاغ عشيقها بمهمتها الأمنية، قبل وقت وجيز من خروجها من البيت، فيما دأب صفوان على توجيهها أثناء تنفيذ العملية لحظة بلحظة، بواسطة رسائل الهاتف النصية، وفي الوقت عينه كان يحيط الموقع المستهدف، بعشرات العناصر من رجال المخابرات، لتوفير المؤازرة الأمنية، وضمان نجاح العملية على أتم وجه. كان رجال المخابرات ينقضون كالذئاب الضارية على الناشطين؛ الذين برعت نرجس في استدراجهم إلى الشارع أثناء مقابلتها لهم أو في بيوتهم بعد نجاحها في اختراق حواسيبهم الإلكترونية بالتعاون مع فرعي المعلومات والتجسس.

استمرت العلاقة الغرامية بين صفوان ونرجس دون انقطاع، وتعددت أماكن لقاءاتها العاطفية سواء في مقر الأمن السياسي أو في الحدائق العامة.

لم يكن والدا الفتاتين يعرفون شيئاً عن ارتباط ابنتيهما بضباط المخابرات، ولا عن عملهما التجسسي لصالح فرع الأمن السياسي.

بررت نرجس لذويها وأخوتها وأخواتها خروجها الدائم من البيت، بذريعة لقاء صديقها هيام أو لزيارة معهد تعليم اللغات الأجنبية، حيث كانت إحدى طالباته، قبل

أن تندلع المظاهرات بأسابيع قليلة.

ظل الملازم أول صفوان على اتصال دائم بالفتاتين، قبل أن ينكشف أمرهما في أواخر عام ألفين وأحد عشر، عندما ألقى مجلس قيادة الثورة في مدينة حماة القبض على هيثم في كمين محكم، بعد أن أمارط أحد الضباط الذين انشقوا عن جهاز الأمن للفصائل الثورية المسلحة في ريف حماة اللثام عن هوية هيثم الأمنية في مطلع عام ألفين واثنى عشر للميلاد.

أفشى هيثم الأسرار الدفينة كلها، وكان سقوطه كافيًا لكشف شبكة العملاء والمخبرين الذين برع في تجنيدهم لصالح جهاز المخابرات، وفي مقدمتهم هيام ونرجس اللتين وقعتا على الفور في قبضة الفصائل المسلحة التي قامت بإعدامهما لاحقًا.

(35)

ظهيرة يوم الجمعة الموافق للرابع والعشرين من يونيو، خرجت الجماهير السورية في معظم المدن الكبرى بمظاهرات حاشدة في جمعة حملت اسم «جمعة سقوط الشرعية» استجابة لدعوة التنسيقيات المحلية ومجالس قيادة الثورة. لبت مدينة حماة حملة الدعوة، وجاب المتظاهرون معظم الشوارع والأزقة، بعد أن نفضوا عن كاهلهم غبار الخوف، وحطموا جدران الرعب التي سورت قلوبهم منذ نعومة أظافرهم.

احتشد المتظاهرون الغاضبون في ساحة العاصي التي احتل موقعها الحيوي قلب المدينة، واكتظت طرقاتها الفرعية بأكثر من مئتي ألف متظاهر. تصدّر الناشط إبراهيم صفوف رفاقه عندما اعتلى المنصة الرئيسة، ووقف شامخاً أمام مئات آلاف المتظاهرين المتجمهرين، ثم أنشد بصوته الشادي الأناشيد الثورية التي ألهمت حماسهم.

اندفع إبراهيم إلى صفوف الثورة، منذ اليوم الأول الذي اندلعت فيه الاحتجاجات بمدينة درعا، وساء تأخر وصولها إلى حماة بضعة أيام. فقد إبراهيم العديد من أفراد عائلته في أحداث مدينة حماة؛ التي وقعت عام ألف وتسعمائة واثنين وثمانين، رغم أن عائلته لم تنتسب لجماعات الإسلام السياسي، إلا أنها نالت نصيبها من القتل والتشريد في بقاع الأرض كلها، ما جعل إبراهيم أكثر عزمًا وإصرارًا على اللحاق بركب الثورة.

كان إبراهيم شابًا مفعماً بحرارة النشاط الثوري، حده الأمل كغيره من الشباب بخلاص سوريا من ربة القهر والاستبداد، فرغم حماسه الكبير لانتصار الثورة، إلا

أنه كان شديد الحذر من مغبة انزلاقها في الطرق الوعرة.

جمعت روحه المرححة بين خصلتي الفكاهة والثرثرة، وتفتقت مواهبه الكلامية في سن مبكرة عندما كان في السادسة من عمره، فكان سليم النطق، فصيح اللسان، سريع التلفظ، كثير الكلام، فلم يكن يفرغ من الحديث في أي موضوع إلا بعد أن يوفيه حقه كاملاً من سرد التفاصيل المملة كلها؛ سواء ارتبطت به ارتباطاً مباشراً أو تفرعت عنه.

أثارت موهبته المبكرة حنق والده وأقاربه؛ الذين كانوا يطلبون منه الصمت والسكوت التام مقابل حصوله على قطعة حلوى أو حفنة من المال، إلا أن إبراهيم كان يضيق ذرعاً دون أن يشاركهم أطراف الحديث رغم صغر سنه، فكانوا يبعدونه بلغة الوعيد والتهديد عن مجالسهم العائلية التي كانوا يعقدونها في حجرة الضيافة الكبرى.

تركت تلك الحادثة ألماً عميقاً في وجدان إبراهيم، ودفعته لاحقاً للانطواء والانزواء على ذاته، حيث كان فتىً مرهقاً، مفرط الحساسية، سريع البكاء، لم تستطع روحه أسلوب الطرد والتقريع، فكان يتبرم غيظاً من ذويه دون أن يحط من قدرهما.

بارح إبراهيم قوقعته عندما هبت رياح الثورة في سوريا، بعد أن مكث فيها ردحاً طويلاً من الزمن، ثم أطلق العنان للسانه الذي أبدع في نسج الأناشيد الحماسية ذات المحتوى الهزلي؛ والتي استقى معظمها من الموروث الشعبي لمدينة حماة، وعلّق من خلالها على سياسات النظام بطريقة ساخرة عكست شخصيته المرححة.

رددت الجماهير الغاضبة الأناشيد الثورية التي دبّجها إبراهيم، واستساغت كلماتها الهازئة بحماس ثوري.

وهنا سأل إبراهيم المتظاهرين المحتشدين في ساحة العاصي سؤالاً حاسماً:

«بداكم بشار؟»

ردت الجماهير بصوت متأجج بالغضب:

«لا والله»

هتف إبراهيم هارثًا:

«وطلبنا منه الرحيل والواطي ما خادمنا؛ بدكم بشار؟»

«لا والله»

سأل إبراهيم الجماهير الغاضبة عن رأيها في الخطاب الثالث لرئيس النظام بشار الأسد؛ الذي كان قد ألقاه في العشرين من يونيو على مدرجات جامعة دمشق، ووصف فيه المتظاهرون بالجرائيم:

«وبكل وقاحة الواطي وصفنا بالجرائيم؛ بدكم بشار؟»

«لا والله»

كرر إبراهيم سؤاله بسخرية:

«شو أطرش، ولا أعمى، والله الميت سمعنا؛ بدكم بشار؟»

«لا والله»

أردف إبراهيم مندّدًا بسياسات النظام:

«وقالوا عنا مخربين، ونحن الله يساعدنا؛ بدكم بشار؟»

«لا والله»

علق إبراهيم على تهمة الإرهاب التي ألصقتها النظام بالمتظاهرين قائلاً بحماس ساخر:

«وقالوا عنا مسلحين، ونحن رصاصة ما عندنا؛ بدكم بشار؟»

«لا والله»

رغم عفوية الهتافات الثورية التي رددتها حناجر المتظاهرين، وأناقة الشعارات الوطنية التي رفعتها أكف الناشطين، إلا أن ذلك لم يحل دون تسلل الخطاب الديني إلى صفوف الثورة من خلال رجال الدين؛ الذين فرضوا أنفسهم بقوة في صدارة الصفوف.

فمنذ اليوم الأول لانطلاق الثورة؛ حرص الناشطون على تجنب مظاهراتهم السلمية اللجوء إلى استخدام السلاح، والارتباط برجال الدين. حاول الناشطون إبعاد مظاهراتهم عن تأثير رجال الدين، ولكنهم فشلوا منذ المرة الأولى التي انطلقت فيها من باحات المساجد بدلاً من ساحات الأحياء، سواء في مدينة درعا أو في مدينة حمص، وخاصة بعد صلاة يوم الجمعة، تأثراً بالمظاهرات الحاشدة التي نظمتها جماعة الإخوان المسلمين في مصر، والتي انطلق معظمها من مساجد القاهرة الكبرى، كمسجدي الفتح في منطقة رمسيس، ورابعة العدوية في مدينة نصر، ومسجد القائد إبراهيم في محافظة الإسكندرية، ومحافظات أخرى عديدة.

أطل رجال الدين برؤوسهم بين حشود المتظاهرين، وبرزوا على وسائل الإعلام ممتطين موجة الثورة، ودججوا أنفسهم بالخطابات الفقهية المناقضة لخطابها العفوي، ما تسبب في ابتعاد بعض المكونات السورية عن صفوفها، وإحجامهم عن المشاركة في فعالياتهما، ولا سيما بعد أن جنحت عن مسارها المدني، واصطبغت بالمسار الديني.

(36)

عشية يوم الجمعة الموافق للرابع والعشرين من شهر يونيو، تداعى أعضاء التنسيقية في مدينة حماة، وعقدوا داخل مقرها الكائن وسط المدينة اجتماعاً موسعاً؛ لتقييم الأوضاع على الأرض، بعد يوم طويل انتهى بتظاهر الآلاف في ساحة العاصي.

أولج الناشط أكرم المفتاح في مغلاق الباب الخشبي، وأداره بحركة سريعة، ثم دفع الباب بقبضته القوية، حتى انفرج على مصراعيه، ودلف بعد ذلك إلى جوف الحجرة بصحبة رفاقه الذين كانوا يقفون ورائه.

احتوت الحجرة الفسيحة على سرير للنوم، وطاولة مستديرة، دَنَرَ سطحها الخشبي الأملس، غطاء أرجواني زاهي، انتهت حوافه بخيوط بيضاء مبرومة، بدت في تشابكها وتعاقدها كالصفائر الثخينة، وخزانة لحفظ الملفات والأوراق، وكرسين وثيرين، وأريكتين لدنتين للجلوس والاسترخاء.

همَّ الناشط عبد الرحمن واقفاً، وبدأ في مصافحة رفاقه الوافدين، ثم أجزل لهم الشكر، وأغدق عليهم الشاء قائلاً:

- بارك الله بجهودكم الجبارة؛ أشهد الله أن هذا اليوم هو من أجمل الأيام التي أمضيتها في حماة؛ لقد كان يوماً ثورياً عظيماً من حيث روعة التنظيم وحسن الأداء. رد الناشطون بصوت واحد:

- شكرًا لك.

اتخذ أكرم وإبراهيم وضياء وسليم وثلاثة ناشطين آخرين مواقعهم داخل الحجرة، وجلسوا على الكرسين والأريكتين.

علق ضياء بحماس شديد على كلام عبد الرحمن:
- الحمد لله؛ لقد انتقمنا اليوم لشهادتنا بأقوى المظاهرات على الإطلاق، وصار
لزامًا علينا من الآن وصاعدًا، توسيع نطاقها على مدار الأيام القادمة.
رد عبد الرحمن بتؤدة:

- إن شاء الله؛ سأضع اقتراحك في الحسبان، لأن اقتراحاتك دائمًا صائبة.
عقب إبراهيم بثقة:
- يجب أن نحافظ على زخمتنا الثوري الذي حققناه اليوم للجمعة القادمة.
أردف أكرم بحماس:
- أجل؛ ويجب أن نفرض أيضًا على التنسيقيات الأخرى حقنا في تسمية الجمعة
القادمة.

رد سليم بهدوء:
- أنت على حق.
سأل عبد الرحمن باهتمام:
- حسنًا؛ ماذا تقترحون أن يكون اسمها؟
وهنا أجاب إبراهيم بتفكير:
- دعونا نتدبر الأمر قليلًا؛ فاسم هذه الجمعة كان «سقوط الشرعية»، وقد
نجحنا بالفعل في إسقاط شرعية النظام أمام الملأ، برأيي آن الأوان لأن ندعوه إلى
الرحيل.

سأل أحد الناشطين متعجبًا:
- أليس من السابق لأوانه دعوة النظام إلى الرحيل؟
رد إبراهيم بحزم:
- كلا على الإطلاق، يجب أن ندعوه إلى الرحيل، على الأقل لتقوية موقفنا أمام
الرأي العام.
عقب عبد الرحمن بهدوء:

- فكرة جيدة ومعقولة ما رأيكم بها؟

رد ضياء بحماس:

- أوافق من دون أي تحفظ.

حدّق عبد الرحمن في عيون سليم وأكرم اللذين هزّأ رأسيهما، ثم رسماً ابتسامة خفيفة على شفّتيهما، وأبدى بذلك موافقتها الصامتة على اقتراح رفيقهما إبراهيم.

التفت عبد الرحمن نحو أكرم وسأله بصبر نافذ:

- ما هي آخر إحصائية لمظاهرات اليوم؟

رد أكرم مبتهجاً:

- حتى الآن؛ رصدنا أكثر من مئتي ألف متظاهر في حماة وحدها، وقرابة النصف مليون متظاهر في أنحاء سوريا كلها.

هتف ضياء بحماس:

- يومٌ عظيمٌ ليس كمثله من بقية الأيام؛ لذا يجب أن نستعد بكل جدارة للجمعة القادمة.

أردف إبراهيم بحمية:

- أجل؛ يجب أن نحشد هذا الرقم -نصف مليون- في ساحة العاصي وحدها.

عقب سليم بتفكير:

- لو استطعنا الحشد لمثل هذا الرقم الضخم، سيكون ذلك مقدمة لسقوط النظام في حماة، لا بل في أرجاء سوريا كافة؛ اعذروني أيها الأصدقاء، لا أعتقد أننا قادرون على بلوغ هذا الرقم الضخم

ابتل إبراهيم ريقه، وقال بتؤدة:

- ليس هناك شيء صعب أو مستحيل.

وهنا انتصب ضياء واقفاً، وهتف بحماس:

- اعتباراً من صباح الغد، وحتى مساء يوم الخميس القادم، سأقوم بجولة ميدانية في ريف حماة، فإن استطعنا الحشد لذات الأعداد التي نجحنا اليوم في

حشدتها، سنفاجئ العالم بأسره.

حدّق عبد الرحمن في عيني ضياء وقال له بهدوء:

- حسناً؛ لك ما أردت، ونحن بدورنا سنكون عوناً لك في جولتك القادمة،
وسنوفر كل ما تحتاجه من متطلبات ومستلزمات .. من فضلك؛ إذا كانت لديك
أية اقتراحات أخرى، أرجو إخبارنا بها.

هزّ ضياء رأسه، وأجاب برزانة:

- أريد تغطية إعلامية مكثفة.

سأل أكرم مستفهماً:

- ما نوع التغطية التي تريدها؟

رد ضياء بإصرار:

- أريد حملة إعلامية ضخمة على مواقع التواصل الاجتماعي، كما أريد أيضاً
توجيه دعوة عامة إلى كافة ممثلي وسائل الإعلام لتغطية فعاليات المظاهرة المرتقبة.
أجاب أكرم بثقة:

- حسناً؛ سألبي كل ما طلبت اعتباراً من صباح الغد.

في هذه الأثناء، التفت ضياء نحو إبراهيم، وقال له مجاملاً:

- لا فض فوك أيها البطل؛ لقد كانت أناشيدك الحماسية خلال هذا اليوم
العظيم، أكثر من رائعة.

رد إبراهيم بابتسامة عريضة:

- شكراً للطفك وذوقك الرفيع.

عقب ضياء برجاء:

أرجو منك الإعداد لأناشيد جديدة، أكثر حماساً وإلهاباً لمشاعر الجماهير.

رد إبراهيم بحصافة:

- لا تقلق، كل شيء أصبح جاهزاً؛ لقد أعددت أغنية جديدة، لن تنسى كلماتها
قط، وسأسمعكم إياها في اجتماعنا القادم.

التفت عبد الرحمن نحو أكرم، وأردف له قائلاً:
- أرجو أن تبدأ الآن في بث اسم الجمعة القادمة على صفحات التنسيقات،
وأطلب من بقية الأصدقاء أن يدعموا موقفنا لتثبيت اسم الجمعة القادمة، باسم
جمعة ارحل.

رد أكرم بود:

- حسناً.

هتف عبد الرحمن لأعضاء التنسيقية:

- إذن؛ نحن متفقون على كل شيء.

هزّ الناشطون رؤوسهم، وأردفوا قائلين:

- إن شاء الله.

- اتفقنا.

- كل شيء أصبح واضحاً.

- توكلنا على الله.

(37)

صبيحة يوم السبت الموافق للخامس والعشرين من يونيو، اعتزم الناشط ضياء الانطلاق إلى ريف حماة الشرقي، لإخطار سكان البلدات والقرى، وحثهم على المشاركة في المظاهرة المليونية المزمع عقدها في ساحة العاصي وسط مدينة حماة. استقل ضياء الحافلة، وانطلق برفقة ثلاثة ناشطين آخرين إلى مدينة السلمية، الكائنة في منطقة بادية الشام والتي تبعد عن محافظة حماة حوالي ثلاثين كيلومتراً. احتل موقع المدينة مساحات واسعة من ريف حماة الشرقي لاتساع رقعتها الجغرافية، وتنوع مكوناتها الاجتماعية، فضلاً عن غناها الثقافي، ونضجها السياسي. أثناء سير الحافلة ترامت عشرات البلدات، وانتشرت مئات القرى والمزارع الصغيرة على جانبي الطريق الوعر الرابط بين مدينتي حماة والسلمية. فرغم وعورة الطريق وكثرة تعرجاته، إلا أن رغبة ضياء في بلوغ أهدافه، ذلت أمامه الصعاب والعقبات كلها. بعد مرور أكثر من ثلاثين دقيقة، أدركت عجلات الحافلة تخوم مدينة السلمية، وسط لهيب الشمس الحارقة. بدت المدينة الغارقة في رمال البادية -الممتدة شرقاً في اتجاه أسوار تدمر التاريخية وصولاً إلى الحدود العراقية- أشبه بمدينة القاهرة المحاطة برمال الحيزة، وأهراماتها الخالدة. شقت الحافلة طريقها بين الأزقة القديمة والشوارع الضيقة؛ التي بدت شديدة التواضع، بسبب الإهمال المتعمد من جانب النظام في توفير الخدمات العامة للمدينة اليتيمة.

أُشيدت بيوت المدينة على الطرازين الرفي والعري القديم، حيث تكونت في مجملها من بناء أرضي، وحديقة صغيرة مجاورة، وإلى جوارها أُشيدت بعض الأبنية السكنية التي لم يزد ارتفاعها في المجمل عن أربعة طوابق.

ربضت الحافلة قبالة دوار الحرية الكائن وسط السلمية؛ والذي أحاطه مركز البريد والمسجد الكبير من جهة الشرق، وسوق الخضار من جهة الغرب. اتصل الدوار بشكل مباشر في شارع حماة؛ الذي ارتبطت نهايته بالطريق السريع المؤدي إلى محافظة حماة.

ترجل ضياء ورفاقه الثلاثة من الحافلة، وانطلقوا في اتجاه مركز البريد. سار ضياء بمحاذاة مبنى البريد، ثم توغل بين جذوع الأشجار الكثيفة التي أحاطت المبنى من الجهة الخلفية.

خطا ضياء بضع خطوات داخل زقاق ضيق؛ احتوى الزقاق على عشرات البيوت الأرضية القديمة، وثلاثة دكاكين أحدهما لبيع الفاكهة والخضروات، والآخر لبيع السجائر والمواد الغذائية، والثالث لتقديم خدمات الهاتف المحمول. تسمر ضياء أمام أحد البيوت التي احتواها الزقاق، والتفت حوله نحو الجهتين اليمنى واليسرى هرباً من عيون المارة، ولضمان أمنه وسلامته الشخصية، ثم تقدم بحذر شديد نحو البيت.

قرع ضياء الباب المعدني ثلاث مرات متتالية، وانتظر لبضع ثوان. في هذه الأثناء، فُغر الباب بتؤدة، وظهر من زاويته اليسرى شاب في منتصف العشرينات من عمره؛ استقبل الشاب ضيفه الوافد بحفاوة كبيرة، ورحّب به بأشد عبارات الترحيب قائلاً في حماس:

– أهلاً وسهلاً، حمداً لله على سلامتك.

رد ضياء بابتسامة عريضة:

– شكراً لك أخي زياد.

هتف زياد لضياء ورفاقه:

- أرجو أن تتفضلوا في الدخول.

كان زياد واحدًا من أشجع شبان مدينة السلمية الذين نشطوا في ريفها الشرقي منذ بداية انطلاق المظاهرات، وبسبب حماسه الثوري تعرض للاعتقال من قبل شعبة الأمن السياسي في مطلع شهر مايو، لنشاطه العلني في دعوة المواطنين إلى التظاهر السلمي.

أفرج النظام عن زياد، ومجموعات أخرى من الناشطين في مطلع شهر يونيو، ضمن محاولاته البائسة لامتناع الاحتقان الشعبي، ودعوته المتكررة لرعاية الحوارات الجانبية، بين مختلف مكونات الشعب السوري، بذريعة الاستجابة لمطالبهم في إثراء المشاركة الشعبية وتوسيعها في نطاق الحياة السياسية.

دلف ضياء ورفاقه الثلاثة إلى بيت زياد؛ الذي أشيدت أعمدته، ورفعت سقفه، ضمن رقعة جغرافية لم تزد مساحتها عن مئتي متر مربع.

أحيط البيت بحديقة صغيرة، احتوت أحواضها الترابية على بضعة جذوع نخينة من أشجار الزيتون البري؛ الذي اشتهرت زراعته الواسعة في مدينة السلمية والقرى المتاخمة لها.

ولج ضياء ورفاقه إلى حجرة زياد التي احتوت مقدمتها على أريكتين وثيرتين وسرير للنوم، وانتصبت في مؤخرتها طاولتان خشبيتان، كانت الطاولة الأولى لجهاز الحاسوب، والثانية للمطالعة والكتابة، وأسندت إلى جدرانها الملساء خزانتان صغيرتان، إحداهما للثياب، والأخرى للكتب.

جلس ضياء ورفاقه على الأريكتين، فيما جلس زياد بجوار جهاز الحاسوب، وشرع في تحضير مشروب المتة؛ الذي اعتاد سكان المدينة على ارتشافه وتقديمه لضيوفهم وزوارهم.

هتف ضياء لزياد:

- هنيئًا لك العودة إلى أحضان الثورة مجددًا، لقد فرحنا كثيرًا عندما بلغنا نبأ الإفراج عنك من سجون النظام.

رد زياد بأسماً:

- أتمنى الحرية لكل المعتقلين القابعين في سجون الاستبداد.

هتف الناشطون واحداً تلو الآخر:

- إن شاء الله .. نرجو ذلك.

حدّق ضياء في عيني زياد وأردف له أسفاً:

- أخي زياد! التمسك عذراً؛ لقد قصرنا كثيراً تجاهك، ولا سيما بعد خروجك من السجن.

رد زياد برصانة:

- لا بأس؛ أقدر ظرفكم العصيب، وجهدكم العظيم خلال هذا الشهر؛ لقد أثبتتم بكل جدارة وجسارة أمام العالم أجمع، أن ثورتنا مستمرة.

هزّ ضياء رأسه، ثم عقّب بمرارة:

- أجل؛ لقد كان شهراً عظيماً في تاريخ مدينة حماة، رغم أننا دفعنا فيه ثمناً باهظاً من دماء أخوتنا الشهداء والجرحى.

أردف زياد بثقة:

- طريقنا واحد، ونحن مستمرّون فيه حتى النهاية.

قدم زياد مشروب المتة لضياء ورفاقه، وسكب لهم الماء الدافئ في الكؤوس الزجاجية الصغيرة التي احتوت قيعانها على منقوع المتة، ثم هتف قائلاً:

- أرجو أن تتفضلوا.

رد الشبان:

- شكرًا جزيلاً.

رشف الناشطون مشروب المتة، وسأل ضياء رفيقه زياد مستفهماً:

- كيف تسير الأوضاع لديكم هذه الأيام؟

مطّ زياد شفّيته، وأطبق جفنيه على حدّقيه، ثم أجاب باستياء:

- مع الأسف؛ الأوضاع في السلمية شديدة الصعوبة والتعقيد، حتى الآن لدينا

أكثر من ثلاثمائة معتقل في سجون النظام، ومعظمهم من شباب المدينة، لقد سبب اعتقالهم خوفًا كبيرًا عند الأهالي بدأنا نتحسسه في نفوسهم، ونراه بوضوح على وجوههم.

هزّ ضياء رأسه آسفًا، ثم أردف قائلاً:

- علمت مؤخرًا عن حملة الاعتقالات الشنيعة التي طالت شباب مدينتكم، ولهذا السبب جئت إليك طالبًا العون لحل هذه القضية بالطرق السلمية.

رشف زياد رشفة خفيفة من كوبه وأجاب بثقة:

- بكل تأكيد، أتمنى أن نفعل ما بوسعنا لإنقاذ المعتقلين من براثن النظام.

مدّ ضياء ذراعه، وبسط كفه، ثم أوعز إلى زياد قائلاً:

- ضع يدك في يدي.

بسط زياد قبضة يده اليمنى، وصافح الكف المبسوطة بحماس، فما كان من

ضياء إلا أن أردف له قائلاً:

- أريد منك عهدًا أن تساعدنا بحشد شباب السلمية، وأبناء الريف الشرقي،

لنعقد مظاهرة مليونية في ساحة العاصي.

شرّد زياد لبضع ثوان قصيرة، ثم حدّق في عيني ضياء، وهتف بلهجة حازمة:

- رغم ظروفنا الأمنية التي باتت شديدة الصعوبة في هذه الأيام، وخاصة بعد

خروجي الأخير من السجن، إلا أنني أعدكم بألا أردكم على أعقابكم خائبين،

وبألا أخذلكم البتة فداء للحرية التي يزداد إيماني بها يوميًا بعد يوم.

عضد ضياء بقبضته القوية ذراع زياد، وقال له بحماس:

- دمت حرًا أيها البطل؛ موعدنا إن شاء الله، صبيحة يوم الجمعة القادمة في

ساحة العاصي.

هزّ زياد رأسه موافقًا، وأردف قائلاً:

- اعتبارًا من هذه اللحظة، سوف أبدأ في دعوة شباب السلمية، ليقوموا

بدورهم في دعوة شباب القرى المجاورة.

ربت ضياء على كتف زياد، وهتف له بثناء:
- وفقك الله أيها البطل.

صبيحة يوم الأحد الموافق للسادس والعشرين من يونيو، انطلق ضياء ورفاقه الثلاثة إلى ريف حماة الشمالي.

التقى ضياء بأعضاء المجالس الثورية لمدن حلفايا، صوران، كفرنبودة، كرناز، طيبة الإمام، كفرزيتا، التريمسة، وصولاً إلى بلدة مورك المتاخمة للحدود الإدارية مع محافظة إدلب.

أبلغ ضياء جميع الناشطين الذين قابلهم في بلدات الريف الشمالي، بمحتوى الدعوة عينها التي قدمها لصديقه زياد في مدينة السلمية.

ظهيرة يوم الاثنين الموافق للسابع والعشرين من يونيو، يَمَمَّ ضياء وجهه شطر ريف حماة الجنوبي، قاصداً الوصول إلى مدينة الرستن؛ الواقعة على الطريق الدولي الرابط بين محافظتي حماة وحمص.

حطَّ ضياء رحاله بصحبة رفاقه الثلاثة وسط مدينة الرستن؛ كانت الرستن من أوائل المدن السورية التي تنسجت عبر الحرية، بعد أن نجح ثوارها في لي ذراع أزالام النظام، وتحطيم تماثيل رئيسهم المنتصبة في الميادين العامة، ومن ثم طردهم من المدينة.

انتسب العديد من أبناء الرستن إلى صفوف الجيش، كضباط وصف ضباط، ولعبوا أدواراً مهماً في إدارته، وتولوا العديد من المناصب الرفيعة، كان من أبرزها، منصب وزارة الدفاع؛ رغم أن السلطة الفعلية، ظلت محصورة برئيس النظام، والدائرة الأمنية الضيقة المحيطة به، ما دفعهم للانشقاق عنه بأعداد غفيرة مع بداية انطلاق المظاهرات التي وجدوا فيها فرصتهم التاريخية للانقضاض على النظام، وإعادة الأمور إلى نصابها الطبيعي مثلما كانت عليه قبل وصول الضابط حافظ الأسد إلى السلطة بدعم كبير من شرائح المجتمع السوري كافة التي انتفضت عليه

لاحقاً بعد أن استطابت حكمه طيلة أربعين عاماً. كان لانشقاق أبناء الرستن عن جيش النظام، الدور الأكبر في خروج مدينتهم عن سيطرته المطلقة منذ وقت مبكر. شكّل المنشقون العسكريون العديد من الفصائل المسلحة في الرستن، كنواة لجيش بديل عن جيش النظام. لعبت الفصائل المسلحة في بداية تكونها، قبل أن يسطو عليها المال السياسي، دوراً فاعلاً في توفير الحماية للمتظاهرين الذين جنحوا للخيار السلمي في الأشهر الستة الأولى من زمن الثورة، ورفضوا الركون إلى الخيار المسلح. أسهب ضياء في الحديث مع الناشطين؛ الذين التقى بهم في مقر التنسيقية المحاذي للمسجد الكبير وسط مدينة الرستن. أبدى الناشطون العاملون في التنسيقية تفهماً عميقاً لاقتراحات ضياء، وتعهدوا له بالمشاركة الفاعلة في جمعة ارحل. غادر ضياء مدينة الرستن يحذوه الأمل في الحشد لمظاهرة مليونية تزلزل أركان النظام، وتقض مضجعه أمام العالم أجمع.

فجر يوم الثلاثاء الموافق للثامن والعشرين من يونيو، انطلق ضياء مهمة ونشاط كبيرين قاصداً الوصول إلى ريف حماة الغربي. كانت رحلته في هذا اليوم العسير هي الأصعب والأشق على الإطلاق، لاتساع رقعة الريف الغربي التي ضمت في جنباتها مئات القرى والبلدات المؤيدة والمعارضة للنظام. تناثرت البيوت الريفية في القرى المؤيدة على امتداد بقاع سهل الغاب، وأحاطتها الحواجز والسواتر الرملية والترابية من الاتجاهات كلها، فبدت قلاعاً عسكريةً حصينةً، اتخذتها ميليشيات الشبيحة، كنقاط ارتكاز رئيسة لشن هجماتها الخاطفة على القرى والبلدات النائرة.

كان سهل الغاب أحد أهم السهول الزراعية في ريف حماة، حيث شكلت تربته الخصبة وغناه بالمياه، نقطة جذب واستقطاب للعديد من السكان الفقراء لغرض العيش وطلب الرزق.

ضمَّ السهل الخصب عشرات القرى المؤيدة للنظام، كبلدة مصيف ووادي العيون وسلحب، وقرى الصنفصافية وعمورين والرعيدي واللقبة والمحروسة وغيرها من القرى والمزارع.

جال ضياء في أرجاء البلدات والقرى الثائرة منذ ساعات الصباح الباكر، وحتى ساعة متأخرة من ليلة الثلاثاء، بدءاً من بلدة حيالين، ثم المغير، وبريديج، والجلمة، وكفرهود، وتل ملح، والحسينية، والجين، وتل صلبا، والشيخ حديد، والجديدة، وغيرها من البلدات.

شحن ضياء همم الناشطين في البلدات التي زارها، وحثَّ سكانها على التظاهر في ساحة العاصي وسط مدينة حماة، بدلاً من التظاهر في بلداتهم وقراهم النائية.

ظهرت يوم الأربعاء الموافق للتاسع والعشرين من يونيو، أمضى ضياء يومه الطويل في تدبيج الشعارات والخطابات الحماسية، وطباعة اللافتات داخل مقر ورشة العمل التابعة لإدارة التنسيق.

احتوت الورشة على ثلاث قاعات كبرى؛ كانت القاعة الأولى لخياطة وحياسة الأعلام السورية، فيما كانت القاعة الثانية، لتصميم وطباعة المنشورات والملصقات، أما القاعة الثالثة فكانت لطلاء اللافتات.

كانت الورشة عبارة عن بيت قديم، تكوّن بنائه من طبقة واحدة. عمل أفراد الورشة بجهد ومثابرة كخلية النحل، تأهباً واستعداداً لمظاهرات جمعة ارحل، دون أن يتقاضوا أجوراً أو مكافآت مالية، بل عملوا كمتطوعين متسلحين بعقيدتهم الثورية التي كانت حافزاً قوياً لشحن همهم، واستمرارهم في العمل رغم المخاطر الأمنية.

غطّت التنسيقية نشاطاتها الثورية في البداية، اعتماداً على المساهمات المالية التي قدمها الأعضاء المؤسسون، وعندما اتسع نطاق المظاهرات، واشتد عود الثورة، تلقت معظم التنسيقيات تمويلاً خارجياً، كان مصدره الأساسي، رجال الأعمال السوريين الذين أقاموا في بلدان الخليج، ثم تحول بعد ذلك إلى تمويل سياسي مشروط؛ رعته رسمياً بعض بلدان الخليج عبر شخصيات سورية ذات توجه ديني، كجماعة الإخوان المسلمين ونظيرتها من الجماعات السلفية أو عبر شخصيات عشائرية وأخرى قبلية.

(38)

عشية يوم الخميس الموافق للثلاثين من يونيو، استجاب أعضاء التنسيق لدعوة الناشط عبد الرحمن، والتقوا في مقرها في تمام الساعة العاشرة مساءً. كان ضياء أول الحاضرين من رفاقه، تلاه إبراهيم ثم أكرم وسليم، إضافة إلى خمسة ناشطين آخرين كانوا بصحبة عبد الرحمن قبل موعد بدء الاجتماع. افتتح عبد الرحمن حديثه بسؤال ضياء:

- كيف تجري الاستعدادات ليوم الغد؟

التقط ضياء نفساً عميقاً، ثم أجاب بحماس كبير:

- كل شيء يسير على ما يرام.

هتف عبد الرحمن بارتياح:

- عظيم.

كرر عبد الرحمن سؤاله لإبراهيم:

- هل سنستمع غداً لأغنيتك الجديدة؟

رد إبراهيم بابتسامة عريضة ارتسمت على سحته، وقال دون تفكير:

- إن شاء الله.

عقب عبد الرحمن بيقين لا يخامره الشك:

- أشعر أن سوريا كلها ستغني معك.

وهنا تدخل ضياء وسأل بفضول عميق:

- هل لنا أن نعرف اسم الأغنية؟

رد إبراهيم مازحًا:

- كلا؛ ستبقى سرًا عميقًا.

كرر سليم سؤال ضياء لإبراهيم، وقال له بإلحاح:

- لم يعد لدينا أسرار، فكل شيء أصبح معلنًا؛ هيا أخبرنا باسم الأغنية، بدلًا من إغراقنا في بحار الشك والخيرة.

أجاب إبراهيم بدعابة ومرح:

- حسنًا؛ تقول الأغنية في مطلعها: ويا الله ارحل يا بشار؛ أما باقي كلماتها ستسمعونها غدًا في ساحة العصي، ولن أقول شيئًا أكثر من ذلك، حفاظًا على جوهر الأغنية.

هزّ أكرم رأسه، ثم فغرفاه واتسعت عيناه باندعاش، وقال بابتهاج:

- من الواضح أنها أغنية رائعة من خلال كلماتها المرحّة؛ أرجو أن تصيب النظام بجلطة دماغية.

رد إبراهيم باسمًا:

- أتمنى ذلك أيضًا.

في هذه الأثناء، حدّق عبد الرحمن في أعين رفاقه الذين ملأ الحماس قلوبهم، ثم أردف لهم برزانة:

- يا رجال! لقد قطعنا اليوم بفضل جهودكم العظيمة شوطًا كبيرًا، ومرحلة

مهمة في التجهيز والإعداد لأضخم مظاهرة مرتقبة في تاريخ مدينة حماة؛ أتمنى أن نكون غدًا المرأة التي ستعكس عليها صورة الثورة أمام أنظار العالم أجمع.

رد الناشطون وقالوا بارتياح ورجاء:

- نتمنى ذلك.. إن شاء الله.. بدون أدنى شك.

التقط عبد الرحمن نفسًا عميقًا، وزفر قائلاً بحصافة:

- غدًا يجب أن نكون حذرين من أدنى خطأ أو هفوة، فبلوغ الكمال في عملنا شيء

مستحيل، ولكننا نستطيع فعل المستحيل بإصرارنا واجتهادنا؛ لذا من الضروري

علينا، تأمين معظم المداخل والمخارج المؤدية إلى ساحة العاصي بمجموعات ميدانية من شباب الثورة، لتنظيم حركة دخول المتظاهرين وخروجهم بيسر وسهولة، كما يجب ألا يغيب عن أذهاننا أيضًا، أن النظام قد يسحب غداً قواته الأمنية من وسط المدينة، مثلما فعل في المرات السابقة، ولكنه سيكون حاضراً في قلب المظاهرة من خلال شبكات جواسيسه وعملائه؛ لذلك كله، ينبغي أن نكون حذرين ومتيقظين من تغلغلهم واندساسهم بين صفوفنا.

عقب سليم بتودة:

- أتمنى أيضًا أن نتجاوز معظم الأخطاء التي وقعنا بها في الأسبوع الماضي.

سأل عبد الرحمن مستفهمًا:

- أي أخطاء تقصد؟

رد سليم بجدية:

- الخطب الرنانة، والمواعظ العصماء التي دأبنا على سماعها في كل مرة من فوق المنصة الرئيسة؛ أتمنى إلغائها نهائيًا، فثورتنا ليست ثورة خطابات حزبية، ولا قاعة مسجد مخصصة للذكر والدعاء.

أحال عبد الرحمن اقتراحات سليم لرفاقه وسألهم باهتمام:

- ما رأيكم باقتراح سليم؟

أجاب إبراهيم محاجبًا:

- أرى أن نترك المواطنين يعبرون عن آرائهم، أليست ثورتنا ثورة حرية وكرامة؟ إذن فمن حق أي إنسان أن يعبر عن رأيه أيًا كان؟

أردف ضياء مؤيدًا لاقتراح سليم:

- اضم صوتي إلى صوت سليم، وأشار به الرأي بقوة؛ يجب أن نبعد ثورتنا عن الخطابات الدينية والحزبية.

هزّ أكرم رأسه، وقال بهدوء:

- أؤيد بشدة رأي الزميلين ضياء وسليم؛ فالحفاظ على عفوية الثورة التي لا زال

الناس يلتفون حولها، مسألة في غاية الأهمية، ينبغي أن لا تغيب عن ذهننا. هزّ عبد الرحمن رأسه، وزفر عميقاً، ثم همّ واقفاً بعد أن ضاق ذرعاً من الجلوس الطويل، وأخذ يذرع الحجرة جيئةً وذهاباً لمرتين متتاليتين بخطوات مضطربة، وسط صمت رفاقه وإحجامهم عن الكلام الذي أثار اهتمامه واسترعى انتباهه، فما كان منه إلا أن حملق في وجوههم لهنيهة، وأصابعهم بنظرة هادئة، وابتسامة دافئة في محاولة منه لاحتواء اختلافاتهم في الرأي، ورأب الصدع فيما بينهم، ثم قال برزانة: - أئتمن آرائكم واقتراحاتكم، وأتمنى أن يوحدنا الاختلاف في الرأي حول أهداف ثورتنا بدلاً من أن يفرقنا؛ على كل حال، يجب أن نبقي أقوىاء، وغداً سنقول كلمتنا التي سيدوي صداها في أنحاء العالم كله.

رد الناشطون بالتتابع:

- إن شاء الله .. صوتنا واحد .. ويدنا واحدة .. وليس هناك شيء يفرقنا. أئتمى الناشطون اجتماعهم الحاسم باتفاق عام على مبادئ الثورة، ثم أقفل كل واحد منهم عائداً إلى بيته بحذر وانتباه شديدين، فيما بقي عبد الرحمن وبضعة ناشطين آخرين في مقر التنسيق استعداداً ليوم الغد.

(39)

صبيحة يوم الجمعة الموافق للأول من شهر يوليو، جددت المدن والبلدات السورية انتفاضتها السلمية ضد النظام، ودعته إلى الرحيل في يوم ثوري مهيب، دَوّن الثوار حروفه الذهبية باسم جمعة ارحل.

انطلق أعضاء التنسيقية إلى ساحة العاصي، منذ ساعات الصباح الباكر، وانتشروا في أرجائها، كانتشار الجنود على جبهات المعارك، ثم شرعوا في تقاسم المهام والمسؤوليات كل بحسب اختصاصه.

تولى ضياء مهمة تأمين الساحة وحمايتها من هجمات ميليشيات الشبيحة، ورجال الأمن، فأحكم السيطرة على جميع المداخل والمخارج المؤدية إليها، بواسطة عشرات الناشطين الذين بدأوا على الفور في تفتيش الوافدين للتأكد من خلوهم من السلاح، ثم أخذوا يدققون في بطاقاتهم الشخصية بعد أن راودتهم الشكوك من إرسال النظام لعملائه وجواسيسه المدربين بغية اندساسهم في صفوف المتظاهرين، وافتعال الاضطرابات فيما بينهم.

في هذه الأثناء، انتشر الناشطون في شارع البنوك المحاذي لساحة العاصي، كما انتشروا أيضاً على امتداد طريق الكورنيش المؤدي إلى قلب الساحة، واعتلى بعضهم أسطح المباني الشاهقة، كبناء عبد الباقي الذي أطلقت واجهته على ساحة العاصي، وكان الهدف من وراء ذلك، مراقبة تدفق المتظاهرين الوافدين من الأحياء المجاورة، ورصد أي هجمات مباغتة من طرف النظام.

أمّا سليم فقد تولى بصحبة الناشطين الآخرين توزيع آلاف اللافتات والأعلام

الوطنية التي أنجزتها ورشات عمل التنسيقية خلال مرور أسبوع واحد فقط على وجود المتظاهرين المحتشدين في الساحة.

رفع سليم ورفاقه الأعلام واللافتات فوق أسطح الأبراج الشاهقة، وعلقوها على شرفات المباني العالية؛ كعمارة عبد الباقي ومبنى المحافظة، وساعة حماة التاريخية التي توسطت ساحة العاصي.

أشيدت ساعة حماة وسط ساحة العاصي في مطلع خمسينيات القرن الماضي، كأحد أهم المعالم الرئيسة التي ميزت المدينة ذات التاريخ الآرامي العريق، جنباً إلى جنب مع نوايرها الرومانية الرابضة على ضفاف نهر العاصي.

انتصبت الساعة في منتصف الساحة، وعكس بنائها الفني الأنيق؛ المكوّن من الأعمدة الرخامية الشاهقة، عراقة الفن المعماري السوري الذي اعتمد على استخدام الصخور الرخامية الصلبة في بنائه للقصور والأبراج والقلاع القديمة.

تألّف هيكل الساعة من أربعة أعمدة رخامية، بلغ طولها ستة عشر متراً؛ فيما تقابلت أضلاعها، والتحمت زواياها الحادة على هيئة مستطيل.

تكونت الأعمدة الرخامية من أربع طبقات هندسية، واختلف تصميمها الفني من طبقة لأخرى، فيما عكس بناء كل طبقة من طبقاتها الأربع، حقبة تاريخية بعينها.

احتوت الطبقة الأولى التي احتلت قاعدة الهيكل على أربعة أقواس حجرية، بدت في استدارتها نصف الدائرية كالأقواس الرومانية؛ بلغ طول الأقواس الأربعة، حوالي ثلاثة أمتار، واعتلاها تجويف عميق على هيئة نصف دائرة مفتوحة.

فيما احتوت الطبقة الثانية -التي تلت أقواس الطبقة الأولى بمسافة فاصلة بلغ ارتفاعها حوالي مترين- على أربع نوافذ مفتوحة، تقابلت واجهاتها البديعة من أربع جهات.

تألّفت نوافذ الطبقة الثانية من تجويف غائر؛ تخلله عمودان حجريان؛ انتهيا بقنطرة هندسية؛ عكس تصميمها الفني البديع شكل قباب المساجد.

بينما تكونت الطبقة الثالثة التي ارتفع بناؤها عن الطبقة الثانية بمسافة ثلاثة أمتار من أربع دوائر هندسية كبيرة، حوت كل واحدة منها على ساعة عقارب، وتقابلت الساعات الأربع ببقية الأشكال الهندسية التي احتوتها الطبقات الأخرى، وأطلت على الأعمدة الأربعة من الجهات كلها.

ولم يختلف تصميم نوافذ الطبقة الرابعة عن تصميم نوافذ الطبقة الثانية سوى في شكل الزخارف والنقوش الفنية التي ظهرت عليها. فيما انتهت الطبقة الرابعة بسقف الهيكل الذي صممت قاعدته العلوية على هيئة أسوار القلاع الرومانية الحصينة.

تولى أكرم مهمة التغطية الإعلامية، والبت المباشر لفعاليات المظاهرة الحاشدة بغية إيصالها لوسائل الإعلام التي استعد محرروها ومراسلوها لنقل مجرياتها ووقائعها عبر الأثير.

بينما شرع إبراهيم بصحبة رفيقه عبد الرحمن في الصعود إلى المنصة الرئيسة التي ارتفعت هياكلها الخشبية بمحاذاة مبنى المحافظة، وفي موازاة ساعة المدينة. في هذه الأثناء، استقبلت ساحة العاصي عشرات الآلاف من المواطنين الذين قدموا من الأرياف بناءً على دعوة التنسيق، واستجابةً لطلب ضياء الذي طاف على قراهم وبلداتهم طوال أسبوع كامل.

بلغ طول الساحة المتكئة على ضفاف نهر العاصي أكثر من ثلاثة آلاف متر، فيما زاد عرضها عن مئتي متر؛ تفرعت منها عشرات الأزقة الضيقة، وتقاطعت معها الشوارع الرئيسة، واحتل قصر المحافظة ببنائه الفني الرفيع واجهتها الأمامية التي ابتدأت من موقع الساعة، وانتهت عند كورنيش العاصي.

في تمام الساعة الواحدة ظهرًا، وبعد انتهاء صلاة الجمعة التي أداها بعض المواطنين في ساحة العاصي، بينما أثر البعض الآخر تأديتها في مساجد المدينة، تدفق عشرات الآلاف من المتظاهرين الغاضبين إلى الساحة مفعمين بالأمل في إرغام النظام على

الرحيل، دون أن يمسه رعبٌ أو جزعٌ، بعد أن أسقطوا جبروته، وزلزلوا كيانه في الجمع السالفة.

فرغم شراسة القمع، وشهوة القتل التي أظهرتها ميليشيات النظام، إلا أن إرادة المتظاهرين اتحدت في هذا اليوم التاريخي حول مطلب واحد، ألا وهو رحيل رئيس النظام عن السلطة.

استمر تدفق المتظاهرين إلى ساحة العاصي، وبلغت أعدادهم في تمام الساعة الثانية ظهراً أكثر من خمسمائة ألف متظاهر.

انتشر المتظاهرون في الساحة، وتغلغلوا في أزقتها، واعتلوا أبنيتها الشاهقة، وبدوا في تراصهم كأموج البحر المتلاطمة.

رفع المتظاهرون الأعلام الوطنية، وكان العلم الذي التفوا حوله - حتى ذلك الحين - علم الوحدة مع مصر؛ ذو النجمتين الخضراوين، وهو نفس العلم الذي تبناه النظام لاحقاً، ورفعوا أيضاً اللافتات التي دونوا عليها مطالبهم المشروعة برحيل النظام، ومحاسبة أزماله المتورطين بدماء المتظاهرين.

كان النظام قد أوعز لضباط الأمن من رجال الشرطة والمخابرات بالانسحاب من مركز المدينة، وطالبهم بإخلاء جميع مقراتهم الأمنية، قبل يوم واحد من انطلاق المظاهرة المليونية الحاشدة، خوفاً من ردة فعل المتظاهرين الغاضبين، وانتقامهم لقتلهم الذين سقطوا برصاص ميليشيات الشبيحة قبل بضعة أيام.

تنفست مدينة حماة نسيم الحرية، واستعادت ألقتها العريق، وماضيها المجيد؛ اللذين بدا كاستعادة الأرض لخصوبتها بعد أن أصابها قحط شديد.

بدت حماة كما وردت في التوراة، حامية الثورة، وأحد أهم حصونها المنيعه التي حطمت جيروت الطغيان.

دثر الناشطون ساعة حماة باللافتات التي كتبوا عليها أقوى العبارات المنددة بجرائم النظام والتي كان منها:

«عاشت سوريا ويسقط بشار الأسد»

هاجت نفوس الجماهير وماجت بالغضب كالبراكين الثائرة، وصدحت حناجرها بالهتافات الحماسية التي دوت أصدائها في أرجاء سوريا كلها:

«الشعب يريد إسقاط النظام»

«الله سوريا حرة وبس»

هتف المتظاهرون نصرة للمدن الثائرة التي اقتحمتها ميليشيات الشبيحة، ونكلت في ثوارها بأبشع صور التنكيل، كما حدث لمدينتي حمص ودرعا:

«يا حمص نحن معك للموت»

«يا درعا نحن معك للموت»

كان النظام قد فرض على المدن الثائرة حصارًا خانقًا تحقيقًا لخطيته اللتين أعلنهما على رؤوس الأشهاد «الجوع أو الركوع» «الأسد أو نحرق البلد» وسارعت أجهزته الأمنية معززة بميليشيات الشبيحة لتنفيذهما بعنف مفرط.

هتف المتظاهرون الغاضبون ردًا على هاتين الخطتين بملء أشداقهم:

«هيه ويا الله، ومنصورين بعون الله .. هيه ويا الله،

وما منركع إلا لـ الله»

استمر المتظاهرون المحتشدون في ترديد هتافاتهم الصاخبة إلى أن ولج السفير الأميركي روبرت فورد إلى موقع المنصة الرئيسة، برفقة زميله الفرنسي أيريك شوفالييه. كان دخول السفيرين إلى موقع المظاهرة مفاجئًا ولم يتوقعه أحد قط، بما فيه النظام الذي أعرب عن دهشته واستنكاره الشديدين لزيارتها المباغتة لمدينة حماة، ولم يخف انزعاجه من وقوفهما بين صفوف الثوار والناشطين؛ الذين وصفهم بالمجموعات الإرهابية المسلحة، والعصابات المندسة.

في هذه الأثناء، وبمبادرة إنسانية لافتة، أحضر الناشطون أكاليل الورد، وأطواق الياسمين، وقدموهما للسفيرين تعبيرًا عن شكرهم العميق لزيارتها المفاجئة لمدينة حماة، وتقديرًا لمشاعرهما النبيلة التي أظهرت تعاطفًا كبيرًا مع الثورة، وأبدت احترامًا متعاطفًا لطلاب الحرية والكرامة.

كان هدف السفيرين الأجبيين من زيارتهما المباغته، التأكد من نوايا المتظاهرين والتحقق من سلمية الاحتجاجات، وكانا على يقين من ذلك، عندما ولجا أرض الساحة دون أن يقيما أي اعتبار لأمنهما الشخصي، ويتحسبا من أي مخاطر أمنية محقة. دعا عبد الرحمن السفيرين للقاء كلمة أمام حشود المتظاهرين المتجمهرين، لكنهما أثرا الاستماع والمشاهدة فقط دون الخوض في أحاديث جانبية مع أحد.

في هذه الأثناء، اجتذب إبراهيم المذيع الصوتي، وحيا الجماهير الثائرة بتحية حب وإجلال، وطفق في إنشاد أغنيته التي أسرت ألبانها، وسحرت كلماتها قلوب المتظاهرين؛ الذين شرعوا في ترديدها معه.

افتتح إبراهيم أغنيته بالاستهزاء من خطاب رئيس النظام في جامعة دمشق؛ الذي حقر فيه من قيمة الشعب السوري عندما نعته بالجرائيم:

«يا بشار، ويا جرثومة أقوالك مانا مفهومه،

أخبارك أخبار البومة، ويا ارحل يا بشار»

رددت الجماهير بصوت واحد:

«ويا ارحل يا بشار»

هزا إبراهيم من حاشية النظام، ممثلة بعائلة الأسد التي سيطرت على مقدرات البلاد لأكثر من أربعة عقود؛ قائلاً بحماس:

«لسه كل فترة حرامي، شاليش وماهر ورامي،

سرقوا اخواتي وأعمامي، ويا ارحل يا بشار»

«ويا ارحل يا بشار»

كان النظام قد لجأ إلى تسيير المسيرات المؤيدة من حين لآخر، وأجبر الموظفين والطلاب والجنود على الخروج فيها، تحت طائلة التهديد بالطرده من العمل أو الفصل من الدراسة.

وبنح إبراهيم النظام وجهوره الموالي، قائلاً لهم بسخرية:

«يا بشار طز فيك، و طز يلي بيحييك،

والله ما رح طَلَع فيك، ويلا ارحل يا بشار»

«ويلا ارحل يا بشار»

رغم سلمية المظاهرات، إلا أن السخط والغضب الشديدين اللذين عبرت عنهما الجماهير الثائرة، جراء ارتكاب ميليشيات الشبيحة للمجازر الوحشية ضد المتظاهرين العزل، دفعت إبراهيم لتذكير النظام بماضيه الدموي الذي دمر فيه مدينته حماة في مطلع ثمانينات القرن الماضي، وهو جرح غائر في وجدان الأحياء.
أنشد إبراهيم مكملًا:

«و يا بشار حاجي تدور، دمك في حماه مهذور،

وخطئك مانوا مغفور، ويلا ارحل يا بشار»

«ويلا ارحل يا بشار»

ومنذ انطلاق الاحتجاجات في محافظة درعا، دأب إعلام النظام على إشاعة الأخبار المغرضة بغية التشويش على الرأي العام، وحرف انتباهه عن حقيقة الأوضاع القائمة على الأرض، وتحقيقًا لذلك الهدف، اتهم الثوار أنهم شلل من المندسين، دون أن يملك تفسيرًا كاملاً لماهيتهم.

هزأ إبراهيم بروحه المرححة من اتهامات النظام ورماه في نفس التهمة بطريقة ساخرة:

«ويا بشار ويا مندس، تضرب أنت وحزب البعث،

روح صلح حرف الاس، ويلا ارحل يا بشار»

«ويلا ارحل يا بشار»

كان رئيس النظام قد ألقى سلسلة من الخطب العصماء، ومن أشهرها خطابه الثالث الذي ألقاه في مطلع شهر يونيو على مدرجات جامعة دمشق، واتهم فيه الثورة السورية بأنها مؤامرة كونية مذبذبة سعت بكل قوة لاقتلاع نظامه «الصامد والممانع في وجه الأعداء».

هزأ إبراهيم من خطاب رئيس النظام، وذكره بمطالب الشعب في الحرية والكرامة قائلاً:

«يا بشار ويا كذاب، تضرب أنت وهذا الخطاب،

الحرية صارت على الباب، ويلا ارحل يا بشار»

«ويلا ارحل يا بشار»

أسقط إبراهيم أوراق التوت التي ستر فيها النظام عورته، وأعلن سقوط شريعته الزائفة أمام الجماهير الثائرة:

«يا بشار مالك منا خود ماهر وارحل عنا،

وكل شرعتك سقطت عنا، ويلا ارحل يا بشار»

«ويلا ارحل يا بشار»

واصل إبراهيم هجائه الصاخب، مذكراً النظام بدماء المتظاهرين السلميين؛ الذين قضوا برصاص ميليشيات الشيحة وأجهزة الأمن والمخابرات:

«يا بشار ويا خسيس، دم الشهداء مانوا رخيص،

ضرب غراضك بالكيس، ويلا ارحل يا بشار»

«ويلا ارحل يا بشار»

خلال شهر يونيو، وبعد أن نجحت المظاهرات الحاشدة في حشر النظام في عنق الزجاجة، دعا رئيسه إلى عقد سلسلة من الحوارات الوطنية مع وجهاء المدن السورية، تحت رعاية وإشراف الأجهزة الأمنية، بغية ابتزاز المواطنين، ودفعهم للتنازل عن مبادئ الثورة، والتفريط بدماء أبنائهم الذين قضوا نحبهم في ساحات التظاهر، وإعادة عقارب الساعة إلى ما كانت عليه قبل بدء الاحتجاجات.

أنشد إبراهيم معلقاً بصوت جهور:

«يا بشار ويا ملعون، مفكر علينا بتمون،

دم الشهداء ما بنخون، ويلا ارحل يا بشار»

«ويلا ارحل يا بشار»

في هذه الأثناء، وقبل أن يترجل إبراهيم عن المنصة عبّر عن حنقه وسخطه الشديدين من رئيس النظام، وكال له اللعنات كما يكيلها المتدينين لإبليس، ثم أنشد

قائلاً:

«يا بشار ويا خسيس، أنت ألعن من إبليس، ويلا ارحل بشار»
«ويلا ارحل يا بشار»

واصل المتظاهرون احتشادهم في ساحة العاصي حتى ساعة متأخرة من مساء يوم الجمعة؛ الذي بدا من أحمر أيام الثورة، وأشدّها سعيًا.
في ذلك اليوم العاصف تهاوت أقنعة النظام، وظهر وجهه الأمني على حقيقته، وقال الشعب السوري ما عجز عن قوله على مدار أربعين عامًا، وفعل لأجل استرداد حريته وكرامته، ما لم تفعله ثورات العالم أجمع، وظلت أصدااء هتافاته الهادرة، وأناشيده المرحّة تدوي عاليًا في السماء، فيما راحت الأجيال تلهج حروفها العذبة جيلًا بعد آخر، وأنشأت تقول للقاصي والداني: عبثًا تحاول لا فناء لثائر .. أنا كالقيامة ذات يوم آتٍ.

الفهرس

5		- الجزء الأول
163		- الجزء الثاني
241		- الجزء الثالث
271		- الجزء الرابع
385		- الجزء الخامس